

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد لمين دباغين سطيف -2-

قسم التاريخ والآثار

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

الرقم التسلسلي

رقم التسجيل:

القبيلة والسلطة في الجزائر القرن 19

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (د.م.د) في التاريخ الاجتماعي للجزائر في الفترة الحديثة والمعاصرة.

إشراف الأستاذ الدكتور:

فارس كعوان

إعداد الطالب:

عبد الغفور نصر الدين

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	جامعة الانتساب
سفيان لوصيف	أستاذ	رئيسا	جامعة سطيف 2
فارس كعوان	أستاذ	مشرفا ومقررا	جامعة سطيف 2
لخضر بوطبة	أستاذ محاضر أ	عضوا ممتحنا	جامعة سطيف 2
كمال بيرم	أستاذ	عضوا ممتحنا	جامعة المسيلة
صبرينة الواعر	أستاذة محاضرة أ	عضوا ممتحنا	المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة

السنة الجامعية: 2021/2020

بسم الله الرحمن الرحيم

" إني رأيت ما كتب أحدهم في يومه كتابا إلا قال في غده لو غيرت هذا لكان أحسن، ولو زيد ذلك لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك ذلك لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر "

القاضي عبد الرحيم البيساني (ت 1200م)

الإهداء

إلى روح أبي الطاهرة رحمة الله عليه

إلى أُمي الغالية التي دفعت النفس والنفيس في سبيل تربيتنا وتعليمنا

إلى كل أفراد عائلتي، خصوصا إخوتي: نجاة، وعبد المنعم، وبديس، ورحمة

أهدي لكم هذا العمل المتواضع.

عبد الغفور نصر الدين

الشكر والعرفان:

اللهم لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضا، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله الذي أنار لنا طريق العلم والمعرفة، ووفقنا لإنجاز هذا العمل.

وأنا أضع اللمسات الأخيرة على هذا البحث، لا يسعني المقام إلا أن أتوجه بخالص شكري وتقديري وامتناني للأستاذ الدكتور الفاضل "فارس كعوان" الذي أشرف على هذا العمل، لما قدمه لي من نصائح وتوجيهات أنارت لي الطريق البحث، كما لا يفوتني شكر الأستاذ الدكتور سفيان لوصيف لوقوفه معنا.

الشكر موصول أيضا للأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الذي شرفوني بموافقتهم لتثمين هذا العمل.

كما أتوجه بالشكر إلى كل عمال مديرية مسح الأراضي لولاية سطيف، لتسهيلهم مهمتي في الاطلاع على الأرشف الموجود في هذه المديرية ووفروا لي أجواء البحث العلمي، خصوصا لزهر ولطفي وفاتح بوكوشة، وكل العاملين هناك وعلى رأسهم السيد المدير.

كما أشكر الأستاذ صالح بعلي الذي اقتطع من وقته لتدقيق هذا العمل لغويا.

كما لا أنسى شكر كل من ساعدني من قريب أو بعيد في هذا العمل

لكم مني جزيل الشكر.

قائمة المختصرات:

1- بالعربية:

آر: وحدة قياس مساحة تساوي 100م²

س آر: وحدة قياس مساحة تساوي 10م²

ش. و. ن. ت: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

م. ج. ب. د. ت: المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية.

موفم: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

ه: هكتار: وحدة قياس مساحة تساوي 10 آلاف م²

2- بالفرنسية

ANEP : Association Nationale d'Édition et Publicité.

C : Centimes.

F : Frans.

I. A. I. G : Imprimerie des Arts et d'Industries Graphiques.

R.A : Revue Africaine.

R.H. M. C : Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine.

S. C : Sénatus-Consulte.

A. E.S C : Annales, Economies, Sociétés, et Civilisations.

PUF : Presses Universitaire de France.

مقدمة

اتفق المختصون والمهتمون أن الحضارات والدول مراحل وحقب من الصعود والأفول، وكل دولة إلا وممرت بفترات كانت هي المفصل في حياتها، في تقدمها وتراجعها، ولم يختلف الأمر عن هذا فيما يخص الجزائر، ولعل أهم مرحلة في تاريخ هذا البلد خلال الفترة الحديثة والمعاصرة، هو القرن التاسع عشر نظرا لما حمله من متغيرات كثيرة، قلبت كل ما هو متعارف عليه لفترة طويلة، خصوصا تعرضه للاستعمار الفرنسي عام 1830م الذي عمل على تغيير وجه الجزائر تغييرا جذريا.

فقبل هذه الفترة ولمدة طويلة، كان المجتمع الجزائري يتميز بحضور التنظيم القبلي في جميع مجالات الحياة، وكانت العلاقات القبلية هي التي تحدد وجه المجتمع ككل، وفي مقدمة تلك العلاقات نجد العلاقة بين القبيلة والسلطة، التي لا يمكن فهم المجتمع الجزائري دون الإلمام بها، خاصة إذا علمنا أن غالبية السكان في الجزائر خلال تلك الفترة مؤطرون بضوابط التنظيم القبلي والثقافة القبلية، فجلهم ينتمون إلى قبائل معينة، فنادرا ما نجد شخصا خارج هذا الإطار.

إن القبيلة الجزائرية باعتبارها سلطة محلية تسيير مجالا معيناً وتدافع عنه، دخلت في علاقة مع السلطة المركزية لتشابه المصالح والمهام والأدوار، ففي خلال العهد العثماني، نجد أن السلطة نظرت إلى القبيلة باعتبارها شريكا في المجال، وأدخلتها في منظومة موسعة مرتبطة بها، لذلك نجد عدة أنواع من القبائل المتحالفة والمخزنية والرعية والممتنعة، وكان أساس هذه التصنيف القرب والبعد من السلطة، وقد بقيت العلاقة هادئة مادام الطرفان التزما بما هو على عاتقهما، فالسلطة لم تكن تتدخل في شؤون القبائل كطريقة عيشها مادامت تحصل على مبتغاها من أموال الضرائب وطالما لم يחדش جدار الأمن، والقبائل لم تحاول الثوران على السلطة أو الخروج عن طاعتها في الغالب مادامت قادرة على توفير حاجياتها وتسيير شؤونها، ثم مع بداية القرن التاسع عشر بدا واضحا أن تلك العلاقة التي استمرت طوال ثلاث قرون بدأت تتآكل، خصوصا مع الإخلال بالالتزامات، فحدث هناك صراع ظهر في الثورات والانتفاضات التي قامت هنا وهناك، إلا أن تلك العلاقة بقيت صامدة في وجهها العام، وبقيت القبيلة حاضرة ومستمرة، رغم الصراع الذي كان سائدا.

ولكن في عام 1830، حدث أمر مفصلي في تاريخ الجزائر، وألقي بضلاله الكثيرة على العلاقة بين القبيلة والسلطة، قبل أن يلقيها على الجزائر ككل، حيث تمكن الاحتلال الفرنسي من هذه الأرض مما يعني سلطة مركزية جديدة بأهداف جديدة وباستراتيجية جديدة كذلك.

إن السلطة الجديدة رمت بثقلها على المجتمع القبلي، فغياب السلطة العثمانية التي رحلت بعد استسلام الداي، أصبح هذا المجتمع في مواجهة أحداث أكثر مما يمكنه الاحتمال، فهو بسيط في معيشتة وعلاقاته، ولم يسبق له التعامل مع موقف كهذا، لذلك اتجه المجتمع القبلي إلى الانكماش على الذات والتكور عليها مستعدا للمواجهة والدخول في صراع من نوع آخر، وهو صراع الوجود، خاصة لما بدأ الاستعمار من اللحظة الأولى يعيث بهذا التنظيم، ويستهدف أسس بقاءه المتمثلة بالدرجة الأولى في الأرض.

فخلال القرن التاسع عشر عملت السلطة الجديدة على تفكيك القبيلة الجزائرية متبعة في ذلك عدة إجراءات منها الإبادة الجماعية والضغط العسكري، واستحداث الحالة المدنية لتضييع النسب الذي يعد أمرا مهما في القبيلة، والاعتماد على بعض ممن كانوا مساعدين للسلطة التركية، ولكن أهم إجراء كان الاستحواذ على الأرض بغض النظر عن صفتها، لعلم السلطة الفرنسية أنه لا قبيلة بلا أرض، ولا مقاومة دون حضور القبيلة، فأخضعها لمختلف القوانين العقارية وصادرتها، فهي لم ترغب في مشاركة المجال كما فعل الأتراك من قبل بل أرادت تفكيكها والحفاظ على جدار أمنها من التحطم، وبدورها القبيلة حاولت الصمود والدفاع عن بقاءها في محاولة يائسة لذلك، فراحت تقاوم بمختلف الطرق كالمقاومة المسلحة والدخول في صف زعماء الثورات الشعبية والشكايات وسياسة الرفض.

ولم يختلف الأمر عما كان في منطقة سطيف التي كانت القبيلة ترسم معالمها، بصرف النظر عن خلفياتها التاريخية والعرقية وغط معيشتها، فقد دخلت قبائل المنطقة في علاقات متعددة مع الأتراك (فوجد قبائل مخزن ورعية وممتنعة ومتحالفة)، وكان كل صنف يلعب دورا في توازن العلاقة والحفاظ عليها وشكل الصراع نقطة أساسية، فالصراع لدى التنظيم القبلي سمة بارزة.

ومع قدوم السلطة الفرنسية للمنطقة والاستحواذ عليها، خاصة أنها منطقة تملك كل المقومات التي تجعل الآخرين يطمعون فيها، بدأت عملية التفكيك، وإعادة الهيكلة وفق ما يخدم منظور السلطة الجديدة، وما يوفر لها سبل الاستقرار.

ولكن لاختلال موازين القوى بين الطرفين (السلطة المركزية والقبيلة كسلطة محلية)، لم تكد تحل نهاية القرن التاسع عشر إلا وقد تفككت القبيلة كليا واختفت الكثير منها باختفاء أسس حياتها رغم استماتتها في البقاء ودخولها في صراع مرير، ولم يعد المجتمع الجزائري الذي بقي قبلها لفترة طويلة جدا سوى مجموعة من الأشخاص

ترتبط بينهم علاقات أخرى أقل تضامنا، فسنوات القرن التاسع عشر كانت على القبيلة ثقيلة جدا، ورغبة منا في الإحاطة بهذه العلاقة ودراسة تأثيراتها على الجزائر عموما ومنطقة سطيف على وجه الخصوص جاء عنوان دراستنا:

القبيلة والسلطة في الجزائر القرن 19 (قبائل منطقة سطيف نموذجا)

وجاء هذا العنوان لإيماننا أن التاريخ العام للبلد لا يكتب إلا عن طريق التاريخ المحلي، لذلك ارتأينا أن تكون هذه الدراسة خاصة بمنطقة محددة وهي منطقة سطيف، نحاول الإسقاط عليها فيما يخص العلاقة بين القبيلة والسلطة، خاصة وأن هذه المنطقة تقدم نموذجا متكامل الأركان لذلك، كما أن الدراسات قليلة حولها، فالدراسات الآن تتوجه هذا التوجه، الدراسات المحلية الضيقة المجال تماشيا مع التطور الذي عرفه علم التاريخ بظهور التاريخ الاجتماعي، رغم أن منطقة سطيف لا تظهر في العنوان، إلا أنها كانت المحور، والأمر الذي حال دون ذكرها هو عدم القدرة على إضافتها رغم أنها كانت هي الأساس للقوانين تمنع إضافة أي كلمة للعنوان، خاصة أننا لم نتمكن من العثور على الأرشيف إلا بعد السنة الثالثة.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يسلط الضوء على مرحلة حساسة من التاريخ الجزائري في الفترة الحديثة، مرحلة مفصلية تربط فترة سابقة بأخرى لاحقة، مرحلة التواجد العثماني الذي دام ثلاثة قرون دخلت خلالها القبيلة في علاقات محددة مع السلطة، ومرحلة الاحتلال الفرنسي التي دامت أكثر من قرن، مرحلة حدث فيها صدام عنيف -بما يحمله الصدام من أوجه متشعبة- قلب كل ما هو متعارف عليه، وفهم هذه المرحلة وما حدث للعلاقة بين السلطة والقبيلة فيها يؤسس لفهم كل جوانب تلك المرحلة، بل يمكننا من المراحل التي جاءت بعدها، فلا نأخذ جانبا إلا وجدنا من عوامل تكونه العلاقة بين القبيلة والسلطة.

إن فهم العلاقة بين القبيلة والسلطة في الجزائر بالطريقة الصحيحة يوصلنا إلى مرحلة جد متقدمة في فهم المجتمع الجزائري ككل، هذا الأخير الذي تميز بالانتشار الكبير للنظام القبلي كما ذكر المؤرخون، فنحن لا يمكن أن ننسى أن كل من القبيلة والسلطة تسعيان للسيطرة وتحاولان فرض الهيمنة، حتى ولو اختلفت الطريقة، فالقبيلة يستند حكمها على التأثير والإقناع، أما السلطة المركزية الفرنسية ومن قبلها السلطة العثمانية فهي تستند على

القهر، مهما كان نوعه (الحصول على الشرعية الدينية، والضغط العسكري، والحصار وغيرها)، حيث بقيت هاتين السلطتين بعيدتين عن جوهر المجتمع، واستمدتا مشروعيتها من قوة خارجية في العادة.

وبما أن المجال الجغرافي لا يحتمل سلطتين (السلطة المركزية والسلطة القبلية)، فإن الصدام بمراحله المختلفة يكون أمرا حتميا، فإشكالية العلاقة القبلية والسلطة في الجزائر تستدعي العودة إلى بنية المجتمع الجزائري واستنطاقها وتحليلها وتفسيرها لمعرفة نوع تلك العلاقة المتراوحة بين الطاعة والولاء والعصيان والتمرد.

كما أن التعرف على رد فعل القبيلة أمر في غاية الأهمية لتشكيل الصورة الكاملة حول طبيعة المقاومة، خاصة إذا عرفنا أن التنظيم القبلي بأبعاده المختلفة نابع من إحساس الأفراد بأهميته واستجابة لرغبتهم في الشعور بالانتماء ونبذهم للفردية، شعور يجعل كل محاولة لكسر هذا النظام في نظر الأفراد عملا عدوانيا، يستدعي جمع الطاقات الممكنة وتوظيفها قصد البقاء، فاستخدمت كل الوسائل من المقاومة المسلحة إلى تعزيز الثقافة الشعبية لمواجهة الخطر المهدد لاستمرار الجماعة.

أسباب اختيار الموضوع:

كان وراء اختيارنا للموضوع جملة من الأسباب الذاتية والموضوعية:

الأسباب الذاتية:

- حب الاطلاع والخوض في مواضيع متعلقة بالتنظيم القبلي، فطالما استرعت انتباهي هذه التنظيمات، بما لها من حضور وبما لها من قوة في رسم صورة المجتمعات الحديثة.

- التخصص: تخصصنا هو التاريخ الاجتماعي الذي يجعل التاريخ اللازم دراسته، هو ذلك التاريخ الذي يهتم بالنظم الاجتماعية، الذي يعالج قضايا المجتمع، وحياة الفلاحين والمهمشين وغيرها من القضايا التاريخية ذات البعد الاجتماعي.

- انتماؤنا إلى مجال الدراسة: فبحكم أننا من ولاية سطيف آثرنا أن تكون دراستنا تعالج محل إقامتنا ومعيشتنا، لمعرفة جزء من تاريخ المنطقة.

الأسباب الموضوعية:

- اعتقادنا أن هذا البحث سوف يسهم فضلا عن هدفه العلمي في استكشاف واحدة من أهم العلاقات في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، فهذه العلاقة سوف تحدد الكثير من اطر المجتمع الجزائري.
- الخوض في التاريخ الاجتماعي، هذا المجال البحثي الذي أضحى قبلة للكثير من الدارسين، تاريخ المهمشين وتاريخ من لا تاريخ لهم.
- اختيارنا سطيف كحالة للدراسة، جاء رغبة في الخوض في التاريخ المحلي الذي لا يزال لم يجد طريقه في مجال البحث.

- محاولة إثراء البحث التاريخي بدراسة خاصة، فسطيف تبقى رغم تاريخها العريق من المناطق التي لم تلق حظها من الدراسة، والدراسات حولها قليلة جدا، وربما سيتمكن هذا البحث من وضع لبنة في تاريخ هذه المنطقة وإرساء نوع من الاهتمام به.

الإشكالية:

- تستهدف هذه الدراسة محاولة فهم طبيعة العلاقة التي ربطت القبيلة بالسلطة المركزية في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، والأسس التي قامت عليها هذه العلاقة، في ظل سعي الطرفين لفرض منطق أحدهما على الآخر المتراوح بين الصمود من أجل التعايش والبقاء بالنسبة للقبيلة، وفرض الوجود بالنسبة للسلطة المركزية العثمانية ثم الفرنسية، وما شكلته الأرض من محور للصراع، متخذين من قبائل منطقة سطيف كحالة للدراسة.

وقد انطوت تحت هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة الفرعية كان أهمها:

- ما طبيعة التنظيم القبلي السائد في الجزائر؟ وما العناصر المتحركة فيه؟، وما المؤثرات والتأثيرات التي ارتبطت به؟
- ما نوعية العلاقة المتبادلة بين القبيلة في منطقة سطيف والسلطة المركزية؟، وما هو دور الأرض في تحديد جوهر هذه العلاقة؟

هل كان هناك توافق بين الطرفين وتعايش أم كان هناك حالة رفض؟، وإذا كان الرفض والصراع سيد الموقف، فما هي الآليات التي اعتمدت عليها السلطة في مواجهة القبيلة بمنطقة سطيف وإبقائها تحت السيطرة في العهد العثماني، ثم تفكيكها خلال الاحتلال الفرنسي، وكيف واجهت القبيلة تلك الآليات؟

ما التأثيرات التي خلفها الضغط الفرنسي، خاصة العقارية منها على القبائل الجزائرية عموما وعلى قبائل منطقة سطيف؟، وكيف انجرت سياسة الاستيطان سلبا على القبيلة وأدى إلى تفكيكها؟

هيكل الدراسة:

قصد الإلمام بالموضوع والإحاطة بمختلف جوانبه، جاءت الدراسة من خمسة فصول، كل فصل مكون هي على النحو التالي:

مقدمة: بينا فيها أهمية الدراسة وحدودها، وعرضنا فيها إشكالية العمل وهيكل الدراسة المتبع.

الفصل الأول: فصل تمهيدي تناولنا فيه بعض المفاهيم المتعلقة بالقبيلة والسلطة، فبينّا مفهوم القبيلة والأسس التي تقوم عليها، وأنواعها، كما بينا مظهر القبيلة الجزائرية، إضافة إلى دراسة السلطة وأنواعها، وأهمية وجود السلطة والعلاقة التي تربطها بالقبيلة والعوامل المتحكمة في ذلك خصوصا الأمن والاقتصاد.

الفصل الثاني: تناولنا فيه التعريف بمنطقة الدراسة (سطيف)، حيث قدمنا في المبحث الأول لمحة تاريخية وجغرافية عنها موضحين أنها كانت مأهولة منذ ما قبل التاريخ، وهي واحدة من أقدم المناطق التي فيها إشارات عن النشاط الإنساني، ثم عرجنا على مختلف الحقب الزمنية والحضارات التي تعاقبت عليها بداية من الاحتلال الروماني ثم الفتح الإسلامي وانضمام المنطقة للسلطة العثمانية التي قامت في الجزائر مطلع القرن السادس عشر، ثم قدمنا لمحة عن كل قبيلة من القبائل. محل الدراسة وهي 15 قبيلة، من حيث الحدود وعدد السكان والأصل، أما المبحث الثاني فقد جاء متناولا للجانب الاجتماعي والثقافي للمنطقة من حيث العلاقات القبلية والعادات والتقاليد ونمط المعيشة، والمدارس المنتشرة والأوقاف والزوايا وتأثير الطرق الصوفية، أما المبحث الثالث فتطرقنا فيه إلى الناحية الاقتصادية لهذه القبائل، كأنواع الأراضي ومنتجات التي تزرعها والمساحة المزروعة وتربية الحيوانات باعتبار أن الفلاحة وتربية المواشي هو النشاط الرئيسي الذي تعتمد عليه القبيلة في بقائها بالدرجة الأولى، رغم حضور الصناعة والتجارة.

الفصل الثالث: تناولنا فيه القبيلة والسلطة أواخر العهد العثماني، مبينين في المبحث الأول أنواع القبائل من منظور السلطة في الجزائر عموما وفي منطقة سطيف على وجه الخصوص والتي هي أربعة: القبائل المخزنية والرعية والممتنعة والمتحالفة وكيف عملت السلطة لإبقاء التوازن والتوافق بين جميع الأطراف بما يخدم المصلحة الخاصة، أما المبحث الثاني فقد جاء ليرز أهمية الضرائب في تحديد العلاقة بين الطرفين خصوصا أنها العلاقة الوحيدة تقريبا التي بقيت ثابتة بين الطرفين، أما المبحث الثالث فقد جاء ليوضح توتر العلاقة بين القبيلة والسلطة والعوامل التي أدت إلى ذلك أواخر العهد العثماني، وقيام الثورات والتمردات مثل ثورة ابن الأحرش التي كانت سطيف ضمن مجال انتشار هذه الثورة.

الفصل الرابع: تناولنا في المبحث الأول منه احتلال منطقة سطيف من قبل الاستعمار الفرنسي وزوال السلطة القديمة المتمثلة في الأتراك وقدم سلطنة جديدة باستراتيجية جديدة وأهداف جديدة، وبيننا نظرة السلطة الفرنسية للقبائل باعتبارها السلطة الوحيدة التي كانت قادرة على المقاومة، حيث حاولت السلطة الجديدة القضاء على القبائل الجزائرية وتفكيكها باتباع مختلف الأساليب كالإبادة الجماعية والتجويع وتخفيف مصادر العيش، ثم في المبحث الثاني قدمنا نموذجا لتفكيك الاستعمار للقبائل منطقة سطيف، مقدمين نموذجا ممثلا في قبيلة عامر التي كانت في عين العاصفة لسكانها في سهول سطيف التي تحتاجها السلطة الفرنسية لبدأ تركيز الاستيطان، مبينين مراحل ذلك التفكيك وإعادة البناء وفق ما يتماشى مع مصالح السلطة الفرنسية، وفي المبحث الثالث عرجنا على ذكر أساليب المقاومة التي تبنتها القبائل السطايفية، بداية بالمشاركة في المقاومات الشعبية كمقاومة الأمير عبد القادر والحاج محمد المقراني، والمقاومات التي قادها شيوخ وقبائل المنطقة بالتحالف فيما بينها كمقاومة مولاي محمد، هذا دون أن ننسى الأساليب الأخرى المعبرة عن الرفض كتقديم العرائض والشكاوي.

الفصل الخامس: تناولنا فيه عملية الاستيطان التي تبنتها السلطة الفرنسية في منطقة سطيف كآخر إجراء وخطوة للإجهاد على القبيلة فبعدما تمكنت السلطة من تفكيك القبيلة والقضاء على المقاومة تسنى لها البدء في العمل الاستيطاني وتركيز العنصر الأوربي لمنع أي محاولة قد تقوم بها القبائل لاستعادة وجودها، حيث بينا في المبحث الأول مختلف القوانين العقارية التي خضعت لها هذه المنطقة، لاسيما القانون المشيخي 22 أفريل 1863، والقانون المشيخي المصغر 1887، أما في المبحث الثاني فقد تطرقنا إلى السياسة الزراعية والمالية الفرنسية المتبعة في منطقة سطيف وفي الجزائر عموما وكيف كان تأثيرها على معيشة السكان وإلقتهم في دوامة الانهيار التي اتضحت وبانت أثناء الأزمة الفلاحية عام 1867، أما في المبحث الثالث فقد قدمنا نماذج عن المراكز

الاستيطانية التي تأسست في قلب أراضي القبائل السطايفية قصد منع أي اتحاد بين أجزاء القبيلة المفككة مرة أخرى وهما نموذجين: مراكز استيطانية أقامتها شركة جنيغواز التي استأثرت بغالبية مجال السهول الوسطى للمنطقة حيث توجد قبيلة عامر بفروعها، وأخرى أقامتها السلطة الفرنسية مباشرة كالمركز الاستيطاني عين أزال أو كما يسمى (كولبير) في جنوب المنطقة و المركز الاستيطاني تيزي نشار في شمالها، مبيين أسباب واستراتيجية التأسيس بالنظر الى موقع القبائل وأهميتها، وأنواعها ومدى التأثير الذي ستحدثه هذه المراكز.

خاتمة: جعلناها عبارة عن أهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها بعد هذه الدراسة.

كما ذيلنا هذا العمل بمجموعة من الملاحق قصد المزيد من الإيضاح، هذه الملاحق التي كانت من جملة الوثائق الأرشيفية التي اطلعنا عليها، وأنهينا هذا العمل بفهرس للأعلام وآخر لأسماء الأماكن.

الإطار الزمني والمكاني:

شملت فترة دراستنا من حيث الزمان القرن التاسع عشر، وهي فترة مهمة بما أنها شكلت فترة تحول عميق في التاريخ الجزائري، حيث خرجت من حقبة زمنية وأدخلتها في أخرى، وقُلبت فيه كل الموازين وكل ما كان متعارفا عليه وشكل لفترة طويلة واجهة المجتمع الجزائري.

فمن جهة شهدت نهاية الحكم العثماني في الجزائر، ليس هذا فقط بل شهدت اتساع الهوة بين الجزائريين والأتراك، حتى ظهرت الثنائية في الحكم في أعلى مستوياتها مع نهاية هذا العهد السابق فظهرت القبيلة في أعلى تجلياتها، حيث كان يبدو في الظاهر أن السلطة التركية من كان بيدها زمام الأمور، ولكن في الواقع، السلطة القبلية من كان بيدها مقاليد الحكم والتسيير الفعلي للمجتمع، وهنا نركز على المجتمع الريفي بالخصوص، فشهدت القبائل (جمع قبيلة)، تطورا ملحوظا واتساعا في السلطات أهلها لتلعب دورا رئيسيا في المرحلة اللاحقة من هذا القرن حين تحل سلطة الاحتلال.

ومن جهة أخرى شهدت الجزائر احتلالا فرنسيا وسلطة جديدة سعت إلى قلب كل الموازين داخل المجتمع الجزائري، وبما أن القبيلة هي من كانت تتحكم فعليا، فقد أهلها ذلك لتلعب دورا مهما في المرحلة اللاحقة وتكون الدرع الذي يحتمي به الفرد وتقيه آثار الصدمة الناتجة بعد اصطدامه بالسلطة الجديدة، وتسير المرحلة بما يضمن عدم تماهي المجتمع ككل في فلك الاستعمار الفرنسي، مما جعل هذه الفترة غنية بالأحداث التي تستدعي منا البحث والتنقيب.

ومن الناحية المكانية، فإن المجال الجغرافي محل الدراسة هي الجزائر كبلد بشكل عام مع التركيز على منطقة سطيف وذلك بدراسة قبائل هذه المنطقة، التي كانت في مواجهة مباشرة مع الاحتلال الفرنسي خاصة قوانينه العقارية، إيماننا منا أن تاريخ البلد ككل ينبع من معرفة تاريخ مناطقه المختلفة.

منهج الدراسة: إن نوعية الدراسة وتشعب مصادرها ومباحثها، استلزمت منا الاعتماد على منهج تاريخي متعدد الأوجه، وهي كالتالي:

المنهج التاريخي الوصفي: لوصف حال القبائل وإظهار العوامل المتحركة بها وعلاقتها بالسلطة، وسرد الأحداث التي وقعت وعرضها، وفي غيرها من الأماكن التي تستدعي الوصف.

المنهج التاريخي التحليلي: عرض الوقائع ومحاولة تقديم تفسير وتحليل للقضايا المطروحة، قصد فهم الموضوع أكثر وإنارة مختلف جوانبه.

الدراسات السابقة ومصادر البحث:

الدراسات السابقة: لم تلق منطقة سطيف خلال الفترة الحديثة حظها من الدراسة، وبقيت قبائلها وعلاقاتها غائبة عن الأعمال الأكاديمية، فعلى حد علمنا ليس هناك دراسات معمقة في هذا الجانب، فبعض القبائل وعلاقاتها ستبرز لأول مرة في هذا العمل المتواضع، ولكن هناك بعض الكتب والمقالات التي تحدثت عن هذه المنطقة، وأصحابها مشكورون جدا كونهم فتحوا نافذة على التاريخ المحلي الذي لا يزال دون الاهتمام المطلوب ومنهم الأستاذ لوصيف سفيان: كتاب **شيوخ العلم في منطقة عموشة، الإسهام الديني والوطني (1830-1962)**، الذي أبرز تاريخ المنطقة خصوصا عموشة، ومقالاته مثل مقال: **احتلال منطقة عموشة وتصاعد المقاومات الشعبية (1840-1920)**، وكتابات الأستاذ فارس كعوان المشرف على هذا العمل ومقالاته: **كمقال: منطقة سطيف في العهد العثماني : التقسيم الإداري والزعامات المحلية، والمنشور في المجلة البحوث التاريخية، ومقال: قضايا من التاريخ الاجتماعي والثقافي لمنطقة سطيف خلال القرن 19، المنشور في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، كما كان للأستاذ بيرم كمال إسهامات في هذا الجانب كمقاله: احتلال منطقة سطيف وتطور حركة الاستيطان الأوروبي بها بين سنتي (1838-1900)، المنشور في المجلة التاريخية الجزائرية، ورغم هذا إلا أن هذه المنطقة لا تزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات.**

مصادر البحث:

ككل عمل أكاديمي كان لا بد من الاستعانة بمجموعة من المصادر، لإنارة الزوايا المختلفة في محاولة لإعادة رسم حالة تلك الفترة. ولعل أهم ما اعتمدنا عليه كان:

رصيد أرشيف المديرية الجهوية لمسح الأراضي لسطيف، ويتكون من:

1- سجلات السيناتوس كونسيلت التي أُعدت أثناء عمليات التحديد والتقسيم تنفيذا لتطبيق قانون السيناتوس كونسيلت 22 أبريل 1863م، وعدد السجلات التي اعتمدنا عليها كان 15 سجلا كبيرا شملت معظم قبائل ولاية سطيف حاليا، أما السجلات الأخرى فلم نتمكن من الوصول إليها رغم السعي الحثيث في ذلك، وهذه السجلات مهمة تنتظر من يتصفحها ويستفيد مما فيها من معلومات، وهي لا تزال في حالة جيدة جدا، وتتكون هذه السجلات من شقين:

1.1- التقارير: إن الفهرس الذي وضعت عليه هذه التقارير مرتب كما يلي:

- نص القرار المتعلق بتحديد القبيلة ممضى من قبل الإمبراطور نابليون الثالث.
- ذكر لمحة عن تاريخ القبيلة من العهد الروماني مروراً بالعهد العربي الإسلامي بمختلف مراحل وصولاً إلى العهد العثماني ثم الفرنسي.
- إعطاء لمحة عن النشاط الاقتصادي للقبيلة من حيث الزراعة وتربية المواشي، والصناعة والحرف التقليدية والتجارة، والحالة الاجتماعية من حيث العادات والتقاليد وعلاقات القبائل فيما بينها، والمهجرات القبلية وعرق السكان ما بين عرب وبربر، والحالة الثقافية بإعطاء إحصاءات لعدد المساجد والمدارس وأماكن تواجدها، وعدد التلاميذ والوضعية التعليمية ككل.
- تحديد ملكية الأفراد من حيث المساحة ومكان التواجد والعقود المتوفرة ونوعية الملكية (أراضي عرش، وعزل، وملك ووقف)، وهذا في العادة يكون باللغتين الفرنسية والعربية مكتوبة بخط اليد وهو في بعض الأحيان غير مفهوم صعب القراءة، حيث يعد النسخة الفرنسية ضباط المكتب العربي والنسخة العربية يعدها اليهود المتعاونون معهم بسبب تمكنهم من اللغة، كما أن الفرنسيين لم يكونوا يثقون في العرب لإعداد مثل هذه التقارير.

- تحتوي السجلات على المعلومات الطبوغرافية والتضاريسية للقبائل، من حيث أماكن تواجد المياه والشبكة المائية كالأنهار وأسمائها والعيون ومدى تدفقها، إضافة إلى الغطاء النباتي والتضاريس كالجبال والبحيرات والسهول ونوعية التربة.

يرفق هذا التقرير في العادة بجدول إحصائية حول القبيلة متعلقة بعدد السكان ونوعيتهم (رجال نساء أطفال)، وعدد البيوت والخيام في كل قبيلة والثروة الحيوانية (بقر وثيران وأحصنة وبغال وغنم وماعز وخلايا النحل)، والضرائب التي تدفعها القبائل تنوعها ما بين لزمة وزكاة وعشور وسننيمات إضافية.

وتتخلل هذه الجداول بعض المعلومات المهمة التي تأتي في سياق الكلام على غرار أسماء الأفراد المشكلين لجماعات القبائل، وأسماء الشخصيات المحلية البارزة وبعض المراسلات، باختصار هذه السجلات تحتوي على معلومات كثيرة عن جوانب القبيلة.

2.1- الخرائط التوضيحية

تم إعداد خرائط لمجال كل قبيلة، إذ بعد الانتهاء من عملية التحديد تعد خريطة تفصيلية حول مجال القبيلة وتضاريسها ما بين سهول وجبال وغابات وإظهار أنواع أراضيها، وشبكاتها المائية كالأنهار والعيون ومدى تدفقها والآبار، وشبكة الطرق والمواصلات، والمرافق العامة، وأماكن تواجد المساجد والمدارس والمقابر وغيرها من المعلومات التي تحملها الخرائط عادة، وحسب اطلاعنا فإن هذه الخرائط جاءت على قدر كبير من الإتقان.

2- تقارير إنشاء المراكز الاستيطانية:

حيث أعدت تقارير تحتوي جداول للأشخاص الذين سكنوا فيها ومقدار ما تحصلوا عليه من أراضي، وأماكن تواجدها، كما حددت التقارير مختلف الأملاك فيها على غرار أملاك الدومين والبلدية ومصالح الغابات، وأرفق كل تقرير بخريطة للمركز.

كما اعتمدنا على مجموع من المصادر والمراجع المتنوعة التي سدت مختلف ثغرات هذا البحث وقد حاولنا جعلها متنوعة قدر الإمكان، ففي الفصل الأول اعتمدنا على مجموعة من الكتب التي تنطرق إلى المفاهيم التي نحتاجها للإحاطة بهذا الموضوع، منها: المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون، وكتاب القبيلة، الإقطاع والمخزن للهادي الهروي، وكتاب زمن القبيلة والسلطة وتدير العنف في الصحراء، وكتاب القبائل في مواجهة الدول

لموريس غودلييه، وفي الفصل الثاني اعتمدنا على مجموعة من الكتب نذكر منها: كتاب تاريخ ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن ابن خلدون لاسيما الجزئين السادس والسابع، وكتاب شارل فيرو: **histoire des villes de la province de Constantine**، في جزئه الذي خصصه لمنطقة سطيف، حيث احتوى معلومات قيمة خصوصا حول عامر وريغة، وربما شارل فيرو استقاهما من السجلات السالفة الذكر، كما اعتمدنا على كتب ناصر الدين سعيدوني باعتبارها تتطرق كثيرا للجانب الاقتصادي للجزائر على غرار كتاب النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني، أما الفصل الثالث: فنذكر: كتاب نزهة الأنظار للورثاني، وكتاب فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها للعنزي، وكتاب الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق لجميلة معاشي وكتاب: **le Royaume d'Alger sous les dernier Day**، للويس رين، ومن الكتب التي اعتمدنا عليها في انجاز الفصل الرابع، نذكر كتاب: الاستعمار الإبادة لأوليفي لوكور غرانيزون، وكتب يحي بوعزيز، على غرار كتاب موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، أما الفصل الخامس اعتمدنا على كتاب: عدة بن داهة: الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، وكتاب **Notice sur la propriété foncière en Algérie** للآينود، وغيرها من الكتب التي لا يسع المقام لذكرها.

صعوبات البحث: لقد واجهتنا مجموعة من الصعوبات التي لم تكن من عزيمتنا في إكمال العمل والخوض فيه، ومن جملة الصعوبات:

- عدم وجود دراسات كافية حول منطقة سطيف في هذا الجانب تكون لنا قاعدة لبناء بحثنا، فما هو متاح منها قليل، فمنطقة سطيف كما قلنا لم نل بعد حقها من الدراسة، وأغلب ما كتب عنها لا يخرج عن إطار الحركة الوطنية ومظاهرات 8 ماي 1945 وتاريخ الثورة.

- صعوبة الوصول إلى هذه السجلات المهمة التي لولاها ما تمكنا من الانطلاق في البحث أصلا، حيث استغرق الاطلاع عليها وقتا طويلا وتطلب منا الانتظار كثيرا.

- صعوبة قراءة هذه السجلات، فإن كان بعضها مرتبة ومكتوبة بخط فرنسي جميل، إلا أن بعضها الآخر كان صعب القراءة، كونها مكتوبة بخط اليد وبالريشة والكتابة غير واضحة يتطلب قراءة صفحة واحدة جهدا مضنيا.

- كنا نتمنى الذهاب إلى فرنسا والاطلاع على مزيد من الأرشيف فيما يخص هذه المنطقة لتكون الدراسة أكثر عمقا، إلا أن هذا الأمر لم يتحقق لأسباب عدة أبرزها قلة المال اللازم للسفر.

وفي الأخير نتمنى أن يكون هذا العمل إضافة لحقل البحث التاريخي.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول: مدخل مفاهيمي إلى القبيلة والسلطة

المبحث الأول: القبيلة والتنظيم القبلي

المبحث الثاني: السلطة وعلاقتها بالتنظيم القبلي

سنقوم في هذا الفصل بالتطرق إلى بعض المفاهيم التي تركز عليها الدراسة وذلك بدراسة القبيلة، مفهومها ودلالاتها والتنظيم الذي كانت عليه بوجود شيخ يديرها وجماعة تسهر على توجيهها، وسنتطرق إلى القبيلة الجزائرية بشكل عام من حيث التسمية والعوامل المتحركة فيها، وأنواعها، كما سنخوض في السلطة ومقوماتها والأسس التي تركز عليها، والأهم من هذا هو تحديد العلاقة التي تربط القبيلة بالسلطة وعلى ماذا تستند هذه العلاقة.

المبحث الأول: القبيلة والتنظيم القبلي:

يشير ابن خلدون أن الإنسان مدني بطبعه، واجتماعه مع الآخرين ضروري قصد تأمين مختلف الحاجيات التي تتطلبها معيشتة، والتي هو في أمس الحاجة إليها، فلضعفه يعد عاجزا على تحصيل كل ما يريد بنفسه، لذلك واستنادا إلى فطرته المحفزة على التجمع، هيكل نفسه ضمن نظام ونمط يسير به حياته، فنراه فردا من مختلف التجمعات البشرية، فهو عضو في أسرة كبيرة كانت أو صغيرة، وعضو في القبيلة، هذه الأخيرة شكلت وجه المجتمع الإنساني لفترة طويلة من الزمن، وفي إطارها كان يخضع لسلطة وضبط وعادات وتقاليد¹.

1-تعريف القبيلة:

1-1- لغة: تعرف القبيلة على أنها بنو الأب الواحد، فيرى الزجاج أن القبيلة مشتقة من قبائل الشجر، أو أغصانها، والقبيلة جماعة من الناس، يكونون من الثلاثة فصاعدا، من أي قوم، كالعرب والزنوج والروم، ويرى الكلبي أنه من حيث التفرع، فإن القبيلة تأتي كجماعة إنسانية في المركز الثاني، فحسبه فإن الترتيب يكون كما يلي: الشعب ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن ثم الفخذ²، ويوافقه في هذا القلقشندي، ولكن بزيادة الفصيلة بعد الفخذ³.

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، ص 52.

² - ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله الزكي وآخرون، دار المعارف المصرية، مصر، (د.ت)، مادة " قبل"، ص 3519.

³ - أبو العباس أحمد القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الأبياري، (دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبنانية)، (القاهرة، بيروت)، ط3، 1982، ص 14.

أما النويري، فيتبع طريقة أخرى في ترتيب القبيلة، إذ يجعلها في المركز الرابع، فيبدأ بالجدم، ثم الجمهور، ثم الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم العشيرة، ثم الفصيلة، ثم الرهط، قائلا إن القبيلة سميت بهذا الاسم لتقابل بعضها بعضا، واستوائها في العدد¹، والجدول التالي يبين الترتيب:

الجدم	الجمهور	الشعب	القبيلة	العمارة	البطن	الفخذ	العشيرة	الفصيلة	الرهط
Race	Ethnie	Peuple	Tribu	Fraction	Sous_ fraction	Segment	Clan	Lignage	Famille

الشكل رقم 01: جدول يمثل التقسيمات التي اصطلح عليها العرب في تقسيم المجتمعات البشرية.

وبالموازاة مع هذا التقسيم، وبحكم أننا ندرس القبيلة الجزائرية المتعددة المشارب، فإننا نجد عند البربر أو سكان زواوة تقسيما اجتماعيا أقل تعقيدا، إذ تمثل القرية (ندارث) الوحدة السياسية والإدارية الأساسية، وهي كيان له حياته الخاصة واستقلاليتها، وقرتين أو ثلاث يمكن لها أن تتحد لأغراض دفاعية بالأساس، واتحاد هذه القرى -خصوصا إذا اشتركت في النسب- تسمى ثوفيق، أو ثافة، وتنقسم القرية إلى ثلاث درجات، أذروم جمعه إذرومن، وتعني جماعة من الأفراد المنحدرين من الجد والأب نفسه، الذي ينحدر بدوره من الجد الأعلى المشترك، فمثلا إذا كان الجد اسمه أحمد، ولديه مجموعة من الأولاد (سليمان، ويحيى، والسعيد)، سنجد أذروم المنحدر من السعيد، وأذروم سليمان، وأذروم يحيى، كما نجد تعريف جمعتها تعريفين، وهي كلمة مشتقة من العربية، وتعني التعرف، وتعريف تتكون من مجموعة من إذرومن، وتخروث مشتقة من شجرة الخروب، بدورها تتشكل من عدة تعريفين، وتبقى العائلة أصغر وحدة وأقواها، حيث تعتبر العائلة وحدة اجتماعية حقيقية، ليس لأن الفرد الذي يعيش وحده معزولا حالة استثنائية، بل لأن الفرد يبقى متحدا بأقاربه من خلال روابط هي من القوة، حيث التضامن إلى درجة يشكل معهم جسما واحدا².

1-2-اصطلاحا: يعد مصطلح القبيلة من المصطلحات الشائكة التي وضعت الباحثين أمام الكثير من

العقبات، ذلك أنه تنقسمه عدة علوم، وخاض فيه مختلف أهل الاختصاص، كعلماء الاجتماع والتاريخ والأنثروبولوجيا، ونذكر هنا مجموعة من التعريفات:

¹ - شهاب الدين النويري، حماية الإرث في فنون الأدب، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص 296-303.

² - أ. هانتوتو، وأ. لوتورنو: منطقة القبائل والأعراف القبلية، ج2، تر: مخلوف عبد الحميد، دار الأمل، الجزائر، 2013، ص 3-9.

- القبيلة: هي اعتقاد مجموعة من الناس بانتمائهم إلى جد واحد أعلى مشترك، انتماء يميزهم عن بقية المجموعات الأخرى المماثلة، بحيث تكون العلاقات بين الطرفين علاقات تعرض وتنافس في الغالب، وهو ما يسمى بالصراع القبلي، وفي هذا التعريف، يعتمد محمد عابد الجابري، أكثر في التمييز بين القبائل، على الصراع الذي يحدث بينها، بحيث تكون نقاط التماس قليلة بين المجموعات القبلية، مدفوعا بالتنافس على البقاء وعدم الاندثار¹.

ويرى الجابري أيضا أن القبيلة ظاهرة سيكولوجية تكون شعورية ولا شعورية، يرتبط هذا بالإحساس والمواقف التي يكون فيها الأفراد المنتمين لها، فيلتحمون بها في أوقات معينة ويشعرون بانتمائهم إليها، ويتناسون أنهم مرتبطون في أوقات أخرى حسب الظروف، فيقوى شعور الانتماء مثلا عند الإحساس بخطر خارجي يهدد وجودهم أو التأهب للمدافعة والقتال، وفي أوقات السلم يتناسى الأفراد هذا الانتماء، فيختفي ويتوارى، ولكنه لا يزول، فحالة الاطمئنان على سلامة القبيلة ووجودها له دور في هذا².

أما علماء الأنثروبولوجيا ورغم عدم التفاهم حول تعريف محدد للقبيلة إلا أنهم يتفقون على ثلاث أسس يجب توفرها لإطلاق تسمية قبيلة على تجمع بشري، وهي:

- مصطلح القبيلة يدل على التجمعات السكانية المنتشرة في بقعة جغرافية معينة والتي تعتقد بانحدارها من جد أعلى مشترك، فالأصل هو ما يمكن من تمييز المجموعات والأفراد وتصنيفهم، ولا يمكن إطلاق هذه التسمية على فرد واحد، أو على سكان لا يرتبطون ببقعة جغرافية معينة ومحددة³.

- هي كيان ذو ثقافة معينة تتداول لغة واحدة محددة، ولها نظام من الرموز والمعاني تعزز بها ولها ذكريات وأساطير خاصة بها تحكي أجدادها، مكتوبة كانت أو شفوية، ولها أحساب وأنساب يحفظها الصغير عن الكبير فالقبيلة ثروة مشتركة بين أفرادها المنتسبون إليها، وهي أيضا مجموعة من العادات والتقاليد والأعراف التي تساهم في تكوين الأفراد، وهو أمر في غاية الأهمية، لأنها تعمل على تنشئة الأطفال وإعدادهم ليكونوا حماة للقبيلة عندما يكبرون.

¹ - محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته، ط4، بيروت، لبنان، 2000، ص 231.

² - عبد الله النوعي: سيكولوجيا البنية القبلية: دراسة نظرية، مجلة العلوم الاجتماعية، م7، جامعة الأغواط، الجزائر، ص 168.

³ - يزيد بن هونان: القبيلة كأفق سياسي في الجزائر، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع15، مج4، 2016، ص 46.

- كيان سياسي يكتسب خصوصية في امتلاكه نوعا من النظام السياسي ولو كان بدائيا وعفويا، لا يتعدى بعض الأفراد في التسيير (الشيخ والجماعة)، ويتولد عن هذه الخصوصية عنها تفاعلات أخرى كامتلاك الحدود الإقليمية، وآليات تنظيمية، تمكنه من احتواء النزاعات والصدامات الداخلية والخارجية خاصة هذه الأخيرة التي تمثل ما يعرف بالخطر الخارجي¹.

وتجدر الإشارة إلى أنه في حالة القبيلة المغاربية فإن بعض الباحثين -وبعد دراسة مستفيضة- يرون أنه قد حدث هناك خلط واستخدام فوضوي للمفهوم، واختلف التوظيف من باحث إلى آخر لاعتبارات عدة، ولعل التعريف الأقرب والأبسط الذي لم يتأثر بأي عوامل هو ما جاء عند بيبير بوانت: " مجموعة من السكان تجمع بينهم علاقات قرابة دموية حقيقية أو وهمية، ذات استحقاقات متعددة، ويعيشون متجاورين، يتكلمون اللغة نفسها، ويشترون في ملكية العناصر الأساسية للإنتاج (الماء والمرعى والأمن)، بغض النظر عن تنقلهم في الفضاء (المجال) من عدمه، ويمارسون عادات وتقاليد ثقافية ملزمة تجسد الانتماء والاتحاد وتقويهما، ويتشبثون بفكرة العدالة والمساواة، بين الجميع رغم أن ذلك لم يمنع من وجود هرمية اجتماعية داخلية، ولا يعرفون تمركزا داخليا للسلطة يولد المؤسسات البيروقراطية القهرية، ويدبرون شؤونهم الجماعية عبر مؤسسات محلية باستقلال نسبي أو كامل بحسب الانتهاء إلى منظومة سياسية أشمل مركزها الدولة"².

وهذا التعريف هو الأقرب من حيث الإلمام بالقبيلة المغاربية عموما والجزائرية على وجه الخصوص، أما مرد تشعب التعاريف وخلطها، فكان نتيجة العديد من العوامل أهمها: الاستعمار وأهدافه وتنوع مشارب المهتمين بالحياة القبيلة المغاربية، وتأثرهم بمختلف المدارس التي يمثلونها.

وتتكون القبيلة من أسر وأفخاذ وعائلات، كل هذا يكون بتدرج هرمي، يعيش أفرادها مع بعضهم البعض في حلهم وترحالهم، تتميز بروج الجماعة، حيث كل فرد يؤدي دورا مكتملا للآخر مما ينتج عنه إلغاء مفهوم الفرد ليحل محله مفهوم الجماعة، فالفرد يعتبر عضوا ثابتا فيها لا يتمتع بالاستقلالية التي تخول له فعل ما يريد، فليس له القدرة على التغريد خارج ما تمليه عليه القبيلة وسلطانها، والأمر هنا لا يتعلق بالقدرة على التمسك

¹ - الهادي الهروي: القبيلة، الإقطاع والمخزن، مقارنة سوسيولوجيا، للمجتمع المغربي الحديث (1844-1934)، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص 49.

² - المولدي الأحمر: نحو استعادة المشاهدة من دون حجاب القبيلة، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع15، مج4، 2016، ص 116-117.

بالفردية، فهي مع توفرها لا يفعل ذلك لاعتبارات عدة، كالخوف والشرف والإحساس بالانتماء، والابتعاد عن النبذ ويلعب الضبط الاجتماعي دورا لا يستهان به في كل هذا¹.

وأما من الناحية الديمغرافية فلا يمكن تقديم إحصائيات دقيقة عن القبائل، وتتبع عدد سكانها من الصعوبة بمكان، فقد يتراوح من عدة مئات إلى عدة آلاف، ذلك أن التطور الديموغرافي تتحكم فيه العديد من العوامل، كالحروب والنزاعات التي قد تقضي على قبائل بأكملها وتبيدها، أو التعرض للأزمات الاجتماعية كالجاعات والأوبئة كالطاعون الذي قد يفتك بالكثير، أو التلاحمات القبلية والإلحاق أو المرور بحالات الرخاء والازدهار والاستقرار وكلها عوامل قد تضيف عناصر كثيرة للقبيلة أو تفقدها إياها في فترة وجيزة من الزمن.

2-لمحة عن القبيلة الجزائرية:

تجدر الإشارة إلى أنه في الجزائر خلال الفترة الحديثة لم يكن يستخدم مصطلح القبيلة إلا في نطاق ضيق، فهو ينحصر لدى البعض فقط، ولم يشهد هذا المصطلح الاستخدام الواسع إلا مع بداية الاستعمار الفرنسي، وإنما ما كان مستخدما بكثرة هو مصطلح "العرش" كدلالة على القبيلة، كما استخدم مصطلح النجع أو النجوع كذلك، وربما هذه الكلمة مشتقة من النجع، وهي كلمة عربية تعني حسب ما هو وارد في معجم لسان العرب، المكان الذي تقصده القبيلة من أجل الرعي والحصول على الكأ لقطعانها ويكون عادة في فصل الربيع حيث يتتبعون الكأ والماء²، حيث ذكرته بعض القصائد الشعبية التي أرخت لهذه الفترة.

وتجمع الكتابات التاريخية أن غالبية المجتمع الجزائري ريفي تشكل القبيلة أبرز سماته الاجتماعية، أما الحضر أو المدينة فوجودها ضعيف وقاطنيها قلة، فلا تتعدى نسبتهم في مجموع السكان 5-10 % في حين أن النسبة الباقية تستحوذ عليها الحياة الريفية³، وليس هذا من قبيل الصدفة، وإنما يرجع إلى طبيعة الريف، الذي يتميز بعدة ميزات تجعله المكان الأنسب لاستقرار القبيلة، أهمها: تفاعل الإنسان مع الطبيعة تفاعلا مباشرا ووثيقا نتيجة طغيان العمل الفلاحي وغلبته، وهذا العمل يحتاج إلى مجهود جماعي يشارك فيه كل أفراد العائلة، مما يؤدي إلى نتيجة أخرى مفادها أن المجتمع الريفي تهيمن عليه العلاقات الوثيقة المرتبطة والمتداخلة تداخلا وثيقا مع روابط

¹ - مصطفى صلاح الفوال: البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية، دار الفكر العربي، مصر، 1983، ص 92.

² - ابن منظور، لسان العرب، مادة "نَجْع".

³ - عدي الهواري: الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830-1960)، تر: جوزيف عبد الله، دار الحداثة،

ط1، بيروت، 1983، ص 58.

القراية القوية سواء الدموية أو بالمصاهرة، فكل واحد منهم يعرف الآخر، وهو ما ينمي التضامن بينهم، هذا الأخير الذي يعد عنصرا أساسيا في القبيلة كما سنرى¹.

هذا الترابط يكون في وحدة أكبر هي القبيلة، فالريف كإطار جغرافي تنقسمه العديد من القبائل، وهي كثيرة ومتنوعة، فيقر أغلب الباحثين أن الحياة الريفية تتحدد بالقبيلة والعلاقات القبلية، والقبيلة هي الخلية الأساسية للحياة الريفية².

ويؤيد هذا الهادي الهروي الذي يعتبر القبيلة الوحدة الأساسية الوحيدة في المجتمع البدوي خاصة في المناطق الجبلية، حيث كان الشغل الشاغل لها إيجاد السبل الكفيلة بالبقاء مستقلة وموحدة كهدف مباشر، ومواجهة السلطة المركزية كهدف بعيد غير مباشر³.

وتتكون القبيلة الجزائرية خلال الفترة الحديثة، وحتى القرن التاسع عشر -وهو القرن الذي سيشهد اختفاء غالبية القبائل-، كما يذكر المؤرخون من مجموعة من العائلات الريفية ذات الصلات القراية الوثيقة، يتم التمييز فيما بينها بأسماء، قد تكون مشتقة من المناطق التي تسكنها، أو أسماء الأجداد الذين تنحدر منها أو أسماء أخرى، حيث تسكن هذه العائلات الخيام أو المنازل البسيطة، أين يتشارك الإنسان المكان رفقة مواشيه، وهذه الخيام حسب ما يذكر فندلين شلوصر تتراوح ما بين خمسين وألف ينظم شؤونها شيخ الدوار، الذي يخضع له الجميع عن طيب خاطر، ومرد هذا الخضوع ليس استخدامه القوة، وإنما يستمد من رمزيته والاحترام الذي يحظى به والضمير الجماعي وغيرها من الاعتبارات تكفل له ذلك، وكل قبيلة تتكون من عدة دواوير، وبدورها الدواوير تتكون من مشاتي أو قرى أو مجموعة من الخيام التي يكون أفرادها في الغالب من الأسرة نفسها⁴.

ويعرف الدوار على أنه فرع أو قسم من قبيلة، يسكنه مجموعة من الناس يكونون في الغالب من العائلة نفسها، يقومون بالعمل ويستفيدون من الإنتاج نفسه تقريبا، ولهم أسلوب المعيشة نفسه أيضا المعتمد على الفلاحة، والدوار يكون محدودا جغرافيا، لذلك قلما يكون لدوار أراضي في الدواوير الأخرى المشكلة للقبيلة،

¹ - سامية محمد جابر وآخرون: دراسات في علم الاجتماع الريفي، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ت، ص 35.

² - Mahfoud Bennoune : de la colonisation au développement post- indépendance une histoire économique et sociale (1830-1990), édition I.A. I. G, Alger, 2009, p 32.

³ - الهادي الهروي، المرجع السابق، ص 58

⁴ - فندلين شلوصر: قسنطينة أيام احمد باي (1832-1837)، تر وتقد: أبو العيد دودو، منشورات وزارة الثقافة في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص 89.

وبدوره الدوار ينقسم إلى مجموعة من المشاتي، أو تجمعات الخيام والمنازل البسيطة، يأتي الشيخ كما قلنا على رأس القبيلة والقايد على رأس الدوار وآغا العرب أو شيخ العرب على مجموعة من القبائل¹.

وفي السياق نفسه يمكن أن نعدد مجموعة من الأسباب تجعل من العالم الريفي المكان الذي تتمركز في القبيلة، ومنها:

- يوفر الأراضي الواسعة اللازمة للحركة الاقتصادية الريفية المعتمدة على الزراعة والرعي، فالأراضي والمراعي واسعة تسمح بتربية القطعان وجمع الغلال على مختلف أصنافها، ولكون المساحة أكبر من أن يتولى الفرد خدمتها، فإن التكتل في جماعات واجب.

- إن غياب السلطة المركزية الرسمية في الريف أو قلة حضورها، حتم على الأفراد مناصرة بعضهم البعض لرد أي اعتداء وعدوان، خاصة إذا طال هذا الاعتداء العناصر الحيوية للحياة، كالأرض والماء ومصدري الغذاء والبقاء، ولن يصدق دفاعهم إلا إذا كانوا ذوو عصبية واحدة ملتحمون فيما بينهم، يشدهم التضامن للدفاع المشترك عن القبيلة ورد العدوان، وهذه الأخيرة بحاجة إلى الرجال أو كما يسمون أسوار القبيلة يحفظون أملاكها وشرفها، فلطالما اعتبر الرجال مصدر تباه وجاه بالمقارنة مع النساء، اللاتي يهمن، ليس هذا فحسب فالذكور يعتبرون مصدر عمل، فكل مولود ذكر ينظر إليه على أنه يد عاملة أخرى هم في أمس الحاجة إليها²، وفي هذا الصدد يقول بيير بورديو: " إن الذكر حامل البندقية، قيمة مضافة للقبيلة، ليس قوة اقتصادية فحسب بل قوة حربية، إن قيمة الأرض لا ترتبط فقط بالذي يحرقها بل أيضا بالذي يحميها"³.

لذلك نجد القبيلة كما أشار ابن خلدون بلا أسوار على عكس ما هو حال المدن، فهي تعتمد على رجالها في الدفاع عنها، ولا يمنحون هذا الشرف إلى سواهم، ودائما ما يحملون السلاح مستعدون لصد أي هجوم حتى في ظل عدم وجود أسوار تحميهم، لذلك فالذكور لهم أهمية كبيرة⁴.

- الإحساس بالانتماء: ففي الريف لا يمكن تصور شخص متشردا بعيدا عن الانتماء القبلي، وإن وجد فهي حالات شاذة، ويُردى من يكون على هذه الشاكلة، وهو ما يقوي مكانة القبيلة في نظر الأفراد، ويعتزون

¹- Paule Vialatte : Des imports directs en Algérie et principalement dans la province de Constantine, imprimerie de la Marele, Constantine, Algérie, 1879, p 9-10.

²- رجال بوبريك: زمن القبيلة السلطة وتدير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي الرقاق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، المغرب، 2012، ص 88.

³- Pierre Bourdieu: Sociologie de l'Algérie, Edition PUF, France, 1958, p 31.

⁴- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 155.

بانتمائهم إليها اعتبارها قوة ميدانية تسيطر على الفرد وتأطره وتدافع عنه، فالانتماء القبلي يوفر للفرد المنفعة والقوت والعمل والفخر وغيرها من الأمور التي لن تتوفر له إن كان بمعزل.

- إحساس أفراد القبيلة بالعدل والمساواة وذلك راجع إلى كونها تسير جماعيا بواسطة الجماعة، وتوزع فيها الثروات بالتساوي، ويغذي هذا التضامن القبلي، ففي القبيلة لا أحد تقريبا أفضل من الآخر والتفاوت الاجتماعي يكاد يكون منعدما¹.

- تميز المجتمع الريفي بالطابع القبلي، عامل مهم في التمسك بوحدة القبيلة، إذ يتحتم على الأفراد تحديد انتماءاتهم، وإن بدا هذا غير مهم في حالة السلم، فإن العكس تماما في حالة الحرب، حيث تبرز القبيلة كملاذ وحصن يحمي به الفرد لمواجهة الظروف، فتتماسك القبيلة ويزداد التمسك بها أكثر في سبيل رد الخطر عندما يكون التنافر هو السائد في الخارج².

أنواع القبائل في الجزائر: المتتبع للحالة القبيلة التي كانت سائدة في الجزائر خلال الفترة الحديثة يمكن له تمييز عدة أنواع منها، وهذا استنادا لبعض المؤشرات والمعايير، والتي ذكرها محمد نجيب بوطالب في كتابه سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي وهي³:

- المؤشر العرقي: حيث يتمايز عرقان، العرب والبربر، فالعرب القادمون من شبه الجزيرة العربية سواء مع الفتح الإسلامي أو المهجرات المتعاقبة التي عرفتها المنطقة، لاسيما الهجرة الهلالية في القرن 6هـ، والبربر الذين كانوا منتشرين في المنطقة، ولكن الحديث عن العرقين لا يجب أن يقودنا بأي حال من الأحوال إلى الاعتقاد أن كل منهما قد شكل قبائل نقية، إذ حدث هناك الكثير من التلاقح بين العنصرين واختلاط وتحالفات وتزاوج، بحيث يجعل تتبع الأصل صعبا للغاية.

- مؤشر الاستقرار والحركة: حيث نجد قبائل مستقرة في أراضيها وأخرى متنقلة تبعا لعدة عوامل أهمها البحث عن المراعي، حيث تنتقل من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال تبعا لفترات الانتجاع.

¹ - الهادي الهروي، المرجع السابق، ص 77.

² - عبد الله حمودي: الشيخ والمريد النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، تر: عبد الحفيظ جحفة، دار توبقال للنشر، ط4، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص 102.

³ - محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2002، ص 109.

- مؤشر تقسيم العمل: بمعنى الاستناد إلى طبيعة النشاط الذي تمارسه القبيلة، فنجد قبائل فلاحية، وقبائل دينية، وقبائل تجارية، وقبائل مقاتلة، ويتحكم في هذا المؤشر العديد من المعايير مثل الخصائص المتوارثة، العلاقة مع السلطة، المجال الجغرافي، والحالة المناخية، وطبيعة ممارسة الأجداد، ونمط المعيشة وغيرها.

- مؤشر العلاقة مع السلطة: حيث يمكن تمييز أربعة أنواع: القبائل المتحالفة، والقبائل المخزنية، والقبائل الرعية، والقبائل الممتنعة، ويعتبر هذا العامل أهم عامل استند عليه في تصنيف القبائل خلال العهد العثماني.

3-التنظيم القبلي: يعرف التنظيم على أنه مجموعة من الطرق والأساليب التي تضيف طابعا نظاميا ومحددا على سلوك الإنسان وعلاقاته الاجتماعية مع الأفراد الآخرين الذي يشاركونهم الحياة قصد الوصول إلى أفضل النتائج، وتحقيق جميع الأهداف المسطرة التي تسعى وراءها الجماعة التنظيمية، وتكمن أهمية ضرورة وجود التنظيم في كونه يُمكن كل عضو منتمي إلى هذه الجماعة من معرفة دوره والأعمال الواجب عليه القيام بها، كما يمكن التنظيم من معرفة القوى المادية والمعنوية وعدم إضاعتها والاستفادة منها وتسخيرها بما يلاءم الأهداف المسطرة للجماعة، ولعل أهم دور للتنظيم هي قدرته على الحفاظ على المصالح ككل والعمل على بقاء الجماعة وعدم اندثارها¹.

والقبيلة باعتبارها جماعة إنسانية تسعى لتحقيق مجموعة من الأهداف، فإن ما قلناه عن التنظيم ينطبق عليها، كونها مؤسسة تنظيمية كما يقول عبد الرحمن العطري: " تسعى إلى تحقيق الأهداف وتسخير الإمكانيات اللازمة من أجل استمرارها في مجال لا يقبل الضعف، ويعد التنظيم القبلي بسيطا بعدد أفراد قليلين تربط بينهم القرابة والتضامن القبلي، مما يجعلها تؤدي وظائفها بسلاسة، فهي من أنجح التنظيمات"².

وتجدر الإشارة إلى أن التنظيم القبلي له ميزة خاصة، فهو لا يعتمد على قوانين مكتوبة أو على العقوبات والصرامة، ولكن يكفي قبول كل فرد -ولو ظاهريا على الأقل- القوانين التي تحكم السلوكيات ونظام القيم السائدة من قبل، وكل من يسعى للتغريد خارج السرب يحدث اضطرابا في حسن سير الحياة الاجتماعية، وتصل درجة الحذر أنه أثناء عقد الاجتماعات لا يسارع الأفراد إلى إبداء رأيهم، بل تعطى الكلمة للأكثر خبرة وحكمة أو ما يعرف لدى البعض الشيوخ.

¹ - عبد الله حمودي، المرجع السابق، ص 102.

² - عبد الرحمن العطري: الرحامنة القبيلة بين المخزن والزواوية، دفا تر العلوم الإنسانية، ط4، الرباط، المغرب، 2013، ص 105.

أما الهيكل التنظيمية للنظام القبلي فهي على النحو التالي:

3-1- الشيخ: يأتي على رأس التنظيم القبلي، يُختار من أفضل أبناء القبيلة وأكبرهم سناً، تُراعى فيه جملة من المقومات والشروط، على غرار الحكمة، والنفوذ والجاه والغنى والوقار وقوة الشخصية، كي لا يكون دمية في يد الآخرين، أو يفقد زمام الأمور خاصة لما تكون القبيلة في فترة مواجهة خطر يهدد القبيلة، أين يكون إصدار القرارات السريعة والصائبة ضروري جداً، ويخضع أفراد القبيلة للشيخ خضوعاً تاماً، وهذا الخضوع يكون نفسياً أكثر منه جسدي، فللشيخ رمزية واسعة، ولا تعارض أحكامه إلا في حالات نادرة كإساءة التصرف أو تعريض مصالح القبيلة للخطر¹، وترتفع مكانة الشيخ إذا ما استطاع تدعيم نفوذه السياسي بالنفوذ الديني وهذا عندما يكون من أصل شريف مرتبط بالنبى صلى الله عليه وسلم².

وتكمن وظيفة الشيخ في الحرص على بقاء التنظيم القبلي واستمراره، والعمليات المرتبطة به كإصلاح والتحكيم، ولا يملك في هذه الحالة أي وسيلة فردية تمكنه من أداء مهامه كالجيش أو الجنود ولا حتى محاكم إلا في حدود ما يعترف له به المجتمع من سلطة، فضلاً عن هيئته وقدرته على الإقناع، فالمجتمع هو المكان الحقيقي للسلطة، بمعنى أن الشيخ رغم أحكامه أو توجيهاته فإنه يخضع بدوره لإرادة المجتمع والرأي الغالب فيه، كما أن قدرة القبيلة ككل على تنفيذ الأحكام يساعد الشيخ، فأتناء النبذ مثلاً فالقبيلة من تقوم بذلك فلا تحدث المنبذ أو تتعامل معه، كما أن الالتزام بالمبادئ القبيلة يساعده في هذا، وهو ملزم أيضاً بقيادة القبيلة في الحروب والحرص على مختلف مصالحها، وهو ممثل القبيلة أمام القبائل الأخرى أو السلطة المركزية، وبإمكانه أيضاً إصدار العقوبات ضد أي شخص يهدد مصالح القبيلة أو ينقض من شرفها³.

والرياسة في القبيلة شرط أساسي لاستمرارها، ذلك أن مختلف الأنشطة التي تكون في حياة الناس تحتاج إلى التوجيه والإرشاد، ومن جهة أخرى لا تستمر ثقافتها إن كانت تسير بطريقة اعتباطية، لأن الاتجاهات والمعتقدات تستوجب الحماية والتعزيز دائماً، لذلك لا بد من وجود منصب يمكنه السهر على كل هذا⁴.

¹ - عبد الله حمودي، المرجع السابق، ص 102.

² - رجال بوبريك، المرجع السابق، ص 62.

³ - محمد نجيب بوطالب، المرجع السابق، ص 108.

⁴ - عبد الحميد أحمد رشوان: في القوة والسلطة والنفوذ، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2007، ص 74.

3-2-الجماعة: تعرف على أنها مجلس محلي لوجهاء القبيلة يرأسها الشيخ، تعمل على تسيير الحياة داخل القبيلة بمختلف أبعادها، وتمثل السلطة الوحيدة والأعلى بالنسبة للمنتمين إلى القبيلة، تشرف على جميع الشؤون، وفي يدها كل السلطات السياسية والقضائية والتشريعية، وتمارس سلطة مادية بقدرتها على العقاب وتنفيذه مهما كان نوعه، بحكم الهبة والوقار ونظرة الاحترام الممزوجة بالخوف التي تحظى بها لدى جميع الأفراد¹.

وتقوم الجماعة بإدارة شؤون القبيلة، فهي الجهاز التشريعي والقضائي الساهر على تنفيذ بنود العرف القانونية، وتنظيم شؤون القبيلة، والبحث في أمورها الداخلية وعلاقتها الخارجية، وتشكل من جميع رجال القبيلة البالغين القادرين على حمل السلاح مع أفضلية لبعض الأعضاء أو الأعيان والوجهاء الكبار في السن من ذوو المكانة والنفوذ، ولكل فخذ أو عشيرة من القبيلة ممثل لها يسمى أحيانا الضامن أو "الطامن" الذي تقع على عاتقه كل الأمور المرتبطة بعشيرته أو الفخذ الذي ينتمي إليه، وفي العادة تعتبر القدرة على صيام شهر رمضان وثيقة للحصول على مكان في الجماعة، ناهيك عن كبر السن والنسب والماضي المجيد².

وتتمتع الجماعة بالشرعية والإجماع والتمثيل الواسع، ويكمن السبب في كونها تحل محل حكم الفرد، وأما من الناحية الدينية وهي الأهم، فحسب المذهب المالكي، فإنه عند غياب السلطان أو النائب عنه، فإن الضرورة تقتضي تعيين من يحل محله لتسيير الوضع، وفي يده الحل والعقد، فترتقي الجماعة لتكون صاحبة هذا الوضع، فتكون سلطة عليا داخل القبيلة، وبالتالي، فهي تجمع الشرعية الاجتماعية والسياسية، والشرعية الدينية، وكل هذه الركائز تمنح للجماعة قوة كبيرة في التأثير وبالتالي قدرة في التسيير³.

وهذه الرمزية والتأثير تجعل الخروج عن الجماعة والقبيلة ككل أمرا غير وارد الحدوث-إلا في القليل النادر- لأن من يقدم على هذا الأمر يتعرض للإقصاء والنبد والاحتقار، ومن تسول له نفسه رفع تحدي في وجهها فلن يستطيع تحمل تبعات قراره، فمغادرته للقبيلة لن يمكنه من الصمود خارجها في مجال يعتبر التنظيم القبلي هو السائد فيه⁴.

¹- حمداني مالية: ميراث المرأة القبائلية بين تحدي الأعراف والحاجة المادية، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في تخصص علم الاجتماع الرفي، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2010/2009، ص 53.

²- رجال بوبريك، المرجع السابق، ص 38.

³- نفسه، ص 23.

⁴- نفسه، ص 32.

لذلك غالبا ما تكون سلطة الجماعة نفسية، لا تحتاج بموجبها إلى تبني التنبيهات والعقوبات، لأن الفرد يقدسها ويحترم قبيلته وأفرادها، كما أن ذوبانه فيها وغياب النزعة الفردية يلعبان دورا في هذا، ومن جهتها تحميه وتوفر له شروط الأمان والاستقرار، وعدم خروج الأفراد عن الجماعة وخضوعهم الإداري والطوعي لما تمليه عليهم ليس خضوع تعسف وقهر وعبودية بقدر ما هو شعور طبيعي لديهم، فالأمور حسبهم لا تسير، بل يجب أن تسير بهذه الكيفية، فالجماعة إذ هي روح القبيلة¹.

3-3- الضبط الاجتماعي: يعرف الضبط الاجتماعي على أنه مجموعة من العمليات التي تلجأ إليها أي وحدة اجتماعية على غرار القبيلة لتحقيق التكيف بين سلوك الأفراد وممارساتهم وبين ما اصططلحت عليه معايير الجماعة على أنه مناسب ومقبول، وقواعد التفكير ونماذج السلوك في العمل ووفقا للثقافة المجتمعية السائدة فيها، قصد تحقيق التطابق في النظام العام للوحدة الاجتماعية ككل حفاظا على هيكلتها واستمرارها في العمل لتحقيق الهدف المنشود، فخرق النظام يؤدي إلى التهلكة، ويعرفه أحمد رشوان فيقول: " هو ممارسة السلطة، ويطلق على وجه واحد من الدور الاجتماعي أي وجه من السلوك التي نتوقعها من أناس معينين في أماكن معينة، وينتج عن السيطرة الطبيعية لبعض الأشخاص على آخرين وهو موجود في كل الجماعات"².

والضبط الاجتماعي في القبيلة، من مهام الجماعة الأساسية، فلا شيء مهما كان صغيرا أو كبيرا خارج عن إرادتها ومراقبتها، ويتم تلقين الضبط الاجتماعي بعدة طرق الإقناع بالتزام بعض السلوكيات، والتعليم من خلال التنشئة الاجتماعية والإكراه بإنزال العقاب، وتستمد القبيلة الجزائرية قوانينها من مصدرين أساسيين هما:

العرف: يعرف على أنه مجموعة من القوانين الوضعية التي تسهر القبيلة على سنّها في سبيل تنظيم شؤونها الداخلية والخارجية، وهو نصوص قانونية تنظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وتحدد الجرائم والعقوبات وتهدف إلى حل النزاعات القائمة أو المحتمل قيامها، سواء تعلق الأمر بالجانب الجنائي أو جانب العرض وحماية الأملاك وغيرها، أما عن تطوره، فهو تكرار سلوك معين منسجم مع النظام العام تحول بمرور الوقت إلى قاعدة إلزامية، إلزاما يكفل احترامها ومعاقبة كل من يخالفها ويلقن العرف منذ الصغر في إطار التنشئة الاجتماعية³.

¹ - رجال بوبريك، المرجع السابق، ص 38.

² - حسين عبد الحميد رشوان، المرجع السابق، ص 74.

³ - رجال بوبريك، المرجع السابق، ص 69.

ويتم توارث العرف جيلا عن جيل، وهو محترم من قبل أفراد القبيلة، فيترقى في بعض الأحيان إلى مرتبة القداسة باعتباره إرث الأجداد، والناس الأحياء يفسرون ويطبقون سلطتهم، وبالنظر إلى القبائل الجزائرية نجد أن العرف قد شكل مرجعا أساسيا لديها ونذكر على سبيل المثال قبائل منطقة الزاوة التي كان لكل قرية من قراها قانونا عرفيا تحتكم إليه وبيت في أمورها وقد جمعه كل من هانونتو ولوتورنو في كتابهما القبائل والأعراف القبائلية والملاحظ أن هذا القانون العرفي يحظى بالاحترام والتقدير، كما أنه يغطي جميع جوانب الحياة.

الدين: يعتبر الدين من مصادر التشريع والضبط، حيث يقدم الكثير من التشريعات التي تضبط الحياة وتأطرها، ويقدم الكثير من الحلول والراحة النفسية للمعتنقين، والجزائر ومنذ أن دخل إليها الإسلام مع بداية القرن السابع ميلادي أصبحت تستند إليه في مختلف جوانب حياتها، واتخذته مصدرا للتشريع

4-أسس القبيلة: إن القبيلة ككيان لديه أهداف يسعى لتحقيقها، ولعل أكبر هذه الأهداف هي استمرار نسلها في الوجود في ظل عدة متغيرات أبرزها الصراع القبلي والتهديد المستمر بالفناء، فكان لابد للقبيلة من أسس ترتكز عليها، فإضافة إلى الأرض نجد:

4-1-العصبية:

لغة: جاء في القاموس المحيط، العصب: الطي والشد وضم ما تفرق من الشجر، والعصبه من الرجال، والخيول والطير ما بين العشرة والأربعين¹، أما في لسان العرب، فالعصب هو الطي الشديد، وعصب الشيء أي شده إليه وقال الأزهري، عصبه الرجل أوليائه الذكور والعصبه الجماعة²، قال الله تعالى على لسان إخوة يوسف: " قالوا لئن أكله الذيب ونحن عصبه إنا إذن لخاسرون"³.

اصطلاحا: هي جماعة الأقارب المرتبطين المتحددين بعضهم ببعض إلى مستوى تتحقق فيه درجات الاندماج الكلي بين أفرادها، وبفعلها يتم بالتماسك بينهم لدرجة التماهي والذوبان فيها خاصة أثناء حصول التهديد، حيث يكبر الاعتزاز والشعور بها، وبالتالي الارتقاء إلى الوعي الجماعي الذي يوجه الفرد وسلوكه ومواقفه

¹ - الفيروز أبادي محمد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مر: أنس محمد الشامي وركريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008، مادة "عصب"

² - ابن منظور، المصدر السابق، مادة "عصب"

³ - سورة يوسف، الآية 12.

وآراءه مع الرأي العام للقبيلة، وتولد العصبية مشاعر الولاء والانتماء بين أعضائها مما يعطيهم الإحساس بالقوة والافتخار¹.

ويعرف ابن خلدون العصبية القبلية على أنها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام من أن تنالهم مصيبة أو تصيبهم هلكة، ومن هذا الولاء والحلف، حيث تشمل العصبية إضافة إلى صلة الرحم أهل الولاء وما يدخل في التحالفات القبلية والمصالح المرتبطة، فحسب ابن خلدون فالنعرة على كل واحد من أهل الولاء والحلف².

ويعرفها الجابري على أنها ظاهرة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية معا تربط أفراد الجماعة، أساسها القرابة، حيث تعتبر رابط مستمر يبرز ويشدد عند الإحساس بخطر يهدد الأفراد المنضوين تحتها، إذ تتجلى العصبية في أكمل صورها أثناء التهديد والخطر، ولكن أثناء السلم تتمركز في اللاشعور، فهي لا تختفي أو تزول ولكن تركز منتظرة الظروف المناسبة كي تبرز من جديد³.

ويركز الجابري أكثر في العصبية ويضيق مجالها، مشيراً إلى أنها لا تكون في الجماعة المطلقة أي كامل الجماعة التي ينتسب إليها الرجل رغم أهمية الانتساب، ولكن تختص في أقاربه الذين يلزمونه أي خاصته وحاشيته، ورغم أن هذا أيضاً يستند إلى القرابة التي هي أساس العصبية إلا أنه ليس كل أقرباء الرجل عصبه له، فالصراعات القبلية وطموح الكثير للرياسة تنفيان هذا، فتختص العصبية في الذين يلزمونه فقط ويكونون محل ثقته، القريبين منه، الذين يمكن له الاعتماد عليهم أثناء سعيه لتحقيق هدف يتطلب أرقى ميزات العصبية⁴.

ولكي تتقوى هذه العصبية لابد من توفر شروط أساسية، أولها النسب، فلا يتم الدفاع أو الاجتهاد فيه ولا التمسك بالعصبية ما لم يكن هناك نسب يشد الجميع (نسب دموي أو بالمصاهرة)، فيقول ابن خلدون " وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم أو تصيبهم هلكة"⁵ وثانيها التواصل الدائم³¹م والحقيقي بين أفراد الجماعة، فالتماس الكثير والمواقف الحياتية

¹ - مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص 45-46.

² - ابن خلدون، المصدر السابق، ص 160-161.

³ - محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط6، بيروت، لبنان، 1994، ص 168.

⁴ - محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 168.

⁵ - ابن خلدون، المصدر السابق، ص 160

المشتركة وإثبات الولاء والوفاء من قبل كل فرد هو ما يعززها ويقويها، لذلك فالعصبية القبلية أرقى بكثير من عصبية الدولة، حيث يكون الالتقاء قليلا، والتواصل والاحتكاك نادرين¹.

وللعصبية أهمية كبيرة تتمثل في:

- ضرورة في كل أمر يقدم الناس عليه ويلتفون حوله كالنبوءة والملك، فعند بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يبدأ بأهل بيته وقربته من بني هاشم قبل التوجه إلى أهل مكة ككل، فقال الله تعالى: "وأندر عشيرتك الأقربين"²، كما أن الذي لا يستند على عصبية لا يمكنه الطموح في الملك، لافتقاده إلى من يحيمه ويساعده في تثبيت حكمه والاستئثار به³.

- تحمل الأفراد على التأزر والمناصرة والحماية ودفع الخطر، فالقبيلة لا يمكن لها الحفاظ على هيبتها ومكانتها إلا بقوة عصبيتها، والتفاف أعضائها بعضهم على بعض، فلا يصدق دفاعهم إلا لهذا، فيقول ابن خلدون: "ولا يصدق دفاعهم إلا إن كانوا أهل عصبية وأهل نسب واحد لأنه بذلك تشتد شوكتهم ويُخشى جانبهم، إذ كل واحد على نسبه وعصبته أهم"⁴.

- هي القوة الجماعية التي تمنح القدرة على المواجهة، فبفضلها ينصهر الفرد في الجماعة، وتقوي العلاقة بين الفرد والجماعة وبين الجماعة والفرد إلى حدود يذوب أحدهما في الآخر⁵، كما أنها تعمل على توحيد وجهات النظر المختلفة وتشد أواصر القبائل فتميز بعضها عن بعض، والمناصرة في العصبية لا تعترف بالظالم والمظلوم ولكن تعترف بالجماعة، فلا يهم الفرد القبلي، إن كانت قبيلته على صواب أم على خطأ، فلا يهمه هذا إطلاقا إلا في حالات نادرة، وجل ما يهمه هو قبيلته ومؤازرتها⁶، فإن حدث وقتل فرد من القبيلة، فكل قبيلته تتجهز للقتال للأخذ بالثأر دون الالتفات للسبب الكامن وراء ذلك، فالمهم أن الشرف القبلي لن يضيع ودمه لن يسيل وحده،

¹ - ماكس فيبر: الاقتصاد والمجتمع، تر: محمد التركي، مر: فضيل الله العميري، (مركز دراسات الوحدة العربية، مكتبة الفكر الجديد)، ط1، بيروت، لبنان، 2015، ص 618.

² - سورة الشعراء، الآية 214.

³ - ابن خلدون، المصدر السابق، ص 160.

⁴ - نفسه، ص 155.

⁵ - محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 168.

⁶ - عبد الله النوي، المرجع السابق، ص 75.

فتستمر الحرب ربما لسنوات طوال، وفي بعض الأحيان لأسباب تافهة¹، ولعل قول دريد ابن الصمة يلخص لنا ذلك الانصهار في العصبية بحيث لا يُرى شيء آخر خارج تأثيرها حين ينشد:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غزية غويت وإن ترشد غزية أرشد.

4-2- التضامن القبلي: نوع من الفعل المشترك والتضحية ونكران الذات في سبيل ديمومة النظام الداخلي للقبيلة والحفاظ على توازنها ووحدتها، والحيلولة دون تفككها وانفجارها من الداخل، والتضامن الذي يضبط القبيلة ويربط بين أجزائها مؤسس على المساواة الاجتماعية بين الأفراد، بما لديهم من حقوق وواجبات ولوازم وخضوع الفرد للجماعة وأحكامها وما تتخذه من قرارات حتى ولو لم يكن ما اتخذته في صالحه، والعرف ومساعدة الآخرين والدفاع عنهم في الأوقات الحرجة ومواساتهم ومشاركتهم أفراحهم، ما هي إلا أنواع قليلة من أنواع التضامن التي نجدها في القبيلة².

ويعرفه محمد العيد عنان في حديثه عن القبيلة الجزائرية على أنه الروح المميزة للبنية الاجتماعية الذي يبعث فيها الحياة والنشاط، فدون حضوره تغيب مظاهر التعاون والتآخي، الأمر الذي يؤدي إلى انقطاع روابط التماسك وظهور النزعة الفردية ثم طغيانها مما يسرع إلى زوال الجماعة في نهاية المطاف، فنمو روح الأنانية في الأفراد والبحث عن المصالح الخاصة الضيقة دون اعتبار لما يمكن أن يقع للآخرين وهو ما يجعل بأي تنظيم مهما كان نوعه ومن ضمنه القبيلة نحو الهاوية والتفكك والزوال³.

والمميز في التضامن القبلي أنه لا يكون في حاجة إلى هيئة معينة تسهر على تطبيقه ولكن اقتناع الفرد بالتمسك بعادات القبيلة واحترامها على أنه واجب عليه، والإحساس بالأفراد والشعور بالسعادة عند مساعدتهم والتخفيف عنهم هو ما يجسده ويعزز تكريسه⁴، والتضامن الذي يربط الأشخاص ذوو الأصل المشترك تجل من

¹ - حفظت لنا المصادر العربية بضع الأحداث من هذا النوع، حيث اشتعلت حروب استمرت سنوات طوال، بين بعض القبائل العربية التي تجمع بينهم القرى، لا شيء سوى الإحساس أن الشرف القبلي والعصبية القبلية قد أهينت، ولا يمكن مسح هذه الإهانة، سوى بمحاولة إبراز تفوقها، وليس هناك طريقة أفضل لهذا سوى إراقة الدماء، ومن بين هذه الحروب نذكر داحس والغبراء التي اشتعلت بين قيس وذيان والتي كان سببها سباق فرسين، وحرب البسوس، التي كانت بين بكر وتغلب حول قتل جمل، استمرتا كلتاهما أربعين عاما، أيضا، والأمثلة كثيرة على هذا.

² - رجال بوبريك، المرجع السابق، ص 96.

³ - Mohamed -Laid Annane : chronique sur l'Algérie, l'ombre d'un frêne (1827-1837), édition ANEP, Alger, 2008, p110.

⁴ - برتراند راسل: السلطة والفرد، تر: شاهر الحمود، دار الطليعة للنشر، ط1، بيروت، 1961، ص 30

تجليات العصبية، فهذا يدفعهم للتصرف كفرد واحد مما يجعل القبيلة متأهبة ومستقرة جماعيا من أجل تحقيق أهداف الجماعة التي تعمل من أجلها إراديا أو عفويا¹.

ويتعزز التضامن ويتقوى بعدة عوامل:

- التماثل بين الأعضاء: حيث يسود الضمير الجمعي بقوة ملحوظة، ويشير الضمير الجمعي إلى المجموع الكلي للمعتقدات والعواطف العامة بين معظم أفراد القبيلة أو الجماعة، ويكتسب هذا الضمير واقعا ملموسا فهو يدوم خلال الزمن، ويدعم الروابط بين الأجيال وبين أفراد المجتمع، ويؤكد دوركائم على أن هذا الضمير الجمعي يعيش بين الأفراد ويتخلل حياتهم إلا أنه يكتسب مزيدا من التأثير والقوة كلما تماثل الأعضاء².

وتجدر الإشارة إلى أن التماثل الاجتماعي في المجتمعات القبلية غير مطلق رغم أن التفاوت القليل الملاحظ، ومرد هذا اعتبارات عدة، كالقربة واعتماد الجميع على اقتصاد بسيط لا يتيح فوارق كبيرة يجعل تركز الثروة في أيدي قليلة مثل ما هو حاصل في المدن أو المجتمعات الكبرى، فلا يمكن العثور على طبقة واضحة في القبيلة رغم وجود بعض من الأشخاص ممن يتمتعون بامتيازات معينة، لأن النموذج القبلي يرفض التفرقة الاجتماعية المتطورة، فالتوزيع العادل لمساحة الأرض وفق أنظمة معينة كنظام أراضي العرش يجعل الإنتاج متماثلا، مما يكرس مبدأ المساواة، كما أن الفائض في الإنتاج لا يكون كبيرا يتيح لفئة معينة من القبيلة عدم العمل تجعلهم متميزين باستثناء المسنين ربما³.

- الولاء والخوف: يذهب راسل إلى القول بأن التضامن الاجتماعي يدعمه الخوف من الأعداء، فعند التعرض لقوة خارجية خاصة إذا كانت كبيرة قد تؤدي إلى الإبادة فإن هذا التضامن يزداد، مؤكدا على أن العدو الخارجي هو من يعطي قوة التماسك للجماعة، ففي أوقات السلم يمكن أن نكره جارنا وقرينا ولكن عند الخطر والخوف تتضامن معه ونسانده، كما أن الولاء للجماعة وللزعيم يقوي التضامن خاصة إذا اكتسب هذا الأخير صبغة دينية، ويحدث أن يتطور التضامن، فعندما يجمع بين أشخاص كثر وقبائل كثيرة فإنه سيساهم في تكوين الدولة⁴.

¹ - Yazid Ben Honnet : des tribus en Algérie, cahier de la méditerranée, 75, France, 2007, p 9.

² - عالية حبيب وآخرون: علم الاجتماع الريفي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2009، ص 143.

³ - عدي الهواري، المرجع السابق، ص 27.

⁴ - برتراند راسل، المرجع السابق، ص 26-30.

- التماس الكبير وصغر المجموعة: تمارس الحياة القبيلة في تماس كبير بين الأفراد فالجميع يعرف الجميع، والحياة فيها تسري في ود كبير للغاية، مما يتيح خلق روابط خاصة، كما أن التماس الكبير ينمي العاطفة نحو الآخرين، بمعرفة أحوالهم وما يمرون ويشعرون به، وكلما ابتعد الأفراد عن بعضهم البعض حتى ولو كانت بينهم قرابة، إلا وأضحت الخيوط التي تربط بينهم ضعيفة، وهذا التماس الكبير بين الأفراد والود ومعرفة أحوال الجميع لا يتم إلا إذا كانت المجموعة صغيرة¹.

وتشير ليليا بن سالم لعوامل أخرى تعزز التضامن القبلي، وهي ضعف تقسيم العمل، في الغالب لا يتعدى الزراعة والرعي وما ارتبط بالأعمال الفلاحية، فحين تتشعب الأعمال، تنشأ الفرق المتعددة ويضعف التواصل إلا في نطاق الجماعة، كما أن الملكة الجماعية تعزز التضامن، حين يعمل الجميع مع بعضهم يتقاسمون العمل ويتشاركون الإنتاج، هذا دون نسيان تركز الحياة الاجتماعية حول العلاقات الاجتماعية التي تكتسي أهمية كبرى بحكم القرابة والنسب².

والتضامن على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للقبيلة كونه:

- يعزز وحدتها ويقوي الروابط بين أفرادها وينشر الألفة والمحبة بينهم، فيصبح الجميع كأهم فرد واحد، الفرد للجماعة والجماعة للفرد، وهو أمر مهم في حالة الصراع.

- يُرسي الطمأنينة في نفوس الأعضاء، لإدراكهم أن القبيلة لن تتخلى عنهم في حالة مرورهم بأزمات مهما كان نوعها، بل تساعدتهم على مواجهتها وتجاوزها، فإذا أصابت إحداهم فاقة وعوز أو تضرر محصوله سارع الجميع لتقديم يد العون، وإذا دخل في صراع مع آخرين من خارج القبيلة فالتضامن يقف حائلا دون المساس به لأن كل سوء يمس فردا تعتبره القبيلة مساسا بها ككل³.

- يمثل وسيلة الدفاع الأساسية ضد كل أشكال القهر المسلط من الخارج، إذ يدعم تماسك المجموعة والتحام أعضائها في مواجهة الخطر الخارجي فعندما يشتد الصراع حول البنية القبلية ويشكل عامل ضغط عليها

¹- عالية حبيب وآخرون، المرجع السابق، ص 124.

²- ليليا بن سالم: التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب الكبير، حصيلة وتقييم، مقال ضمن كتب جماعي موسوم " الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، تر: عبد الأحمد السبتي وعبد اللطيف الفشلق، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب، 1988، ص 12.

³- محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي ومحدداته، المرجع السابق، ص 231.

يتحتم وجود رد فعل معاكس ومماثل له ينطلق من داخل القبيلة على أمل رده ومواجهته ولا يمكن بلوغ هذا الالتحام دون وجود تضامن قبلي، فعندما تكون القبيلة مقسمة إلى أجزاء قليلة الترابط لا تتمكن أبدا من إنتاج الفعل المعاكس المماثل لما يأتي من الخارج، وقد يحدث -رغم وجود تضامن- ألا تتمكن القبيلة من المواجهة، ومرد هذا أن الخطر القادم يفوق بكثير إمكانيات القبيلة مثل ما حدث أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث كانت قوة الاستعمار تفوق بكثير قوة القبيلة التي كانت في مواجهته رغم الصمود الذي أظهرته عموم القبائل¹.

ويظهر التضامن في أعلى صورته أثناء الحرب، حين يسارع جميع أفراد القبيلة لحمل السلاح في سبيل الدفاع عن المجال القبلي بكل أبعاده، كما يظهر في بعض العادات التي تمارسها القبيلة تعبيرا عنه ومنها عاداتي لوزيعة والتوزيع.

التوزيع: تعرف على أنها نظام من العمل التضامني الجماعي خلال بعض المواسم كالحرث والحصاد وجمع مختلف المحاصيل كالزيتون، فنظرا إلى محدودية الإمكانيات المادية والبشرية للعائلة، لا تجد القبيلة بدا من الدخول في فعل جماعي لمساعدة العائلة، القيام ببعض الأعمال التي تعد شاقة كالحرث والحصاد وهي أعمال تتطلب الإسراع في الإتمام، ولا تحتل التأجيل ولا تمنح الوقت اللازم للقيام بها، فإذا ما فات الموسم بطلت العملية برمتها وضاع المحصول والجهد المبذول، لذلك يتم توظيف أيادي القبيلة للإسراع وإتمام العملية².

لوزيعة: شكل تضامني انطلق في البدء لتلافي الخسارة الفردية وجعلها جماعية كأن يلجأ أحد أفراد القبيلة لذبح ثور أو شاة تعرض لحادث، فتشارك معه الجماعة في هذه الخسارة بتمكينه مما يقلل من حجمها، على اعتبار أنه سوف يوزع لحمها على عدد المساهمين مقابل أموال يدفعونها، كما ارتبطت بالحصول على لحم كافي دون دفع الكثير من المال كتخفيف على أعباء الأفراد، حيث يشترك سكان القبيلة في شراء بهيمة أو مجموعة بهائم، وعادة ما يساهم الأغنياء بقسط أكبر من المال، ويتم ذبحها وتوزيع لحمها على جميع السكان، مع الأخذ في عين الاعتبار أن بعض الفئات لا تدفع شيئا مقابل الحصول على اللحم كالفقراء والمساكين واليتامى والأرامل فسهمهم مضمون من قبل جماعة القبيلة، التي تمنح لهم حصصهم مجانا ولا يبق أي بيت دون أن يطبخ لحما،

¹ - Mahfoud Bennoune, Op ; cit, p 36.

² - عبد الرحمن العطري، المرجع السابق، ص 92.

فيفرح الجميع ويشتركون في السعادة، وهو ما يعبر عن التضامن وفي الوقت نفسه يقويه، فلا أحد يُترك دون عشاء باللحم، ولا أحد يبقى حزيناً دون لحم يطبخ في البيت أو يشعر بالاختلاف¹.

4-3- الأرض: لا تكتمل أسس القبيلة دون وجود الأرض، فكما أشارت التعريفات إلى أنه لا يمكن إطلاق تسمية قبيلة ما لم يكن هناك مجال تستقر به مجموعة بشرية، وتأتي أهمية انطلاقاً من عوامل عدة، فاقتماداً تعد الأرض للمجتمع القبلي مصدر العيش، فعليها تمارس الفلاحة وفيها ترعى القطعان، وهما النشاطان الوحيدان الممارسان تقريباً، ومن الناحية الاجتماعية والثقافية، تعتبر الأرض مصدر ثقافة للقبيلة، فتربط بها الكثير من الأهازيج والاحتفالات بالمواسم الفلاحية، و نمط التفكير وأسلوب المعيشة، ومن الناحية الدينية، يعتقد السكان - خاصة المسلمون - أن الله خلقهم من الأرض، فيقول تعالى: "ومنها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى"².

وساكن القبيلة لا يعتبر الأرض مصدراً اقتصادياً فقط، تمكنه من تحقيق حاجياته وإشباع رغباته، وإنما كانت بالنسبة سلوكاً حياتياً، وثقافة يعتز بها وشعوراً نفسياً بالراحة وهو يشاهدها ويتأملها، ولا يتوانى في الدفاع عنها، باعتبارها عرضه وشرفه، فيقول بورديو بهذا الصدد: "إن ارتباط الفلاح الجزائري بأرضه يرجع إلى جانب الأسطورة أكثر مما يرجع إلى المنفعة المادية، ذلك أن الفلاح هو ملك لحقله أكثر من كون حقله ملك له، وهو مرتبط به في علاقة خضوع كامل... ومعنى هذا أن الأرض لا تمثل بالنسبة له ممرداً اقتصادياً، وإنما أما حنوناً، لأن مصيره في النهاية وغناه وفقره لا يرجع إلى جهده في العمل بقدر ما يرجع إلى كرمها"³.

المبحث الثاني: السلطة وعلاقتها بالتنظيم القبلي:

1- تعريف السلطة:

1-1- لغة: من السلاطة والاسم سلطة وتعني القهر، والسلطان الحجة والبرهان، ويقول الزجاج في تفسير قوله تعالى: "ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين"، أي حجة مبينة، وقال اشتقاق السلطان من السليط،

¹ - عبد الرحمن العطري، المرجع السابق، ص 101.

² - سورة طه، الآية 55.

³ - Pierre Bourdieu, Op ; cit, p 146.

والسلطان ما يضاء ويهتدى به كالزيت، ويقال للأمراء سلاطين لأنهم الذين تقام بهم الحجة والحقوق، وقال الليث: السلطان قدرة الملك، وقدرة من جعل له ذلك وإن لم يكن ملكاً¹.

أما في المعجم الفلسفي لجميل صالبيبا فإن السلطة تعني القدرة والقوة على الشيء والسلطان الذي يكون للإنسان على غيره، ولها عدة معاني، منها السلطة النفسية وهي قدرة الإنسان على فرض إرادته على الآخرين لقوة شخصيته وثبات جنابه وحسن إشارته وسحر بيانه، والسلطة الشرعية، وهي السلطة المعترف بها في القانون، كسلطة الحاكم والوالد والقائد وغيرها من السلطات².

1-2- اصطلاحاً: يعتبر هذا المصطلح من المصطلحات التي تباينت فيها الآراء والتعاريف، ذلك تبعاً للتوجه الفلسفي، فلكل واحد بما يؤمن ويقتنع به.

تعرف السلطة على أنها الاحتكار الشرعي لأدوات العنف والإكراه في المجتمع، وينطلق هذا الرأي من ضمير جماعي قوامه أن هذا الاحتكار ما هو إلا أداة لتحقيق الاستقرار وجعل المجتمع هادئاً³.

والسلطة علاقة بين فاعلين يتمكن أحدهم بواسطتها من دفع الآخرين وتوجيههم إلى التصرف بطريقة مختلفة عما يمكن أن يفعلوه دون هذه العلاقة، فالنفس ميالة إلى ممارسة بعض الأفعال التي قد تكون ذات

تأثيرات سلبية، لذلك تأتي السلطة مهما كان نوعها لتضبطها بما يتماشى مع المعيار الجمعي للمجتمع⁴.

وتعرف السلطة على أنها الإكراه بصورة عامة بمعنى القدرة على الإخضاع والقدرة على إنزال الجزاء فيقول داهل: "حالة خاصة من ممارسة النفوذ، تنطوي عنه خسائر قاسية بالنسبة لمن يرفض الامتثال"⁵، وبصورة أكثر إنصافاً هو ذلك النفوذ⁶ الذي تقيمه معايير ومعتقدات وقيم المجتمع الذي يُمارس فيه ويستند وجودها إلى كون

¹ - ابن منظور، المصدر السابق، ص 2065.

² - جميل صالبيبا: المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب الأنباني، بيروت، لبنان، 1982، ص 669.

³ - عبد الحميد أحمد رشوان، المرجع السابق، ص 75.

⁴ - موريس دوفرجيه: علم اجتماع السياسية، تر: سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، لبنان، 1991، ص 124.

⁵ - موريس دوفرجيه، المرجع السابق، ص 115.

⁶ - النفوذ: هو الوضع الذي يوجد عليه من يمكنه من أن يفرض على الأقل ولو جزئياً وجهة نظره على الآخرين في فعل جماعي متبادل، ويختلف النفوذ عن السلطة في كون هذه الأخيرة يمكن لها اتخاذ العقاب، نفسه، ص 125.

المجموعات الاجتماعية، مهما كانت تقبل صراحة أو ضمناً رؤساء وحكام بغض النظر عن الاسم الرسمي لهم، فالأب ذو سلطة على العائلة والابن الأكبر ذو سلطة على الإخوة الصغار، وشيخ القبيلة ذو سلطة على أفرادها والحاكم أو السلطان والملك ذو سلطة على السلطنة والمملكة، حيث يتم الاعتراف لهم بحقهم في إعطاء الأوامر إلى أعضاء الجماعة المتسلطين عليهم، أمر يدفعهم إلى عمل ما لم يكونوا سيعملونه دون ذلك، وفق ثنائية (الأمر/السمع) لأنه في نظرهم يعدّ شرعياً مطابقاً لقيم ومعايير الجماعة¹.

ومعنى هذه الشرعية أن السلطة تملك من الوسائل ما يمكنها من التأثير في كل السيكولوجيات وإخضاعها والسيطرة عليها وقيادتها وتوجيهها وفق ثلاث محددات:

- وسائل وطرق تتحكم فيها السلطة: حيث للسلطة أساليب ومناهج تتبعها بغرض تمرير آرائها وتوجهاتها على أولئك المسطوة عليهم.

- إمكانيات وآليات تحتكرها السلطة: فالسلطة إمكانيات كثيرة سواء مادية أو بشرية تسخرها وتستغلها في تكريس نفوذها على الآخرين، ككثرة الجنود والأعوان ووفرة المال وصرفه على المتعاونين أو للقضاء على المتخاذلين الذين لا يؤمنون بشرعيتها وغيرها من الإمكانيات التي تحقق رجحان الكفة لصالح السلطة.

- أهداف وغايات السلطة: كل هذه الوسائل والآليات والإمكانيات، تستغلها السلطة في تناسق كبير بغرض تحقيق جملة من الأهداف، أبرزها الحفاظ على الوضع الراهن لها والبقاء في أعلى الهرم الاجتماعي، ومراقبة الأمن والتحكم في كل ما تراه يقع تحت ناظرها ولها الحق في مراقبته ومتابعته.

لذلك نجد السلطة تحتكر هذه الشرعية مستندة على أساس نفسي وعقلي كالدين وتأثيره على الأفراد والتخويف من المجهول والفوضى وغيرها، وتمارس عملها انطلاقاً من دوافع ومواجهات وتجارب وخبرات نفسية عقلية ظاهرية وباطنية مع إدراك تام لمظاهر القوة والضعف والخطأ والصواب².

ولا تقوم السلطة بعملها دون إظهار للقوة، فيقول لاسويل: " السلطة من زاوية تستعمل القوة سواء في شكلها الضمني أو العلني، حيث تعتبر عملية تأثير في سلوك الآخرين من خلال فرض الحرمان والضغط والجزاء

¹ - موريس دو فورجيه، المرجع السابق، ص 126.

² - سالم القمودي: سيكولوجية السلطة في الخصائص النفسية المشتركة للسلطة، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، مصر، 1999، ص 9-10.

عليهم أو التهديد بها، بغية تحقيق امتثالهم للسياسة المعروضة للتمثيل"¹. ويرى ابن خلدون أن السلطة أمر ضروري وواجب لأن الإنسان يميل إلى العدوان على أخيه الإنسان، وبالتالي فهي واجبة الوجود لكبح جماحه وعدوانه من حيث هو حيوان إلى حيث هو إنسان، منوها إلى أن الإكراه الذي تفرضه السلطة على المجتمع ليس إكراها من وجه التعسف والظلم وإنما هو إكراه من أجل المصلحة العامة.²

وبدوره يرى ميكافيلي أن السلطة واجبة على الأفراد، مرجحا أن ما يحد من تصرفهم هو وجود سلطة تمارس نوعا من القوة، وأن الحكم الذي يستمر هو الذي يتمكن من مواجهة الطبقة البشرية المليئة بكل الدوافع السلبية، كالأنانية والرغبة في السلطة، وهو الأمر الذي يفرض على الأمير استعمال كل أساليب القهر الممكنة³، وفي هذا الإطار يرى جون لوك أن للسلطة الحق في سن القوانين وعقوبات الإعدام، وسائر العقوبات الأخرى بهدف تنظيم وحفظ الأموال وتسخير القوة الاجتماعية لتنفيذ هذه الغاية ولصد الاعتداءات الأجنبية⁴

ومن جهة أخرى هناك من يرى خلاف هذا، فتدرس السلطة من منطلق الخاضع الذي تتحكم فيه السلطة وليس من منظور السلطة بحد ذاتها، وقد تبني هذه التعريف دعاة الماركسية الذين يدعمون الطبقة الكادحة، وليس من منظور السلطة، فما هي -حسبهم- سوى مجموعة من القيم والأفكار والطقوس والإجراءات التي تعمل بشكل منهجي ومستمر لصالح بعض الأشخاص أو مجموعات معينة على حساب آخرين، وهو ما يسميه المفكر شات شنايدر: "تعبئة التحيز"، الذين -حسب باخراش وبارتاز- هم قادرون على العمل لصالحهم، فكونهم موجودون في الفئة المتحكمة جعلهم قادرين على اتخاذ قرارات مواتية لهم، والحد من مجال القرارات داخل المجال الخاضع للقوة، حيث يمكنهم التأكد من ضمان معين لصالحهم⁵.

ويظهر هذا عندما يعرف كارل ماركس السلطة على أنها صراع بين الطبقات، وهي فعل تنظمه طبقة معينة قصد إكراه طبقة أخرى مرتبطة في ذلك تقوم على نظام الملكية الفردية والنظام الطبقي ككل، مناديا بضرورة إزالة الطبقات حتى تتمكن البلوريتاريا (الطبقة الشغيلة) من السلطة باعتبارها الأكثر عددا وتقضي على طبقة الملاك

¹ - رعد عبد الجليل، المرجع السابق، ص 31

² - ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 45.

³ - نيكولا ميكافيلي: الأمير، تر: أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 2004، ص 86-88.

⁴ - شاهر إسماعيل الشاهر: دراسات في الدولة والسلطة والمواطنة، منشورات المركز الديمقراطي العربي، ط1، برلين، 2017، ص 123.

⁵ - Gay Rocher : Droit, Pouvoir, et Domination, édition Chicoutimi, Canada, 2004, p 13-14.

وتستولي على عمليات الإنتاج، وهنا يزول نظام السلطة، وليس زوالا بالمعنى الدقيق، إذ تقوم في مكانها هيئة تعرف باسم " إدارة الأشياء المشتركة"، وهي مهما كانت ماهيتها أو صلاحياتها إلا أنها تبقى نوعا من السلطة¹.

ويجمع مختلف المفكرين الذين اهتموا بدراسة السلطة على أنها واجبة الحصول وضرورية، يستند وجودها إلى النفوذ التي تقيمه معايير ومعتقدات وقيم المجتمع الذي تمارس فيه، ويستند وجودها كذلك إلى كون المجموعات الاجتماعية تقبل صراحة أو ضمنا رؤساء وحكام وقادة يتم الاعتراف لهم بحق إعطاء الأوامر إلى أعضاء المجموعة الآخرين لدفعهم إلى عمل ما لم يكونوا ليفعلوه دون ذلك، ونطلق هذا في الأساس من حالة نفسية مفادها أن لهؤلاء الشرعية فيما يفعلونه أو يأمرهم به².

وبدوره توماس هوبز يرى أن السلطة واجبة، فقد كان الإنسان قبلها يعيش حالة يسودها الخوف والرعب وخطر الموت والصراع الدائم الذي يفضي إلى الحروب والكل كان يتربص بالكل وساد قانون الغاب ولا أحد يأمن على نفسه وماله، وحياة مثل هذه حياة قذرة ومنعزلة ومخيفة، فالكل ضد الكل والكل يتربص بالكل، لذلك بحث الإنسان عن شيء يمكنه من الأمن والاستقرار، فاتفقوا عن التنازل عن جانب من حقوقهم الطبيعية وحرّياتهم لرجل واحد منهم وتعهدوا له بالولاء والطاعة دون أن يحاسبوه، ففي الوضع الطبيعي إدارته تحل محل إرادتهم، وبما أنه ليس طرفا في العقد الذي ارتبطوا به فليس ثمة التزام يلتزم به، وبالتالي تكونت الوحدة واستقرت سلطة هذا التنظيم في شخص الحاكم والسيد³.

وكما قلنا يجمع مختلف المهتمين بضرورة وجود السلطة، وأنها ظاهرة كونية عالمية وجدت على الدوام حيث وجد النوع الإنساني، ومن البلاهة كما يجمع كل المهتمين أن يتساءل المرء لما هنالك سلطة.

وتجدر الإشارة إلى أنه لا يجب الخلط بين الدولة والسلطة، فالدولة نتاج تاريخي للوعي الاجتماعي (الثقافي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي) يتشكل من خلال وجود شعب فوق أرض يتحدد على أرض الواقع من خلال إطار دستوري مؤسسي، يهدف إلى وضع سيادة الدولة موضع التنفيذ في الداخل (في علاقة الدولة مع السلطة وفي علاقة السلطة مع المواطن)، وفي الخارج (علاقة الدولة مع غيرها من الدول)، أما السلطة، فهي كيان

¹ - موريس دوفرجيه، المرجع السابق، ص 110.

² - نفسه، ص 126.

³ - رشوان محمد رشوان، المرجع السابق، ص 100.

سياسي يستمد المشروعية من الكيان التاريخي (الدولة)، بمعنى أن السلطة تجسّد للدولة على أرض الواقع ومحركها، وبالتالي تكون الدولة هي صاحبة الشرعية التي يجب على الجميع الخضوع لها بما في ذلك السلطة، ولكن قد يحدث ألا تكون السلطة ممثلة للكيان التاريخي كقدوم سلطة أجنبية كالاحتلال مثلاً، فتحاول هذه السلطة الفاقدة لهذا الكيان، الحلول محل الدولة وهو ما يدفع إلى الصراع لإحساس المحكومين أنها لا تمثلهم لافتقادها للشرعية¹

2-أنواع السلطة: السلطة عدة أنواع وأصناف وفق مجموعة من المعايير، هي:

2-1-معيّار الشرعية: نجد:

السلطة الشرعية: وهي التي تقوم على أسس معترف بها من قبل أعضاء الجماعة أو على الأقل غالبيتهم، بحيث يكون هناك إجماع ضمني حولها فيما يتعلق بمشروعيتها، ويذهب البعض أن السلطة التي لا تتسم بالشرعية لا يمكن اعتبارها سلطة وإنما هي مجرد قدرة، ويدخل في هذا الاستعمار والاحتلال²، وبالشرعية تتمتع السلطة بالقبول لأنها غير مغتصبة للحكم، ووفق هذا المنظور فإن امتلاك وسائل العنف والإكراه، لا يعني استخدامها في عقاب الآخرين والتنكيل بهم بقدر ما هو احتكار وسائل السلم التي تحقق الطمأنينة في نفوس الأفراد، ومن هذه الشرعية تستمد السلطة فعاليتها ومن هذه الشرعية تستلهم قواعد ممارستها³.

السلطة القسرية: تقوم على العنف وتعتبر القوة بمفهومها الضيق أداتها الأساسية في فرض منطقتها على الجميع، ومن وسائلها: الإكراه، والجلد، والقتل، والتعذيب وإنزال البؤس والآلام والتمثيل بالأفراد، وتعتمد هذه السلطة على الأعوان كالجنود، ولكن هذا الضغط عادة ما يخلق مقاومة تكبر مع مرور الوقت وازدياد التذمر، منطلقة من الخفاء وتتحين الفرص لرد الصاع صاعين، كمقاومة الاحتلال، كما أن هذه السلطة لا تستمر طويلاً حتى وإن بدا الأمر غير هذا، ويكمن السبب في كونها لا تعبر عن روح الجماعة ولا عن روح الدولة⁴.

¹ - شاهر إسماعيل الشاهر، المرجع السابق، ص 124-125

² - سالم القمودي: المرجع السابق، ص 75.

³ - Gay Rocher, Op ; cit, p 41.

⁴ - جون كينيث: تشريح السلطة، تر: عباس حكيم، دار المستقبل ط2، دمشق 1992، ص 32.

السلطة الخيرية: حيث تقوم في الضمائر على كونها قوة يقتضيها الخير العام، وهذا النوع من السلطة ليس غرضه إكراه الآخرين وإملاء الأوامر عليهم، وإنما هي لدوافع إنسانية تريد السمو بالإنسان وحثه على عمل الخير والتعلق به والسعي في مساعدة الآخرين، ومن قبيل هذا، السلطة الدينية¹.

2-2- معيار الرسمية: نجد:

سلطة رسمية: تتمثل في السلطة المركزية التي يتم تعيينها بطرق عدة كالوراثة أو التنازل أو الاستدعاء أو الانتخاب أو التسلط على الحكم، تقوم على القوة بمفهومها الواسع، وتجدر الإشارة إلى أنها قد تكون رسمية ولكنها غير شرعية.

السلطة التقليدية: مثل سلطة القبيلة ففي الغالب لا إكراه أو جزاء إلا الخوف من لعنة الجماعة، فهي نفسية في الأساس، ولعنة الجماعة عند الرجل القبلي بمثابة حكم بالموت عليه، ففي هذه الجماعة يحكم الفرد بالعادات والتقاليد بصرامة مطلقة، وإذا ما خالفهما فإنه يتعرض إلى النبذ، أو ما يمكن أن نسميه حكم بالإعدام².

وتجدر الإشارة إلى أن الحاكم أو السلطان يزداد قوة ونفوذا إذا ما تم اعتباره امتدادا للذات الإلهية واعتبر خليفة الله في أرضه، أو اعتبر نفسه إلهًا.

3- مقومات السلطة ومميزاتها:

- تستمد السلطة وجودها من خلال رضا المحكومين وقبولهم بها: فلا يمكن أن تستمر في حاله رفضهم لها، لذلك تسعى السلطة لانتزاع الاعتراف بشتى الطرق، فقد تستخدم القوة، أو شراء السلم، أو تتوجه إلى بعض الفاعلين في المجتمع كرجال الطرق والزوايا والممثلين للحياة الدينية مهما كان نوعهم، وتلعب الدعاية دورا مهما في هذا القبول.

- احتكار القوة: لا تكفي الشرعية لتستمر السلطة وإنما تستأثر بالقوة كذلك، فلا يمكن التوجه إلى الآخرين وإقناعهم بالتصرف على نحو معين، خاصة إذا كان هذا التصرف لا يتفق ورغبات أولئك الذين يتم

¹ - حسين رشوان، المرجع السابق، ص 75.

² - نفسه، ص 126.

التوجه إليهم، إذا لا بد من وجود ما يجبرهم على ذلك فالسلطة باعتبارها الجهة المخولة الوحيدة لاستخدام القوة، نراها تمازج بين الرضا والإكراه، والشرعية والقوة، وقبولها والخوف منها، ولا يجب فهم القوة بمفهوم ضيق كاللجوء إلى العنف والقتل والكرهية، ولكن القوة متعددة الأوجه، فالقانون والتشريع قوة، وكذلك قوة الساعد، والحكمة والذكاء والبلاغة وحسن الكلام وكثرة الرجال والجنود، والسمعة والأصدقاء والشهرة، والحظ، حتى سمعة اكتساب القوة قوة لأنها ترتبط بأولئك الذين يبحثون عن الحماية والحجة قوة، والنجاح قوة، لأنه ينتج سمعة الذكاء والحظ، وهو ما يدع بأعضاء الجماعة إلى الخوف أو الثقة بصاحب السلطة¹.

- تقوم السلطة على أساس نفسي وعقلي، حيث يعتقد الأفراد بقوتها وقدرتها على فرض الأوامر عليهم بالإكراه، وإن عارض أو حاول بالانعتاق منها والخروج عن السياق الذي رسمته يتعرض لعقوبات، فنجد في الغالب يحاول مجاراتها وعدم الدخول معها في صراع يعتقد في قرارة نفسه أنه سيخرج الخاسر منه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يكون التأثير النفسي في محاولة بعض السلطات الاستعانة بطرف ثالث وهو الدين، فينشر بين الأفراد أن طاعة ولي الأمر واجب لا نقاش فيه وأن الخروج عليه خروج عن الدين وعن الأوامر الإلهية²

ويلحق ماكس فيبر -الذي تعني السلطة لديه كل فرصة لفرض إرادة المرء على الآخرين في إطار علاقات اجتماعية³، على أنها تختار الكيفيات والوسائل المناسبة التي تحقق لها الخضوع والطاعة، ويعدد هذه الوسائل في⁴:

- توافق المصالح: حيث تتحالف مع من لديهم توجه مثلها لتحقيق أهداف مشتركة.

- السيادة بحكم السلطة: السمع والطاعة.

- ادعائها أنها تناضل من أجل حفظ السلم ورد العدوان.

- السلطة إنسانية تفاعلية: إنسانية لأنها تظهر حيثما ظهرت المجتمعات الإنسانية، وتفاعلية لأنها علاقة جماعية، بمعنى أنه لتكون هناك سلطة لابد من أطراف متعددة تشترك فيما بينها، الحاكم والمحكوم، حيث تتفاعل لإنتاج هذه الظاهرة.

¹- Tomas Hobbes : Léviathan, tr : Philippe Folliot, édition l'Homme, paris, 2002, p 77-78.

²- سالم القمودي، المرجع السابق، ص 9.

³- Gay Rocher, op ; cit, p 8

⁴- ماكس فيبر، المرجع السابق، ص 175.

- تنظيمية: هي علاقة تعتمد على التنظيم لتسيير مختلف أجزائها التي تحتاج إليه، خاصة وأنها وجدت لتحقيق التنظيم، ويحقق التنظيم للسلطة غرضين اثنين: الخضوع الداخلي للأعضاء لمطالب وأهداف التنظيم، بالإضافة إلى رسم العلاقة مع الأطراف الخارجية¹.

- التمايز: لا يمكن أن تتحقق سلطة البعض على البعض في ظل التماثل، إذ لا بد من تمايز وتفاضل بين الأعضاء قصد توجه أصحاب الميزة على الآخرين، فالذين يتمسكون بالسلطة تمنحهم البروز والتميز والتفوق على الغير.

4- السلطة والاقتصاد: يشكل الاقتصاد دعامة أي مجموعة، فدون وجود مورد مالي لازم لتحريك الحياة يصبح أمر الجماعة معقدا، كما أن المتحكم في مصادر المال يمكن له فرض نفسه على الآخرين، ويمرر أطروحاته وأفكاره ومشاريعه، كما يمكن استخدام الاقتصاد كنوع من الضغط والإكراه، وبما أن السلطة تحاول فرض نفسها على الآخرين فإنها تسعى دائما في التحكم في الاقتصاد وموارده ومن ثمة إعادة توزيعها وفق ما تراه مناسبا لها، فالاستيلاء على الأرض مثلا يجعل أمر المحكومين في يد السلطة أو مراقبة النشاط الاقتصادي المجتمع، لذلك يعتبر هذا الأمر هدفا رئيسيا يسعى إليه كل راغب في السلطة وما في ذلك شك².

5- السلطة والأمن: يعتبر الأمن هاجس السلطة الأول وأكثر ما ترتعب منه، ويشكل مصدر قلق دائم لها، وبالتالي فهي لا تتوانى ولا تغفل عن تكريسه لحظة واحدة، ولا تتسامح عن كل صغيرة أو كبيرة تتعلق به، وتبحث جاهدة وباستمرار عن كل السبل الكفيلة لتحقيقه، وضمان ولاء الخاضعين لها، وتستعمل في هذا كل عناصر القوة المتوفرة لديها من عنف وإكراه وشراء ومهادنة والتحكم بالاقتصاد والدعاية وغيرها مما قلناه في القوة، وتعتبر اللحظة الحرجة عند السلطة هي محاولة كسر جدار الأمن أو حتى محاولة خدشه، أو ما يمس شؤونته ولو كان تافها، لذلك تراقب كل شيء من بعيد ومن قريب لتتقضى في الوقت المناسب³.

لذلك نجد السلطة ترفض أي معارضة لأنها تعتبر محاولة لتهديم جدار الأمن الذي تحرص السلطة باستمرار على بقاءه قويا متماسكا، ولكن بالرغم من الاحتياطات المتخذة إلا أن المعارضة موجودة مهما حاولت السلطة

¹ - رعد عبد الجليل، المرجع السابق، ص 123.

² - نفسه، ص 128.

³ - سالم القمودي: العدل والحرية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، مصر، 2004، ص 63.

قمعها، لأنها شيء طبيعي في نفسية الأفراد، هذا الأخير الذي يرفض الخضوع والانقياد، ما لم يصاحبه يقين واقتناع عقلي ونفسي بشرعية السلطة المركزية، كحق لأصحابها، وبشرعية الخضوع كواجب لتنفيذ هذا الحق¹.

6- علاقة القبيلة والسلطة:

يعتبر رصد العلاقة بين القبيلة والسلطة أمرا في غاية الصعوبة، لما بينهما من تداخل، فالقبيلة في أصلها لديها سلطة، ولكن سنقوم هنا بإعطاء لمحة تمهيدية لما سندرسه في الفصول اللاحقة، باعتبارنا تطرقنا إليها سواء بدراستنا للعلاقة بين القبيلة والسلطة العثمانية أو الفرنسية.

يمكن لنا تمييز نوعين من العلاقة:

6-1- علاقة تعايش: حيث تستمر القبائل بعد قيام السلطة المركزية، مع تقاسم للسيادة على بعض المستويات، فتمارس القبيلة سلطة محدودة محلية على مجال معين، أما السلطة المركزية فتمارس سلطة واسعة بصلاحيات واسعة أيضا، تشمل في طياتها السلطة المحلية التي تمارسها القبيلة، حيث تعترف هذه الأخيرة بها اعترافا يتراوح بين الاعتراف الكلي والجزئي، يتناسب في ذلك طرديا مع قوة وضعف كلا الجانبين، ففي الوقت الذي تكون فيه السلطة المركزية قوية قادرة على إيصال يدها نحو جميع القبائل، نراها خاضعة أو على الأكثر متحالفة بحثا عن المصالح في المقام الأول، أما إذا رأت القبائل ضعفا في السلطة أو تراخيا فإنها تسعى للعب أدوار أكثر تأثيرا وحضورا حيث تبدأ في التمرد والانفلات، وتلعب التضاريس دورا مهما لا يستهان به في هذا، حتى أنه يمكن القول لا إمكانية دراسة العلاقة بين القبيلة والسلطة دون الأخذ في عين الاعتبار العامل الطبيعي (التضاريس)، فكلما ابتعدت القبائل عن مركز السلطة، أو سكنت تضاريس وعرة إلا وكانت لها الأفضلية لتصبح متمردة أو باحثة عن الاستقلال، وإذا ما تطور ضعف الدولة، فإنه تظهر القبائل الطموحة لتبدأ المرحلة الأولى في نشوء الدول، ولكن على العموم هناك اعتراف بالسلطة المركزية من قبل القبائل في كل الأحوال تقريبا، حتى من تلك القبائل الكبيرة التي بإمكانها إحداث الفارق، ولو كان هذا ضمنيا وشكليا، وفي ظل هذا، يواصل أفراد القبيلة ممارسة حياتهم التي ألفوها دون إحداث تغيير كبير، فالسلطة في الحالات العادية متغير لا تأثير له، ولكن يكون لهم ممثل "الشيخ" أمام السلطة المركزية، يدافع عن مصالحهم يبين أحوالهم ويدفع الضرائب، وتكفل بكل ما

¹ - سالم القمودي، سيكولوجية السلطة، المرجع السابق، ص 10.

يمكن أن يشكل اعترافا بالسلطة، هذا التعايش يجب أن يحكم ببعض القواعد خاصة فيما يتعلق بتقاسم المصالح والأدوار¹.

6-2- علاقة صراع: ولكن مهما يكن فإن في هذا النسق التعايشي، يطرح سؤال الانسجام، فالسلطة المركزية لا تحبذ التقاسم والمشاركة مع قوى أخرى في المجال نفسه، ومع كيانات جهوية مختلفة، مخافة العنصرين السابقين الذين ذكرناهما بالدرجة الأولى وهما الاقتصاد والأمن، فإمكان هذه القبائل عند إحساسها بقوتها هي أو بضعف السلطة أن تسعى لكسر جدار الأمن مما يهدد الدولة أو تقوم باقتسام الأموال وعائدات الأرض والضرائب معها، في الوقت الذي تعتقد فيه السلطة أن هذا من حقها الذي لا يمكن أن ينازعها أحد آخر إياه².

حيث تقوم السلطة وباستعمال الأساليب التي تحدثنا عنها (الإكراه)، أن تحول وتقوض وتمش شيئا فشيئا الأنظمة القبلية بما يتماشى مع مصالحها، حيث تعتبرها خطرا أو غير جديرة بالبقاء، ففي الحالة الأولى تسعى إلى ربطها بمصالح أو مهاندتها أو فرض حصار عليها والتحكم في أساليبها للبقاء أو ما يمكن أن نسميه حصارا خاصة اقتصاديا وهنا لا تختف القبيلة ولكن يتم التحكم فيها، وفي الحالة الثانية تعتبرها نظاما باليا لا يتلاءم والتطورات البشرية الحاصلة، بحكم أن القبيلة نظام مغلق على ذاته، لا يمنح الفرص الكافية للتطور والازدهار لذلك يجب القضاء عليه والعمل على انقراضه وتبديله، وفي طريق مقاومتها (القبيلة) للتغيرات التي تطرأ فإنها تنفتت وتهشم، مما سيؤدي بها في نهاية المطاف للزوال³، وعلى العموم يقول يزيد بن هونان: "يعتقد بعض المؤرخين والمهتمين بالنظام القبلي أن القبيلة والدولة (السلطة المركزية)، كبنيتين اجتماعيتين هما على تضاد"، وهذا التضاد يتناسب مع أساليب الضغط والإكراه، وخير مثال نقدمه هنا حالة القبيلة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر كما سنرى لاحقا⁴.

ورغم ما بينهما من حساسية بحكم أنهما في الجوهر سلطتين وما ينتج عنهما من تضاد إلا أنه لا يمكن إخفاء أن القبيلة هي مرحلة من مراحل نشوء وتبلور السلطة المركزية والدولة، فالرياسة كما يقول ابن خلدون في العصبية الأقوى.

¹ - موريس غودلييه، القبائل في التاريخ وفي مواجهة الدول، تر: خليل احمد خليل وغازي برو، دار الفارابي، ط1، بيروت، لبنان، 2015، ص 47.

² - Yazid ben Honnet, Op , cit, p 9.

³ - موريس غودلييه، المرجع السابق، ص 48

⁴ - Yazid ben Honnet, Op, cit, p 13.

المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية لقبائل سطيف خلال القرن التاسع عشر

يتطرق هذا الفصل إلى دراسة منطقة سطيف من الناحية الجغرافية والتاريخية، حيث كانت هذه المنطقة من أقدم المناطق التي استقطبت السكان، كما يقدم لمحة عن القبائل التي استوطنت هذه المنطقة خلال القرن التاسع عشر من حيث المجال الجغرافي والأصل والتركيب السكانية، معرجا على مختلف الجوانب الحياتية الثقافية منها ولاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة فيها.

المبحث الأول: أصل القبائل وحدودها:

1- لمحة جغرافية وتاريخية عن منطقة سطيف:

تقع منطقة سطيف على بعد 300 كلم شرق العاصمة الجزائر، واسمها مشتق من الكلمة الرومانية ستييفيس، التي تعني التربة السوداء، وقد عربت هذه الكلمة وأصبحت سَطِيف، كما يقول ياقوت الحموي: "بفتح أوله وكسر ثانيه، ثم ياء مثناه من تحت وآخره فاء"، وهذا هو اسمها إلى اليوم، والوحيد الذي يذكر هذا الاسم بطريقة مخالفة هو بن العطار، حيث جاء "أصديف" حين تحدث عن ثورة ابن الأحرش، وهو اسم أقرب منه إلى العامية وما هو متداول على شفاه الناس¹.

1-1: جغرافية المنطقة:

التضاريس: تمتد حدود سطيف من صدوق (بجاية) وفج مزالة (بميلة) مروراً بخراطة وشيفرول (بني عزيز) شمالاً، ومن الخط الرابط بين نقاوس ومسيلة جنوباً، والخط الرابط بين نافرين (بير العرش) شرقاً، والياشير وبرج بوعريش غرباً، وتربع المنطقة على مساحة تقدر بحوالي 13 ألف كلم².

إن ما يمكن ملاحظته حول منطقة سطيف من الناحية التضاريسية، ذلك التنوع الذي تتميز به، حيث تختلف مظاهر السطح من الشمال إلى الجنوب، ما بين سلاسل جبلية، وسهول، وهضاب ومنخفضات، وغيرها، ولكن على العموم فالمنطقة عبارة عن سهل واسع على امتداد البصر، تغلقه سلسلتين جبليتين ضخمتين، من الشمال والجنوب، فالجهة الشمالية يغطي عليها الطابع الجبلي، يتمثل في سلسلة جبال بابور الكبرى التي هي بدورها جزء من سلسلة الأطلس التلي، ومن الجنوب مغلقة بجبال بوطالب التي تفضل منطقة سطيف عن الحضنة.

¹ - أحمد بن المبارك بن العطار: تاريخ بلد قسنطينة، تح وت: عبد الله حمادي، دار الفائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 117.

ففي المنطقة الشمالية، حيث تتركز قبائل بابور وعموشة وبني ورثلان وساحل قبلي وبني يعلى وحتى فرفور، وكلها جبال تمتد نحو الشرق، بقمم بأسماء متعددة، كقمة بابور 2004 م عن مستوى سطح البحر، وأضرار أملال (خراطة) 1995م عن مستوى سطح البحر، وتابابورت 1969م، وتستمر هذه السلسلة لتضم جبل بوعنداس، وتاقينطوشث 1664، وثارمونت 1330م، ويخترق هذه السلسلة الجبلية وادي أغريون، وجبل ترونة الذي ينحدر بشكل حاد عند واد صالح الذي يلتقي بوادي بوسلام. وعلى بعد سبعة فراسخ من هذه السلسلة نجد سلسلة أخرى وهي سلسلة جبال مجونس، التي تضم جبل مغرس 1700م عن مستوى سطح البحر، وجبل عيني (فرفور)، وطافات، حيث يواصل وادي بوسلام اختراقه لهذه السلسلة أيضا¹.

وفي الجنوب تمتد سلسلة جبال بوطالب، وهي بدورها تتكون من سلسلتين، الأولى تضم عدة قمم كجبل زديم (ريغة الظهارة) 1160م عن مستوى سطح البحر، وجبل يوسف 1442م، وغيرها، وإلى الجنوب من هذه السلسلة نجد جبل أولاد تبان 1740م، وجبل بوطالب 1932م، تتخللها بعض الوديان والسبخات المالحة وهي تنتمي إلى سلسلة الأطلس الصحراوي².

وبين هاتين السلسلتين تتمركز منطقة الهضاب العليا التي لا يتعدى معدل ارتفاعها 900م، وهي مناطق سهلية بترية خصبة، تصل إلى أقصى اتساع لها في سهول مجانة، ومن مجانة إلى بير العرش، مروراً بمدينة سطيف، وقبائل عامر والعلمة والغرازة³، وهي تمتد مد البصر دون وجود عائق طبيعي، يصفها شارل فيرو فيقول: " وفي الربيع عندما يصل المحصول إلى طول معين بعد هطول أمطار خفيفة، فإن سهول سطيف التي تمتد إلى ما لا نهاية تقدم مظهرها شبيهاً ببحر من الألوان المتألئة"⁴.

المناخ والغطاء النباتي: ما يقال عن التضاريس يقال عن المناخ، الذي بدوره متنوع ما بين شمال وجنوب المنطقة، فالجهة الشمالية منها تمتاز بمناخ البحر الأبيض المتوسط شبه رطب، ممطر بارد في الشتاء، يصل مقدار التساقط فيه إلى حوالي 1200 ملم سنوياً، وتلعب الجبال دوراً في هذا، إذ تقوم باعتراض السحب القادمة من البحر المحملة بالأمطار، مما جعل الغطاء النباتي كثيف ومتنوع ما بين أشجار البلوط، والصنوبر

¹- Charles Féraud: Histoire des villes de la province de Constantine (Setif, Bourdj Bouariridje, M'sila, Boussaâda), typographie et lithographie, L. Arnolt, Constantine, 1872, p 18.

²- Armand Camborieu: Setif et sa Région, les imprimerie Gabelles, Paris, 1978, p 22- 23.

³- ibid, p22.

⁴- Charles Féraud, Op ; cit, p 24.

والقيقب والأرز، والزيتون والتين والزنان، وغيرها في غابات جبال بabor وبني ورثيلان، وبني شبانة، كما عرفت بعض المناطق من هذه الجهة غراسة البرتقال، مثل منطقة عموشة التي كانت وفيرة المطر سمحت بهذه الغراسة على امتداد مساحة 11 هـ¹.

أما في منطقة السهول، فكمية الأمطار معتبرة جدا مثل ما هو الحال في منطقة الجبال الشمالية، ولكن هي عبارة عن سهول قليلة الغطاء النباتي، والغابات فيها شبه معدومة، إلا بعض الأجمات المتزامية هنا وهناك، ولكن على العموم كمية التساقط أثرت إيجابا على النشاط الفلاحي ومعيشة السكان.

هذا، وتعتبر الجهة الجنوبية للمنطقة الأقل تساقطا، فالمناخ قاري شبه جاف، بارد قليل الأمطار شتاء، وحار جاف صيفا، لا يتعدى معدل التساقط سنويا 200 ملم، حيث لا تترك الجبال الواقعة في الشمال الفرصة لمرور السحب المليئة ببخار الماء.

ورغم هذا، فإن الغطاء النباتي كثيف في الجبال على غرار جبال بوطالب، ففي مجال ريفية مثلا مثل غابات العوسبة مساحتها 12886 هـ، تقدم مختلف حاجيات السكان، وغابة جبل نسور، كما توجد نباتات المناطق السهلية، التي توفر حاجة السكان من الرعي.

الشبكة المائية: انعكست كمية التساقط على نشوء شبكة مائية لا بأس بها، تراوحت بين الوديان، والآبار والعيون، ساهمت في توفير مصادر المياه اللازمة للسكان.

الوديان: توجد في المنطقة العديد من الوديان، ولكن الملاحظ أن أغلبها مؤقت الجريان، ففي فصل الشتاء حين تتساقط الأمطار وتغطي الثلوج قمم الجبال، تجري الوديان بالمياه، وكلما اقترب فصل الصيف وقل التساقط وكثر تبخر المياه إلا وتتضاءل كمية المياه الموجودة في الوديان حتى تجف²، ومن بين الوديان الموجودة نذكر: وادي فرماتو، وادي قرقور، وادي بن ذياب، وادي بورديم، وادي السير الذي تدفقه 8 ل/ثا، وادي غوسيمة تدفقه 15 ل/ثا، وادي راس الماء، تدفقه 20 ل/ثا، وقد تقاسم السكان هذه المياه وجعلوا بينهم أدوارا وأقاموا على ضفافها حدائق وبساتين وعلى مياهها مطاحن الحبوب³.

¹- Maurice Villard et Yves Bassard : les villes des Hautes Plateaux Sétifiens, T2, Paris, 2002, p 236.

²- Armand Camborieux, Op ; cit, p 29.

³- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Guebala, N 16, p 49.

هذا، ويبقى وادي بوسلام الأكبر والأكثر شهرة، فهو ينحدر من مقرس وتغذيه خمسة منابع، وهي وادي الموان، ووادي محمد الحناس، ووادي أوريسيا، ووادي قويسات، ووادي فرماتو، التي تلتقي كلها شمال سطيف، مشكلة وادي بوسلام، الذي يواصل جريانه مخترقا السهول الخصبة لقبيلة عامر، ثم يمر بين جبل طافات وقرقور والغرازة، ثم يمر بوادي الساحل، إلى أقبو ثم يلتحق بوادي الصومام الذي يصب في البحر، وقد أقيمت على ضفاف هذا الوادي الكثير من المزارع ومطاحن الحبوب¹.

العيون: عند اطلاعنا على سجلات السيناتوس كونسيلت وجدنا الكثير من أسماء العيون المنتشرة في كل القبائل، فقبيلة عامر القبلة فيها 32 عين عالية التدفق ونافورة رومانية، منها 9 عيون في دوار أولاد عدوان، وأولاد علي بن ناصر، و3 في أولاد منصور، و2 في بن ذياب، و4 في قجال، و5 في أولاد صابر².

الشطوط والسبخات: تنتشر هذه المجالات المائية في القبائل الجنوبية للمنطقة على غرار ريغة، حيث التربة ملحية، فتمتلى في فصل الشتاء وتجف في فصل الصيف كاشفة عن ثروة من الملح التي يستغلها السكان، ومن هذه السبخات نذكر: شط الحميات، وشط ملول، وسبخة فرايم، وسبخة الحشام، وسبخة عين ملول³.

وفي مجمل القول، فإن هذا التنوع الجغرافي قد انعكس على السكان بطريقة مباشرة، من حيث الأصل والتمركز وطريقة المعيشة، والنمط الاقتصادي والاجتماعي، وألقى بظلاله على العلاقة بين قبائل المنطقة والسلطة المركزية المتحكمة.

1-2- لمحة تاريخية لمنطقة سطيف حتى القرن التاسع عشر:

فترة ما قبل التاريخ: تعتبر منطقة سطيف حسب آخر الأبحاث التي قام بها فريق من علماء الآثار بقيادة البروفيسور محمد سحنوني عام 2019، ثاني أقدم منطقة عرفت نشاطا بشريا في العالم، إذ عثروا هناك على أدوات قطع تعود إلى 2.4 مليون سنة، شبيهة بأدوات الحضارة الألدوانية⁴، كما تم العثور أيضا على

¹- Charles Féraud, Op ; cit, p 22.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Guebala, Op ; cit, p 2.

³- Rapport de s.c de la tribu de Righa Guebala, N 252, p 56.

⁴- الحضارة الألدوانية: تنتسب الحضارة الألدوانية إلى موقع ألدفاي في تنزانيا، وهو موقع بدأت فيه الحفريات منذ عشرينيات القرن العشرين من قبل الباحث ليسوب ليكي، عثر فيه على بقايا آدمية ممثلة في أسطر البوتوكس بوزاي وهو مو هابيليس (الإنسان العاقل)، التي يتراوح عمرها ما بين 1.8-0.4 مليون سنة، أما ادواتها فتتراوح ما بين الحصى المشذب الكروي والشبه الكروي، ففوس يدوية، والحصى المشذب ذو الوجهين، للمزيد ينظر: محمد سحنوني: ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص 83-92.

بقايا عظام حيوانات تحمل علامات قطع، مما يثبت وجود نشاط بشري هناك، وقد كانت هذه الحفريات في موقعي عين لحنش وبوشريط، التابعين إداريا لبلدية العلمة، ولم يكن سحنوني أول من يعثر على هذه البقايا، ولكن كان قد سبقه إلى ذلك العالم السويسري كميل أرمبورج عام 1947، حين اكتشف هذا الموقع الذي كان عبارة عن بحيرة ترسبت حولها بقايا حيوانات ثدية لا تعيش سوى في المناطق الرطبة، كما عثر هناك على صناعة حجرية عرفت بكويرات عين لحنش والتي تعود إلى نهاية الزمن الجيولوجي الثالث¹.

خلال العهد الروماني: عرفت منطقة سطيف خلال العهد الروماني أوج قوتها وازدهارها خلال الفترة القديمة، ولا زالت آثار مدن رومانية شاهدة على هذا الأمر على غرار مدينة جميلة، أو كما كانت تسمى في العهد الروماني كويكول² Cuicul .

تأسست سطيف في عهد الإمبراطور نيرفا (96-98م)، ثم أخذت في التوسع لتصبح واحدة من أكبر المدن الرومانية في شمال إفريقيا، عرفت فيما بعد باسم موريطانيا الشرقية، وقد دخلت سطيف خلال العهد الروماني ضمن خط الليمس الثاني³ (الداخلي) الممتد من زراية شرقا إلى غاية سور الغزلان غربا مروراً بسطيف وحوض مجانة، والذي يرجع البعض تأسيسه إلى عهد الإمبراطور الحادي والعشرين في القنصلية الثانية سيبتيموس سيفيروس (146-211م).

وقد اعتمد الرومان بشكل أساسي على سطيف في خط دفاعهم نظرا لموقعها الاستراتيجي الذي يمكنهم من مراقبة مجال واسع يمتد حتى جبال بوطالب جنوبا وحوض مجانة غربا، ونظرا لهذه الأهمية، فقد عُرفت سطيف كمنطقة دفاعية، حيث تأسست فيها قلاع عدة كقلاع وادي بوسلام وأخرى في قجال لتأمين

¹- C. Arambourg : sur la présence dans le villafranchien d'Algérie de vestiges éventuels d'industrie Humaine Académie science, T226, paris, 1949, p 66.

²- جميلة: كويكول: مدينة رومانية تقع في منطقة سطيف، الجزائر، بنيت في نهاية القرن الأول للميلاد، بلغت أوج قوتها في عهد حكم أسرة أنطون، وهي مدينة كبيرة بشوارع واسعة، توجد بها ساحتان عموميتان، الأولى محاطة بالكابيتول والثانية قاعة اجتماع المجلس البلدي، والكنيسة والمعبد المشيد تكريما لأسرة سواربوس وقوس النصر كراكلا، كما توجد بها حمامات معدنية ودكاكين ومنازل فاخرة صنفت ضمن التراث العالمي من قبل اليونسكو عام 1982م، شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، دار الرائد التونسية، ط4، تونس، 1983، ص 236 237.

³- خط الليمس: هي ثلاث خطوط دفاعية أقامتها الإمبراطورية الرومانية للفصل بين أراضيها وأراضي القبائل النوميديّة المعادية لها، يتكون من مظاهر طبيعية كالجبال والأودية ومصطنعة كالطرق والمراكز العسكرية والأبراج والحصون، نصر الدين تمام: التحصينات العسكرية الرومانية في مقاطعة موريطانيا السطايفية بين القرنين 3 و5م، مجلة الدراسات الإفريقية، ع6، 2018، ص 151-165.

الطرق، كما تم أيضا بناء قلعة فوق ربوة بعين الكبيرة مهمتها مراقبة الطريق بين سطيف والمدن الكبرى بالخصوص بجاية (صلداي).

ثم تطورت سطيف في القرن 2م، وشيدت قلاع أخرى للربط بين بجاية وسطيف وجميلة، كقلعة تبعد 4 كلم على عين أزال على الطريق الرابط بين سطيف ونقاوس (Nicibus)، وطبنة (Thubunane)، كما أشرف الإمبراطور كلاوديوس بيريننيوس Claudius Perperius (184-185م) على بناء عدة قلاع في المنطقة إثر الحروب التي خاضها ضد قبائل المنطقة ولكن يجهل موقعها، وإضافة إلى القلاع، نجد عدة حصون مثل حصن حمام قرقور الذي بنته الفرقة الأغسطية الثانية الذي أقيم لحماية سطيف من القبائل الواقعة في الجهة الشمالية لوادي بوسلام¹.

موريتانيا السطايفية: تأسست موريتانيا السطايفية بعد الإصلاحات الإدارية التي قام بها الإمبراطور ديوقليسيانوس (285-305م)، وكان ذلك عام 290م، وأسند حكمها إلى القائد فلافيوس بيكاوريوس Flavius Pecauius، أما حدودها هذه فقد امتدت من جيحل إلى صلداي شمالا إلى الحصنة جنوبا²، إلا أنها لم تهدأ أبدا بفعل هجمات القبائل النوميديّة التي سكنت جبال بابور وضواحيها، ونظرا لموقعها الاستراتيجي فقد اختارها أثناء حربه ضد فيرموس ثيودور عام 375م، كمركز لقيادته العسكرية ولرسم خططه الحربية عند حملته على موريتانيا القيصرية التي كانت عاصمتها شرشال³.

ولموقعها الاستراتيجي، وترتبطها الخصبة ووفرة مياهها، أضحت سطيف نقطة مركزية، فكانت سوقا رائجة، وقوة عسكرية لا يستهان بها، وهذا ما توضحه نقيشة زراية التي تعود لسنة 202م، تبين وجود نشاط اقتصادي كبير، فقائمة السلع الخاضعة للتعريف الجمركية التي حوّلها كالنبيذ والتمور والمكسرات والأقمشة والحديد والشب كانت تقدّم من كل المناطق من الشمال والحصنة وإفريقيا تبين هذا⁴، كما شُيّدت في منطقة

¹ - نصر الدين تمام، المرجع السابق، ص 151-165

² - مريم صليحة: مقاطعة السطايفية حدودها وسر وجودها، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، م6، ع13، 2018، ص 214-215.

³ - نفسه، ص 223.

⁴ - Pol Troussset : le tarif de Zaria, essai sur les circuits commerciaux dans la Zone Présaharienne in Revue Antiquité Africaines, 2002, p 355-373.

سطيف العديد من المدن، التي لا تزال إلى الآن محل تركز سكاني، على غرار عين الروى (Horrae) التي كانت مدينة فلاحية كبيرة، و(عين الكبيرة) (Thamallula)¹.

خلال العهد والوندالي² والبيزنطي³: تمكن الوندال من السيطرة على شمال إفريقيا بعد طرد الرومان منها، وكانت من جملة ما سيطروا عليه منطقة سطيف التي اتخذوها محطة عبور نحو قرطاج عام 430، ولكن التأثير الوندالي بقي غائبا كونهم لم يملكوا في هذه المنطقة كثيرا، فلم يتعدى وجودهم فيها 451م، ليستولي عليها البيزنطيون فيما بعد والذين شيدوا بها قلعة وأحاطوها بسور عام 539 وكان هذا من قبل الجنرال سليمان Salomon واعتبرت سطيف الممر الرئيسي والمفروض نحو قرطاج، ومع نهاية القرن 5م أصبحت سطيف عاصمة من جديد تضم موريثانيا السطيفية وبقايا موريثانيا القيصرية، واستمر الوجود البيزنطي بها حتى الفتح الإسلامي⁴.

خلال العهد الإسلامي: في العام 642م، وصل أول الجنود المسلمين إلى شمال إفريقيا وبالتحديد مدينة برقة في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ومن بعده عثمان بن عفان، لتتوالى الغزوات بقيادة عقبة

¹ - شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 237.

² - الوندال: قبائل قوية انطلقت من بحر البلطيق، وبلغت سهول الأودور والفيستول الأعلى حوالي القرن الأول قبل الميلاد، ثم تشتتوا ولكن في القرن 2م، التحقت بهم قبائل أخرى كالألان والسواف، ليقتحموا خط الدفاع على نهر الراين في 31 ديسمبر 406 م، ليحتلوا بلاد الغال (فرنسا)، ثم دخلوا اسبانيا في حريف 409، وفي عام 425م تمكن قائدهم غندريك من أخذ مدن قرطاجنة وإشبيلية من الرومان، ثم ورثه جنسريق الذي سار بكل شعبه (حوالي 80 ألف) إلى شمال إفريقيا مستغلا القلاقل والاضطرابات التي عرفتتها، فاجتاح نوميديا، واضطر الرومان إلى توقيع معاهدة عنابة في 11 فيفري 435 التي سمحت للوندال بالاستيطان في مقاطعات موريثانيا الثلاث باعتبارهم متحالفين، ثم واصل الوندال زحفهم واستولوا على قرطاجنة في 19 أكتوبر 439م، وقد واصل خلفاء جنسريق التوسع، فاستولوا على روما نفسها بعدما تمكنوا من تحطيم الأسطول الروماني في 468م، وقد أسس الوندال دولة في شمال إفريقيا لما يقارب القرن، للمزيد، راجع شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 32 351.

³ - البيزنطيون: تأسست الأمبراطورية البيزنطية في عام 395م، منفصلة عن الإمبراطورية الرومانية بعد قيام الإمبراطور دوقلسيانوس بتقسيم الإمبراطورية الرومانية عام 285م، وعرفت أيضا باسم بيزنطة والإمبراطورية الرومانية الشرقية، عاصمتها القسطنطينية، وقد استمرت حتى عام 1453 تاريخ تمكن محمد الفاتح منها، وقد تعرضت إفريقيا الشمالية للاحتلال البيزنطي بداية من سبتمبر 533 في عهد الإمبراطور يوستينيانوس (482-565)، حين تمكن القائد بليزار من النزول في شواطئها، ليتوسع على كامل المنطقة بعد نجاحه في العديد من المعارك كمعركة فتح الله على الوندال، ثم ما لبث أن نظم إفريقيا، حيث قسمها إلى سبع مقاطعات تحت إمرة ثلاثة قناصل، مع حاكم عسكري واسع النفوذ، وقد خلف الاحتلال البيزنطي عمارة عسكرية في الغالب كالحصن الموجود في قلب مدينة سطيف حاليا، وقد جوبه الاحتلال البيزنطي بمقاومة من قبل البربر، حيث تمردوا في المراق، ونوميديا، كما واجه القائد البيزنطي سليمان مقاومة شرسة في جبال الأوراس، قرب واد بورغال، ولكنه تمكن من الانتصار على بيداس واستولى على المنطقة وأحرق المحاصيل، وقد بقي الحكم البيزنطي قائما حتى الفتح الإسلامي لبلاد المغرب بداية من عام 642 م، للمزيد راجع، شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 355-386.

⁴ - مريم صليحة، المرجع السابق، ص 224-225.

بن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير وغيرهم، معلنة عن بداية عهد جديد للمنطقة وهو العهد الإسلامي، حيث خاضت الجيوش العربية المتلاحقة على مدار سبعين عاما تقريبا العديد من المعارك انتهت بالسيطرة الكاملة على المنطقة واقتناع البربر بالإسلام والدخول فيه ومساهماتهم في الفتح ونشر الإسلام¹.

وقد دخلت سطيف في حكم كل الدول التي قامت في المغرب الإسلامي، انطلاقا من الأمويين (41هـ-132 / 662-750م) والحماديين (1014-1152م) وآخرهم الحفصيين (122-1574)، وتعتبر الدولة الفاطمية² أشهر هذه الدول بحكم أن مكان تأسيسها كان في ايقجان ناحية بني عزيز³، حيث كانت سطيف من أهم القواعد التي ارتكزت عليها هذه الدولة، فبمساعدة داوود بن حياصة اللهيصي بقيت سطيف موالية لعبيد الله المهدي الشيعي، واعتبرت من أولى الثمار التي قطفها الداعي من دعوته ومن أهمها⁴، كما شهدت المنطقة توافد الكثير من القبائل العربية ولاسيما الهلاليين في القرن الخامس هجري الذين صبغوا أجزاء كثيرة منها بعاداتهم وتقاليدهم.

وقد ذكرت سطيف في كتب الرحالة المسلمين الذين زاروا المغرب الإسلامي، في وقت لم تذكر فيه مدن أخرى ستتبوأ المكانة فيما بعد، ومن جملة من ذكرها يعقوبي (ت 284هـ) قائلا: "ومدينة يقال لها سطيف بها قوم من بني أسد بني خزيمه، عمال من قبل بني الأغلب"، والملاحظ على هذا المؤرخ الرحالة أنه

¹ - حول الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، راجع: ابن عبد الحكم (ت 871م): فتوح إفريقيا والمغرب، تح: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، (د.ت)، حسن مؤنس: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2007.

² - الدولة الفاطمية: (296-559هـ/909-1171م)، اختلف في نسب الفاطميين، فيرجعهم البعض إلى آل البيت، في حين يرجع البعض نسب عبيد الله الشيعي إلى الفرس، مذهبها هو المذهب الشيعي، تأسست عام 909 بعد دعوة أبي عبد الله الشيعي لصالح عبيد الله المهدي في منطقة ايكجان، ببني عزيز، توسعت على حساب المغرب الإسلامي، واتخذت المهدية (تونس) عاصمة لها، ثم القاهرة التي بناها جوهر الصقلي أشهر قادتها بداية من 973م، وقد خاضت الدولة الفاطمية الكثير من الحروب -لفرض نفسها ومذهبها الشيعي- مع الأغالبة، ولاية بني العباس ومع الخوارج، ومع الدولة الإخشيدية التي كانت تحكم مصر، عرفت أوج قوتها في عهد الخليفة أبو منصور العزيز بالله الذي أوصل حكم الفاطميين إلى الشام، وكان آخر خليفة لها هو العاضد لدين الله، حيث سقطت على يد صلاح الدين الأيوبي، لترجع مصر إلى كنف الدولة العباسية. للمزيد حول الدولة الفاطمية، راجع: أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د.ت)، فرحات الدشاوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب التاريخ السياسي والمؤسسات، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1994.

³ - ايقجان: منطقة تقع على بعد حوالي 60 كلم من مدينة سطيف، تابعة حاليا لبلدية بني عزيز، وهي المنطقة التي تأسست بها النواة الأولى للدولة الفاطمية، ولا تزال بقايا قلعتهم قائمة إلى اليوم.

⁴ - موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن 5هـ/ 11م، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1980، ص

ذكر مدينة سطيف، وأن لها تنظيم إداري تسير عليه تابع للأغلبية، في حين لم يذكر مدنا أخرى كبونة (عنابة) والمسيلة وقسنطينة¹.

وقد تطورت مدينة سطيف، والمناطق المحيطة بها، مستفيدة من ترسخ حكم المسلمين، واستتباب الأمن وهو ما نستشفه من الإصطخري (ت 322هـ/ 934م)، حين قال: "إنها مدينة كبيرة بين تاهرت (تيارت) والقيروان وأنها عبارة عن كورة تشتمل على قرى كثيرة متصلة يقطنها أفراد قبيلة كتامة"²، وقد ذكرها الإصطخري بين مدينتين كبيرتين مما يبين وزنها بين حواضر تلك الفترة، فعلى الأرجح كانت نقطة مهمة في الطريق الرابطة بينهما.

ثم عرفت سطيف ازدهارا تماشى مع ما ذكرناه آنفا حول تطور الفتح الإسلامي، فيشير إليها ابن حوقل (ت 367هـ/ 977م) قائلا: "مدينة سطيف مدينة كثيرة الخيرات تقارب ميلة والمسيلة وتصاقب³ قسنطينة"⁴، والملاحظ على ابن حوقل أنه سماها مدينة مما يحوي إلينا أنها قد نمت من حيث عدد السكان ومن حيث المرافق وغيرها.

فترة الرخاء لم تفارق سطيف بل زادت عما كانت عليه، وهذا ما نقله لنا البكري (ت 487هـ- 1094م) مع نهاية القرن الخامس الهجري، فيقول: "ومدينة سطيف على مرحلتين من المسيلة... وهي مدينة كبيرة جلييلة أولية كان عليها سور خربته كتامة مع أبي عبد الله الشيعي، لأنها كانت في الأول لكتامة ثم غلبتهم عليها العرب، وكانوا يعشرونهم إذا دخلوها، وهي اليوم دون سور، لكنها عامرة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار، وبين سطيف والقيروان عشر مراحل وبينها وأقرنة (البليدة) عشر مراحل أيضا، ومدينة تاناجللت (تاجنانت) على مرحلة من مدينة سطيف"⁵.

¹ - العقوي أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر: البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002، ص 190.

² - الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي: المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1937، ص 39.

³ - تصاقب: تجاوز، تقارب، ابن منظور، المصدر السابق، مادة "صقب".

⁴ - ابن حوقل أبو القاسم النصبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992، ص 93.

⁵ - أبي عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، مصر، (د.ت)، ص 76.

نستشف من كلام البكري عدة نقاط: أن سطيف كانت مدينة كبيرة، تطورت عما كانت عليه أثناء مرور ابن حوقل بها، ولكنها تعرضت للتخريب من قبل قبيلة كتامة عام 904م التي ساندت أبو عبد الله الشيعي ولكن خراب سورها لم يكن له الأثر الكبير عليها، فهو لم يجعلها تتراجع أو تتقهقر، كما كانت وجهة للحياة الاقتصادية بكثرة أسواقها التي كانت فيها ووفرة محاصيلها، مما جعل أسعارها منخفضة، وهو الأمر الذي سينعكس إيجابا على المدينة ككل، كما شهدت هذه المدينة هجرات سكانية تمثلت في العنصر العربي وبالتحديد من بني أسد وبني عسلوجة، الذين تمكنوا من السيطرة عليها وفرضهم الضرائب على سكانها من كتامة الذين سيطروا عليها من قبل.

وفي القرن السادس الهجري زارها الإدريسي (ت 547هـ/1151م)، وقال عنها: " وعلى مقربة من بجاية إلى جهة الجنوب حصن سطيف وبينهما مرحلتان، وحصن سطيف كبير القطر كثير الخلق كالمدينة وهو كثير المياه والشجر والمثمر بضروب من الفواكه، ومنها يحمل الجوز لكثرتة إلى سائر البلاد وهو بالغ الطيب، وبين سطيف وقسنطينة أربع مراحل"¹.

أول ما نلاحظه من كلام الإدريسي هو بناء السور الذي تهدم سابقا، فأضحت هذه المدينة حصنا، مع استمرار ازدهارها الاقتصادي، فهي حسنة التربة كثيرة المياه، مما خلق تنوعا فلاحيا، ساهم في سيادة الرخاء، كما نلاحظ بداية بروز مدن كالمسيلة وقسنطينة وغياض أخرى كتاهرت والقيروان.

ويبدو أن سطيف قد حافظت على رخائها وازدهارها حتى القرن الخامس عشر، حيث يذكر القلقشندي (ت 821هـ، 1418م) ما يلي: " وهي مدينة حصينة، بينها وبين قسنطينة أربع مراحل، ولها حصن في جهة الجنوب، تبعد عن بجاية بمرحلتين، ولها كورة تشمل على قرى كثيرة، غزيرة المياه كثيرة الشجر المثمر بضروب من الفواكه، وبها الجوز الكثير ومنها يحمل إلى سائر البلدان"².

ولكن يمكن لنا ملاحظة التراجع الذي بدأ يصيب منطقة سطيف بعد قرون من الرخاء والازدهار حين نقرأ كتاب وصف إفريقيا لليون الإفريقي، حيث يقول عن هذه المنطقة منتصف القرن السادس عشر ما يلي:

¹ - الشريف الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق واختراق الآفاق، تح وتو: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 72-75.

² - القلقشندي أبو العباس أحمد: صبح الأعشى، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، ص 100.

"سطيف مدينة بناها الرومان على بعد ستين ميلا (96.5 كلم) جنوب بجاية، بعد قطع كل الجبال، في سهل جميل جدا، وهي محاطة بأسوار مبنية بحجر جميل ضخمة ومكعب، وكانت في العصور الغابرة متحضرة جدا كثيرة السكان، لكنها انحطت منذ الفتح الإسلامي، وخصوصا عند مجيء الأعراب الذين حطموا جزء من أسوارها، ولم يبق منها سوى مائة دار مسكونة، لكن موقعها الفسيح ما زال قائما كما شاهدت ذلك عند سفري من فاس إلى تونس" ¹.

ويظهر الوزن متحاملا على العرب الذين سكنوا هذه المنطقة، فهم لم يكونوا أبدا وراء انحطاطها، هذا إذا ما قارنا ما نقله مع ما جاءت به كتب الرحالة المسلمين، وقد تكون هذه النظرة التي تبناها - حيث يمجّد الرومان على حساب العرب - نابعة من سببين: اعتناقه للديانة المسيحية، إضافة إلى أن سطيف شهدت بعض فترات التراجع، حين اشتد الصراع عليها من قبل الطامحين في تكوين دول هناك، ولكن رغم تحمل الوزن إلا أن ذلك لا ينفي أن المنطقة كانت كذلك، حيث برزت مدن أخرى على حسابها، فنلاحظ التراجع الريع في عدد السكان، حيث لم يبق سوى مائة دار مسكونة، وهو عدد قليل .

2- قبائل منطقة سطيف خلال الفترة الحديثة:

قبل البدء في استعراض القبائل محل الدراسة، تجدر الإشارة إلى أننا لن نخوض في أصلها إلا بشكل مقتضب بقدر ما يقدم إيضاحا لما سنتناوله ويبنى فكرة أولية عنها، ويرجع هذا لعدة أسباب أبرزها: أن هذا الأمر في حد ذاته بحاجة إلى دراسات وأطروحات خاصة به، فلا يسع المقام إذا لذكر كل تلك الأصول والأنساب، كما أن المعلومات حول هذا الموضوع قليلة، إضافة إلى أن تتبع أصل القبائل في غاية الصعوبة، فتراكم تفاعلات قرون عديدة يُصعّب هذا الأمر، فليس هناك قبيلة تقريبا نقية النسب كما أجمع المتقدمون والمتأخرون من الباحثين حول القبيلة، ونحن نذهب مذهب جاك بيرك، حين يطرح إشكالية مدلول القبيلة في شمال إفريقيا، حيث خلص في دراسته إلى أن القبيلة الشمال إفريقية تتوسع وتنكمش باستمرار بفعل عدة عوامل، الانتصارات والهزائم وتنقلات الغزاة، والعوامل الاقتصادية خصوصا الفلاحية حين تتحكم الظروف المناخية في عملية الإنتاج، وقد كتب إدmond دوتي في كتابه القبيلة: " إن تقسيمات المجموعات الحالية من

¹ - الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983، ص 52-53.

السكان لا تشكل على العموم فروعاً تنحدر من نفس الشجرة، بل هي عبارة عن براعم وتطعيمات ألحقت بفرع أصلي يستحيل تمييزه في بعض الأحيان¹.

هذا، وتتألف منطقة سطيف التابعة إدارياً لمقاطعة قسنطينة من 51 قبيلة²، مع الأخذ في الاعتبار أن سطيف تضم مناطق من بجاية وجيجل وبرج بوعريرج³، ولتغذر أخذ كل هذه القبائل كعينة للدراسة لكثرتها أولاً، وعدم المقدرة على الوصول إلى السجلات التي أرخت لها ثانياً، إضافة إلى وجود قبائل متنوعة تستوفي الشروط فيما تمكنا من جمعه ثالثاً، اكتفينا بدراسة القبائل التي تشكل معظم المجال الإداري لولاية سطيف حالياً، وبالتالي فعيننا تتكون من 16 قبيلة، تمثل جنوب ووسط وشمال الولاية، وهي كالتالي:

1- قبيلة ريغة: يرجع أصلها إلى تمازج عنصرين بشريين هما البربر والعرب، فالبربر ممثلون في قبيلتي صنهاجة، التي كان مجالها يمتد على موقع تأسيس قلعة بني حماد في المسيلة، وقبيلة زناتة التي سكنت منطقة جنوب سطيف إلى نقاوس ووادي ريغ⁴، وحسبما جاء في تاريخ ابن خلدون، فإن صنهاجة من البربر البرانس، ومن أوفرها وأكثرها عدة وعتاداً، فلا يخلو مكان من المغرب إلا ووجد هناك بطن تابع لها، وهم ينتسبون إلى صنهاك أو صنهاج، وذكر الطبري أنهم من صنهاج بن بر بن صوكان ومن بطونهم بلكانة، وأنجفة وملتونة وشرطة وغيرهم⁵، وأما قبيلة زناتة من البربر البتر، وهم جبل قديم العهد معروف الأثر، تشبهوا بالعرب في سكن الخيام، واتخاذ الإبل وركوب الخيل وهم منتشرون أيضاً في كامل بلاد المغرب، مثل جبل أوراس، حيث سكنوا مع الهلاليين الذين قدموا فيما بعد⁶.

¹ - جارك بيرك: في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا، مقال ضمن كتاب التاريخ والأثروبولوجيا، المرجع السابق، ص 115.

² - Abdelkrim Badjadja : Carthographie agraire de l'Est Algérien a la fin de XIX siecle (in geography). Constantine, Département de Geographie Université de constantine, Algérie, 1974, p

³ - ألحقت بجاية بسطيف بعدما كانت تابعة لعمالة الجزائر تنفيذاً لقرار الحاكم العام المؤرخ في فيفري 1850، جريدة المبعثر ع 52، 30 مارس 1850م، أما برج بوعريرج فألحقت بسطيف منذ تاريخ 28 جوان 1856م، كمال بيرم: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحضنة الغربية فترة الاحتلال الفرنسي (1830-1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة، 2011/2010، ص 29، ولهذا نجد شارل فيرو في حديثه حول سطيف في كتابه تاريخ مدن مقاطعة قسنطينة أنه يدرج ضمن قبائل سطيف قبائل تابعة حالياً لبجاية على غرار: بني عيبدل Charles Féraud, Op ;cit, p 90.

⁴ - Rapport de s. c de la tribu de Righa Dahara, N 25, p 14.

⁵ - عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج 6، ضبط خليل شحادة، تع: سهيل زكار، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000، ص 201-202.

⁶ - نفسه، ج 7، ص 3.

أما العنصر العربي المشكل للقبيلة فقد تمثل في قبائل بني هلال، والأثبج وعياد، وأصلهم من الجزيرة العربية، حيث جاؤوا في موجات هجرة كبيرة في القرن 5 هـ، بعدما استدعاهم الفاطميون، وقد كانوا من أكثر فروع بني هلال كثرة، ويقال إنهم ينحدرون من إثبج بن ربيعة بن نهيك بن هلال، كان لهم جمع وقوة فدخلوا المغرب، واستوطنوا مناطق السهوب منها جبال أوراس، مما أحدث عدة صراعات بينهم وبين صنهاجة أنتج تفاعلات عدة، ومنهم الفتاة ذات القصة الشهيرة المعروفة بجازية الهالالية¹.

وقد اختفى ما حدث من صراع وخلافات بين العنصرين، خاصة لما تمكنت الإثبج من تعريب بعض بطون صنهاجة، ليمتزجا ويشكلا معا عنصرا واحدا، معروف بقبيلة ريغة وأضحى جميع سكانها يتقاسمون الماضي والعادات والتقاليد والمورث نفسه دون تفرقة أو إحساس بالاختلاف.

ولكن، لم تكن قبيلة ريغة مشكلة فقط مما ذكرناه سابقا فقد حدثت هناك بعض المتغيرات في أصل السكان بسبب عوامل عدة كالتلاحم والإلحاق، فالحروب والمهجرات والتحالفات كلها ساهمت في استقطاب سكان آخرين منحوا الأراضي وامتزجوا مع العنصرين الأصليين، ومنهم: أولاد بوظهرة الذين قدموا من بسكرة، وأولاد شيبية من ترونة (قبيلة ساحل قبلي)، وأولاد مشته من ناحية قالمه، وأولاد صغير، وأولاد مطاع، وأولاد شكر من الحوامد الحضنة².

وقد استطاعت قبيلة صنهاجة ولفترة من الزمن أن تستأثر بالرياسة حين ارتقى لها يحيى بن مساهل الذي ينحدر من الأمراء الذين أسسوا دولة الحماديين في المسيلة وبعدها ببجاية، وقد خلف 6 أولاد هم: سماعيل، وبراهم، ومحمد، وموسى، وعامر، وعيسى، الذين بدورهم خلفوا ستة بطون هي:

- أولاد براهيم من براهيم.

- أولاد بيبى وزغاية من محمد وسمياعل.

- المواسة، حجاز، بوسلامة من موسى.

- عامر بوضبعة، وأولاد المديير من عامر.

¹ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 30-31.

² - Rapport de s. c, de la tribu de Rigba Dahara, Op ; cit, p 19.

- فريقات من عيسى.

- أولاد محلة من عيسى¹.

خرجت الإمارة من يد أبناء يحيى الحقيقيين وأصبحت في يد أبناء ابنه بالتبني وادفل بن وادفل، ولكن لا ندري بأي طريقة كان هذا الانتقال، وينحدر وادفل من أولاد سيدي بوعبد الله، من مقاطعة الجزائر، حيث أُسر في قسنطينة من قبل السلطات التركية التي كانت معادية لوالده، ونُقل إلى سطيف أين تم إلحاقه بأولاد يحيى، وقد حكم من بعد يحيى كل من أبناء قسوم، ثم مسعود، ثم بوعبد الله، ثم سعادة بن سعد، ثم حفيده محمد بن قسوم، ثم مبارك، وقد مارس هؤلاء كلهم سلطة على القبائل المجاورة لقبيلة ريغة، وكان آخر شيخ ترأس قبيلة ريغة مجتمعة، الشيخ سعد (1813-1819)².

إن التلاحم الذي عرفته القبيلة عمل على درب الصراع بين مختلف أفرادها، لكنه اختفى في القرن التاسع عشر، حيث انقسمت القبيلة إلى شقين: ريغة الظهارة وريغة القبالة.

اندلعت حرب مست القبيلة سواء داخلها بين وحداتها المكونة لها أو من الضغط الخارجي، فمن الداخل، نجد أنه بعد وفاة الشيخ سعد، آخر شيخ كانت له الرئاسة على ريغة مجتمعة، انقسمت وانطلقت حرب بين أبناء العمومة حول الزعامة، وكان هذا بين الشيخ قسوم بن سعد، وغريمه محمد بن المبارك، ليبقى الصراع مشتتاً حتى الاحتلال الفرنسي لمنطقة سطيف وتوسعه فيها، وأصبح قسوم شيخ لقبيلة ريغة الظهارة ومحمد بن المبارك شيخ ريغة القبالة، فحكم بعد محمد بن المبارك مسعود بن سعد وهو آخر شيخ، وحكم بعد قسوم كل من دراجي، الشيخ مسعود، أحمد الشريف، ومحمد الصغير³.

تطور الأمر إلى عداوة واضحة بين الفرعين، وأصبح كل فرع لا يتسامح مع الآخر والتماس بينها لا يكون إلا في حالة الصراع، وهذا ما نقلته لنا إحدى القصائد التي جمعها ألكسندر جولي وقيدها في المجلة الإفريقية، التي تبرز فيها شاعرا الطرفين بأبيات هجاء، فكان الشاعر عبد الباقي من ريغة القبالة يقابله طقيش من ريغة الظهارة، اللذين دخلا في أخذ ورد ناظمين أبيات من الهجاء على غرار ما كان يحدث في الماضي بين القبائل، شعر يعكس الصراع الداخلي للقبيلتين، ولم يجمع ألكسندر جولي هذا الشعر إلا ليعرف مكان القوة

¹- Rapport de s. c, de la tribu de Righa Dahara, Op ; cit, p 22.

²- Charles Féraud, Op ; cit, p 15-16.

³- Rapport de s. c de la tribu de Righa Dahara, Op ; cit, p 25.

والضعف لدى القبائل، ويعرف الصراعات بينها، وهي المعلومات التي يمكن للاحتلال الفرنسي استغلالها للتوسع والسيطرة، ومما جاء من أشعار

من عبد الباقي يهجو ريغة الظهارة:

وين غذيتوا يا قواد الداب يا خدام أولاد يـلس

ما كنتوا مواسيين أرباب ما عليتو من القناطس

قولتو نفاتنو تحت السحاب تحت الغيم اللي مرشرش

عندك سيدي كالـعقاب فرقكم مثل الفـلالس

نهار الخطبة ظالين غواب والشربة بشناش يابس

أداو الزينات من الكتاب وحليمة خذات المويس

أخطيه يا زوجة الصراب ابن جعفر يذكروه فس

عليه الفصحاء جابو ركاب ولا صـابوا من خمس

عمي بيبي راكب داب لوكان من قاري متحلس

وهنا نجد شاعر القبالة يزديري ريغة الظهارة، حيث تمكن أفراد من ريغة القبالة من سبي بعض نساء الصف الآخر، وسبي النساء يعد عارا على القبيلة كونه يمس شرفها وشرف رجالها فعبئ التعبير الرمزي لدى المجتمعات التقليدية للشرف يختزل في المرأة، حيث نرى المسماة حليلة زوجة عامر بن جعفر أشهر لصوص ريغة الظهارة عرش بني شيبية تُسبى ويتم تزويجها برجل من المويس، أي من عرش أولاد موسى بن يحيى وهم من أضعف بطون ريغة الظهارة¹.

¹ - فارس كعوان: ظاهرة اللصوصية وقطع الطريق بمنطقة سطيف من لصوصية السلب والنهب إلى ظهور اللصوص الشرفاء أواخر القرن 19م، مجلة الحوار المتوسطي، م10، ع3، 2020، ص 52.

ليرد عليه طقيش شاعر ريغة الظهارة يهجو ريغة القبالة قائلا:

مانلوم شى خوتى بالهربة	حليل المخلوقات
أهل المالحة الفتانة	وأهل العلوي الأحرار
ما تجهلوا الرجالة	قتلوكم فالدوار
أولاد عيسى بن يحيى	أهل الوطن الجدارات
شراو امهار خمسة خمسة	حواوهم بالحجرات
راهم يجيوا من اللورا	خايفين من الكسرات ¹

ويبرز هذا العداء بين الطرفين أثناء عقد التحالفات القبلية، فلا يتحالف فرع مع أحد ما إلا وتحالف الفرع الآخر مع عدوه، فمثلا لما اندلع الصراع بين أولاد الحاج وابن القندوز من أولاد عبد السلام المقراني وقفت ريغة الظهارة مع أولاد الحاج وريغة القبالة مع ابن القندوز، ثم بعد الاحتلال وقف الشيخ مسعود بن سعد مع الفرنسيين، فيما وقف أحمد الشريف مع الأمير عبد القادر².

1-1-انقسام القبيلة: إذا، وبسبب الصراعات الداخلية والخارجية انقسمت القبيلة إلى فرعين: ريغة الظهارة وريغة القبالة.

1-2-ريغة الظهارة: يقع مجال القبيلة على بعد 30 كلم جنوب سطيف، مساحتها حسب ما قيدت سجلات السيناتوس كونسيلت، 68320 هـ، 74، 18 س آ، يحدها من الشمال قيادة عين تاغروت، وأولاد موصلي وعامر الظهارة، ومن الشرق ريغة القبالة، ومن الجنوب قيادة الحضنة، ومن الغرب أولاد عياض، يبلغ تعداد سكانها 21131 نسمة وهذا سنة 1897³.

1-3-ريغة القبالة: يقع مجالها أيضا على بعد 30 كلم من سطيف، يحدها شمالا كل من دواوير: بن ذياب وقجال، وأولاد صابر من (قبيلة عامر القبالة)، البلدية المختلطة العلمة بحدود مثبتة بقرار مؤرخ في 18

¹- A. Joly : Remarques sur la Poésie moderne chez les Nomades Algériens, in R.A, N 48, 1904. 3-26.

²- Rapport de s.c de la tribu de Righa Dahara, Op ; cit, p 24-25.

³- Ibid, p 6.

ماي 1867م، ومن الشرق دوار بازر التابع لقبيلة العلمة، والبلدية المختلطة العلمة المثبتة حدودها بقرار مؤرخ في 5 ماي 1896م، ودوار بيضاء برج التابع لقبيلة أولاد سلامة سابقا، والبلدية المختلطة العلمة محدود مثبتة بقرار 1 أفريل 1868م، ومن الغرب أولاد تبان وأولاد سي أحمد، وخربة قصر الطير وشط المالح من قبيلة ريغة الظهارة، البلدية المختلطة ريغة، ومن الجنوب قبيلة الحضنة الشرقية، والبلدية الأهلية بريكة، ويبلغ عدد سكانها 8783 نسمة سنة 1867¹.

2- قبيلة عامر: أو وطن عامر حسب الورثاني، قبيلة عامر عربية الأصل، لكنها امتزجت بالعنصر الأمازيغي الممثل في قبيلة كتامة، التي كان مجالها يمتد من جبال بابور وبني عزيز إلى سهول سطيف، وكتامة من البربر البرانس كما يقول ابن خلدون، لكن اختفت جميع الفروق بين الجنسين، خاصة وأن هذه القبيلة تبنت عادات وتقاليد العرب، كما حدث لزناتة، واتخذوا حتى الاسم وأطلق عليها عامر².

بقيت عامر قبيلة موحدة حتى عام 1849، أين تم تقسيمها من قبل الاحتلال الفرنسي نظرا لمساحتها الكبيرة وسهولها الواسعة، والتي كانت محل أطامع الاستعمار الذي كان بحاجة إليها قصد دعم الأعمال الاستيطانية خاصة لتوسعة مدينة سطيف، وهذا، دون أن ننسى موقعها الاستراتيجي، فتم استحداث ثلاث قبائل هي، عامر القبالة وعامر الغرابة وأولاد نابت³، وقد كانت مساحة عامر الإجمالية قبل التقسيم 135000 هكتار، وتجدر الإشارة إلى أن هذه المنطقة آهلة بالسكان قبل العهد الروماني⁴، وبعد التقسيم كانت على النحو التالي:

2-1- عامر الظهارة: يحدها من الشمال قبيلة الدهامشة ومن الشرق أولاد يعقوب وبني مروان والعلمة، ومن الجنوب عامر القبالة وريغة القبالة، ومن الغرب أولاد موصلي وعين تاغروت وأولاد نابت، تبلغ مساحتها 35545 هـ، 184، 38 س آ، بسكان يبلغ تعدادهم 9452 نسمة، وهذا سنة 1867.

¹- Rapport de s.c de la tribu de Rigba Guebala, N 252, p 27.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, N 15, p 1-2.

³- Charales Féraud, Op ; cit, p 86.

⁴- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, 40.

2-2- عامر القبالة: يحدها من الشمال قبيلة عموشة والدهامشة، ومن الشرق عامر الظهارة والعلمة ومن الجنوب ريغة القبالة، ومن الغرب عامر الظهارة، وبلدية سطيف والأوريسيا وتبلغ مساحتها 54030 هـ، 121، 44 س آ، وبلغ عدد سكانها 13043 نسمة منتصف القرن 19 م¹.

2-3) أولاد نابت: تقع هذه القبيلة شمال سطيف، يشمل إقليمها كل من حوض واد خراوة وجميع حوض واد بن حموش وواد بن طريق وصولا إلى واد الروى، تبعد عن مدينة سطيف حوالي 24 كلم شمالا، تبلغ مساحتها 28046 هـ، 79، 50 س آ ويبلغ عدد سكانها 8500 نسمة، سنة 1869².

3-قبيلة قرقور: تبعد قبيلة قرقور عن سطيف بحوالي 60 كلم، يغلب عليها العنصر العربي الهلالي، ومع ذلك فقد توالى الهجرات إليها، وامتزج الجميع تحت قبيلة واحدة، يحدها من الشمال كل من دوازي الماوكلان وتالة ايفاسن من قبيلة الساحل قبلي، ومن الشرق كل من الحمامة وجبل العيني التابعين للبلدية المختلطة عين الروى بحدود مثبتة بقرار 6 جويلية 1870م، ومن الجنوب دوار الغرازة، الذي أسس على أنقاض قبيلة الغرازة، والبلدية المختلطة المعاضيد بحدود مثبتة بقرار مؤرخ في 6 جويلية 1870، ومن الغرب الماوكلان وقبيلة عين الترك، مساحتها 12600 هـ بمجموع سكان يبلغون 4860 نسمة³.

4-قبيلة عموشة: تقع عموشة على بعد 20 كلم من سطيف، يحدها من الشمال بني مرعي وأولاد صالح، ومن الشرق قبيلة بابور والدهامشة، ومن الجنوب دوار أولاد علي بن ناصر وأولاد عدوان المنتمين لبلدية أوريسيا (قبيلة عامر الظهارة سابقا) ومن الغرب أولاد نابت وساحل قبلي، سكانها مزيج بين العرب والبربر، فالذين يسكنون النواحي المجاورة لجبال بابور من البربر والذين يسكنون الجهة المجاورة لسطيف من العرب⁴، ويذهب هانريش فان مالتسان إلى القول أن بعض سكان هذه المنطقة ينحدرون من أصول فندالية، لاسيما الفرع المسمى الحوامر، المتميزين بالشعر الأصفر والعيون الخضراء، وقد قدم إلى سطيف ليتأكد من هذا، فيقول: "ولكن أكثر من استولى على انتباهي ممن حضر إلى السوق (سوق سطيف) من القبائل المتعددة يتمثل في عموشة أو بالأحرى ذلك القسم من هذه القبيلة الذي يسمى بني الحوامر... ينحدر من صلب أولئك الذين احتلوا الجزائر لمدة مائة سنة، أعني الفندال، فقد كنت أتأمل باهتمام كبير، بل بعواطف حارة

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Guebala ; OP ; cit, p 1.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Ouled Nabet, N 228, p 23.

³- Rapport de s.c de la tribu de Guergour N 134, p 15-17.

⁴- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, N 17, p 3.

حالة هؤلاء الذين يمكن أن يكونوا من أبناء قبيلتنا"¹، وتبلغ مساحة عموشة 18382هـ، 55 آ، بعدد سكان تعدادهم 4428 نسمة، وهذا سنة 1868².

5- قبيلة ساحل قبلي: تقع في الجهة الشرقية للبلدية المختلطة فرفور تبعد عن سطيف بحوالي 60 كلم، سكانها مزيج بين العرب والأمازيغ، مع غلبة لهذا العنصر الأخير، يحدها من الشمال قبيلة بني سليمان (البلدية المختلطة وادي المرسى)، قبيلة بني شبانة (البلدية المختلطة فرفور)، قبيلة بني اتيزي (البلدية المختلطة وادي المرسى)، ومن الشرق دوار جرمونة (البلدية المختلطة وادي المرسى)، والمركز الاستيطاني خراطة، والبلدية المختلطة عموشة، والدواوير الشرفة والعيني (قبيلة أولاد نابت)، وقلعون وتاقيطونت (قبيلة عموشة سابقا)، ومن الجنوب قبيلة فرفور وقبيلة عين الترك ومن الغرب قبيلة بني يعلى (البلدية المختلطة فرفور)، ولا يحتفظ سكانها بأي معلومات حول تاريخهم، يغلب عليها الطابع الجبلي، ويرجح -بالنظر إلى الآثار التي وجدت-، أن الكثير من الحضارات قد تعاقبت عليها وتركت بصمتها فهي مأهولة على الأقل منذ القرن 6م، والملاحظ على هذه القبيلة مساحتها الضخمة جدا، تبلغ 99475هـ بسكان يصل تعدادهم إلى 915127 نسمة، وهذا سنة 1886³.

6- قبيلة العلمة: تقع العلمة على بعد حوالي 25 كلم عن سطيف بالمحاذاة من الطريق الإمبراطوري رقم 5 (الطريق السلطاني سابقا)، وتمتد هذه القبيلة على سهل واسع، من جبل ستيتة وساحة واد جرمان والبحيرة المالحة المسماة شط سعيدة شرقا، إلى هضبة عامر والبحيرة المالحة شط الغرام غربا، وإلى المنحدرات الجنوبية لجبال أولاد بوخلوف وبني مقران، المتداول في الرواية الشفهية للسكان فأن أصلهم يرجع إلى قبيلة زناتة⁴، يرجع أصلها حسب ابن خلدون إلى القبيلة البربرية كتامة⁵

ويعتقد سكان هذه القبيلة أن اسم قبيلتهم مشتق من كلمتين هما: على والماء، علمة، أي أن القبيلة تقع فوق المياه، وهذا مرجح كون المنطقة غنية بالشبكة المائية الجوفية والسطحية، ولكن هناك رواية أخرى تقول

¹ - هانريش فان مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ج1، تر: أبو العيد دودو، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص171-172.

² - Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 4-5.

³ - Rapport de s.c de la tribu de Sehel Guebli, N 254, p 564-565.

⁴ - Rapport de s.c de la tribu d'Eulma, N 124 ; p 16.

⁵ - عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص 145.

أن هذه التسمية ترجع إلى شخص يسمى منصور العولمي، قدم من بجاية واستقر في جبال براو، فأطلق اسمه على هذه المنطقة، ثم خرجت فرقة منه واستقرت في بلزمة، كما أن هذه المنطقة شهدت الكثير من الهجرات كونها أرض جاذبة للسكان، فقد قدم إليها مثلاً أولاد سعيد بن سالم¹.

تبلغ مساحة هذه القبيلة 45089 هـ، 76 آر، مقسمة ما بين أرض تل وأرض سبخات، فنجد مثلاً دوار البلاءة يقع في الجهة التلية أما بازر فثلاثة أرباعه سيخ والباقي تل، والجهة التلية غنية والأرض خصبة وجيدة جدا لزراعة الحبوب، أما جهة السبخات فهي قليلة الخصوبة، ولكن على العموم محاصيلها جيدة، وفيما يخص عدد سكان هذه القبيلة فقد بلغ 10000 نسمة في ستينيات القرن التاسع عشر².

7- قبيلة الدهامشة: تقع الدهامشة شمال شرق سطيف، تبعد عن هذه الأخيرة بحوالي 28 كلم، كانت موطن قبيلة كتامة الأمازيغية، يحدها من الشمال قبيلة بابور ومن الشرق الطريق لرأس فرجوة، أما من الجنوب فيحدها دوار مجونس، ومن الغرب المركز الاستيطاني بيرغوفيل (عين الكبيرة)، والبلدية المختلطة عموشة³.

توالت الهجرات إلى هذه المنطقة، ليمتزج السكان ليشكلوا قبيلة واحدة، ومن الذين قدموا إليها بني سكفال وبن عيسى من العوانة وزيامة من ساحل البحر بجيجل، ومعاوية أصلهم من أولاد نايل (أولاد حاسي)، وعميرة من جبال عمور، والدعاسة الوغنيون من بوازيد بسكرة، والصبايحية من المغرب الأقصى، وأولاد سي هلال من بوطالب، كما قصدها بعض السكان من بابور كالحلالفة والتاخراطيون، وبني فوغال المنحدرون من جبال أولاد صالح، وبعضهم من أولاد شيبية والحراكتة وفي مشتة أولاد سي مسعود وثاقنانت، كما نجد خليط من عائلات بني عزالدين وموغاب وهي فروع قادمة من جرجرة، أما ناحية عين الكبيرة فقد استوطنتها فروع قادمة من المغرب الأقصى وجبل عمور، وأكثرتهم من بابور وفرفور وزواغة، ورغم هذا التباين في المشرب إلا أنهم شكلوا تجانسا مكنهم من التحالف عدة مرات، مثل ما حدث عندما حاربوا قبيلة الرابحيد التي قدمت من تونس محاولة الاستيلاء على أرضهم⁴.

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Eulma, Op ; cit, p 17.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Eulma, Op ; cit, p 40.

³- Rapport de s.c de la tribu de Dehamcha, N 113, p 38

⁴- Ibid, p 38-39.

وكما قلنا فقد استوطن البربر هذه المنطقة ممثلين في قبيلة كتامة، ولكن تم احتلالها من قبل الرومان فيما بعد وكان ذلك سنة 52م، والآثار الكثيرة الموجودة هناك تثبت ذلك، ثم قدم إليها العرب ممثلين في بني هلال الذين احتلوها سنة 1049م¹. وتبلغ مساحة هذه القبيلة 16402 هـ، بمجموع سكان يصل عددهم إلى 7178 نسمة، وهذا سنة 1889².

8-قبيلة بني ورثيلان: تقع بني ورثيلان شمال سطيف، وتبعد عن مدينة سطيف بحوالي 80 كلم، يحدها من الشمال دوار بني معوش من قبيلة لعراش، ومن الشرق بني شبانة، ومن الجنوب عين لقراج، ومن الغرب إلماين وأمالو (قبيلة بني عيدل)³.

وأصل سكان هذه القبيلة من الأمازيغ، وجددهم حسب ما هو موضح في إحدى الرسائل التي وجهها السكان إلى السلطات الفرنسية اسمه ورثلان، فجاء في نص الرسالة: " إن أناس عرشنا أولاد رجل واحد اسمه ورثلان توطن هنا (أي في تلك المنطقة)، وكنا عرشا واحدا منسوباً إلى اسمه "⁴.

ولكن رغم الأصل الأمازيغي للقبيلة فإن هذا لا ينفي وجود العنصر العربي ومنهم الأشراف الذين سكنوا هذه المناطق يعلمون الناس تعاليم دينهم، ومنهم عائلة الحسين الورثلاني⁵، وليست هذه العائلة حالة استثنائية ولكنها واحدة من عائلات مرابطية كثيرة استوطنت بلاد القبائل لتعلم الناس أمور دينهم والقضاء بينهم، وفي المقابل كانوا يحظون باحترام شديد، مساحة هذه القبيلة 7280 هـ، بمجموع سكان بلغوا عام 1891م، 8200 نسمة.

9-قبيلة بني يعلى: تقع قبيلة بني يعلى شمال سطيف على بعد حوالي 80 كلم منها، يحدها من الشمال بني شبانة وبني ورثلان، ومن الشرق قبيلة ساحل قبلي وعين الترك، ومن الجنوب دوار عين زمورة، وثارنورث، ومن الغرب قبيلة بني عيدل، جددهم الأول اسمه يعلى، هم مزيج بين العرب والأمازيغ، تستوطن

¹- Rapport de s.c de la tribu de Dehamcha, Op ; cit, p 38.

²- Ibid, p 45.

³- Rapport de s.c de la tribu de Beni Ourtilane, N 73, p 30.

⁴- أنظر الملحق رقم 02 وثيقة محفوظة في سجل السيناتوس كونسيلت لقبيلة بني ورثيلان.

⁵- هو الحسين الورثلاني بن محمد السعيد البجائي الحسني من شرفاء تافيلالت، يذكر في رحلته أنه من أسرة شريفة فيقول: " جدنا سيدي أحمد الشريف الحسني والذي سمعناه من أسلافنا أنه من شرفاء تافيلالت(المغرب)"، للمزيد أنظر الحسن الورثلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تج: ابن مهنا القسنطيني، ج 1، المعرفة الدولية للنشر، الجزائر، 2011، ص، 327.

مناطق وعرة ذات جبال وغابات¹، تبلغ مساحة القبيلة 21180 هـ، يسكنها 19029 نسمة، حسب إحصائيات تمت أواخر القرن التاسع عشر².

10- قبيلة بني شبانة: تقع بني شبانة شمال سطيف، يحدها من الشمال دوار تالة تنزار (قبيلة لعراش)، والبلدية المختلطة قرقور، ومن الشرق دوار بوعنداس (قبيلة بني سليمان)، ومن الجنوب دوار تالة إيفاسن ودوار ذراع قبيلة (قبيلة ساحل قبلي)، ومن الغرب بني معوش (قبيلة لعراش)، والبلدية المختلطة قرقور³، وتسكن القبيلة جبال وعرة شاهقة، سكانها مزيج بين العرب والأمازيغ أيضا، مساحتها 11885 هـ، بلغ سكانها 5214 نسمة أواخر القرن التاسع عشر⁴.

11- قبيلة بابور: تقع بابور شمال س-طيف، يحدها من الشمال قبيلة تابابورث وبني فوغال، ومن الشرق قبيلة فرجيوة، والدهامشة، ومن الجنوب المركز الاستيطاني بيرغو فيل (عين الكبيرة) استوطنت قبيلة كتامة جبال بابور، ثم احتلها الرومان والبيزنطيون الذين اندحروا مع مجيء العرب الفاتحين، ثم مرت على جبال بابور قبائل بني هلال⁵.

ومن أشهر العائلات التي استوطنت بابور نجد عائلة خضرة التي تنحدر منها فرقة بني سعيد، وهي فرقة لها وزنها الكبير في المنطقة، وتشكل العائلتين الآخرين وهما عائلة باديس وكعوان فرقة ريشية في دوار سرج الغول، والمنحدرين من هذه العائلات يمتازون بالشعر الأشقر والعيون الخضراء وجمال البشرة⁶.

وبعد تمكن الأتراك من السيطرة على مختلف مناطق الجزائر، التجأت إلى جبال بابور فروع وبطون قبائل كثيرة، خاصة من المناطق التي عدت ممتنعة في نظر السلطة التركية، على غرار توقرت، وبجاية، وباتنة وقسنطينة، ولهذا بقيت خارج السيطرة التركية، تبلغ مساحة القبيلة 39127 هـ 13، يسكنها 15045 نسمة، وهذا سنة 1895⁷.

¹- Rapport de s.c de la tribu de Beni Yala, N 92, p 53.

²- Ibid, p 42.

³- Rapport de s.c de la tribu de Beni Chebana, N 45, p 14-15.

⁴- Ibid, p 26

⁵- Rapport de s.c de la tribu de Babor, N 22, p 45.

⁶- Ibid, p 41.

⁷- Rapport de s.c de la tribu de Babor, Op ; cit, p 42.

12-الغرازلة: تنتمي قبيلة الغرازلة إلى قيادة عين تاغروت، وعلى غرار مختلف القبائل التي ذكرناها، لا تنحدر القبيلة من أصل واحد مشترك، فبالاستناد إلى ما تناقله أفراد القبيلة، فإنها تكونت من سبعة فرق هي: العزل: تتكون من أولاد مداجر، وأولاد بوقصة، وأولاد حمدي القادمين من ونوغة، وعشاش: وهي فرقة من بني يعلى ولا يزال هذا الاسم موجودا ناحية بني يعلى إلى اليوم وقد قدموا بدعوة من أولاد موصلي، حيث عملوا في زراعة أراضي عزل عبد الباقي¹، أولاد داود القادمين من أولاد ماضي من الحصنة (بوسعادة)، وأولاد علي أصلهم من أولاد علي بن ناصر (باتنة)، أولاد سالم من ونوغة، أولاد نصر من أولاد شنون، أولاد خيل من قبيلة عامر، أرضهم تم الاستحواذ عليها من قبل شركة جينفواز، أولاد رحال من ربيعة الظهارة ثم التحق بهم أولاد رقاب من الدهامشة، والمعذر من أولاد موصلي وغالبيتهم قادمين من أولاد خلوف من برج بوعريريج ولكنهم انفصلوا بعد مجاعة 1867-1869م².

وتبلغ مساحة القبيلة 11918 هـ، 75 آ، وبتعداد سكان يبلغ عددهم 1683 نسمة، وفق إحصاء كان في 21 فيفري 1870³.

من خلال ما سقناه من معلومات حول هذه القبائل يتضح لنا بما لا يدع مجالا للشك ما تطرقنا إليه في الفصل الأول في كون القبائل الجزائرية عموما والسطايفية على وجه الخصوص لا تتمتع بأصل واحد مشترك، وإنما تشكلها كان نتيجة عدة عوامل كالهجرة والتهجير، والتحالفات والصراعات، والعوامل الطبيعية كالجفاف وحصول المجاعات، فنرى كل القبائل التي كانت محل الدراسة هي مزيج من العنصر الأمازيغي والعربي وقد يتعداه في بعض الأحيان إلى أجناس أخرى.

المبحث الثاني: والاجتماعية والثقافية لقبائل منطقة سطيف:

تعد دراسة الحياة الاجتماعية والثقافية لمنطقة سطيف خلال الفترة الحديثة من الصعوبة بمكان، وهذا راجع إلى النقص الشديد في المصادر التاريخية التي تتناول هذا الجانب، فتراجع المنطقة حضاريا لحساب المناطق الأخرى لعب دورا مهما في الوصول إلى هذه الحالة، ولكن وبالرغم من هذا حاولنا قدر الإمكان التعريف بهذا

¹ - Rapport de s.c de la tribu de Gherazla, N 132, p 4.

² - Ibid, p 4.

³ - Ibid, p 30.

الجانب والخوض فيه وإزالة اللثام عن كثير من المناطق التي عدت مناطق ظل، فيبدو أن التاريخ قد تناسى مناطق مثل ساحل قبلي وبابور والعلمة وبدرجة أقل عامر وريغة.

1- الحياة الاجتماعية:

1-1- نمط المعيشة: تعيش قبائل سطيف أنماط حياتية مختلفة، تتحكم فيها مجموعة من المعايير:

- الخلفية التاريخية والعرقية: فهذه المنطقة سكنها الأمازيغ، ثم حل بها العرب، ولكل جنس عقليته، فنجد مثلا القبائل ذات اللسان الأمازيغي تفضل الاستقرار واتخاذ منازل من الطوب وقرى، في حين تفضل الأخرى الخيام وحالة الترحال نحو الجنوب بحثا عن الكلاء، كما شهدت هذه المنطقة هجرات عدة واستقطبت أجناسا كثيرة على غرار الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي، ثم جاء بعدهم العرب الفاتحون وبني هلال، ثم الأتراك، ثم الاحتلال الفرنسي، ولا شك أن كل واحد من هؤلاء قد أثر بشكل مباشر أو غير مباشر في نمط المعيشة، لأن المهاجر لا بد أن يأخذ معه جانبه الاجتماعي والثقافي وغيرهما، كما استقطبت المذاهب الدينية المختلفة كالمذهب الشيعي الذي اتخذ من هذه المنطقة نقطة الانطلاق للانتشار في كثير من بلاد المغرب الإسلامي.

- البيئة: الإنسان ابن بيئته، لأنها تؤثر في سلوكه ومستوى معيشته وطريقة تفكيره، فبالعودة إلى ما خلفته السجلات نجد أن القبائل السطايفية التي استوطنت الجبال تعيش عيشة الكفاف، كون الجبل لا يوفر كل ما تحتاجه من مواد، كما أن الجبال تفرض العزلة على السكان، وتجعلهم في تماس قليل مع المجتمعات الأخرى، فينشئون بثقافة منغلقة بعيدة عن التأثيرات، وعلى العكس من هذا نجد ثقافة متنوعة في المناطق المفتوحة التي تكون عرضة لمختلف التأثيرات كحركية السكان والتنقلات¹، والمناخ بدوره يحدد سبل العيش كبناء المنازل، والترحال، والاستقرار، والاستهلاك، وتتبع المواسم وغيرها، فالمناخ إذن يؤثر بشكل لافت- خاصة من الناحية الاقتصادية- في مجتمع تعتبر الزراعة عماده الأول.

عند تفحص الإحصائيات التي قدمتها التقارير الفرنسية المنشقة عن عمليات السيناتوس كونسيلت، يتضح لنا أن المستوى المعيشي جيد لغالبية قبائل منطقة سطيف، كونها تتمتع بالميزات التي تؤهلها لذلك،

¹ - أني راي غولدزغار: المملكة العربية السياسية الجزائرية لابليون الثالث (1861-1870)، تر: محمد المعراجي، موفم للنشر، الجزائر، 2014، ص 31.

فالمناخ على العموم جيد من حيث التساقط، والأراضي الصالحة للزراعة كثيرة، وتقدم محصولا وفيرا في الغالب، مما رفع مستوى الاستهلاك، الذي بدوره أثر إيجابا على الصحة العامة، كما أن الحالة الديمغرافية ممتازة حتى في المناطق الجبلية الوعرة التي يعتقد أنها طاردة للسكان وصعبة للاستقرار، ولكن هذه الحالة ليست ثابتة بسبب التأثير المباشر للمناخ¹.

لأن المناخ يعتبر عاملا أساسيا في تحديد معيشة السكان، كونه يتحكم في الإنتاج والاستهلاك، فعند حدوث تقلبات مناخية كالقحط والجفاف أو التساقط الكثير، فإن حالة الرخاء سوف تزول وتحل محلها حالة الفقر والتقتير، فمنطقة سطيف على غرار مناطق بايلك الشرق شهدت الجفاف والقحط والمجاعات، فيذكر العنزي أنه بداية من عام 1804-1805 وقعت مجاعة شديدة في بايلك قسنطينة دامت 3 سنين ومست جميع أوطانه، ولا شك أن منطقة سطيف كانت ممن لاقى هذا المصير².

أما من حيث الحركة فنجد هناك قبائل مستقرة خاصة تلك التي تسكن شمال منطقة سطيف فهي لا تنتقل بل تبقى ثابتة في أماكنها، ولكن هناك بعض القبائل مثل الواقعة بالقرب من منطقة السهوب تمر بفترات الانتجاع، فتتجه نحو الجنوب في بداية فصل الشتاء بحثا عن مناخ أفضل للرعي، ولا تعود إلى مواطنها الأصلية إلا مع بداية فصل الربيع، على غرار رغبة بشقيها الغرابة والقبالة، وهو ما يتضح في الأمثلة التالية.

من بين القبائل التي تطرقت إليها سجلات السيناتوس كونسيلت، قبيلة عموشة، حيث ذكرت أنها من القبائل الثابتة المستقرة في أماكن محددة، سكانها يعيشون في قرى تتألف من 6 إلى 8 منازل، وأهل القرية الواحدة في الغالب تربط بينهم علاقة قرابة دموية، لكن عندما يحل فصل الربيع يتفرقون، وينتشرون على مجال القبيلة بحثا عن الحشائش الخضراء لإعداد الطعام منها³، أو استهلاكها نيئة، وطوال مدة انتشارهم يسكنون في الخيام التي يأخذونها معهم قصد سهولة التنقل، أما منازلهم فيتركون أحد أفراد العائلة للاعتناء بها، ولكن مع قدوم فصل الصيف تكون كل السواعد منشغلة في جمع المحاصيل والأعلاف، أما نساؤهم فذات وجوه قبائلية في الغالب، شقراوات بشعر أصفر أو مائل للصفرة مع عيون خضراء، معظمهن يتزوجن وهن صغيرات في

¹ - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته خلال العهد العثماني، دار الكتاب العربي، ط1، الجزائر، 2009، ص 312.

² - صالح بن العنزي: مجاعات قسنطينة، تح وتقد: صالح بونار، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974، ص 27-28.

³ - مازالت إلى اليوم الكثير من العائلات التي تسكن منطقة القبائل تعد أطباقا في فصل الربيع من مختلف النباتات التي يتم جمعها.

السن، ولكن سرعان ما تظهر عليهن علامات الشيخوخة نتيجة الأعمال الشاقة التي يقمن بها في المنزل أو خارجه، فالتعب يؤثر بشكل واضح على صحتهم¹.

وفي هذا السياق فإنهن يعشن الظروف نفسها التي تعيشها المرأة في منطقة القبائل، فيذكر وليم شالر أن النساء في هذا الجزء من الجزائر (منطقة القبائل) جميلات، ولكن جمالهن يبدأ في فقدان بريقه ما إن تصل إحداهن 25 سنة من عمرها، حيث تبدأ علامات الشيخوخة في الظهور، وأرجع ذلك إلى العمل الشاق المصحوب بقلّة الغذاء في الغالب والقليل السرعات الحرارية أيضا².

أما سكان قبيلة ساحل قبلي فهم مستقرون أيضا في قرى تتألف من بيوت مبنية من الحجر، مغطاة بالديس والقرميد الذي كان يُجلب من سيدي عيش ببجاية، وعاداتهم في هذا مثل الأمر كعادات أهل جرجرة³، وبالعودة إلى ما قاله حمدان خوجة حول الأسلوب المتبع في البناء لدى سكان جرجرة، نجدهم يبنون منازلهم من الحجارة، أما السقف فمن القرميد، وهي لا تتعدى في الارتفاع قامة الرجل، وتأوي هذه المنازل إضافة إلى أفراد العائلة، المواشي أيضا، كالغنم والماعز والبقر والحمار وغيرها⁴.

وتلعب الجماعة دورا كبيرا في تسيير هذه القرى وتتحكم في مختلف شؤونها، وليس هناك ما يبقى خارج سيطرتها مما يحدث في القرية أو يهتمها، مما أعطى هذه القرى نوعا مميزا من التنظيم الاجتماعي قلما تجده عند المجتمعات التقليدية.

كما أن غياب السلطة المركزية العثمانية وتراخيها، قد جعل بعض القبائل أو البطون على الأقل تخرج عن جادة الصواب وتنتشر فيها الآفات الاجتماعية، فيذكر الورثلافي في رحلته أن سكان بني إبراهيم وآث عشاش وهما من قبيلة بني ورثلان، وبعض من آث الخلف من قبيلة ساحل قبلي قد بغوا وتجبروا، فيقول: "وقد خرجت طائفة باغية من بني إبراهيم وهي وسر، وأولاد الخلف... أحلى الله منهم الأرض"⁵.

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 43.

²- وليم شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر، (1813-1824)، تر وتقد: إسماعيل العربي، ش. و. ن. ت، الجزائر 1982، ص 80.

³- Rapport de s.c de la tribu de Sehel Guebli, Op ; cit, p 600.

⁴- حمدان خوجة: المرأة، تقد وتو: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص 27.

⁵- الحسين الورثلافي، المصدر السابق، ص 180.

ويبدو أن قبائل منطقة شمال سطيف كني شبانة وبني ورثيلان وساحل قبلي قد تأثرت ببعض الأفكار التي قدمت إليها من بلاد الزواوة، على غرار ما تعلق بقضية حرمان البنات من الميراث¹، ونستشف هذا، من إنكار علماء هذه المنطقة لهذا الأمر على غرار الورثلاني الذي يقول: " بل زادوا في الظلال، إن الرجل إذا مات ورث أخوه ماله وزوجته كما كان في الجاهلية...ومن عاداتهم القبيحة وأفعالهم الشنيعة قطع الميراث عن النساء"²، حيث اتبعت الأعراف وأهمل نص القرآن الصريح في هذه المسألة .

وعلى العكس من هذا، نجد توريث البنات أمرا شائعا عند الكثير من القبائل السطايفية، فيوضح عقد صحيح موثق في 30 مارس 1870، أن المسماة خديجة بنت المديني بن مزيان قد باعت جزءا من أرضها الواقعة في بابور، وهي أرض ورثتها عن أبيها، كما نجد عقدا آخر موثق بتاريخ 27 أوت 1874، حيث أوصى المسمى العربي بن العياشي، أن تقسم أملاكه بعد موته بين أبناءه وأرملته³.

1-2-العلاقات القبلية: تراوحت العلاقات بين فروع قبائل سطيف فيما بينها أو مع القبائل المنتمة للمجال نفسه أو مع القبائل الأخرى المحيطة بها ما بين الود والعداء، تحكمت فيها مجموعة من العوامل، أهمها الصراع حول المياه والأراضي، فهذين العنصرين مهمين لاستمرار أي قبيلة، فأغلبية الصراعات تحدث حولهما، أو الصراع حول الزعامة أو العلاقة مع السلطة ما بين المخزن والممتنعة والرعية، ولعل أشهر عداء كان بين القبائل السطايفية ذلك الموجود بين فرعي ريغة القبالة والظاهرة، ورغم أن الدخول في حرب كان نادرا إلا أن الحذر والترقب لازم الواقع، وهاتين العلاقتين هما:

1-العلاقات داخل القبيلة: فداخل القبائل في حد ذاتها، هناك بعض العلاقات بين دواويرها، تضبط الحياة الاجتماعية وترسي الأمن وتمنح لكل جزء منها حقها الذي تستحقه والتلاحم الذي يجعل القبيلة متماسك.

¹ - نقل لنا باتروني نص الفتوى في المجلة الإفريقية، حيث اجتمع بعض سكان آث وسيف من جرجرة وأصدروا فتوى تحرم البنات من الحصول على الميراث، وقد انتشرت هذه الفتوى انتشار النار في الهشيم، لما لاقته من استحسان من قبل الرجال، للاطلاع على نص الفتوى، راجع:

F. Patroni: délibération de l'année 1749 dans la grande Kabylie, in R.A, N 39, 1885, p 135.

² - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ص 243.

³ - Rapport de s.c de la tribu de Dehamcha, Op ; cit, p 45.

فوجد مثلا في قبيلة ريغة الظهارة أن استغلال الغابات للرعي حصري على ثلاثة دواوير هي: أولاد تبان، أولاد سي احمد، أولاد براهيم، وهناك فروع مثل لاربعاء لم ترسل قطعانها أبدا إلى الجبال من أجل الرعي باتفاق حدث بين مختلف الدواوير، أما الحصول على الخشب اللازم للتدفئة فمسموح لجميع الدواوير، وقد ثبت هذا الأمر بعقد موثق في العهد الفرنسي حرر في 21 جوان 1866، بعدما كان عبارة عن معاهدة شفوية بين فروع القبيلة، صانها احترام الكلمة النابعة من قدسية شرف القبيلة، وشيوخ الزوايا في المنطقة وفق الشكل التالي:

- يحق لجميع فروع قبائل ريغة الظهارة الأربعة عشر أخذ الأخشاب اللازمة لبناء المنازل وشد الخيام وحطب التدفئة¹.

- للفروع الجبلية الثلاث (أولاد تبان، أولاد سي احمد، أولاد براهيم)، الحق الحصري في الرعي طوال السنة، ويحق لها أثناء تساقط الثلج إحضار الأغصان لإطعام قطعانها، كما يمنح لها امتياز خاص لصناعة القطران، وقطع الجذوع لتثبيت خيامها، ويبيع الأخشاب في السوق (سوق سطيف)، حيث كانت تجارة الأخشاب رائجة، خاصة مع قدوم المعمرين.

- لأولاد ناجي الحق في الحصول على الأخشاب اللازمة من أجل صنع الأدوات الفلاحية.

- لسكان القبيلة القاطنين بالسهول الحق في استغلال السبخات واستخراج الملح منها للاستعمال الشخصي أو للبيع في الأسواق وهذا لكل الفروع ماعدا الفروع الثلاث التي لها حق الرعي².

بالموازاة مع العلاقات الهادئة، هناك صراعات تحدث بين فرق نفس القبيلة، أو حتى بين مشاتي الفرق الواحدة، وفق ما يطلق عليه علماء الأنثروبولوجيا النظرية الانقسامية، حيث يكون الصراع في كل مستويات القبيلة، فقد ذكرت جريدة المبشر أحد هذه الصراعات في قبيلة ساحل قبلي رغم تفاهة السبب الذي قام لأجله، فجاء فيها: " صفين من أولاد الخلف بينهما عداوة وقد أرادوا القتال، فوقفوا ناس غبولة مع أحد الصفين حمية وقدموا إليهم ودخلوا دشرة تيزي وغلات وحرقوا دارين لبني عبد الله الواقفين مع الصف الآخر

¹ - فروع ريغة الظهارة الأربعة عشر هي: أولاد تبان، أولاد براهيم، أولاد سي احمد، لاربعاء، أولاد سي عبد الواحد، بلاد عين تيتست، بلاد محجوب، بلاد راس الماء، بلاد محلة، بلاد قبلة زديم، بلاد بوظهرة، بلاد شط المالح، بلاد شعبة قصر الطير، بلاد عين القصر، المصدر:

Rapport s. c de la tribu de Righa Dahara, Op ; cit, p 65.

² - Ibid, p 65.

فلما وقع ذلك طلب بني عبد الله من بني عاجب الوقوف في نصرتهم، فقاتلوا غبولة وردوهم لتيزي وغلات، ثم دخلوا الدشرة المذكورة وحرقوها، وهذه الحرب الشديدة سببها حقير جدا، ومات فيه نحو العشرة رجال"، وكل هذه الفروع من قبيلة واحدة وهي قبيلة ساحل قبلي، ويتبين لنا هنا تلك الانقسامات والتحالفات التي تحدث حتى في أصغر وحدات القبيلة¹.

2-العلاقات مع القبائل الأخرى : يعتبر بعض الباحثين أن الصراع هو سيد الموقف في الحياة القبلية، إضافة إلى ما ذكرناه عن الصراع بين فروع ريغة مثلا نجد حالات أخرى مثل ما كان بين قبيلة قرقور وعرش عين الترك، حيث كانت بينها منطقة تسمى "بلاد البارود" وهي أرض حدثت حولها الكثير من القتال الذي لم تهدأ إلا بعد تدخل السلطة الفرنسية ومنح ملكيتها لقبيلة قرقور عام 1862².

إن حالات الصراع لا تنفي وجود حالات تحالف وتقارب وتبادل المنافع، والدخول في علاقات جوارية مضمونة حتمتها عدم مقدرة الإنسان في العيش بمعزل عن الآخرين، فمهما بلغت قوة القبيلة إلا وكانت بحاجة إلى غيرها من القبائل التي تشاركها المجال نفسه خاصة في أوقات الأزمات كالجفاف، فيقول شارل فيرو: "ولكن في أعوام الجفاف أين تنقص المراعي أو حين يحتاج الجراد تسعى القبائل إلى إقامة علاقات ودية مع القبائل المجاورة، وفقا لاتفاقيات تقليدية لتقديم المساعدة المتبادلة"³

ويظهر هذا في حقوق الاستغلال لقبائل لدى القبائل الأخرى، ومن هذه الأمثلة، ريغة القبالة التي كان لها الحق في استغلال أراضي الرعي في قبيلة الحضنة الشرقية، حيث تتجه في فصل الشتاء إلى المكان المسمى الرّمال، في حركة العزابة⁴، كما أن لقبيلة الحضنة الحق في الرعي بأراضي ريغة الظهارة، فمباشرة بعد انتهاء عمليات الحصاد، تقود قطعانها نحو الشمال بحثا عن الكأ، والأخشاب اللازمة للتدفئة في غابات جبال بوطالب، فيما يسمى حركة العشابة⁵.

¹ - المبشر، ع 35، 28 فيفري 1849.

² - Rapport de s.c de la tribu de Guergour, Op ; cit, p149.

³ - Charles Féraud, Op ; cit, p 24.

⁴ - العزابة: حركة تقوم بها قبائل الشمال نحو الجنوب بحثا عن المراعي لقطعانها وتكون في بداية فصل الشتاء وتستمر حتى حلول الربيع، أما العشابة، فهي حركة تقوم بها قبائل الجنوب نحو الشمال، وتكون مع بداية الصيف وتستمر حتى بداية الخريف، حيث تأتي هذه القبائل بحثا عن الكأ غير موجود في مجالها الصحراوي أو الشبه صحراوي، المرجع: Yazid ben Honet, Op ; cit, p 155.

⁵ - Rapport de s.c de la tribu de Rigba Guebala, Op ; cit, p 55.

كما كان لعرش الحضنة الشرقية حقوقا أخرى في مراعي منطقة سطيف وبالتحديد في دوار السخرين ففي كل سنة ومع بداية فصل الصيف تأتي بمواشيها لهذه المنطقة، ويُحدد مكان نزولهم من طرف كبراء الدوار، وبحسب ما ضبطته السجلات المعدة فإنه كل عام تدخل حوالي 1200 عائلة حضنية بما ما قارب 3000 شخص، يملكون 500 خيل، 450 ما بين حمير وبغال، و1300 من الإبل، و3000 من الغنم، و1500 من ماعز، يسرحون حتى بداية فصل الخريف وهذا وفق ضبط كُتب في السخرين بتاريخ 30 جوان 1890¹

كما دخلت قبيلة عامر في علاقات مع قبائل البدو الرحل الذين يصعدون إلى الشمال بحثا عن المراعي أيضا، والتي تعود أدراجها مع بداية شهر سبتمبر، وليس لتلك القبائل مجال معين محدد في أماكنهم الاستغلال ليوم أو شهر أو عدة أشهر، ويكون هذا بعد موافقة شيخ القبيلة ودفع مبلغ نقدي أو عيني، ولم تكن عامر تأجر كل أراضيها بل تحتفظ بغالبيتها، خاصة وأنه لديها قطعان أيضا، كما كانت بدورها ترتحل نحو الجنوب في سعيها للحصول على المراعي للالزمة أثناء فصل الشتاء².

ولكون الغابة عنصرا حيويا في حياة القبائل، فأن تلك القبائل التي لا تحتوي أقاليمها على الغابات كعالم القبالة، بإمكانها اللجوء إلى القبائل الأخرى للحصول على الأخشاب اللازمة لحياتها اليومية مقابل المال أو المقايضة وعن طريق الدخول في مفاوضات، تضمن للجميع المصلحة التي يسعون وراءها.

ولا شك أن هذه العلاقات القبلية كانت نتيجة إحساس كل قبيلة بحاجتها إلى القبائل الأخرى كي تستمر في بيئة صعبة، رغم إبراز العديد من المهتمين أن الصراع هو السمة البارزة التي تغطي على العلاقات القبلية، إلا أن العداوة قد اختلفت لكون المصلحة هي الغالبة، وفتحت المجال للتعايش، كل هذا دون أن ننسى الدور الذي يقوم به المرابطون وشيوخ الزوايا في ضبط التعاملات وتهدئة الأوضاع في بيئة يعتبر فيه الحصول على الأرض والماء الشغل الشاغل لجميع القبائل.

¹- Rapport de s.c de la tribu de Rigba Guebala, Op ; cit, p 56.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Guebala, Op ; cit, p 56.

2- الحياة الثقافية في قبائل منطقة سطيف:

عرفت الحياة الثقافية في الجزائر خلال القرن 19 تراجعاً رهيباً، سواء من حيث التلقين أو تأليف، فسيطرت الشروح والتعليقات وامتزج كل هذا بالتصوف الأجوف فشاع التقليد وتوقف الاجتهاد في اكتساب معارف جديدة، وهذا دليل على الجمود والخمول والتقليد الذي كاد أن يكون أعمى¹.

زاد الطين بلة الاحتلال الفرنسي للجزائر، الذي بذل كل جهوده لطمس الهوية الثقافية الجزائرية، فألغى الأوقاف وهدم المساجد وحولها إلى كنائس واصطبلات، منها جامع القصبة وجامع بتشين الذين حولوا إلى كنائس، وجامع كتشاوة الذي حول إلى كاتدرائية الجزائر وغيرها².

ولم تستثن هذه الوضعية منطقة سطيف التي كان بها التعليم قليلاً جداً وضعيفاً، فلا نكاد نجد له أثراً باستثناء بعض المساجد والزوايا المنتشرة هنا وهناك في بعض القبائل التي حملت على عاتقها هذه المهمة، فخلال القرن التاسع عشر نجد القليل من المدارس والتي تقدم تعليماً بسيطاً، إذ أنهك الاستعمار كل القوى الثقافية تقريباً، ولم يبق منها إلا القليل.

وقد كانت منطقة بالرغم من هذا الإنهاك تحوز على مجموعة لا بأس بها من المساجد والزوايا والمدارس، ولا شك أنها ساعدت السكان وأطفالهم على التحصيل العلمي، وقاومت ذلك الركود الثقافي الذي حاول الاستعمار نشره بين سكان القبائل، وقد تراوحت هذه المساجد والزوايا بين الكبير والصغير والشهرة، فبعضها استقبل العديد من الأطفال وحتى الطلبة مما يعني تقدماً في التعليم والبعض الآخر كان على عاتق بعض الشخصيات، والجدول التالي يبين هذا الأمر:

¹ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1990، ص 187.

² - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية: 1380-1900، ج1، ق1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 81-82.

الفصل الثاني: قبائل منطقة سطيف: دراسة تاريخية اجتماعية

القبيلة	المسجد أو الزاوية	عدد التلاميذ
عامر القبالة ¹	مسجد قجال وزاوية ابن حمادوش	13
	مسجد أولاد عشاب (أولاد علي بن ناصر)	14
	مسجد أولاد قاس (أولاد علي بن ناصر)	8
العلمة ²	زاوية ملحقة بجامع سيدي مسعود أبركان	20
	مسجد وزاوية سيدي الطيب بن ربيع	12
	مسجد حمو بن ربيع	15
أولاد نابت ³	زاوية سيدي أحسن	200 تلميذ، 10 طلبة
عموشة ⁴	المرابطون هم من يحاول سد النقص خاصة عائلة بن علاق التي سجلت بعض التلاميذ لتدريسهم بعض العلوم الدينية	عدد التلاميذ غير معلوم
عموشة	مدرسة فرنسية عربية بتاقيطونت	20 تلميذ

الشكل رقم 02: جدول يمثل أماكن تواجد المدارس وعدد التلاميذ ببعض قبائل سطيف خلال القرن 19م

التعليم في قبائل شمال سطيف: تعتبر هذه المناطق المنتمية لمنطقة القبائل من أكثر مناطق سطيف اهتماما بالتعليم وإقبالا عليه، وعامرة بالمساجد والزوايا على غرار بني ورثيلان، وبني يعلى التي توجد فيها زاوية كبيرة أسسها الولي سي امبارك بن سماري وضريحه موجود فيها، وفرت لسكان المنطقة والمناطق المجاورة الحد الأدنى على الأقل من التعليم⁵، وما يُظهر تأثيرها هو قدرتها على نشر اللغة العربية الفصحى، فبالرغم من كون اللغة السائدة بين السكان هي القبائلية إلا أنهم متمكنون جدا من اللغة العربية، ويتضح هذا في رسائلهم التي كانوا يرسلون بها السلطات الفرنسية المحفوظة في سجلات السيناتوس كونسيلت، حيث كتبت بلغة عربية سليمة مقبولة وخط واضح وجميل⁶.

كما كان سكان قرقور مهتمون بالتعليم، ويتضح ذلك من كثرة الزوايا والمساجد المتواجدة في كامل قرى المنطقة، والتعليم فيها متاح للكبار والصغار الذي يتقنون كلهم القراءة والكتابة، وكثير منهم ضليع في

¹- Rapport de s.c de la tribu de Amer Guebala, Op ; cit, p 18-19.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Eulma, Op ; cit, p 47.

³- Rapport de s.c de la tribu de Ouled Nabet, Op ; cit, p 44.

⁴- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 44.

⁵- Charles Féraud, histoire des villes....Op ; cit, p 91.

⁶- Rapport de s.c de la tribu de Beni Yala, op ; cit, p 42.

الأدب الإسلامي والشرعية الإسلامية، ولديهم مكتبات جيدة التجهيز، والأمر نفسه لبني يعلى وساحل قبلي وبني ورثيلان¹.

ومن جهة أخرى فلا شك أن منطقة شمال سطيف قد تأثرت بزوايا منطقة القبائل على العموم، خاصة زاوية الصدوق (مقر الطريقة الرحمانية²) -التي لا تبعد عنها إلا بمسافة قصيرة- التي كان لها أتباع ومقدمين في كامل منطقة سطيف وتأثيرها كان واضحا للعيان، ظهر أثناء قيادتها لثورة 1871 التي أشعلت كامل الشرق الجزائري وإلى وقت قريب فقط كانت زاوية الصدوق قبلة لتلاميذ المنطقة، الذين يلتحقون بها لتلقي مختلف العلوم الدينية.

أما منطقة عموشة، فكانت عامرة بالمساجد والزوايا وبزغت بعض الأسماء التي قادت الحياة العلمية فيها وفي المناطق المجاورة، على غرار المكي بن محمد الذي درس على مشايخ متخرجين من الأزهر والزيتونة وكانت له معهم مراسلات عدة وضع صيته خلال منتصف القرن التاسع عشر³.

ويمكن إرجاع انتشار التعليم بتلك الصورة القوية إلى عدة عوامل كمساهمة سكان المنطقة بالأوقاف وإيوائهم للطلبة وحجهم لهم حيث لم يخلوا عليهم وساعدوهم قدر الإمكان، وانتشار المرابطين بينهم الذين حملوا على عاتقهم هذه المهمة، فالزوايا والمساجد كانت كثيرة، وهذا ما نبينه في الجدول التالي:

¹- Belkacem Ben Sedira : une mission en Kabylie sur dialectes Berbères l'assimilation des indigènes, Librairie Adolphe Jourdin, Algérie, 1887, p 18.

²- الطريقة الرحمانية: طريقة صوفية تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشطلوي الزواوي الأزهرى المولود في سنة 1126هـ، درس وتلمذ في مسقط رأسه، ثم ارتحل إلى المشرق والتحق بالأزهر، وعاد إلى الجزائر سنة 1769 وأسس زاوية، عرفت طريقته انتشارا كبيرا بين السكان، بلغ عدد فروعها عام 1898 حوالي 177، بمريدين يقدرون بحوالي 157 ألفا، ساهمت في انتشار التعليم كما قاومت الاحتلال الفرنسي وأطرت ثورة 1871م، صلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2002، ص 155 160.

³- لوصيف سفيان: شيوخ العلم في منطقة عموشة الإسهام الديني والوطني (1830-1962)، دار النجم الساطع للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 2019، ص 73.

الفصل الثاني: قبائل منطقة سطيف: دراسة تاريخية اجتماعية

القبيلة	المسجد	الوقف (الاسم والمساحة)	ملاحظات
ساحل قبلي دوار ذراع قبيلة)	- كريمة - بوهدو - بوزلاطن - سيدي السايح القلعي	- أرض أنو مساحتها 14آر، بمقرض مساحتها 10آر، ثرقا تناكليت 45آر، 3 أشجار زيتون تنتج من 4 إلى 80 لتر - أرض القعدة: 14آر - إغيل ألماس: 10آر - إيرزي موسى: 11 آر - ثغولت أو ماقرمان 8آر - إغيل أوزرار: 90آر - بيربارن: 80آر	تمت مصادرتها من قبل الاحتلال الفرنسي تنفيذا لقرارات قانون 8 سبتمبر 1830 ¹
بني ورثيلان ²	- أوغبانة - ثيفيلت - جبارني - سيدي الحسين أوانو ³	- 11 شجرة زيتون تنتج حتى 5 قلات - 14 شجرة زيتون - 20 شجرة زيتون تنتج حتى 24 قلة ⁴ - 5 أشجار زيتون	// //

الشكل رقم 03: جدول يمثل بعض المساجد المنتشرة شمال سطيف وأوقافها عليها خلال القرن 19م.

ومن أشهر العلماء الذين عرفتهم هذه المنطقة نذكر الحسين الورثلاني صاحب الرحلة الموسومة نزهة الأنظار، الذي حج بيت الله الحرام وكتب في ذلك الرحلة السالفة الذكر، والشيخ سي عبد القادر ابن سيدي علي عباشة في دوار لمرايطين الذي أسس زاوية، وقام بنشاطات عدة وامتد إشعاعه ليشمل بوعداس وذراع القايد وعين الكبيرة وحتى مدينة سطيف ربما⁵.

ومن العلماء المشهورين أيضا في تاريخ منطقة سطيف نجد أبو زكرياء يحيى بن زكرياء ابن محجوبة السطايفي الذي توفي عام 677هـ/1278م، ترجم له أبو العباس أحمد الغبريني باعتباره من العلماء الجهابذة الذين عرفتهم حاضرة بجاية في المائة السابعة، وقال عنه: "الشيخ الفقيه الولي الصالح المبارك، أبو زكريا... كان

¹ - قانون وضعته السلطة الفرنسية بقيادة الحاكم العام الجنرال كلوزيل، يهدف إلى مصادرة أراض الوقف، فبعد احتلال العاصمة وحاجة الجيش الفرنسي للوعاء العقاري للأعمال الاستيطانية أصدر هذا القانون، فتم بموجبه مصادرة الكثير من أراضي الوقف، اوب القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 74.

² - Rapport de s.c de la tribu de Beni Ourtilane, Op ; cit, p 375-374.

³ - المقصود به الحسين الورثلاني صاحب الرحلة الورثلانية.

⁴ - القلة: وحدة كيل تقدر بحوالي 16 كلغ.

⁵ - سفيان لوصيف، المرجع السابق، ص 71.

من المتعبدين الأولياء، رحل إلى المشرق ولقي مشائخ، وكان متصوفا مستجاب الدعوة¹، كما نجد حفيده العالم أبي زكريا يحيى بن محمد بن محجوبة الذي ترجم له الفكور واعتبره ممن حاز في زمانه الفتوى ونال نصيبا كبيرا من العلم، ولكن كان على خلاف مع السلطة حيث سجن عدة مرات وكثيرا ما فر من أوامر السلطة للقبض عليه².

كما كانت زاوية ابن حمادوش التي أسسها سيدي مسعود الإدريسي الحسني بقجال نواحي سطيف قبلة للطلبة من مختلف الأنحاء، ومكتبها مليئة بالمخطوطات في مختلف العلوم، حيث شارك في نهضتها العلامة سيدي عبد الرحمن الأخضر³، وجددها ووسعها سيدي محمد الكبير عام 1785، بعدما منحت له أرض من قبل السلطة العثمانية، لتكون من الزوايا المنيعة على منطقة سطيف بالعلم والمعرفة⁴، وقد استمر إشعاع هذه الزاوية على المنطقة حتى الفترة المعاصرة، وقد قدمت فيها مختلف الدروس، فمثلا في 30 نوفمبر 1857 تم الترخيص من قبل المجلس العلمي لسطيف للشيخ الصديق بن الطاهر أحمدوش بتدريس الأجرومية⁵

وتجدر الإشارة إلى أن الاحتلال الفرنسي لمنطقة سطيف قد صاحبه انكماش رهيب في الحياة الثقافية، على غرار كل منطقة يطاها، فبعد منتصف القرن التاسع عشر نلاحظ تراجعاً رهيباً في عدد التلاميذ، واقتصرت عمل بعض الشيوخ ممن تشبثوا بضرورة المقاومة الثقافية وإبقاء الجزائر إسلامية، على تدريس مقريهم، فلاشك

¹ - أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح وت: عادل نويهض، منشورات دار الأفق الجديدة، ط2، بيروت، 1979، ص 103-105.

² - عبد الكريم الفكور: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح وت: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1987، ص 63-64.

³ - عبد الرحمن الأخضر: ولد الشيخ عبد الرحمن الأخضر في بنيتوس بضواحي بسكرة عام 920 هـ، أخذ العلم عن والده وشقيقه، ثم ارتحل إلى قسنطينة لتلقى العلم عن الشيخ عمر الوزان، ومنه إلى الزيتونة أين أكمل تعليمه، ليعود إلى بسكرة مزاوياً للتعليم، وكان ينتقل إلى قجال بغرض الإبتعاد وقد توفي بها واختلف في سنة ذلك، فيذهب البعض مثل أبو القاسم سعد الله إلى أن ذلك كان عام 953 هـ، والبعض الآخر مثل المهدي البوعبدلي فيقولون أن ذلك كان بين 981 و983، وقد ألف الأخضر الكثير من الكتب، نذكر منها: السُّلم المرونق في المنطق، الدرّة البيضاء في الحساب والفرائض، نظم السراج في علم الفلك، شرح العقيدة الصغرى للإمام السنوسي. للمزيد، راجع: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1981، ص 507-510، أحمد بن داوود الأخضر: العقد الجوهري في التعريف بالقطب الشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضر، تقد وت: تح وت: الحسن بن علجية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2018.

⁴ - لتاريخ الزاوية راجع: سفيان لوصيف: زاوية ابن حمادوش بقجال تاريخ وعلماء، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة منتوري، د. ت.

⁵ - فارس كعوان: قضايا من التاريخ الاجتماعي والثقافي لمنطقة سطيف خلال القرن 19، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، م9، ع2، 2020، ص 151.

أن مصادرة الأوقاف من قبل السلطة الفرنسية كانت له انعكاسات سلبية خطيرة بسبب تخفيف منابع التمويل، ناهيك عن قتل الشيوخ وإتباع سياسة ثقافية هدفها تحويل الجزائر ككل إلى فرنسية منسلخة، فزاوية ابن حمادوش وبعد مشاركة شيخها الطاهر بن حمادوش في ثورة المقراني تمت معاقبته بمصادرة أراضيه الفلاحية الخاصة التي شكلت موردا مهما لاستمرارية زاويته¹.

إلا أن الاحتلال قد عمل على فتح مستهدفا بالدرجة الأولى أبناء المستوطنين فلا يكاد يخلو مركز استيطاني من مدارس، كما استهدف أيضا أبناء القبائل ولكن ليس بغرض تعليمهم، ولكن بغرض جذبهم للاحتلال والتأثير بفرنسا وكبح جماح المقاومة، حيث شيدت مثلا مدرسة في قرقور لهذا الغرض، إلا أن بعض الأعيان قد أرسلوا أولادهم إلى هذه المدارس ومنهم سي محمد أورابح الذي أرسل ابنه لدراسة لللاتينية في قسنطينة، وأرسل ابنته للدراسة في أميزور ببحاية²، وهذا ما أشار إليه إدموند دوتي حين دعا إلى ضرورة تكون وتعليم أبناء القبائل بغرض استخدامهم في التأثير على إخوانهم في الدين وتقديم الخدمات التي تنتظرها منهم السلطة الفرنسية³.

ولكن هذا التعليم الفرنسي الذي بدأ يتغلغل بين قبائل منطقة سطيف خاصة الشمالية لم يلق الترحيب حتى من قبل المتعاونين مع فرنسا الذين بينوا امتعاضهم وقلقهم من انتشار الثقافة واللغة الفرنسية في البيوت، ومنهم سي بن جدو قايد بني يعلى، الذي ساعد بن سديرة في وضع فهرس لمكتبته والسعيد بن عبيد من ساحل قبلي وسي بوزيد من بني ورثيلان، وسي علي بن واري وكلهم من الحاصلين على وسام فارس جوقفة الشرف⁴.

المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية لقبائل سطيف:

1-أنواع الأراضي لدى القبائل السطايفية:

المتفحص للسجلات التي أعدت عند القيام بعمليات مسح الأراضي التي جاء بها القانون المشيخي 22 أبريل 1863 المطبقة على قبائل سطيف، يجد هناك مجموعة متنوعة من أصناف الأراضي، تتماشى مع

¹ - سفيان لوصيف، المرجع السابق، ص 182.

² - Belkacem Ben Sedira, Op ; cit, p 19.

³ - Edmonde Doutte: l'Islam Algérien an l'an 1900, Mustapha Giralt imprimerie, Alger 1900, p 129.

⁴ - Belkacem Ben Sedira, Op ; cit, p 20.

طبيعة ما كان سائدا في الجزائر خلال العهد العثماني في هذا الجانب، وهذه الأصناف هي:

1-1-أراضي العرش: تعرف على أنها الأراضي التي تستغلها القبيلة بشكل جماعي ولأفرادها حق الانتفاع ولا تخضع للمعاملات العقارية كالبيع والشراء، وتعتبر مصدرا للتضامن والوحدة قبل أن تكون مجالا جغرافيا يتم الدفاع عنه والحفاظ عليه، وتعتبر أي محاولة للاستحواذ عليها أمرا ينافي طابع القبيلة القائم على المساواة والاشتراك، ويهدد استمرارها¹.

وتعتبر أراضي العرش أكثر الأنواع انتشارا في الجزائر نتيجة استحواذ القبائل عليها وتوارثها، وبما أن القبيلة هي السمة الأبرز فإن أراضي العرش القبلية كانت هي الأكثر، فمعظم بايلىك قسنطينة كان ضمن هذه النطاق، وكانت غالبيتها مخصصة للرعي، أما المزروع منها فلا يتجاوز احتياجات السكان، ففي حالة تمكنهم من زرع ما يحتاجونه فإنهم يتركون الباقي بورا لاستغلالها في الرعي².

هذا، ويحق لكل فرد في القبيلة الحصول على جزء من الأرض، طالما أنه قادر على خدمتها وعدم إهمالها، وتنتقل أليا إلى ورثته حسب الشروط نفسها التي حصل هو عليها، وإذا لم يوجد له ورثة ذكورا، فإن تلك الأرض سوف تعود إلى الجماعة لتمنحها للآخرين، لأن قانون العرف والجماعة والقبيلة لا يمنح النساء حق التوريث فيها، وكل النزاعات التي تحدث حول هذه الأراضي لا يفصل فيها القاضي، بل يتم الاحتكام فيها إلى العادات المحلية وتضطلع الجماعة بما لديها من إكراهات بهذا الدور.

وتجدر الإشارة إلى أنه داخل هذه الملكيات الجماعية ملكيات فردية إذا قام أحدهم باستصلاحها، وعادة ما تكون للأثرياء في القبيلة، وقد تشمل هذه الملكيات الفردية: مباني ومطاحن وبساتين، وليست الأراضي الزراعية فقط من تدخل في صيغة أراضي عرش، ولكن حتى الغابات وأماكن الرعي³.

وتوجد أراضي العرش لدى قبائل منطقة سطيف بكثرة، ويلاحظ أن كثرتها في المناطق السهلية والأراضي المسطحة وتحتفي تماما في الأراضي الجبلية كبابور وبني ورثان فاسحة المجال لصنف آخر هو أراضي الملك (الأملاك الخاصة)، ومن القبائل التي توجد بها هذه الأراضي، وفق ما أعد من سجلات السيناتوس

¹ - الهادي الهروي، المرجع السابق، ص 74.

² - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلىك الشرق الجزائري (16-19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014، ص 173.

³ - E. Gueit: du Régime de Terre Arch. en Algérie, Thèse pour le Doctorat, Faculté de Droit de Paris, Paris, France, 1900, p 41-42.

كونسيلت نجد: ريغة القبالة بمساحة 30381هـ، وريغة الظهارة بمساحة 39025هـ، 42 آر، 50س آر، إضافة إلى قبائل عامر، بفروعها الثلاث، الظهارة، والقبالة، وأولاد نابت.

كانت هذه الأراضي مقسمة على الدواوير التي تشكل القبيلة، فمثلا نجد توزيع أراضي العرش في قبيلة عامر القبالة على النحو التالي¹:

الدوار (عامر القبالة)	المساحة أراضي العرش	عدد السكان
أولاد عدوان	1051هـ، 90 آر	685
أولاد منصور	1356هـ	1188
أولاد علي بن ناصر	5006هـ، 510 آر	2915
أولاد صابر	8830هـ	3691
قجال	6275هـ	2424
بن ذياب	7862هـ	2140
المجموع	30381 هـ، 40 آر	13043

الشكل رقم 04: جدول يمثل مساحة أراضي العرش بالنسبة لعدد السكان في قبيلة أولاد عامر القبالة.

نلاحظ من الجدول رحابة أراضي العرش التي كانت تملكها القبيلة رغم عدم تساويها في المساحة بين جميع الدواوير، حيث نجد الأربعة الأخيرة تستأثر بغالبيتها، ويعود هذا ربما لكونها تحتل وسط القبيلة، حيث وفرة الأراضي السهلية المتنازع عليها تكون أكبر، كما أن العامل البشري يلعب دورا في ذلك، حيث تتناسب أراضي العرش طرديا مع عدد السكان، فكلما كان السكان أكثر، كانت مساحتها أكبر.

يمكن للقبيلة اكتساب أراضي العرش مع مرور الزمن بتوارثها جيلا عن جيل وتوسعة ملكيتها بطرق مختلفة كسلبها من القبائل الأخرى بعد عمليات الغزو، أو الحصول عليها نظير خدمات قد تقدمها للسلطة، وهذا هو حال ريغة التي أقطعها الأتراك أراضي كونها قبائل مخزن، ساهمت في بسط السيطرة على الكثير من قبائل ناحية سطيف².

إن غلبة صفة العرش على الأراضي في هذه القبائل لا يعني عدم وجود أنواع أخرى، فنجد هناك أراضي ملك وعزل وغيرها.

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Guebala, Op ; cit, p 49.

²- Charles Féraud, op ; cit, p 73.

1-2-أراضي العزل: أو أراضي البايك: وهي الأراضي التابعة للدولة أو البايك، حصلت عليها بطرق عدة كالمصادرة أو الشراء، أو وضع اليد في حالة الشغور وعدم وجود ورثة، أو بعد ترحيل السكان لعصيان أوامر السلطة أو عدم دفعهم للضرائب المترتبة عليهم¹ عند قدوم المحلة²، يستغلها البايك مباشرة بتسخير الخماسة³ والتوزيع، أو يمنحها للشخصيات والزعماء المحليين نظير خدمات يقدمونها⁴.

كما يقوم البايك بكراء هذه الأراضي للسكان مقابل حقوق عينية أو نقدية، تسلم أواخر السنة دون الأخذ في عين الاعتبار الخسائر التي قد تلحق بالفلاح، حيث تأخذ الدولة 12 صاعا من القمح ومثله من الشعير، أي أقل من 50%، مما يزرعه الفلاح وتعتبر أراضي البايك من أجود الأنواع، وتعتبر ملكية غير تنازع عليها باعتبارها تابعة للسلطة، ولها وحدها الحق فيها دون سواها، وهي أربع أنواع:

1-عزل جبري: وهو النوع الذي يُأجر لموظفي السلطة ولبعض القبائل وأعيان البلد في مقابل الحصول على ضريبة تدعى الجبيري أو الحكور ومقدارها كما قلنا 12 صاع قمح ومثلها من الشعير على الجابدة، وتكون الحبوب ومستلزمات الزراعة على عاتق الدولة⁵.

2-عزل الغريب: وهي الأراضي التي تمنح لقبائل الرحالة التي تعني بقطعان البايك، وإضافة إلى هذا تحصل هذه القبائل على بعض الامتيازات مثل الإعفاء الكلي أو الجزئي من الضرائب والاستئثار بحليب المواشي، أما السمن فيجمع ويسلم إلى البايك وإلا ستدفع القبيلة ضريبة تسمى "البقراج".

3-عزل الجبل: كان يمنح للقبائل ذات النفوذ الكبير في مناطق القبائل الممتنعة، مقابل حفظ الأمن، وقد مُنحت عائلة الفكون أراضي أولاد جبارة بنواحي قسنطينة، ولكن سرعان ما استولت عليها

¹ - ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 52.

² - المحلة: كوكبة من الفرسان الأتراك والعرب تخرج في فصل الربيع بقيادة الباي أو خليفته لجمع الضرائب من القبائل، اشتهر رجالها بأعمال العنف والتخريب، يصل تعداد فرسانها حوالي 2500، جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 263.

³ - الخماسة: هو نظام اجتماعي واقتصادي، يمكن الفلاح من العمل في الأرض مقابل الحصول على خمس الإنتاج، على أن يكون توفير الأرض والحراث والحبوب على عاتق صاحب الأرض، وقد كان هذا العمل يدر على الخماس مبلغا محترما، قدر وائل الاحتلال بحوالي 343 فرنك، ألغي هذا النظام بقرار من الاحتلال: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر، 2012، ص 85.

⁴ - جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 182.

⁵ - نفسه، ص 183.

العائلة نهائيا وجعلتها من ملكيتها¹.

4- عزل السهول: منحت لعدد من القبائل المسترة في السهول والتي تساعد المحلة على جمع الضرائب، وعرفت هذه القبائل بالدواير على غرار عامر الشراقة بسطيف².

وقد انتشر هذا النوع من الأراضي (أراضي البايك) بين قبائل سطيف، وبمساحات واسعة ويقع في المناطق الخصبة وذات الجودة العالية - في السهول بشكل خاص - وأماكن تواجد المياه ومن جملة أراضي العزل في قبائل سطيف نجد:

4-1- عزل قبيلة عامر: والذي يدخل ضمن إطار عزل السهول كما سبق وقلنا، ففي هذه القبيلة أربعة أماكن تشكل أراضي العزل وهي: أولاد ذهاب، قلال، الحمام، الحرملية³.

أ- عزل أولاد ذهاب: يقع على بعد 25 كلم جنوب غرب سطيف، مساحته: 1544هـ، 86آر، 77 س آ، ألحقت بالدومين (أملاك الدولة) في عام 1860م.

ب- عزل قلال: يقع على 20 كلم ن سطيف جنوبا مساحته: 3639هـ، 25آر، 20 س آ.

ج- عزل الحمام: يقع بدوار المالح، كان ملكا لباي قسنطينة مساحته: 2575هـ، 69آر، 61 س آ، قبل أن تصادره السلطة الاستعمارية لأغراض استيطانية

د- عزل الحرملية: يقع بدوار مالح، مجاور لمجال بلدية سطيف، مساحته: 2711هـ، 69آر، 28 س آ، والقايد الذي عينه أحمد باي لإدارة هذا العزل هو صالح بن أحمد خوجة، والذي بقي وفيًا له حتى سقوط الجزائر العاصمة، فثار عليه في عام 1830م بعد عودة أحمد باي لقسنطينة.

4-2- العزل في قبيلة ساحل قبلي: ممثل في عزل بن زريق (ناحية عين الروى)، ولا شك أنه من صفة عزل الجبل، بحكم أن هذه القبيلة كانت ممتعة ومنح هذا العزل كهديا للمتمكنين هناك من أجل

¹ - جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 184.

² - نفسه، ص 185.

³ - Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 5-6.

تعزيز السيطرة، مساحته 607هـ، صودرت بعد ثورة المقراني للاحتياجات الاستيطانية الاستعمارية¹.

4-3- العزل في قبيلة العلمة²: أنشا بايات قسنطينة برجين في هذين القبيلة ذات الموقع

الاستراتيجي المهم وألحقوا هذي الحصنين أو البرجين بأراض عزل واسعة وخصبة، هذي البرجين هما:

1- **برج تاشودة**: يقع في الحدود الشمالية للقبيلة عند بني مروان محاذي للطريق السلطاني الرابط بين قسنطينة والجزائر، مرورا بميلة وسطيف، مساحته: 2500هـ، منها 118هـ، 10آر منحت لعائلة سعيد بن سلامة، نظير خدماتهم التي منحوها للعثمانيين في إبقاء العلمة خاضعة آمنة.

2- **برج واد مجار**: يقع على ضفاف هذا الوادي، فيه عين تسمى عين الباي، بجانب الحدود الفاصلة بين العلمة وقبيلة عامر الظهارة، ودوار بني براهيم، مساحته: 965هـ، شكل بعد الاحتلال الفرنسي لمنطقة سطيف جزء من مجال بلدية سانت أرنو.

4-4- **العزل في قبيلة عموشة**: هناك قطعتين تابعتين لبرج الأتراك ولكن كان ذلك بشكل مؤقت بمساحة: 2068هـ، 68آر، 88 س آ، ومعنى أنها كانت بشكل مؤقت لأن الأتراك لم يستطيعوا الاستمرار والاستقرار بمحاذاة القبيلة المصنفة من الممتنعة، إلا في فترات متقطعة، وهما:

1- **برج تاقيطون**: مساحته: 92هـ، 28 آر، 62 س آ، الذي شغله العثمانيون، ويتكون من:

1- بيت خارج الحصن، 2- الحصن ولواحقه، 3- خمسة عيون، 4- عشرون منزلا للفرسان العرب الذين يساعدون المحلة³.

ولا شك أن إقامة هذا البرج كان بهدف مراقبة سكان المنطقة ومنعهم من إحداث أي تمرد أو عصيان، فمن عادة الأتراك إقامة الأبراج في الأماكن التي تكون فيها الجبال عاملا على التمرد، فنجدهم قد شيدوا بعض الأبراج مثلا في سباوو لمراقبة قبائل جرجرة، وبرج حمزة، ويقدر بعض المؤرخين عددها بنحو 12 برجا من القالة إلى وهران، مهمتها مراقبة الأوراس الونشريس، جرجرة، جبال عمور، ومعسكر، وبني سنوسن،

¹- Rapport de s.c de la tribu de Sahel Guebli, Op ; cit, p 563.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Eulma, Op ; cit, p 17-18.

³- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 15.

والبابور وغيرها، ولكن عملها كان محدودا، فأغلبيتها لا ينطلق العمل فيها إلا بعد الاعتدال الخريفي وينتهي مع الانقلاب الشتوي¹.

1-3-الأراضي الخاصة: الملكيات الخاصة: وهي الأراضي التي تعود ملكيتها لأشخاص خواص، يتصرفون فيها وفق ما يرونه مناسبا لهم، ويطلق عليها أيضا أراضي الملك، بمعنى التي يملكها الأفراد ولهم مطلق حريتهم في التصرف فيها بمختلف العمليات العقارية كالبيع والشراء والرهن والتنازل، وتتصف بعدم الاستقرار وصغر المساحة².

وقد انتشر هذا النوع من الملكية لدى بعض قبائل منطقة سطيف، فإذا كانت أراضي العرش مهيمنة في القبائل الجنوبية أو الوسطى للمنطقة، فإن أراضي الملكيات الخاصة الأكثر انتشارا لدى قبائلها الشمالية، فقبائل ساحل قبلي وبني ورثان وبني يعلى وبابور وعموشة يغلب عليها طابع الملكية الفردية، ولم تذكر السجلات التي اطلعنا عليها أي إشارة لأراضي العرش، وربما هذا راجع إلى عدة عوامل:

- نزعة الهوية: فهذا النوع لا يتواجد عند العنصر الأمازيغي الذي لا يميل للملكية الجماعية ويرفض المشاركة في الأرض رغم مشاركته في الكثير من الأعمال ذات الطابع الجماعي، بل يفضل عليها الملكية الفردية، وهذا لا ينقص من قيمة التضامن الذي يوجد بين أعضاء القرية أو القبيلة.

- قلة وفرة الأرض في حد ذاتها مما لا تسمح بانتشار أراضي العرش التي تتمركز في السهول والأراضي المفتوحة، بينما المناطق التي تعتبر معاقل للملكية الفردية، يغلب على طابعها التضاريسي الجبال والغابات، ففي المناطق الجبلية المساحات الزراعية المتاحة قليلة، وهي أقرب إلى حدائق منها إلى أراضي فلاحية، وهو ما يحول دون انتشار أراضي العرش، فعادة ما تكون بالقرب من المنازل، تُغرس بأنواع عدة من الأشجار والخضراوات، ولا تحتاج إلى عمل مشترك وجماعي، أو إلى يد عاملة كثيرة كأراضي العرش.

- لا توجد فيها أيضا أراضي العزل، فالأتراك لم يكونوا يختارون سوى الأراضي الواسعة الخصبة القريبة من الأماكن التي يمكن أن تنالها أيديهم، كما أنهم لم يستطيعوا التوغل في هذه القبائل وامتلاك أراضي في

¹- François de la Blanc de Prébois : l'Algérie da la nécessité de substituer le gouvernement civil au gouvernement militaire pour le succès de la colonisation d'Alger, Delaunay libraire, France, 1840, p 9.

²- حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر العثماني، دار الهدى للنشر، ط1، الجزائر، 2008، ص 154.

مجالها لشراسستها المعروفة، وما ذكرناه عن أراضي العزل في عموشة، أو ساحل قبلي إنما يقع في منطقة الواقعة جهة مدينة سطيف، وليست تلك المحاذية للجبال كبابور.

فلو أخذنا على سبيل المثال قبيلة بني شبانة وقبيلة بني ورثيلان وفحصنا الملكية الموجودة فيها وفق ما ورد في سجلات السيناتوس كونسيلت، لوجدنا أراضي العرش غائبة تماما مع حضور قوي لأراضي الملك وهو ما توضحه الجداول التالية¹:

قبيلة بني ورثيلان:

الدوار	أراضي خاصة	أراضي عرش
ورثيلان	31418 هـ ، 15 آ ، 63 س آ	لا توجد
تيقونتين	3170 هـ ، 59 آر ، 43 س آ	لا توجد

الشكل رقم 05: جدول يوضح توزيع الأراضي في قبيلة بني ورثيلان خلال القرن 19م.

وتؤكد السيناتوس كونسيلت على امتلاك غالبية سكان بني ورثيلان لعقود صحيحة للملكية ترجع إلى فترة ما قبل الاحتلال، موثقة عند قضاة ومفتي تلك الناحية.²

قبيلة بني شبانة:³

اسم الدوار	أراضي خاصة	أراضي عرش
شبانة	5584 هـ ، 17 آ ، 66 س آ	لا توجد
بوسلام	4477 هـ ، 55 آ ، 86 س آ	لا توجد

الشكل رقم 06: جدول يوضح توزيع الأراضي في قبيلة بني شبانة خلال القرن 19م.

¹- Rapport de s.c de la tribu de Beni Ourtilane, Op ; cit, p 39.

²- ibid, p 31.

³- Rapport de s.c de la tribu de Beni Chebana, Op ; cit, p 617.

4-1-أراضي الوقف: يعرف الوقف على أنه حبس الأصل وتسبيل المنفعة، أي حبس العين عن أي تملك لأحد من العباد والتصدق بمنفعتها، ابتداء أو انتهاء وهو مشروع في الكتاب والسنة، ولا تخضع أراضي الوقف لأي معاملة عقارية كانت كالبيع والشراء والمصادرة وغيرها، وفي الجزائر كانت هناك الكثير من الأوقاف لمؤسسات متنوعة كالحرمين الشريفين، وسبل الخيرات، والمساجد المالكية¹، ممن كانت تؤدي دورا لا يستهان به في التضامن الاجتماعي، والإنفاق على الفقراء والمساكين وطلبة العلم والزوايا وغيرها².

وقد انتشرت الأوقاف في العهد العثماني بشكل كبير، خاصة مع قرب نهايته، ويرجع سبب ذلك إلى الوازع الديني والرغبة في كسب الأجر بالإنفاق على العليم وما ارتبط به وعلى الحياة الاجتماعية ومساعدة الفقراء والمساكين، إضافة إلى حماية الأملاك من المصادرة والتعريم ومن تجاوزات السلطة، التي كانت لا تتواني عن هذه الأعمال، فالوقف يمنح حماية دينية للأملاك، فلا يمكن المساس بها³.

عرفت قبائل سطيف هذا النوع من الملكية، حيث كان سكان القبائل يوقفون أراضيهم على جهات معينة، ويمكن لنا أن نميز على الأقل نوعين على الأقل من الأوقاف في منطقة سطيف انطلاقا من العقود التي تم حفظها بعد عمليات السيناتوس كونسيلت، التي خضعت لها المنطقة وهما:

1-الأوقاف على المؤسسات التعليمية والزوايا والمساجد: وهو أمر شائع جدا في الجزائر، حيث شاع بين الناس المسارعة في الوقف على المساجد والزوايا، وذلك في ظل عدم اهتمام السلطة بالحياة التعليمية والثقافية على العموم إلا بعض المبادرات الفردية التي حفظتها لنا المصادر التاريخية ، مثلما كانت مبادرات صالح باي في قسنطينة أو الباي محمد الكبير في بايلك الغرب، ومن بين المناطق التي شهدت هذا النوع من

¹ - هذه بعض المؤسسات التي تُعنى بتسيير الأملاك الوقفية في الجزائر العاصمة، فمؤسسة الحرمين الشريفين مهمتها تسيير الأملاك الوقفية الخاصة بالحرمين الشريفين، حيث كانت الأموال تجمع وترسل مع ركب الحج لتوزع على فقراء مكة والمدينة، أما مؤسسة أوقاف سبل الخيرات فكانت خاصة بتسيير الأوقاف الخاصة بالمساجد الخفية والإنفاق عليها، ومؤسسة أوقاف بيت المال فقد تصدت للاعتناء بالفقراء واليتامى والأرامل ويديرها البيت مالجي، والمساجد المالكية خاصة بتسيير أوقاف المساجد المالكية، للمزيد راجع: ياسين بودريعة: أوقاف الزوايا والأضرحة بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال البايك، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2006 / 2007.

² - أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 340.

³ - نفسه، ص 446.

الأوقاف، القبائل الشمالية لسطيف، مثل بين ورثيلان وبني شبانة وساحل قبلي، وقد سقنا أمثلة على ذلك عند تطرقنا إلى الحياة الثقافية، ولكن سنضيف بعض الأمثلة هنا للاستئناس ومنها:

القبيلة	نوع الوقف	الجهة الموقوفة عليه
ساحل قبلي ¹	أرض بويلفان بقرية كريمة (قرية تابعة لذراع قبيلة)، مساحتها 19 هكتار، فيها 3 شجرات زيتون واحدة. للسعيد بن براهيم يحصل منها من 20-40 ليتر زيت.	جامع ومدرسة كريمة
بني ورثيلان ²	3 أشجار يتون تقع بالمحاذاة من طريق تازروت - عرامة، 3 زيتونات توجد بباكر. 5 زيتونات توجد بإغزر وشريط.	جامع ومدرسة غبولة

الشكل رقم 07: جدول يمثل الأوقاف المحبوسة على بعض المساجد بقبائل منطقة شمال سطيف خلال القرن 19م

2-الأوقاف لصالح القبائل والدواوير: وجدنا هذا النوع لدى قبيلة عموشة، حيث يتم بموجبه وقف أراضي رعي لصالح دواوير أخرى من القبيلة نفسها، قصد التخفيف من معاناة السكان في سبيل إيجاد مراعي لقطعاتهم، خاصة وأنه في هذه المرحلة (ستينيات القرن التاسع عشر)، قد صادر الاستعمار الكثير من أراضيهم وضيق الخناق عليهم، وهو النوع من الوقف نادر الحدوث، خاصة وأن الأوقاف معروف عنها أنها للمؤسسات التعليمية بالدرجة الأولى وقد وجدنا 12 عقد توضح هذا الأمر منها³:

- دوار قلعون: وقف من عقلاء أولاد عمر بن أحمد وهم مبارك بن جاب الله وعمر بن أحمد وسعد بن أحمد بن شريط ومحمد بن علي أحمد بن علي والسعيد بن شريط، الذين أشهدوا على أنفسهم أنهم أوقفوا منطقة بويزمامن على جميع أناس دوار قلعون لرعي مواشيهم⁴، وحرر نص عقد الوقف 12 ربيع الأول 1285هـ.

¹- Rapport de s.c de la tribu de Sahel Guebli, Op ; cit, p 442.

²- Rapport de s.c de la tribu de Beni Ourtilane, Op ; cit, p65.

³ - للإطلاع على هذه العقود راجع الملاحق: 03، 04، 05، المستخرجة من سجلات السياتنوس كونسيلت

⁴- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 388.

- دوار منتانو: عقلاء فرقة أولاد حمزة وهم عمار بن بقاع وأحمد بن محنان وعبد الرحمن بن هواري وعلي بن عطية ومحمد بن السعيد، شهدوا على أنفسهم أنهم أوقفوا المكان المسمى شعبة الكاغد على جميع سكان منتانو للرعي.¹

2-النشاط الاقتصادي: إن طبيعة المنطقة المتنوعة التضاريس ومناخها ساهما كثيرا في خلق نشاط اقتصادي متنوع لدى قبائل سطيف والذي يمكن أن نميزه على ثلاثة أوجه:

2-1-الزراعة وتربية المواشي: اعتمدت القبائل السطايفية في تلبية حاجياتها بشكل أساسي على ما تنتجه أراضيها من محاصيل وما تملكه من قطعان، فهذان النشاطان هما الغالبان، فالصناعة كانت متمركزة في المدن ولم ترقى إلى مستوى صناعة حقيقية، وإنما كانت عبارة عن حرف، كما أن التجارة كانت ضعيفة كل هذا في ظل عدم اهتمام السلطة بتطوير هذه القطاعات.

وتجدر الإشارة إلى أن الزراعة رغم انتشارها لم تكن متطورة في منطقة سطيف، وهذا على غرار جميع المناطق الجزائرية في العهد العثماني ويرجع ذلك إلى:

- الآفات الطبيعية: حيث المناخ جد متقلب، ففي فترات يكون هناك جفاف، ثم قد تحدث فيضانات، إضافة إلى اجتياح الجراد والطاعون وتراكم الثلوج في الشتاء مما يخلق تذبذبا في الإنتاج، وهذا بدوره أدى إلى حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة، وهلاك المزارعين.

- الأساليب المستخدمة: التي كانت بدائية وعتيقة، حدثت من مضاعفة الإنتاج وتحسين حالة الفلاحين، فقد ظل الاعتماد على المحراث الخشبي، ولم تستخدم أساليب حديثة للرعي، وكان الاعتماد على نظام الاستراحة شائعاً، حيث تزرع الأرض عاما وتترك عاما لتستريح، وللتخصيب كانت تحرق النباتات الجافة وتستعمل فضلات المواشي، وكلها عوامل لم تساعد على تحسين وضعية الزراعة.

- عدم استقرار الفلاح: ويرجع ذلك إلى الحملات التي ينفذها رجال البايك على القبائل وتدني مستوى الأمن والتعرض للإغارات القبائل الأخرى، مما دفعهم إلى إهمال الزراعة، والانتقال إلى البداوة، قصد التمكن من الهروب، أو الحروب والإغارات والمصادرات والتهجير التي صاحبت الاحتلال الفرنسي.

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 342.

زراعة الحبوب: تأتي في مقدمة المزروعات الحبوب (القمح والشعير)، وقد انتشرت زراعة الحبوب في سطيف لدى جميع القبائل وهذا لعدة اعتبارات أهمها:

- الحبوب هي الوحيدة التي تستجيب للظروف المناخية المختلفة، ولا تتطلب نفقات كبيرة للزراعة، يكفي حرث الأرض والبذر وانتظار هطول الأمطار التي ما إن تساقطت بانتظام فما على الفلاح سوى انتظار موسم الحصاد للحصول على محصول وفير¹.

- يعتبر القمح الغذاء الرئيسي لجميع سكان الجزائر، والكثيرون يعيشون منها حصريا.

- خصوبة التربة في منطقة سطيف سهول بمساحات واسعة وعلى ارتفاع يتراوح ما بين 800 إلى 1000 متر، مع تربة خصبة للغاية، فيقول كالباري: "سهول سطيف هائلة وخصبة وغنية لدرجة أنه تمت زراعتها لمدة أربعين عاما دون سماد"².

- ملائمة المناخ وانتظام التساقط، الأمر الذي يوفر وضعاً مناسباً يساعد على نمو مثالي لمثل هذه الزراعة وازدهارها، فبحسب الإحصائيات المتعلقة بالمناخ والتي تعود للقرن 19م، فإن سطيف كانت كالتالي من حيث التساقط ودرجات الحرارة³

الشهر	درجة الحرارة المعدل الفصلي	معدل التساقط (ملم)	الشهر	درجة الحرارة المعدل الفصلي	معدل التساقط (ملم)
سبتمبر	18	29	أفريل	17	60
أكتوبر	16	30	ماي	22	46
نوفمبر	7	38	جوان	28	27
ديسمبر	4	52			

الشكل رقم 08: جدول يمثل المعدلات الشهرية للتساقط ودرجات الحرارة في منطقة سطيف خلال القرن 19م

يبين لنا الجدول مدى ملائمة الأحوال الجوية من أجل زراعة الحبوب، خصوصا القمح الذي وبحسب الكتابات التاريخية، كان أنواعا عدة عرفتها منطقة سطيف منها: البليوني، الهبلي، محمد بن البشير، التونسي،

¹- J. Varlet : les céréales d'Algérie, Mustapha giralt imprimerie, Alger, 1900, p 12.

²- Calparé de Arthur: en Algérie, Eggiman libraire éditeur, Genève, 1896, p 92.

³- CH. Revier : manuel pratique de l'Agriculateur Algérien, Challamel éditeur, Paris, 1900, p 35.

الحمدى، البلغومي، الحمودي، وكلها ذات نوعية جيدة سواء من حيث المردود أو النوعية والغنى الطاقوي¹.

فمناخ المنطقة يتوفر على العناصر المثالية لزراعة حقول القمح، فالتساقط جيد ومنتظم، فنلاحظ أنه في فصل الخريف موسم الحراثة والبذر تكون الأمطار قليلة تمنح الفرصة للحراثة وزرع البذور والحيلولة دون تعفنهما، ثم تبدأ كمية الأمطار في الارتفاع فتسمح بنمو البذور وبروز السنابل، وفي فصل الربيع يكون التساقط جيدا مع درجة حرارة مرتفعة يسمح باستكمال نضج السنابل وبداية الحصاد.

تحتفظ لنا السجلات بمعطيات وإحصائيات مهمة في هذا المجال، فقبائل ريغة وعامر بفروعها والغرازة، والساحل قبلي، كلها تزرع آلاف الجابديات² من القمح والشعير مما منح لها غنى من هذا الجانب انعكس إيجابا على المستوى المعيشي للسكان، ومعدل ما تزرعه هذه القبائل من موضح في الجدول التالي³:

القبيلة	عدد الجابديات
ريغة الظهارة	1781
ريغة القبالة	1063
عامر القبالة	1335.5
العلمة	1082
عامر الظهارة	955
عموشة	592
أولاد نابت	752
الغرازة	240
المجموع	7800.5

الشكل رقم 09: جدول يبين عدد الجابديات التي تزرعها بعض من قبائل سطيف خلال القرن 19م.

تعليق على الجدول: نلاحظ من خلال الجدول أن قبائل سطيف كانت تزرع مساحات واسعة من الحبوب لاسيما القبائل الأربعة الأولى، وهذا بسبب استحواذها، أو وقوع غالبية مجالها في السهول الخصبة.

¹- J. Varlet, Op ; cit, p 93.

²- الجابدية: محراث يجره ثوران وحدة قياس مساحة الأرض تقدر بعشرة هكتارات، وهي الوحدة المتعامل بها أثناء العهد العثماني وبدايات الاحتلال الفرنسي لتحديد الضرائب المترتبة على السكان، وتقدر في بعض الأماكن بحوالي 20 هكتار، وهذا يعود إلى طبيعة الأرض حسب نوعيتها وسهولة خدمتها، من سجلات السيناتوس كونسيلت

³- les Rapports de s.c des tribus de Sétif.

كما يبين لنا الجدول أن عامر الظهارة رغم استيطانها للسهول أيضا، إلا أنها لا تزرع سوى 955 هكتار، وهذه الإحصائيات أعدت في العهد الفرنسي بعد استحواذ شركة جينفواز على أراضي هذه القبيلة في سبيل توسيع الاستيطان الفرنسي، سواء ما تعلق بتوسعة مدينة سطيف أو منحها للمعمرين الذي استقدمتهم، وما يرجح هذا ما نقله الرحالة الانجليزي توماس شو عند حديثه عن قبائل عامر، إذ ذكر أن حقولها كانت تمتد حتى سفوح جبال بابور، وهي مساحة كبيرة جدا تفوق وبكثير ما تبقى لعامر بعد الاحتلال.¹

أما عموشة فرغم حضورها ضمن القائمة إلا أنها تسجل أقل المساحات، لكون مجالها يغلب عليه الطابع الجبلي الذي لا يمنح المساحات الكافية لتأسيس زراعة كبيرة.

إن الزراعة الواسعة والمستمرة للحبوب جعلت سطيف من المناطق الأولى في الجزائر من حيث الإنتاجية وقلة الأسعار، وهو ما جاء في جريدة المبشر لعام 1850:

سطيف (فرنك)	الجزائر	وهران
8	17	20
4	7	9
القمح		
الشعير		

الجدول رقم 21²

سطيف (فرنك)	الجزائر	وهران
8	17	20
4	7	9
القمح		
الشعير		

الجدول رقم 2³

سطيف (فرنك)	الجزائر	وهران
10	13	25
4	9	10
القمح		
الشعير		

الجدول 01، 02، ورقم 3⁴ يمثلون أسعار الحبوب في منطقة سطيف خلال القرن 19م

¹- Dr Shaw: voyage dans la régence d'Alger, tr en Français par McCarthy, Marlin éditeur, Paris, 1889, p 351.

²- المبشر، ع 68، 30 جوان 1850.

³- المبشر، ع 69، 15 جويلية 1850.

⁴- المبشر ع 73، 15 سبتمبر 1850.

زراعة الخضر والفواكه: انتشرت هذه الزراعة بشكل كبير واتبعت في ذلك أيضا عامل المناخ والتربة ووفرة المياه الجوفية والسطحية، فنجد مثلا القبائل الواقعة شمال سطيف كساحل قبلي وبني يعلى وبني ورثلان تغلب فيها زراعة التين والزيتون، وهي أشجار تتلاءم مع الطبيعة الجبلية، ولا تحتاج للسقي بل تعتمد بشكل أساسي على سقوط الأمطار، إضافة إلى أشجار أخرى كالرمان والأجاص والتفاح، فيذكر الورثلاني في رحلته أن منطقة بني ورثلان تتميز برمانها الحلو والجيد، كما أنها كانت غنية بأشجار التين والزيتون والعنب بأصنافه، فيقول: " بلدنا كثير الشجر من زيتون وعنب وتين وكثيرة الفواكه"¹، أما قصر الطير فيشير إليها الورثلاني على أنها من أحسن الأوطان وأكثرها خصبا ، وأنه قلما يكون غير ذلك².

وقد لعب المناخ دورا في هذا، حيث يشير شارل فيرو إلى أن وقوع منطقة سطيف على علو 1100م عن مستوى سطح البحر، منحها مناخا مشابها لمناخ الجزء الأوسط من فرنسا، على الرغم من أنه أكثر دفئا في الصيف، حيث يعتبر هذا النوع من المناخ مناسب جدا لغرس أشجار الفاكهة المختلفة، التي تنتج ثمارا وفيرة ولذيذة وقلما يوجد نظيرها³

أما ساحل قبلي فهي ذات تربة استثنائية الخصوبة كما وصفتها التقارير الفرنسية، فقد عرفت بساتين الفاكهة، وكانت مغطاة بأشجار التين والزيتون والحبوب التي عادة ما توجه للاستهلاك المحلي، وغرست مختلف الخضراوات، كما أن هذه القبيلة كانت تحصد ثلاث محاصيل في السنة⁴:

- المحصول الأول: يكون في جانفي يتمثل في الشعير والفل والجلبانة والعدس.

- المحصول الثاني: يكون في مارس: يتمثل في الشعير والجلبانة والقمح.

- المحصول الثالث: الغرسة الربيعية: تبدأ من شهر ماي: حيث تنتج الفلفل والطماطم والبطيخ والذرة

والتبغ، كما عرفت هذه القبيلة نظام الاستراحة الذي يعني زراعة الأرض عاما وتركها عاما

¹ - الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ص 109.

² - نفسه، ص 11.

³ - Charles Féraud, histoire des villes..., Op ; cit, p 15.

⁴ - Rapport de s.c de la tribu de Sahel Guebli, Op ; cit, p 85.

وعرفت قبيلة عامر بدورها زراعة الخضر والفواكه، والتي يبدو أنها كانت نشيطة جدا ويمارسها السكان على نطاق واسع مستفيدين من وفرة المياه، التي يتم توزيعها بينهم كحال سكان دوار قجال، حيث يتم السقي بمياه واد راس الما الذي يخترق قجال وأولاد ذياب ويتجه نحو قلال، والذي يصل تدفقه إلى 80 ل/ثا، أين يتم سقي حوالي 240 هكتار مخصصة لزراعة البقول والخضر الأخرى، إضافة إلى تشغيل المطاحن لرحي الحبوب وتحويلها إلى دقيق، وهذا الجدول معد في 10 أوت 1862.

تربية المواشي: ما يقال عن الزراعة يقال على تربية المواشي، فمنطقة سطيف استفادت من تنوعها التضاريسي كي تنمي قطعها، فوفرة الأراضي المفتوحة في الجهة الجنوبية للمنطقة ووفرة الغابات في قبائلها الشمالية ساعدها كثيرا في تنمية الثروة الحيوانية وهو ما يوضحه الجدول التالي الذي يبين هذه الثروة خلال القرن التاسع عشر¹.

الماشية	جمال	أحصنة	بغال	بقر وثيران	خرفان	ماعر	خلايا النحل
ريغة الظهارة	169	2237	1825	1193	40926	23372	00
ريغة القبالة	36	1730	1700	1389	49259	5104	00
عامر الظهارة	15	189	1476	1579	23860	2683	00
عامر القبالة	00	424	1963	1874	27684	2829	00
قرقرور	25	325	308	695	10439	5748	95
عموشة	00	679	523	1003	6093	3430	20
أولاد نابت	00	77	986	1461	8984	2534	97
العلمة	41	407	1431	1315	5536	627	00
الغرازة	8	25	241	79	2236	514	00
بابور	00	غير معروف	62	1904	8953	5070	00
بني ورثيلان	00	00	20	361	49	869	00

الشكل رقم 10: جدول يمثل رؤوس الماشية لدى قبائل سطيف خلال القرن 19م

¹ - الجدول معد استنادا إلى الإحصائيات الفرنسية التي ثبتت في سجلات السيناتوس كونسيلت بعد قرار تحديد القبائل الجزائرية، كما أنه هناك قبائل لم توضع لها جداول تفصيلية، وهذا راجع ربما إلى عدم امتلاكها لثروة حيوانية خلاف الغنم والماعز، فمثلا قبيلة ساحل قبلي، اكتفى واضع التقرير بإخبارنا عن عدد رؤوس المشية فقط دون تفصيل، فذكر أنها تبلغ 60373 رأس، المرجع:

Rapport de s.c de la tribu de Sahel Guebli, p 55.

التعليق على الجدول: يبين لنا الجدول ضخامة الثروة الحيوانية التي كانت لدى قبائل سطيف، فمثلا تملك ريغة بفرعيها عدد لا يستهان به من كل الأصناف كالأحصنة والخرفان والبقر، ناهيك عن المواشي الأخرى، ويرجع سبب تفوق بعض القبائل على أخرى في هذا المجال إلى عدة عوامل كالخلفية التاريخية، فقبائل ريغة كانت قبائل مخزن تمكنت من الاستئثار بتربية الخيول لحاجتها إلى ضبط الأمن في المنطقة، ووفرة المساحات اللازمة للرعي، فمناطق شمال سطيف حيث المساحة قليلة لم تتمكن من مضاعفة قطعانها إلا بالقدر الذي يوفر حاجاتها اليومية.

ويبدو أن قبائل سطيف حافظت على ثروتها الحيوانية المتمثلة في الخيول لتوفرها على شروط تربيتها، فالسهول واسعة والسلالة جيدة حيث هناك حوالي 1000 فرس للتزاوج، وجل القبائل كانت ممن يربين الأحصنة، فعامر الشراقة لديها 600 حصان، وريغة مجتمعة أكثر من 5000 حصان، وعامر الغرابة 3000، والعلمة 1600، وأولاد نابت 1250¹.

أما عموشة ورغم عدد خيولها القليل إلى أن التقارير المعدة تبين أنها من أفضل السلالات وهي معدة للمهرجانات والفتازيا أكثر منها خيولا للحرب²، وهو الأمر الذي ينطبق على قبائل عامر التي لديها خيول رائعة اهتمت كثيرا بتحسينها ومضاعفتها، وهم فرسان شجعان يحبون الخيل والبارود³.

ويبدو أن عامر لا تختلف في هذا عن القبائل العربية عموما والجزائرية خصوصا، خاصة وأنها تستوطن السهول، فيقول عنهم (عن سكان السهول) حمدان خوجة: " هؤلاء السكان يحبون الخيل حبا جنونيا ولا يفكرون إلا في مضاعفة أعدادها، وهم يفرقون بين أنواعها ويحفظونها بعناية، وتستعمل السلالات الوضيعة للحصول على البغال، وهناك سلالات تخصص للحرب، ولكن أحسن الأنواع أي الجياد فإنها للسباق والحرب ولا تباع إلا نادرا"⁴.

¹- E. Dumas: les chevaux de Sahara, F. Charmeront, libraire éditeur, Paris, 1851, p 218-219.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 43.

³- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 58.

⁴- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 34.

كما أن البقر شهدت اهتماما كبيرا وعناية لما لها من فوائد، وقد كانت قبائل سطيف تمتلك أفضل الأنواع على غرار قبيلة عموشة التي تعبر الأفضل، ليس في المضارب العليا ولكن في كامل سلسلة الأطلس¹.

ولكن تبقى قطعان الغنم والماعز الأكثر انتشارا وهذا راجع إلى سهولة تربيتها والاستفادة الكبيرة منها، وربما السبب الأكثر تأثيرا هو عملية التنقل والبداءة التي عرفتتها الكثير من القبائل السطايفية خاصة القاطنة في السهوب.

وينطبق هذا على ريغة بشقيها، التي تنتقل بشكل دوري إلى قبيلة الحضنة الشرقية من أجل الرعي في الشتاء والبحث عن الكأ في مكان يسم الرمال، وهذه الحركة هي التي تفسر ربما امتلاك عدة قبائل من سطيف للجمال².

وتبقى بن ورثيلان الأضعف من حيث الثروة الحيوانية، فهي لا تقارن بما تملكه قبائل السهول وهذا راجع إلى قلة الأراضي المفتوحة التي تسمح بتربية القطعان الكبيرة، كما أن اهتمام هذه القبيلة بالماعز أكبر من أي مواشي أخرى، ذلك لأن المنطقة جبلية توفر الجو الملائم للماعز الذي هو حيوان جبلي.

وتتحكم في الثروة الحيوانية لدى قبائل سطيف مجموعة من العوامل أهمها المناطقية، فكل منطقة إلا ولها النوع الذي يلائمها وتتميز به، وما قلناه هنا يؤكد الكتابات التاريخية التي أشارت إلى أن الاقتصاد القبلي يعتمد بالأساس على الزراعة وتربية المواشي وأي تلاعب بهما سوف يؤدي إلى كوارث حقيقية على هذه القبائل.

2-2-الحرف: انعكست حالة الزراعة وتربية المواشي وإنتاجهما على النشاطين المكملين للاقتصاد، الحرف والتجارة وذلك بما توفره لهما من مواد أولية كالصوف والخشب والجلود وغيرها، وكانت قبائل منطقة سطيف ضمن النشطة في هذا المجال، حيث سدت حاجاتها اليومية وباعت أو قايضت الفائض عن حاجتها مستفيدة من دخل إضافي يساعدها على مواجهة تكاليف الحياة، ومن الحرف المنتشرة نجد:

النسيج: اشتهرت بعض قبائل سطيف بصناعة النسيج خصوصا وأنها تملك آلاف الرؤوس من المواشي التي يُستخلص منها الصوف ومن أمثلة ذلك:

¹- Rapport de s.c de la tribu de Amoucha, Op ; cit, p 43.

²- Rapport de s.c de la tribu de Righa Dahara, Op ; cit, 56.

- قبيلة عامر القبالة: تصنع الزرابي والبرانيس¹
 - قبيلة عامر الظهارة: النسيج، البرانيس، والحايك والزرابي²
 - قبيلة العلعة: البرانيس والحايك³
 - قبيلة أولاد نابت: البرانس والحايك⁴
 - قبيلة الغرازة: الحايك والبرانس والزرابي⁵
- كما شهدت قبائل أخرى هذه الصناعة (الحرف)، وتمكنت من تطويرها على غرار بني يعلى، حيث يذكر شارل فيرو أنها أتقنت صناعة الزرابي والأغطية المتميزة بألوانها الزاهية وأشكالها المتناسقة⁶.
- صناعة الجلود:** عرفت معظم القبائل السطيفية صناعة الجلود، كونها تملك ثروة حيوانية مهمة، ومن هذه القبائل، ساحل قبلي، التي وبالإضافة لصناعاتها للجلود تصنع أيضا العصائر والأواني الفخارية⁷.
- صناعة الزيت:** وهي من الحرف الأكثر شهرة في قبائل منطقة سطيف الشمالية، ونذكر بالخصوص بني ورثيلان وبني شبانة وبني يعلى وساحل قبلي، التي تصنع أيضا التين المجفف والزيب كون أشجار هذه الأنواع تنمو بكثرة في هذه المناطق، ويميزها عن غيرها من القبائل⁸.
- مختصة أيضا في الصناعات الحديدية كالفؤوس والمحاريث وغيرها، حيث اشتهرت بالحدادة⁹.
- صناعة الفحم والقطران:** وقد اقتصت في هذا المجال قبيلة ريعة الظهارة حيث كانت تصنع الفحم وتبيعه في سوق سطيف، وقد ازدهرت هذه التجارة رفقة صناعة الخشب، بعد الاحتلال الفرنسي لسطيف،

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Guebala, Op ; cit, p 38.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, 4.

³- Rapport de s.c de la tribu d'Eulma, Op ; cit, 47.

⁴- Rapport de s.c de la tribu de Ouled Nabet, Op ; cit, p4.

⁵- Rapport de s.c de la tribu de Gherazla, Op ; cit, p 29.

⁶- Charles Féraud : le corporation de métiers à Constantine avant la conquête Française, in R.A, 1872, p 451.

⁷- Rapport de s.c de la tribu de Sahel Guebli, Op ; cit, p 84.

⁸- Rapport de s.c de la tribu de Beni Ourtilane, Op ; cit, p 21-22, Rapport de s.c de la tribu de Beni Chebana, Op ; cit, p 3 1, Rapport de s.c de la tribu de Beni Yala, Op ; cit, p 42.

⁹- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 43.

حيث ظهرت حاجة الأوروبيين لهاتين المادتين ولكن تم سحب ترخيص استثمار هذه المادة بداية من 1850، حين بدأت تطبق القوانين العقارية على منطقة سطيف، كما امتهنت هذه القبيلة صناعة القطران¹

صناعة الملح: الموجه أساسا لسد حاجيات القبائل والمنطقة على العموم ببيعه في الأسواق والقبيلة التي اشتهرت بهذه الصناعة هي ريغة القبالة، حيث استفادت من وجود السبخات في مجالها على غرار سبخة فرام، الحشام، عين ملول، هذه السبخات التي تحف صيفا كاشفة عن ثروة حقيقية من الملح².

3-3- التجارة: كانت التجارة في سطيف تعتمد على مبادلات المنتجات الفلاحية واقتناء الحاجات الضرورية وهي قليلة، وكان الاعتماد في هذه التجارة يتم بالمقايضة، فالنقود في العهد العثماني أو الاحتلال الفرنسي كانت قليلة.

قصدت قبائل سطيف الأسواق المنتشرة في المنطقة للمبادلات التجارية مستفيدة من التنوع وتكامل المنتجات، فكل منطقة أو قبيلة تنتج شيئا ليس بمقدور قبيلة أخرى إنتاجه، أو لا يكفي ما تنتجه من حاجيات، ومن الأسواق المنتشرة في سطيف، نجد سوق العلة التي تقصده هذه القبيلة والقبائل المجاورة، سوق أوريسيا وعين مسعود في قبيلة أولاد نابت

ولكن يبقى سوق سطيف من أهم الأسواق التي تجتمع فيه القبائل من كل حذب وصوب، ليس فقط قبائل سطيف، إذ شكل هذا السوق الذي يقام يوم الأحد ملجأ كل القبائل الباحثة عما ينقصها، حيث اعتبره الرحالة الألماني مالتسان من أكبر الأسواق الجزائرية في فترة بداية الاحتلال، فقدر عدد مرتاديه ما بين 8 إلى 10 آلاف شخص³.

من خلال وصف مالتسان، يتبين لنا أصول مرتادي هذا السوق، حيث يذكر منهم المنتمي إلى قبيلة بني شبانة وبين ورثيلان وهم من البربر الذين يمتزجون بالعرب، (حفيد إسماعيل) القادم من الخيام البدوية العربية، ويوجد بينهم المسيلي وهو يسير بين خيله المعروضة للبيع، ومنهم أيضا القرقوري، الحزين بملامح وجهه الطويلة، وبعينيه الدامعتين ولحيته المدببة، وهناك يمشي القبلي الريفي بلباسه الدال على الذوق رغم رثائه، حيث

¹- Rapport de s.c de la tribu de Rigba Dahara ; Op ; cit, p 63.

²- Rapport de s.c de la tribu de Rigba Guebala, Op ; cit, p 55-56.

³- هانريش فان مالتسان، المصدر السابق، ص 170.

يقطع مسافة يوم كامل لإشباع فضوله ومشاهدة كل ما في السوق¹، وهو ما يشير إليه شارل فيرو بقوله: " وسوقها الكبير الذي تقصده جميع القبائل، خصوصا شهري سبتمبر وأكتوبر حيث تُنقل إليه كميات كبيرة من القمح والشعير والفواكه والزيت والصابون"²

إذن فسوق سطيف يقصده الجميع ومن هؤلاء قبائل ريغة التي تقصده لبيع الفحم والقطران، وعامر لبيع المواشي والزراي، كما قصده أولاد نابت، وقصده أناس قبيلة بني يعلى رغم المسافة البعيدة، حيث كانوا يحضرون منتجاتهم المتمثلة في زيت الزيتون والتين المجفف والزبيب، ليبادلوها بالحبوب التي يحتاجونها والتي تنتجها بكثرة سهول عامر، وريغة والعلمة وغيرها³.

وبعد الاحتلال الفرنسي أصبح سكان القبائل السطايفية يتعاملون مع المستوطنين الذين يبيعون لهم بعض المنتجات، أو يقصدون المراكز الأوروبية قصد البحث عن عمل كبنائين وبستانيين أو في المنازل، حيث كان سكان بين يعلى يقصدون المراكز الاستيطانية في بجاية⁴، كما كانوا يغتربون في الماضي ويقصدون الجزائر العاصمة على غرار العديد من سكان منطقة القبائل، حيث شكلوا فئة اجتماعية عرفت بالقبائل⁵.

إن الأسواق في الفترة الحديثة في الجزائر لم تكن للبيع والشراء فقط ولكن كانت لها أغراض أخرى فكل شيء يتم في السوق، البيع والشراء، وحل النزاعات وعقد الزواج، وتناقل الأخبار وغيرها، مما جعل السلطة سواء العثمانية أو الفرنسية فيما بعد تتعامل معها بكل حزم وتخضعها للمراقبة والتسيير.

¹ - هانريش فان مالتسان، المصدر السابق، ص 173.

² - Charles Féraud, Op ; cit, p 18.

³ - Rapport de s.c de la tribu de Beni Yala, Op ; cit, p 42.

⁴ - القبائل: شكل القبائل في الجزائر العاصمة فئة اجتماعية، على غرار الفئات الأخرى كالبسكرة والجواجلة، وبني ميزاب وغيرهم، وقد كانت لكل طائفة أعمال خاصة بها، حيث اشتهر القبائل في محال البناء وصناعة الأجر، كما عملوا كبستانيين في منازل القناصل الأوروبيين، للمزيد حول هذه الطوائف، راجع: أرزقي شويثام، المرجع السابق، ص 141.

⁵ - Rapport de s.c de la tribu de Beni Yala, Op ; cit, p 43.

الفصل الثالث: قـــــــــبائل مـــــــــــــــــــــ:نطقة سطيف وعلاقتها بالسلطة العثمانية

المبحث الأول: قـــــــــبائل منطقة سطيف في ميزان السلطة العثمانية

المبحث الثاني: الـــــــــــــــــــــضرائب العثمانية على منطقة سطيف

المبحث الثالث: الثورات الشعبية في منطقة سطيف أواخر العهد العثماني

سنقوم في هذا الفصل بدراسة العلاقة التي ربطت السلطة العثمانية بالقبائل الجزائرية عموما وقبائل منطقة سطيف على وجه الخصوص، موضحين الأسس التي قامت عليها هذه العلاقة والوسائل التي انتهجتها السلطة في ضبطها، وكيف تحكم البعد والقرب من السلطة في تحديد وضعية القبائل وتصنيفها إلى أربعة أصناف: القبائل المخزنية، والرعية والممتنعة والمتحالفة، كما سندرس الضرائب ودورها في ضبط العلاقة ورسم معالمها، ونختتمها بالتطور الحاصل في هذه العلاقة، وكيف كانت جيدة في بادئ الأمر، حيث تعاون الطرفان والتزما بالدور المنوط بهما، ثم في أواخر العهد العثماني، ونتيجة عدة عوامل ساءت العلاقات، فبدأت تظهر ثورات وتمردات هنا وهناك وسعت الهوة وبينت مدى سوء العلاقة.

المبحث الأول: قبائل منطقة سطيف في ميزان السلطة العثمانية:

حل العثمانيون في الجزائر بداية القرن 16م في مهمة متعددة الأهداف، منها توسيع رقعة الدولة العثمانية ومقاومة المد المسيحي في حلقة جديدة من الحروب الصليبية، خاصة وأنه في هذه الفترة بدأت إسبانيا والبرتغال في الظهور كقوتين بحريتين عالميتين رافعتين للراية الصليبية بعد طرد المسلمين من الأندلس وتوحيد شبه الجزيرة الأيبيرية¹، وقد كانت الجزائر (المغرب الأوسط)، مع قدوم الأتراك فسيفساء سياسية²، ولكن هذه الفسيفساء تقاسمت فيما بينها عاملا مشتركا يتمثل في تحكم التنظيم القبلي في مختلف مفاصل الحياة، فعمل العثمانيون على إيجاد وسيلة للسيطرة على هذا التنظيم، قصد تأسيس حكم مركزي يتمكن من بسط النفوذ الشامل، ولم يكن الأمر سهلا، فطبيعة المجتمع القبلي ترفض الخضوع للأجانب الغريباء وهي الصفة التي كانت في الأتراك بادئ الأمر، ومن جملة الطرق البسيطة والفعالة المستعملة في ذلك هي تصنيف القبائل إلى أصناف ووضعها في درجات مع مراعاة مبدأ أساسي واحد يتمثل في درجة القرب والبعد من السلطة، ومنها قبائل منطقة سطيف.

¹ - المعروفة حاليا بإسبانيا، أو الأندلس فيما مضى، ففي عام 1492 سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس، حيث اتحدت مملكتي أراغون وقشتالة، عندما تزوج الملك فرديناند من الملكة إيزابيلا (الملكين الكاثوليكيين)، وظهرت إسبانيا التي بدأت في توسعات عسكرية شملت مناطق عدة في العالم من بينها المغرب الأوسط (الجزائر)، فاحتلت موانئه كالمرسى الكبير 1505م، وهران 1509، بجاية 1510، ونظرا لدخولها البحر الأبيض المتوسط، اصطدمت بقوة أخرى فية وقوية تمثلت في الدولة العثمانية التي كانت في أوج قوتها خلال القرن 16م والتي سعت إلى التوسع في الجهة الغربية للمتوسط، للمزيد راجع: غطاس وأخريات: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، ط.خ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 19جزائر، 2007، ص13.

² - كان المغرب الأوسط فسيفساء سياسية، بعد ضعف سلاطين الدولة الزيانية (1236-1530)، حيث ظهرت العديد من الإمارات والقبائل المستقلة، فبالإضافة إلى الدولة الزيانية نجد، إمارة بني جلاب في تونقرت التي سيطرت على إقليم الزاب، وبني ميزاب الذين كانوا يتمتعون باستقلال بعيدا عن السلطة، وإمارة جيحل وإمارة كوكو وبني عباس، وإمارة الثعالب وغيرها، للمزيد راجع: عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 11-12.

تنتمي سطيف في العهد العثماني إلى بايلك الشرق¹ (قسنطينة)، ويُعد هذا الأخير أكبر بيالك الجزائر وأغناها، وتأتي منطقة سطيف في التنظيم الإداري الذي استحدثه الأتراك ضمن فئة الوطن² ويتضح ذلك في قول محمد الصالح بن العنتري حين ذكر خروج ابن الأحرش في عهد عصمان باي (1803-1804)، حيث كان هذا الباي في وطن سطيف يستخلص الضرائب، فيقول: "وقد كان في هذه الأثناء عصمان باي ناحية وطن سطيف يستخلص مطالب الصيف"³، وقد كان وطن سطيف يضم مجموعة من القياد يتحكمون في قبائله، منهم قايد عامر القبالة الذي كان تحت تصرفه 6 قبائل، وقايد عامر الغرابية الذي كان تحت تصرفه 5 قبائل، كما كان هناك شيخ قصر الطير في قبيلة ريغة⁴.

وقد مثلت قبائل سطيف للسلطة العثمانية على غرار القبائل الأخرى والواقعة خصوصا في الأماكن الاستراتيجية أهمية كبيرة وذلك لعدة أسباب أهمها:

- اشتما المنطقة على مساحات زراعية مهمة، وسهول واسعة، وإنتاجها في بعض المحاصيل كالقمح مثلاً وفير جدا، والأمر نفسه لتربية المواشي، مما يجعلها منطقة جلب للثروة واغتناء خزينة البايك والمساهمة في ميزانية الدولة ككل.

- مرور الطريق السلطاني الرابط بين عاصمة بايلك الشرق قسنطينة والجزائر العاصمة من هذه المنطقة، حيث يتفرع هذا الطريق بمنطقة ثنية الأحد، إلى فرعين، فرع يتجه نحو برج منايل على الطريق التلي، والثاني يتجه

¹ - بايلك قسنطينة: تعني كلمة البايك الإمارة أو اللواء، ويمثل بايلك قسنطينة النصف الغربي للدولة الحفصية (1229-1541)، يقول عنه الدكتور شو أنه يمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة 95 فرسخ (380 كلم)، ومن الشمال إلى الجنوب 58 فرسخ (232 كلم)، يمتد من ميناء دلس غرب بجاية إلى بونة (عنابة) شرقا، وقد حددت الحدود بين الإيالتين الجزائرية والتونسية بمعاهدة 1614، ولكنها لم تحترم، وهذه حدود كبيرة سمحت له بتنوع تضاريسي واقتصادي واجتماعي كبير، جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 13-14.

² - الوطن : وحدة إدارية بمثابة البلدية اليوم، حيث قسم كل بايلك إلى مجموعة من الأوطان، وكل وطن يحتوي على مجموعة من القبائل والأعراش، وكان على كل وطن قائد يعينه الداى باقتراح من الباى، وتربطه علاقة مباشرة معه، يكون من الأتراك أو الكراغلة ويكون أحيانا من العرب، وتتمثل مهمة القايد في الإشراف على شؤون سكان القبائل ويسهر على الأمن، وتسيير الأسواق، ومن مهامه أيضا، رئاسة عملية توزيع البذور والأراضي المخصص للحراث، وجمع الفرسان عندما تقتضي الضرورة، يساعده في مهامه الكاتب وباش مكالحى وفرقة الزمالة، ينظر: أرزقي شويتم، المرجع السابق، ص 53-55.

³ - محمد صالح العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، تع ونقد: يحي بوعزيز، الجزائر، 1985، ص 69-70.

⁴ - نفسه، ص 19.

نحو الهضاب العليا عبر بني عمران والأخضرية وبرج حمزة (البويرة)، فمنطقة البيبان التي تعد أخطر نقطة تمر بها قوات البايك لسيطرة القبائل المستعصية، ثم برج بوعريبرج ثم سطيف ثم ميله ثم قسنطينة¹.

تشكل منطقة سطيف موقعا استراتيجيا لبناء الأبراج والحصون للتحكم في قبائل المناطق المجاورة والسيطرة عليها، كالقبائل الجنوبية والحصنة والأوراس وقبائل المنطقة الشمالية كتلك الواقعة في جبال بابور ومنطقة الزواوة الممتعة.

وهذا ما يستدعي العمل لجعلها منطقة آمنة وهادئة ومستقرة، خاصة مع وجود قبائل ممتعة وشرسة قريبة من الطريق السلطاني السالف الذكر، وهذا الهدوء والاستقرار لن يتأتيا ما لم تضع السلطة العثمانية موضع قدم هناك، فنراها قد بنت برجا في قبيلة العلما وآخر في قبيلة عموشة، وركزت حامية تركية في سطيف (مدينة سطيف)، إضافة إلى الإتيان بمجموعة من الضباط الأتراك عرفوا بأولاد موصللي، أقطعت لهم مجالا وجعلتهم يراقبون بعض جهات المنطقة كقبيلة الغرازلة، انطلاقا من زمورة².

1-أنواع القبائل: إن التراتبية القبلية في منطقة سطيف وفق البعد والقرب من السلطة العثمانية كانت

كالتالي:

1-1-قبائل المخزن: تعرف قبائل المخزن على أنها القبائل المتعاونة مع السلطة المركزية، قد تكون ذات

نسب مشترك، أو اصطناعية شكلتها السلطة من مزيج من المحاربين أو المغامرين وغيرهم، منها ما أقره الأتراك على أراضيها ومنها ما أقطعوها أرضا تستقر عليها، وألفت بدورها قوة عسكرية ساعدت السلطة في بعض المهام الحيوية كإرساء الأمن وجمع الضرائب ومراقبة القبائل، والسير مع المحلة، والتمركز في النقاط الحساسة كالطرق والقناطر والجسور ومخازن الحبوب، وغيرها من المهام، وقد ارتبطت مصالحها بمصالح السلطة وتعاونت معها، حيث رأت في ذلك فائدة لها، ومن قبائل المخزن المشهورة نذكر: الزواتنة والصحاري والدواير والزماله، وغيرها كثير³.

ويعرفها المازاري-الذي ينتمي إلى قبائل المخزن-بقوله: "إن المخزن هو الناصر للدولة كيفما كانت، وحيثما وجدت وتملكت وبانت، ويسمى مخازني، لأنه يخزن بصدرة ما يؤله إلى وقت الظفر، وحصول الانتقام،

¹ - جملة معاشي: الإنكشارية والجمع بباييك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الحديث، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2008/2007، ص 58.

² - Rapport de s. c de la tribu de Gherazla, Op ; cit, p 4.

³ - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة المعاصرة، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، ص 98.

فيفعله بصاحبه وبه يلزمه، وقد يطلق المخزن مجازا على دار الحاكم نفسها، ومنه قولهم: إني ذاهب إلى دار المخزن¹.

ويعرفها دوغرامون: "على أنها مجموعة من المحاربين القبليين الذين تعاقدوا مع السلطة على الالتزام بحمل السلاح عند الإشارة الأولى للحرب مقابل مزايا معينة من جملتها الإعفاء من أي التزامات مالية ماعدا الزكاة والعشور التي هي دليل على التحالف والولاء"²، فكل مسلم قادر واجب عليه إخراجها، ولم يبين دوغرامون إن كان هذا التعاقد يتم بشكل عفوي نظير الولاء، أو تعسفي نظير الفرض.

وقد كان فرسان المخزن مسلحون جيدا ومنضبطون وهو عنصر أساسي في قوة السلطة التركية، ورغم تشكل هذه القبائل من عناصر شديدة التنوع في بعض الأحيان إلا أنها كانت متكاملة ومتجانسة، منتفعة من خدمة الدولة، فلا يمكن طرد رجل المخزن من أرضه إلا إذا صدرت منه خيانة أو جناية، كما كان لابنه الحق في وراثته وأخذ مكانه إذا مات³.

وتتمثل مهام القبائل المخزنية في:

- السير مع الحملة لجمع الضرائب، فهي كانت عارفة بأماكن القبائل الرعية والممتنعة وقواها وأعرافها، إضافة إلى معرفتها بجغرافية المناطق والطرق السالكة، كما أن هذه العملية صعبة كون الكثير من القبائل ترفض دفع ما عليها من مستحقات لأسباب عدة: كاعتبارها الدفع دليلا على الخضوع والاستعباد الذي يتنافى مع تقاليد معظم القبائل، أو لعدم مقدرتها على ذلك خاصة أواخر العهد العثماني، ولكون العناصر التركية قليلة العدد لفرض منطقتها بالقوة، فالسلطة كانت دائما بحاجة إلى قوات إضافية مستعدة للتدخل وترجيح الكفة لصالحها، فعادة ما تنتهي هذه المسيرة بقتال، فالسلطة بحاجة لرجل جباية ورجل حرب⁴.

- مراقبة الأسواق التي هي مراكز تجمع للقبائل الرعية والممتنعة على حد سواء، حيث شكلت الأسواق للسلطة نقطة قوة للتحكم في القبائل، ويمكن القول عن الأسواق أنها اليد التي تشد منها السلطة العثمانية القبائل، فهذه الأخيرة على اختلافها كانت بحاجة إلى ولوج الأسواق.

¹ - آغا بن عودة المازاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19، ج 1، تح: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ط 1، لبنان، 1990، ص 199.

² - U. de Grammont : Histoire d'Algérie de la domination Turque (1515-1830), Ernest Laroux, Paris, 1887, p 409.

³ - Marcel Emerit : les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX siècle, annales -3- E.S C 21 année 1966, N 1, p 49.

⁴ - De Grammont, Op, cit, p 410.

- الاستقرار عند الممرات الجبلية والقناطر ومخازن الحبوب والطرق السلطانية التي تربط مراكز البايك بالعاصمة المركزية، فوجد مثلاً صالح باي ومن بعده أحمد باي قد أسكنوا قبائل الزمول في الأوراس والهضاب العليا لهذه المهام بالتحديد¹.

ويذهب حنيفي هلايلي أبعد من هذا حين يقول: "إن الأتراك استعملوا قبائل المخزن لا لشيء سوى استنزاف قبائل الريف اقتصادياً، فهي من كانت تضغط على القبائل الأخرى من أجل دفع الضرائب"².

وفي مقابل هذه الخدمات وغيرها فإنها تحصل على امتيازات تتمثل في:

- الإعفاء من دفع الضرائب ما عدا الالتزامات ذات الصلة الشرعية الدينية منها كالعشور والزكاة.

- الإعفاء من أعمال السخرة والتوزيع التي تفرض على القبائل الرعية.

- الحصول على الأراضي الزراعية أثناء المشاركة في الحملات العسكرية، فقد حصلت قبائل المخزن في الغرب الجزائري على أوسع وأخصب الأراضي الموجودة بين مازونة ووهران³.

- منحها نفس العلاوات التي تمنح للجيش الإنكشاري خلال مشاركتها في عمليات غزو القبائل.

وتقبض قبائل المخزن مبالغ مالية هامة من القبائل الرعية، شكلت لها ثروة لا بأس بها مكنتها من الحصول على نفوذ وتأثير ملموس على مناطق واسعة من إيالة الجزائر، وهذا ما جعلها تكون جهازاً عسكرياً أخذ يكتسب بالتدريج صفات الجهاز السياسي أثناء الاحتلال، ولكن في العهد العثماني لم يتمكن من لعب هذا الدور، لاستئثار الأتراك بكل المناصب الإدارية والسياسية ولكن قدم خدمات جليلة في ضبط أمور الإيالة، والدور السياسي سيتبلور بعد الاحتلال، حين تجد السلطة الجديدة نفسها عاجزة عن تسيير القبائل، فتمنح هذه الميزة بشكل شبه مطلق للمخزن.

ومن العوامل التي دعت السلطة للاعتماد على قبائل المخزن ما أوضحه سعيدوني ناصر الدين في العناصر

التالية:

¹ - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسة وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، ط2، الجزائر، 2008، ص 120-121.

² - حنيفي هلايلي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، دار الهدى، ط1، الجزائر، 2007، ص 86.

³ - Walsin Esterhazy : Notice historique sur le Maghzen d'Oran, imprimerie de Prier, Oran, 1849, p 12.

- قلة العنصر التركي مما نجم عنه عجز في أفراد الجيش النظامي الذي لا يقبل إلا الأتراك، ففي أحسن الأحوال لا يتجاوز عددهم 12 ألف رجل غالبيتهم في العاصمة والمدن الكبرى كقسنطينة ووهران وهو عدد قليل بالمقارنة مع مساحة الجزائر الواسعة وعدد سكانها، الأمر التي استلزم أضعاف هذا العدد لتسييرها.

- الوضع المادي المريح للأتراك جعلهم يسعون جاهدين للحفاظ عليه، وذلك بالتقليل من المستقدمين من البلد الأم ودفع المزيد من الأموال للتجنيد ودفع الرواتب، في وقت يمكن لقبائل المخزن توفير البديل الممتاز بتكلفة أقل، هذا من جهة ومن جهة أخرى المستوى المعيشي الجيد جعل رجال السلطة يتقاعسون في المسير للقيام بالواجبات السالفة الذكر لما فيها من خطر، فتركوا الأمر لهذه القبائل للقيام به.

- سرعة تحرك هذه القبائل في مواجهة القبائل المتمردة، فاستقرارها بينها أو قربها، يمكنها من الوصول إليها بسرعة، فتربح الوقت وتقضي على مركز التوتر الذي قد يتسع بسرعة، بالمقارنة إذا ما أرسلت قوات من الجزائر العاصمة، أو من عواصم البيالك حيث يتطلب المزيد من الوقت الذي قد لا يكون متاحا.

- قوة هذه القبائل ومعرفتها العميقة كما قلنا بطبيعة المكان وعقلية المجتمع يجعلها الأنسب للقيادة، فمن عادة الأتراك أينما حلوا إسناد حكم السكان المحليين إلى العصبية المحلية القوية¹.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه العلاقة بين الطرفين (المخزن/السلطة) علاقة مصالح في المقام الأول، فالسلطة وجدت في قبائل المخزن خير مساعد لبسط السيطرة دون الدفع بالمزيد من التكاليف، وقبائل المخزن وجدت مقابلا اقتصاديا ونفوذا لا يمكن رفضهما، فالعلاقة أقامتها ظروف معينة وتحكمت بها، لذلك فإن هذه العلاقة بقيت غير مستقرة وغير دائمة².

ويطرح سؤال عن عدم محاولة قبائل المخزن الاستقلال ثم السيطرة على الدولة وبداية حكم الأسر مثلا وتأسيس ممالك رغم ما أتيح لها من إمكانيات مادية وبشرية، وربما يعود السبب إضافة إلى ما قلناه عن المصلحة التي وجدت قبائل المخزن والفوائد التي تحصلت عليها والتي تمنعها من خوض مغامرة غامضة قد لا تكون محمودة العواقب، نجد عامل استقرار السلطة المركزية حيث شكل الأتراك مجموعة متجانسة متميزة رغم ما يظهر بين أجزائها من عدااء في بعض الأحيان خاصة الصراع حول تبوأ القيادة، فهذا التجانس والاستقرار مكنها من مراقبة

¹- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث، المرجع السابق، ص 97.

²- أرزقي شويثام، المرجع السابق، ص 257.

أكثر شدة للقبائل، خاصة مع امتلاكها للسلاح الكثير والتدريب الجيد للجنود، كما أن احتكارها للسلطة صعب من مهمة القبائل الباحثة عن سيادة أكبر، فجعل الوظائف والمراكز الحساسة حصريا في يد الأتراك، هذا دون نسيان العلاقة الوثيقة بين السلطة السياسية المركزية والسلطة الروحية الدينية ممثلة في الطرق الصوفية وشيوخ الزوايا، فهذه الثانية أضفت الشرعية على الطرف الأول، خاصة إذا ما علمنا مقدار التقديس والإجلال الذي يتمتع به المرابطون بين السكان، فتراجعت القبائل عما كانت عليه في العصر الوسيط حين كانت تعمل على الاستحواذ على الحكم، واقتنعت بالمرتبة الثانية، تشد الجميع، فتُقنع السلطة أنها تعمل على توحيد البلاد وراءها، وفي المقابل من ذلك تُقنع القبائل من الأصناف الأخرى أنها هي صمامها الأخير الذي يحافظ على أمنها ومصالحها مع السلطة المركزية، وسوف تلعب هذه القبائل هذا الدور حتى نهاية القرن التاسع عشر حين تغيرت خارطة الحكم لصالح الفرنسيين¹.

وعلى غرار جميع مناطق الجزائر اختارت السلطة العثمانية مجموعة من قبائل منطقة سطيف وجعلتها في صنف المخزن، لتكون عينها الساهرة هناك، ونذكر منها قبيلة عامر القبالة التابعة لقصر الباي، مخزن عزل واد الذهب الذي يمد السلطة بحوالي 25 فارسا عند الحاجة، كما كان قايد هذا العزل-الذي يدفع 500 بوجو لتعيينه في منصبه-ملزوما بحماية مطاحن البايك والسهر على زراعة المنطقة، وإقامة السوق يوم الثلاثاء²، كما عزز الأتراك وجودهم بالمنطقة بتشديد زمالة الكراغلة، المعروفة بزمالة العصامية التي خضعت للفرنسيين عام 1832³، ومن أشهر قبائل المخزن التي راقبت المنطقة نجد:

-أولاد موصلي: في زمورة الذين ينحدرون من ضابط تركي، تزوج من فتاة من هذه المنطقة، وخلف ابنين هما: الحاج إبراهيم وأحمد، أسسا جنوب الغرازة على ضفة وادي بوسلام دوار المعذر، وقد عين داي الجزائر أحمد قايدا على عامر والحاج إبراهيم قايدا على أولاد دراج، ولكن عادت القيادة لأولاد يلس بمحيء داي جديد، وتم نقل ابني موصلي لقيادة وادي الساحل والبيبان، وبعد احتلال قسنطينة، أعلن أولاد موصلي عن خضوعهم للفرنسيين، فأبقت السلطة الفرنسية على محمود بن داودي وهو آخر من تولى القيادة من أولاد موصلي ولكنه فقد

¹- عبد الباقي الهوماسي: المجتمع والدولة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، لبنان، 1999، ص 26 28.
²- فارس كعوان: منطقة سطيف في العهد العثماني: التقسيم الإداري والزعامات المحلية، مجلة البحوث التاريخية، م3، ع2، 2019، ص 66.
³- نفسه، ص 69.

منصبه بعد الضغط من قبل أحمد بن عبد السلام المقراني خليفة الأمير عبد القادر، فهرب نحو الفرنسيين وعين ضابطا في فرقة الصبايحية، وقتل في عام 1847، وكانت مهمة أولاد موصلي مراقبة قبيلة الغرازلة الرعية¹.

-قبيلة ريغة: من أقوى القبائل المخزنية في المنطقة، وقد عملت على شد مختلف قبائل سطيف لاسيما الوسطى والجنوبية منها بالسلطة المركزية، وقد رقيت إلى قبيلة مخزنية نظرا لتوفر جميع الصفات فيها لهذا، والتي تجعلها واحدة من أكثر القبائل أهمية، وقد تركزت هناك مشيخة قصر الطير، ومن هذه الصفات:

- قوية: حيث كانت كثيرة العدد، ولديها من الرجال القادرين على حمل السلاح وركوب الخيل الشيء الكثير فبإمكانها جمع عدة آلاف منهم حالما تشير السلطة لها بذلك، وهي

- غنية: تملك الأموال والأراضي، فلا تتحمل السلطة الإنفاق عليها، فهذه القبائل تستلم مبالغ مالية من القبائل الرعية مما شكل لها موردا ماليا جيدا، مكنها من ممارسة تأثير لا بأس به على مناطق واسعة، كما أن هذه القوة جعلت السلطة تحاول كسبها كصديق وحليف عوض أن تكون لها عدو شرس وصعب.

- موقع استراتيجي ممتاز: يُحول لها إمكانية التحكم في قبائل الرعية في المنطقة كعامر الغرابة والعلمة وتأمين الطريق السلطاني الرابط بين قسنطينة والجزائر العاصمة، كما أنه بإمكانها صد قبائل الشمال الوعرة كعموشة وبابور وغيرها، والتي قد تفكر في غزو مدينة سطيف-وإن لم تكن هذه الأخيرة مدينة كبيرة إلا أنها موقع مهم- كما أنها تشكل حاجزا ممتازا يصد قبائل الجنوب، وينظمها ويخضعها باعتبار أغليبتها قبائل ممتنعة ممن تشكل تهديدا متواصلا للسلطة.

ويبين لنا الجدول الآتي المحرر في 12 جوان 1866 قوة هذه القبيلة، ورغم أن هذه السنة بعد الاحتلال إلا أنها تعطينا فكرة عن ماضي قبيلة ريغة الظهارة².

¹- Maurice Villard et Yves Bassard, Op ; cit, 382.

²- Rapport de s.c de la tribu de Rigba Dahara, Op ; cit, p 5.

المشاة	الفرسان	الخيول	دواوير القبيلة
168	42	369	أولاد تبان
122	18	195	أولاد براهيم
173	24	323	أولاد سيدي أحمد
19	17	138	لأربعاء
27	14	160	أولاد عبد الواحد
18	36	139	بلاد عين تيسست
19	16	104	بلاد محجوب
22	14	99	بلاد راس الما
30	10	119	ولاد محلة
22	15	87	بلاد قبله زدم
8	28	116	ولاد بظهرة
19	14	81	بلاد شط المالح
31	33	152	بلاد شعبة قصر الطير
39	17	191	بلاد عين القصر
717	298	2237	الجموع

الشكل رقم 11: جدول يمثل عدد الفرسان والمشاة الذين يمكن لريغة الظهارة توفيرهم عند الحاجة.

التعليق: يتضح من خلال الجدول عدد الفرسان والمشاة الذين يمكن لقبيلة ريغة الظهارة المخزنية توفيرهم للسلطة العثمانية أثناء الضرورة كالضغط على القبائل أو منع حركات التمرد أو السير في المحلة، وتظهر أنها أرقام كبيرة، ساهمت بلا شك في حفظ الأمن واستوفت متطلبات البايك.

كانت بداية الأحداث المهمة في قبيلة العهد العثماني بعد تولي وادفل بن يحيى الحكم فيها، حيث قرر الدخول في خدمة السلطة العثمانية جاعلا منها قبيلة مخزن، وهو أمر لطالما عاد بالفائدة على ريغة من حيث الامتيازات الممنوحة لمثل هذه القبائل، وقد تولى الحكم من بعده أولاده: قسوم، ساعد، مسعود، بوعبد الله، سعادة، حفيده محمد قسوم وكلهم مارسوا سلطة على كل القبائل المجاورة لهم¹.

وقد بقيت ريغة مخزنية إلى غاية الاحتلال الفرنسي، وعادت التحالفات القديمة فدخلت ريغة الظهارة بقيادة أحمد بن الشريف تحت جناح السلطة الفرنسية، ووضع خدماته تحت تصرفها أثناء محاصرتها لقسنطينة عام 1837، ولكنه فيما بعد بايع الأمير عبد القادر، فعزله الجنرال إنقري ووضع مكانه مسعود وقد كرس الجنرال

¹ - Charles Féraud, Op ; cit, p 83.

غالبوا سلطة مسعود، ثم تم تقسيم القبيلة مرة أخرى بين الشيخ سعد (ريغة الظهارة)، وبين العروسي بن الشيخ مسعود (ريغة القبالة)، وبقيت على هذا الحال حتى خضوعها لتطبيق قانون السيناتوس كونسيلت¹، ومن جهة أخرى فإنه أثناء دخول أحمد بن الشريف في خدمة الفرنسيين، دخل الشيخ مسعود في خدمة الأمير عبد القادر وبايعه، ولكنه سرعان ما حذا حذو الشيخ بوعكاز بن عاشور ودخل في خدمة الفرنسيين بحسب ما أورده سجلات السيناتوس كونسيلت²، ولكن هل دخل الشيخ مسعود في خدمة الفرنسيين طوعا أو كرها؟ أو لم يدخل في خدمتهم إلا ظاهريا؟

يشير أحمد باي في مذكراته أنه أثناء محاولة حصار قسنطينة الأول بعث لأعيان القبائل من أجل مساندته، وقد لبّت جميعها النداء بما فيهم الشيخ مسعود. فيقول: "لقد قمت منذ زمان طويل باستدعاء جميع الشيوخ في مقاطعة قسنطينة وقد هب جميع القادة لتلبية ندائي، وأذكر من جملة من حضر مسعود بن المبارك شيخ ريغة، ورزقي شيخ الحنانشة، الحاج رجب شيخ الحراكته"³ وقد بقي الشيخ مسعود وفيا لأحمد باي حتى بعدما فشل هذا الأخير في صد الهجوم الفرنسي الثاني على قسنطينة وهروبه ناحية الأوراس، ومن جملة ما يبين هذا، إخباره إياه أن طابورا فرنسيا يتجه إليه من سطيف ليهاجمه في الحنانشة بالأوراس، وذلك حتى يتخذ الحاج أحمد باي احتياطاته، كما أعلن له عن استعداداته للتعاون معه ضد الاحتلال⁴.

1-2- قبائل الرعية: وهي القبائل التي أرغمتها ظروف وعوامل مختلفة على الخضوع للسلطة وأعوانها، منها الموقع الجغرافي سواء باستقرارها في السهول وعدم وجود تضاريس وعرة تحميها كما الحال في الجبال، أو القرب من مراكز السلطة الذي جعل الوصول إليها سهلا وسريعا، أو الوضعية الاقتصادية، كعدم امتلاكها للأرض ورغبتها في الحصول عليها لتلبية حاجياتها الاقتصادية المعتمدة على خدمة الأرض وتربية المواشي، أو الصراعات القبلية، هذه الأخيرة تشكل ضغط على بعض المجموعات القبلية الضعيفة فتسارع الدخول في قوة أكبر لتوفر لها الأمن والطمأنينة، والملاحظ على هذه القبائل أنها لم تكن تحظى بأي امتياز، فقط العيش ودفع الضرائب كان من نصيبها، حيث وقع على عاتقها دفع غاليبتها المعروفة خلال الفترة العثمانية⁵.

¹- Charles Féraud, Op ; cit, p 86.

²- Rapport de s. c de la tribu de Rigba Dahara, Op ; cit, p 25.

³- أحمد باي: مذكرات أحمد باي، تح: محمد العربي الزيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص 69.

⁴- محمد صالح العنزي، المصدر السابق، 159.

⁵- أرزقي شويثام، المرجع السابق، ص 257.

هذا، وتخضع القبائل الرعية لمختلف ممثلي السلطة، فنجد بعضها خاضع للباي مباشرة، وبعضها خاضع لقبائل المخزن والقياد والحاميات التركية ومختلف الشيوخ، ويعود هذا التقاسم إلى الرغبة في الاستفادة من خدماتها كتسخيرها للعمل في المزارع، وتقاسم الضرائب التي تدفعها، إضافة إلى تسهيل التحكم فيها وإخضاعها بتوزيع قواها المحدودة أصلا على أطراف عدة.

ففي دار السلطان مثلا، كانت القبائل الرعية تتمركز في المنطقة الممتدة من بحلوان غربا إلى واد يسر شرقا، خاضعة لأغا العرب، الذي يستعين في تحكمه بها بالقياد الذين تساعدتهم فرق الزمول، وكان قياد الأوطان بدورهم يشرفون على قبائل الرعية المقيمة في أوطانهم، فقائد ححوط يتولى أمر بني مناد وسماته وموزاية وححوط، وقائد وطن بني خليل كانت تحت قيادته قبائل بني مسعود وبني صالح وبني مصيرة¹.

ونظرا لخضوعها وعدم قدرتها على الاعتراض، كانت هذه القبائل تدفع مختلف أنواع الضرائب التي استحدثتها السلطة العثمانية لملاأ الخزينة، كما ساهمت في العمل الإلزامي لصالح الدولة وأعوانها، ونفذت تعليمات موظفي الجهاز الإداري المركزي، وتؤلف قبائل الرعية أغلبية سكان الريف وتمارس الزراعة، سواء الخدمة في أراضي الدولة كأجراء أو خماسين أو باستغلال أراضيها الخاصة².

وقد كانت في منطقة سطيف مجموعة من القبائل الرعية، التي ساهمت عوامل عدة لتكون ضمن هذا النوع، ليس عدم امتلاكها للأرض ولجئها إلى السلطة للحصول عليها هو الدافع وراء هذا، فالأرض كثيرة، ولكن العامل الجغرافي، المتمثل في التضاريس والقوة الحربية هما من حددا هذا بالدرجة الأولى.

فالملاحظ على مناطق سطيف الوسطى (نواحي مدينة سطيف) التي تسكنها كل من قبيلة العلمة والغرازة وأولاد نابت وعامر، عدم وجود غطاء يحميها، فهي سهول وأراضي مفتوحة على مد البصر، وليس هناك جبال تلجأ إليها على عادة ما تفعله القبائل الممتنعة، كما أن الغابات التي توفر ملاذا للهروب والامتناع غير موجودة إلا بعض الأجمات المتناثرة هنا وهناك، هذا الأمر لم يدع لها مجال للامتناع، كما أنها لم تكن بالقوة الكبيرة التي تجعل السلطة تنظر إليها نظرة التحالف فتجعلها قبائل مخزن يُعتمد عليها في مختلف العمليات المنوطة بهذا الصنف، إضافة إلى أن ضعفها البشري، جعلها في خطر دائم من القبائل الأخرى خاصة الممتنعة، ففضلت الانضواء تحت

¹ - أرزقي شويثام، المرجع السابق، ص 180-181.

² - حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 143.

جناح السلطة والحصول على الحماية عوض التعرض الدائم للغزو، خاصة من القبائل الشمالية للمنطقة، ومن القبائل الرعية نذكر:

قبيلة العلمة: هذه القبيلة الواقعة على الطريق السلطاني لبابك الشرق، لم يكن لها بد من الخضوع، حيث شيد الأتراك برجين هناك كما سبق ورأينا، ولا شك أنهما مارسا ضغطا شديدا عليها، والدليل على هذا أن العلمة لم تقم في العهد العثماني سوى بمحاولة واحدة للانعتاق من صفة الرعية، وقد قام بها أولاد سي منصور العولمي في عهد أحمد باي، لكنها باءت بالفشل¹.

في أواخر العهد العثماني وللتحكم أكثر في هذه القبيلة - خاصة بعد محاولة الانعتاق - عمدت السلطة إلى تقسيمها وإخضاعها لقائدين الأول منهما عينته على أولاد سي منصور العولمي، وقد خدم هذا الأخير السلطة العثمانية بتفان وإخلاص، كما كان محبوبا من السكان، وأصله من إحدى العائلات المنتفذة من الشرق الجزائري وهي عائلة أحمد بوعكاز، واستقر في سهل بازر لإدارة ما يقع تحت يده، وقد أقيم هناك مسجد على شرف ذكراه، والثاني عُيِّن على أولاد سعيد بن سلامة، هذا دون نسيان قبيلة ريغة التي تراقب الوضع عن كثب في هذه القبيلة ومستعدة للتدخل عندما تقتضي الضرورة ذلك².

- قبيلة الغرازلة: انضوت هذه القبيلة تحت جناح السلطة وأصبحت رعية بعدما تمكن الأتراك من السيطرة على زمورة وإحكام قبضتهم عليها، حيث توجهت أنظارهم إلى هذه القبيلة طمعا فيما يمكن أن تقدمه لهم من فوائد جمة خاصة من الناحية الاقتصادية والتموين، فقدم مجموعة من الأتراك إليها واستقروا في المعذر وأسسوا حامية، عرفوا بأولاد موصلي الذين تطرقنا إليهم³.

كانت الغرازلة من أوائل القبائل في المنطقة التي دفعت الضرائب للأتراك، وكان لزاما عليها تزويد الحامية التركية المستقرة عندها بالنقود، والمؤن المتمثلة في الحبوب والدقيق وبعض المنتجات الفلاحية المنتشرة هناك كالزيت، والمواشي الضرورية للحصول على اللحم والحليب ومشتقاته وغيرها، وقد تحملت الغرازلة كل هذا بإذعان وخضوع تامين على عادة ما تفعله القبائل الرعية الملتزمة بواجباتها اتجاه السلطة، ولم يبدر منها ما يبين أي إشارة للرفض طوال المدة التي استقر فيها الأتراك هناك⁴.

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Eulma, Op ; cit, P 18.

²- Ibid, p 17.

³- Rapport de s.c de la tribu de Gherazla, Op ; cit, 3

⁴- Ibid, p 4.

-**قبيلة عامر**: تحتل عامر أيضا سهول سطيف الواسعة، ويمر في مجالها الطريق السلطاني الخاص ببابلك الشرق، الأمر الذي جعلها تقع في صلب اهتمام السلطة مباشرة، ولذلك لم تكن عامر إلا قبيلة خاضعة، خاصة مع عدم توفر مقومات القوة الأخرى.

أثناء العهد التركي انقسمت عامر عام 1670م إلى قسمين وأضحت تعرف بوطن عامر، ثم انقسمت مرة أخرى فأصبحت تتكون من عامر القبالة والظهارة وأولاد نابت، وكانت هذه القبيلة تحت حكم عائلة تركية هي أولاد يلس، ورب هذه العائلة ضابط تركي بسيط مثله مثل موصلي الذي استقر ناحية الغرازة¹.

اتجه يلس إلى المسيلة حيث تزوج بامرأة من هناك، وحصل بواسطة هذه الزيجة على بعض النفوذ، أهله ليكون قائد أولاد دراج الذين ينتمون إلى باتنة بتعيين من باي قسنطينة². وقد توفي يلس وخلف ابنين محمد الصغير وأحمد خوجة، الأول عين كقايد على المسيلة وبقي مدة سنتين فقط، والثاني خلف والده على أولاد دراج وتوفي بعدها بسنوات خلفا خمسة أطفال براهيم ويليلى ومحمد خوجة وصالح، وابن هني الذي عين من قبل أحمد باي قايد على عامر سطيف، وهو ما نقله شارل فيرو³.

لكن تأتي سجلات السيناتوس كونسيلت لتكون أكثر وضوحا ودقة في هذه المسألة، فحسب ما ثبت فيها فإن عامر شهدت عدة فترات حكم من طرف رجال السلطة المختلفين، خاصة في ظل عدم وجود عائلات كبيرة تُسند لها مهمة التحكم في هذه القبيلة، رغم بعض النفوذ الذي مارسه المقرانيون من مجانة كعائلة منتفذة، كما كانت القبيلة تقبل دون اعتراض الرؤساء والقياد الذين يعينهم بايات قسنطينة، والذين قد يكونون من الأتراك، أو من داخل القبيلة، أو من خارجها، وقد تحكّم في هذه القبيلة كل من:

1- قيادة عامر تولوها من داخل القبيلة عدة عائلات وأسماء (حكم محلي) هي:

عائلة أولاد زايد: من أولاد بونشادة، فرع من عامر القبالة.

عائلة أولاد تومي من أولاد علي بن ناصر، فرع من عامر القبالة.

أولاد منصور من عائلة تومي فرع من عامر القبالة.

¹ - فارس كعوان، المرجع السابق، ص 65.

² - Charles Féraud, Op ; cit, p 86.

³ - Ibid, p 87.

أولاد عدوان من عامر القبالة.

أولاد خيل من عامر الظهارة.

أولاد نابت.

2- تحت حكم قايد العشور¹

أولاد بونشادة من عامر القبالة

أولاد تومي من عامر القبالة

3- تحت حكم باش كاتب²

4- تحت حكم باش مكاحلي³:

أولاد قاسم من عامر الظهارة.

5- قايد الدار⁴: أولاد بلخير.

¹ - قايد العشور هو: المكلف بجمع أموال الضرائب كان يسير مع المحلة وهو الذي يحدد قيمة ما يجب دفعه، ويمنح الصكوك بذلك،
Eugène Vayssetes : Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517-1837, éditons Bouchène, 2002, p 30.

² - باش كاتب: هو كاتب الباي وسكرتيره الخاص، مكلف بمراسلات الباي ويوزع أوامره ويحتفظ بسجلات لذلك، ويعد الإيصالات الخاصة بجميع أنواع الأملاك الأموال والخيول والبغال والثيران والقطعان والتحقق مما يقوم به الأمناء ويعين حتى موظفين، قد يصل ما يتحكم به 23 قبيلة يساعده وكلاء في ذلك Eugène Vayssetes : ibid, p 26 ، ويدفع الباش كاتب لقاء تعيينه 5000 بوجو، وآخر من تقلد هذا المنصب قبل الاحتلال كان محمد خوجة بن جلول، ناصر الدين سعيدوني: الشرق الجزائري بابلك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، من خلال وثائق الأرشيف، البصائر الجديدة للنشر، الجزائر، 2013، ص 269.

³ - باش مكاحلي: هو رئيس قصر السلطان ومديره بمعنى كبير الخدم، وقائد حرسه، يحمل السلاح في الاحتفالات العامة، يصل عدد القبائل الرعية التي يتحكم بها إلى 7 قبائل Eugène Vayssetes : ibid, p 27 ، ويدفع لقاء تعيينه في منصبه 1000 بوجو، ومن تقلد هذا المنصب قبل الاحتلال كان واحدا من العبيد، وكانت قبيلة الدهامشة القوية واقعة تحت يده، حيث تقدم له حقوق المشايخ والفرج، ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 272.

⁴ - قايد الدار: بمثابة رئيس البلدية حاليا: عادة ما يكون أغا متقاعد، مكلف بالإدارة والشرطة ويتموين الجند، وتمتد سلطته لتشمل القسم الأكبر من الأملاك Eugène Vayssetes. ibid, p 25

6-الأغا¹: من بني فودة من عامر الظهارة.

7-شيخ العرب²: تحت سلطته أيضا بني براهيم، والذين ليسوا من أصل واحد مع قبيلة عامر³.

8-أولاد يلس: من الأتراك.

وقد بقيت عامر موحدة بين أجزائها الثلاث إلى غاية عام 1849، حيث وضعوا تحت ثلاث قيادات من قبل السلطة الفرنسية التي أرادت إحداث تغيير في التنظيم الموجود بالمنطقة بعد احتلالها.

وتعتبر عامر القبالة من بين القبائل الرعية الأكثر هدوء في المنطقة فلم يعترضوا في الغالب على سياسة السلطة طوال العهد العثماني إلا في أواخره، حيث حدثت صدامات بين صالح قايد عامر وأحمد باي ولكن ما لبثت أن عادت الأمور إلى نصابها، والدليل على هذا أن صالح قد شارك رفقة أحمد باي في معركة سطاوالي وجرح هناك، وحتى بعد انتشار خبر سقوط العاصمة وهيجان الكثير من القبائل، فإنه بقي وفيا لأحمد باي، كما أن أحمد باي لما قفل راجعا من العاصمة بعد هزيمة سطاوالي ثارت الكثير من القبائل ومنها قبائل منطقة سطيف، وبايعوا إبراهيم الكريتلي، فما كان من أحمد باي إلا أن عقد اجتماعا في قبيلة عامر القبالة عند أولاد يلس حيث تمكن من إقناع قبائل سطيف لاتباعه⁴.

وكانت القبيلة في حال تعرضها للغزو والإغارة تعتمد إلى إرسال أبنائها ونساءها ومواشيها ناحية جبال البابور، حيث كان جزء منه ضمن ملكيتها لتحتمي هناك ريشما تهدأ الأمور، ولا تخضع بسببهم للمساومة خاصة وأن احتجاز الرهائن والمساومة بهم من أساليب السيطرة على القبائل⁵.

¹ - الأغا: يعتبر قائد الحامية العسكرية التركية في البايك، يعين من قبل الباي، ويدفع مقابل تعيينه 10 آلاف بوجو، ويرافق الباي في تنقلاته، ويتحكم في مجموعة من الفرسان، يعينون من مختلف القبائل، وكان بلحملاوي هو من يشغل هذا المنصب في عهد أحمد باي، ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 262.

² - شيخ العرب: هو زعيم عرب الصحراء الرحل، كان يحكم جميع قبائل الأوراس من بلزمة إلى خنقة سيدي ناجي، وكان نفوذه يمتد إلى وادي سوف حدود الصحراء الكبرى، جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 159.

³ - Rapport de s.c de la tribu d'Amer Guebala, Op ; cit, p 44-45

⁴ - Eugène Vayssetes, Op ; cit, p 232.

⁵ - Rapport de s.c de la tribu d'Amer Guebala, Op ; cit, p 43.

1-3- القبائل الممتنعة: وهي التي لم تخضع لسلطة الأتراك إطلاقاً، أو خضعت بشكل جزئي كأن تخضع أجزاء من القبيلة فقط مثل تلك التي تسكن في سفح الجبل وليس في عمقه، أو مؤقت تخضع حين تعلن الاستسلام بعد تمكن السلطة من غزوها ولكن سرعان ما تعود لطبيعتها الأولى بزوال العامل المسبب للخضوع، أو شكلي يُعلن عنه بعلامات عدة كدفع ضرائب رمزية، وسميت ممتنعة لأنها امتنعت عن قوة السلطة، ورفضت الخضوع لها ودفع الضرائب، تركزت في المناطق الجبلية ذات التضاريس الوعرة كجرجرة والبابور، والصحراء، وقد ساعدها موقعها الجغرافي في الخروج عن أوامر السلطة وإكراهاتها، فالجبال التي سكنتها شكلت مواقع حصينة، مما مكنها من البقاء بعيدة عن التأثير¹.

وبالحديث عن التضاريس نلاحظ أن لها تأثيراً كبيراً في رسم العلاقة بين السلطة والقبائل، طوال العهد العثماني وحتى بعد الاحتلال الفرنسي، ولا يمكن فهم هذه العلاقة إلا بالرجوع لهذا العامل، فالقبائل المخزنية كانت من القبائل القوية التي لديها الأرض أو احتاجت إلى استغلال الأرض، والقبائل الممتنعة لم تصبغ بهذه الصفة لولا التضاريس الوعرة في مجالها، والأهم من هذا أن الجبال كانت من أهم ما صبغ علاقة القبائل الممتنعة بالسلطة المركزية، فالجبال منحتها الكثير من الأساسات التي تستند عليها لتشكيل النوع الغالب من القبائل، فالمعروف أن الجزائر فيها سلسلتين جبليتين ضخمتين الأطلس التلي والأطلس الصحراوي.

وقد استمر هذا العامل بعد الاحتلال الفرنسي في إلقاء ظلاله على العلاقة بين القبائل والسلطة، فسرعان ما دخلت القبائل الرعية في خدمة السلطة الفرنسية طوعاً أو كرهاً، ولكن منطقة القبائل مثلاً وبالرغم من قربها من العاصمة إلا أن قوات الاحتلال الفرنسي لم تتمكن من الدخول إليها إلا في عام 1857 بعد معركة إيشريظن²، وهو ما يقال عن مناطق الونشريس والظهرة والصحراء، وحتى بعد توسع الاحتلال فإن المناطق الصعبة التضاريس لم تشكل أهمية للاستيطان أو تطبيق القوانين العقارية، لذلك فمعظم المناطق الجبلية والصحراوية بقيت بعيدة نوعاً ما عن أيدي المعمارين، وسيستمر هذا العامل حتى الثورة التحريرية أين شكل الجبل الخلفية الملائمة لدعم الثورة

¹ - ناصر الدين سعيدوني : وراقات جزائرية، المرجع السابق، ص 22.

² - معركة إيشريظن: بقيت منطقة القبائل صامدة في وجه الاحتلال الفرنسي حتى عام 1857م، حيث شارك سكان المنطقة في العديد من المقاومات تحت جناح مختلف الزعماء مثل الشريف مولاي محمد الملقب بوعود (1845-1847)، ثم ثورة مولاي إبراهيم 1849، ولالة فاطمة نسومر التي ألحقت عدة هزائم بالفرنسيين بقيادة راندون منها معركة إيشريظن وتاشكريت الذي طالب بمدة استغلها في تقوية جيشه وتدعيمه، وبادر بالهجوم وتمكن عام 1857 من الهجوم وقاومت لالة فاطمة نسومر بشرف لكنها انهزمت وقبض عليها بعد حيلة من الجنرال راندون وبقيت في السجن حتى توفيت عام 1863م بعد مرض في بطنها، العربي منور: تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 251-255.

والدفع بها لتحقيق الهدف المنشود، لذلك لا بد من الإلمام بهذا العامل وأخذه في عين الاعتبار عند كل محطة من محطات دراسة القبيلة والسلطة والعلاقة بينهما.

وتأكيدا لما قلناه، فقد انتشرت القبائل الممتنعة في الجزائر خلال العهد العثماني بشكل كبير، إلى حد جعلت بعض المؤرخين يشككون في سلطة الأتراك إذا ما كانت قد شملت جميع أراضي الجزائر أم لا؟ فيذكر لويس رين أن فرنسا استطاعت السيطرة على حوالي 48 مليون هكتار من أراضي الجزائر حتى مطلع القرن 20، مقدا أرقاما رسمية صادرة عن المصالح الحكومية الفرنسية مفادها سيطرة فرنسا على 47,897,025 مليون هكتار تقطنها القبائل الجزائرية على العموم، في مقابل هذا فإن الأتراك لم يسيطروا إلا على 7,825 مليون هكتار تقطنها القبائل الرعية والمخزنية والمتحالفة، مما يبقّي حوالي 40 مليون هكتار تقطنها القبائل الممتنعة¹.

وفي هذا الصدد يقول جورج فوازن: "لقد حافظت الصحراء الكبرى والجبال الوعرة في الساحل على استقلالها، ولكن سكان السهول المفتوحة والهضاب والوديان عانوا من كل المصائب وكانت علاقتهم بالسلطة التركية قليلة"².

ولم تكن هذه القبائل تدفع الضرائب إلا في حالة تمكن السلطة بطريقة ما من التأثير عليها، فمثلا قبيلة ريغة بضواحي مليانة كانت في حالة حرب دائمة نتيجة رفضها للدفع، ولكن السلطة تجدد ضالتها عند هذه القبيلة في حالة واحدة، حين تردد هذه الأخيرة على السوق الأسبوعي لمليانة، فهي بحاجة إلى المبادلات الاقتصادية لسد حاجاتها، فكان الكراغلة بهذه الناحية وباعتبارهم يشكلون قبيلة مخزنية يقطعون عليها الطريق نحو السوق ويرغمونها على الخضوع ولو كان هذا مؤقتا فقط.³

وعلى الرغم من كل الهجمات والمسايع من قبل السلطة لإخضاع القبائل الممتنعة، والتي تكمل بالنجاح أحيانا، إلا أن ذلك لا يكون سوى نسبيا ومؤقتا في أحسن الأحوال، فهذه القبائل تتصرف وفق ما تمليه مصالحها ومكانة زعمائها وانطلاقا من موقعها الاستراتيجي الحصين وقوتها، وقد ارتبطت بعلاقات خاصة مع الحكام، علاقة تكفل لها الاستقلال والانتفاع بالتسهيلات التي تُوفر لها لقاء هدوئها، وعند اضطرارها للدفع، لا يكون ذلك من باب الخضوع كالقبائل الرعية، وإنما مقابل منافع معينة كحيازة الأراضي والتسهيلات في المبادلات التجارية

¹- Luis Rinn : le Royaume d'Algérie sous le dernier Day, édition Adolphe Jourdan, Alger 1900, p 25.

²- George Voisin : l'Algérie pour les Algérien, Méchel Lévy frères libraires éditeurs, Paris, 1861, p 25.

³- M. Julienne : les Rira de la subdivision de Miliana, R. A : N 1, 1865, p 284.

والتنقلات، فيقول عبد الباقي الهرماسي: " إن القبائل المتواجدة على الهامش قادرة على تقرير استقلالها عن النفوذ المركزي، أو على الأقل في إمكانية التفاوض اتجاه السلطة"¹.

والسلطة من جهتها تضيق الخناق على هذه القبائل بصرف النظر عن الأموال المتحصل عليها والتي تأتي في المرتبة الأخيرة من حيث الأهمية لاعتبارات عدة منها:

- عدم فتح فرصة الامتناع، فإذا ما أحست قبائل أخرى بليوننة الموقف وتراخي السلطة سعت هي الأخرى لتكون ممتنعة كذلك فتقوى بذلك حركة المعارضة ويُخدش جدار الأمن، وأمر كهذا لن يكون أبدا في صالح السلطة العثمانية الساعية إلى فرض سيطرتها على كامل القطر الجزائري، خاصة مع نهاية عهدها، حيث حدثت الكثير من التفاعلات بدأت بتراجع موارد البحر بسبب تراجع قوة الأسطول الجزائري أمام نظرائه الأوروبيين، الأمر الذي انعكس سلبا على الخزينة التي شهدت عجزا ماليا، عجزا استدعى البحث عن بدائل أخرى لتحصيل الأموال، وبطبيعة الحال وجدت السلطة في جيوب القبائل، وبالتالي كلما توسعت دائرة التحكم توسعت معها دائرة المداخل التي تصل الخزينة، والعكس صحيح.

- رسالة على أن السلطة موجودة وهي سيدة الموقف، وأن لا شيء يخرج عن إطار مراقبتها ومتابعتها، فدفع الضرائب ولو كان رمزيا دليل على التبعية للمركز، لذلك كان على القبائل الدفع مهما كان ما تدفعه قليلا أو كثيرا، فلم تكن الدولة تهتم بالنقود أكثر مما يحمله الدفع من رمزية.

ومن بين قبائل سطيف الممتنعة نجد تلك الساكنة في الجبال بالجهة الشمالية للمنطقة، على غرار بابور عموشة بني ورثيلان وبني شبانة وساحل قبلي.

- **قبيلة بابور:** كان من الصعوبة اختراق مجالها واحتلالها وفرض السيطرة عليه نظرا لجبالها الوعرة التي تسكنها، وقد دأبت على معاداة السلطة والتمتع بالاستقلالية، حيث بقيت خارج سلطة الأتراك طوال عهدهم، رغم محاولاتهم المتكررة لتغيير ذلك².

¹ - عبد الباقي الهرماسي، المرجع السابق، ص 27.

² - Rapport de s, c de la tribu de Babour, Op ; cit, p 42.

-عموشة، فرغم محاولة الأتراك السيطرة عليها أيضا، وتمكنهم من بناء الأبراج هناك، إلا أن ذلك لا يعدو كونه أمرا شكليا، لأن القبيلة بقيت ممتنعة، ولم تتحقق السيطرة عليها إلا بعد عام 1865، وقبل كل هذه الفترة كانت مستقلة أو شبه مستقلة، خاصة الناحية المجاورة لجبال بabor¹.

-قبيلة الدهامشة التي لم تختلف في وضعيتها عما سقناه حول القبائل الممتنعة، خاصة وأنها تتقاسم جزءا من جبال بabor مع القبائل الأخرى وبقيت أيضا ممتنعة، ولم يستخلص الأتراك إلا القليل من الضرائب منها، وذلك بعد الاستعانة بنفوذ شيوخ الزوايا والمرابطين².

1-4 - القبائل المتحالفة: وهي القبائل المتعاملة مع الأتراك مباشرة والمتعاونة معها، تتمتع بالاستقلالية، وتحظى بالاحترام، نتيجة التنازلات والمعاهدات الشفهية والكتائية والامتيازات المعترف لها بامتلاكها، وقد حدثت بين الطرفين (الأتراك / القبائل المتحالفة) ظلال لانهاية من العلاقات، وفي بعض الأحيان كانوا أقوى حتى من البايات أنفسهم، فأولاد سيدي الشيخ، وشيوخ جبال عمور، وعائلة بوعكاز والمقرانيين، كلهم سعت السلطة لكسب ودهم، وتم هذا بطرق عدة كتقديم العديد من التنازلات ومبالغ طائلة أحيانا³، فتذكر المصادر التاريخية، أن المقرانيين المتحكمين في الطريق السلطاني المار من الجزائر العاصمة إلى قسنطينة نتيجة وقوع منطقة البيان ضمن مجال حكمهم، كانوا يرغمون قوات السلطة العثمانية أثناء مرورها من هناك على دفع ضريبة تسمى ضريبة المرور، وأحيانا الوعدة، وهي عبارة عن أموال وسلاح وملابس فاخرة لأعيان الأسرة⁴، وينقل بايسونال ما عاشه أثناء مرافقته للمحلة المارة بهذه المنطقة، وكيف كان الجنود الأتراك يخشون المرور من هناك ويخفضون الأسلحة وعدم طلبهم أي شيء مثلما كانوا يفعلون عند القبائل الأخرى، فيقول: " اضطررنا للمبيت في العراء والبقاء تحت الشمس المحرقة دون أن يجراً أحد من رجال المحلة على طلب الضيافة، كما بقينا جائعين دون أن يقترب أحدهم من رأس غنم واحدة من مواشي السلطان بوزيد المقراني"⁵، وهذا ليس بالأمر الهين لولا إدراك المقرانيين للقوة التي يحوزون عليها، وليس هينا للسلطة أن تحس أنها خاضعة في مجال تعدده مجالها لولا إدراكها لقوة المقرانيين ولعرفتها أن نظير هذا العمل البسيط ستحصل على فوائد جمة، أولها سهولة المرور من البيان وضمان المقرانيين لاستقرار هذه المنطقة والمناطق المجاورة، وقد كانت السلطة المركزية تتغاضى عن التجاوزات

¹- Rapport de s, c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 15.

²- Rapport de s, c de la tribu de Dehamcha, Op, cit, p 40.

³- Luis Rinn, Op, cit, p 5.

⁴- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 58.

⁵- J. A. peyssonnel : Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger, T1, Librairie de Gide, Paris, 1838, p 191.

التي تقوم بها هذه القبائل المتحالفة مادامت تضمن الأمن وتعمل على ربط القبائل بالسلطة وتساهم في جباية الضرائب وهذا النوع من القبائل صنفان:

-المرابطون والقبائل الدينية: المنحدرون من النسب الشريف، أو من الصحابة الكرام، وقد أسس هؤلاء المرابطون زوايا وأصبحوا شيوخ الطرق الصوفية، حظوا بالاحترام والتقدير لخلفيتهم الدينية، فلا يدفعون أي التزامات مالية ولا تقع عليهم أي أعباء، بل كانوا يحصلون على هدايا وإعانات من السلطة، فالنسب الشريف المتصل بالنبي صل الله عليه وسلم يعد عنصرا لاكتساب النفوذ والاحترام، فالملتجئ الجزائري يحترم الأشراف، وكثر الاعتماد على هؤلاء في الجهة الغربية للجزائر، حيث انتشرت الطرق الصوفية المختلفة.

-الأجواد: وهم المنحدرون من العائلات أو من القبائل القوية العريقة التي تملك أراضي واسعة وعلاقات قرابية واجتماعية كثيرة، وقد اشتهرت عائلات عدة من هذا الصنف في بايلك قسنطينة، مثل المقرانيين في مجانة التي توارثت حكم المنطقة منذ بداية العهد العثماني¹، وعائلة بن قانة في الصحراء التي توارثت مشيخة العرب²، وبوعكاز بن عاشور في فرجوة³، وتم الاعتماد على هذا الصنف في الشرق الجزائري (بايلك الشرق)، حيث

¹ - المقرانيون: يجمع أغلب المؤرخين على أن هذه الأسرة تنحدر من أشراف المغرب الأقصى، ينحدرون من سيدي عبد الرحمن الإدريسي، الذي انتقل إلى زواوة واستقر هناك، ثم ما لبث أن فر ناحية واد الساحل، حيث أراضي بني عباس وأسس هناك مدرسة ثم ازداد نفوذه لتنتقل زعامة قبيلة بني عباس إلى ابنه أحمد، لتتوسع هذه الزعامة بتأسيس إمارة بني عباس، وقد كانت هذه العائلة من كبريات العائلات وأكثرها تأثيرا في العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي وكان نفوذها يمتد على كامل غرب بايلك قسنطينة من جبال بابور شمالا إلى إقليم الزاب جنوبا، للمزيد راجع، جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 50-62.

² - أسرة بن قانة: اختلف في نسب بن قانة ما بين شريفي وغيره، تعتبر هذه الأسرة إدارية تقلدت العديد من المناصب، سيطرت على جنوب بايلك قسنطينة، ومقرهم الأصلي كان بسكرة، ومنها شيخ العرب، تحت تصرفها العديد من قبائل المخزن كالسحاري والزماله، وبقيت تتمتع بنفوذ في العهد الفرنسي، ومالت إلى الفرنسيين خاصة لما عزل أحمد باي شيخ هذه العائلة فرحات بن السعيد الذي سرعان ما اتصل بالفرنسيين وشارك في حصار قسنطينة 1837/10/10، كما حاربت الأمير عبد القادر وخليفته الحسن بن عزوز ممثلة في شيخها بوعزيز بن قانة، هذا الذي ارتكب فضائع شنيعة في حق المقاومين الجزائريين، حيث قطع 500 زوج من الأذان وأرسلها إلى الجنرال قالبا الذي كافأه بمنحه 50 ألف فرنك، والكثير من الهدايا، وقلده وسام ضابط الشرف، للمزيد راجع: جميلة معاشي، المرجع نفسه، ص 80-90، محمد مجاوي: المجندون الجزائريون في الجيش الفرنسي 1830-1900، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006/2005، ص 67.

³ - أسرة بوعكاز بن عاشور: تنحدر من أسرة أولاد زناتي قرب قالمة، حين هربت زوجة كبير الأسرة بولديها عاشور وحمزة ناحية القل ثم جيجل بعد مقتله نتيجة خلاف عائلي حاد، ثم وصلت إلى قبيلة أورزيفة، التي كانت تزعم فرجوة، وقد أعجب شيخ هذه القبيلة بالمرأة فتزوجها وزج ابنها عاشور من ابنته، خاصة أن هذا الأخير أظهر سمات القيادة والزعامة، حيث أصبح شيخ القبيلة وقد عمل جاهدا من أجل تقوية قبيلته وتوسعة أملاكها، حيث تمتعت بالاستقلال السياسي والعسكري، وكان أول احتكاك مع بايات قسنطينة قد تم في عهد الحاج بن عاشور حوالي 1700م، وأول باي حاول أخضاعهم هو حسن بوقمية حوالي 1713، لتأمين الطريق بين قسنطينة وسطيف، لكنه فشل، ليتم هذا في عهد صالح باي (1771-1792) الذي اتبع سياسة فرق تسد، فتحوّلت إلى مخزنية شاركت في جل عمليات إحكام السيطرة على البايك، كان لها دور مشرف في مساندة الحاج أحمد باي أثناء المقاومة، للمزيد راجع: جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 92-94.

تحكمت هذه العائلات التي ذكرناها وغيرها في شؤون الحياة كافة، وتقاسمت نفوذ المناطق، فالمقرانيون يصل نفوذهم حتى سطيف وبجاية والبرج (الحضنة)، وبوعكاز نواحي ملية وفرجيوة وجيجل وشمال سطيف ناحية البابور وبين قانة المتحكم في إقليم الزيبان.

ومن خلال ما اطلعنا عليه من سجلات، نجد أن هذين النوعين من القبائل (أصحاب السيف والمرابطون) كان لهما حضور في منطقة سطيف، وبرزت بعض العائلات، ونذكر:

عائلة بن عبيد: تعتبر عائلة بني عبيد من كبريات العائلات في منطقة سطيف خلال الفترة الحديثة، التي تركت بصمتها فيما يخص علاقة القبائل بالسلطة، إذ ربطتها علاقات وثيقة بالسلطتين العثمانية، ثم الفرنسية فيما بعد. وقد استقرت بني عبيد في دوار ما وكلان¹ المنتمي إلى قبيلة ساحل قبلي، ووصل نفوذ هذه العائلة لدرجة كبيرة أواخر العهد العثماني، إذ كانت لديهم صلات متينة ورسائل متبادلة بين شيخهم عمار بن عبيد والحاج أحمد باي قصد تحقيق سلطة البايك في تلك المنطقة كمحاولة من الباي إيصال نفوذه إلى عمق المناطق الممتعة تماشياً مع عمل السلطة ككل، والهادف إلى سيطرة أكبر على القبائل ومواردها بعد تراجع عائدات البحر، حيث اقترح أحمد باي على هذا الشيخ - بعدما فشلت حملته - القضاء على لخضر بن واري الذي كان يتحكم بخلفيته المرابطية في كامل نواحي قبيلة قرقور والذي أعلن تمرده على السلطة، في مقابل منحه منصب خليفة يتحكم في كامل المنطقة الممتدة من قرقور حتى فرجيوة، وقد نفذ الأمر رغم كون لخضر بن واري ابن خاله، وظهر دور هذه العائلة في مواقف عدة، خاصة إخماد الثورات وإحلال الأمن، واستمر حال العائلة بعد الاحتلال كعائلة متعاونة مع الاحتلال وقدمت العديد من القياد لهذا الأخير².

بني يعلى: إن كان لبني عبيد النفوذ الدنيوي، فإن لبني يعلى النفوذ الروحي الديني، حيث استقرت في منطقة بني يعلى عائلة مرابطية شريفة، هي عائلة سي مبارك بن السماقي، التي أسست زاوية على غرار ما تفعله معظم الأسر من هذه الشاكلة، وقد أصبح لهذه الزاوية تأثير كبير على كامل المنطقة الشمالية لسطيف، مستفيدة من بعدها الديني ونسبها الشريف، مما جعلها أسرة متحالفة في العهد العثماني، فهي لم تكن تدفع الضرائب وتحظى بمعاملة جيدة، مقابل حرصها على تهدئة قبائل تلك الناحية على غرار بني شبانة، وبني ورثان وساحل

¹ - ما وكلان: كلمة من شقين ما: الماء، إكلان: كلمة أمازيغية تعني العبيد معناه مياه العبيد، دوار ينتمي إلى قبيلة ساحل قبلي، مساحته 9446 هـ عدد سكانه 3350، يملك 14528 رأس ماشية، يدفع للسلطات الفرنسية ضرائب قدرها 25081 فرنك و 31 سنتيم (إحصائيات أواخر القرن

19) المرجع: Rapport de s, c de la tribu de Sahel Guebli , Op, cit, p 601

² - Rapport de s, c de la tribu de Guergour, Op, cit, p 34.

قبلي المنتمية لمنطقة القبائل، هذه التي كانت من المناطق الأكثر امتناعا، ويظهر تأثيرها في قدرتها على بسط الأمن، إذ لم تذكر السجلات التي اطلعنا عليها أي ثورات تقريبا في هذه المنطقة ضد السلطة المركزية¹.

في الأخير يتبين لنا أن منطقة سطيف كانت محل جميع الأصناف القبلية، ما بين مخزن ورعية وممتنعة ومتحالفة، عملت السلطة ما في وسعها من أجل إيجاد تجانس وترابط بينها مستغلة هذا التنوع في الأساس وقد استطاعت الحفاظ على وجودها ومصالحها وهيكلتها في مجتمع يشهد الكثير من التفاعلات والتغيرات.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التصنيف الذي ذكرناه غير قار ولكن يخضع لمدى ولاء الأطراف، بمعنى أنه لا قبيلة تبقى في وضع معين وثابت، إذ وبحركة صغيرة تجد نفسها مصنفة في نوع آخر، فالقبيلة المخزنية قد تصبح رعية بعد قيامها بثورة مثلا، والرعية تجد نفسها مخزنية نظرا لخدمة تقدمها وتكافئها السلطة عليها وهكذا، ومن ذلك قبيلة مخزنية أصبحت رعية بعد إعلانها العصيان عام 1808 وأصبحت تابعة للباي، وقبيلة الحشم الرعية التي رقيت إلى قبيلة مخزن على إثر مساندتها للباي محمد بوكابوس في حربه ضد درقاوة ولكن مرة أخرى أنزلت إلى رعية بعد وقوفها مع التيجانيين في الميدان ضد الأتراك².

2- سياسة العثمانيين للسيطرة على القبائل: إن السلطة العثمانية في الجزائر وكغيرها من السلطات تبحث عن الاستقرار والأمن والبقاء في أعلى الهرم، وبما أن القبيلة في حد ذاتها سلطة على مجالها بغض النظر عن نوعها من منظور السلطة (مخزن، رعية، ممتنعة، متحالفة)، ولها من القوة البادية أو المستترة، المادية أو المعنوية الشيء الكثير لدرجة يمكنها من تشكيل خطر في أية لحظة مهددة السلطة ومؤثرة عليها سلبيا فقد اتبعت السلطة عدة إجراءات لبقاء عامل القوة في يدها، ومن جملة هذه الإجراءات التي تحقق هذا الغرض نجد:

2-1- الاعتماد على العامل الديني: حيث انتشر بين السكان أن الأتراك هم حماة للدين الإسلامي وللخلافة الإسلامية ضد الغارات والاعتداءات المسيحية التي قامت بها الدول الأوروبية وعلى رأسها إسبانيا، واعتبر الوجود العثماني في الجزائر بركة، فقال خير الدين أثناء تمكنه من مدينة الجزائر "أنا لم اغتصب هذه المدينة وإنما استوليت عليها بعناية الله وخلصتها من يد العدو الكافر"³، وظهرت هذه الصبغة في الميدان حيث تمكن الأتراك من تحرير كل المدن الساحلية الجزائرية وآخرها وهران عام 1792م، كما أنهم شكلوا قوة بحرية طالما أثارت

¹ - Rapport de s, c de la tribu de Beni Yala, Op, cit, p 41.

² - Walsun Esterhazy : de la Domination Turque dans l'ancienne Régence d'Alger, librairie de Charles Gosselin, Paris 1840, p 267.

³ - مجهول: غزوات عروج وخير الدين: تح وتقد: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1934، ص 13.

الرب في البلدان المسيحية، وقد عزز هذا الطرح أيضا ذلك الصراع الذي شهده الغرب الأوسط حين أغار عليه الإسبان واحتلوا سواحله، كما كان لسقوط المسلمين وطردهم والتنكيل بهم أثر بالغ في تعزيز حقيقة الصليبيين الذين يريدون الشر بالمسلمين.

ونظرا لهذا، تحالف العثمانيون والمرابطون وشيوخ الزوايا وتراصوا، فيقول سعد الله " وقد شاع في الجزائر التحالف بين العثمانيين والمرابطين حتى عرف الناس أن هناك سياسة عامة متبعة"¹، كما احترمت الأتراك شيوخ الزوايا ووقروهم وعملوا على استرضائهم وعدم مخالفتهم، دون أن ننسى الاحترام الكبير الذي كان للأضرحة ومجال الزاوية، فبحسب إدموند دوتي، كان المطاردون من قبل السلطة يهربون إلى الأضرحة ويحتمون بها لما كان لها من هالة قدسية، فالمخزن يفكر مرتين قبل انتزاع شخص من مكان كهذا².

وقد كانت الأضرحة ملجأ حتى لرجال السلطة كالدائيات، فهذا مصطفى باشا (1798-1805) لما قام ضده الإنكشارية عام 1805 وعلم أن لا مفر له إلا الهروب، التجأ إلى ضريح سيدي الوالي دادة طلبا للحماية ولكن لم يصل إليه، إذ كان الثائرون عليه أكثر سرعة منه وأغلقوا الباب للحلول دون بلوغ مراده³.

استفاد الطرفان من بعضهما البعض، فبفضلهم تمكنت السلطة من التأثير على القبائل بغرض تهدئتها لقبولهم حكامها وإضفاء الشرعية عليهم رغم كونهم غرباء عن المنطقة، أما رجال الزوايا والمرابطون فاستطاعوا افتكاك امتيازات من السلطة، سواء المادية منها أو المعنوية، فأمرهم منفذ وشخصيتهم محترمة، كما شهدت الطرق الصوفية في العهد العثماني انتشارا ملفتا، فيقول أرزقي شوتيام: " فللمرابطين حرمة يأخذون من أعشار الزيت والتين والزرع... ولما يخرج السلطان لمحاربة القبائل يدفع لزواياهم النيران والسناجق وعدة منه"⁴.

ونرى السياسة نفسها انتهجت مع قبائل شمال سطيف الممتنعة، فقد حاولت السلطة العثمانية ممثلة آغا بجاية الذي منح الإذن للشيخ الولي الصالح سيدي محمد بن علي لتسيير هذه المنطقة خاصة بني ورثيلان وبني شبانة لما له من تأثير ومكانة بين الناس، كما نجد بعض الشخصيات الدينية ساءها الأمر الذي آلت إليه هذه المناطق نتيجة غياب السلطة، منهم الورثيلاني الذي يقول: " فالوطن سائب عمره الله بالأحكام الشرعية، وأزال

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 472.

² - Edmond Doutte , Op ; cit, p 116.

³ - أحمد الشريف الزهار مذكرات نقيب أشرف الجزائر (1754-1830)، تح: أحمد توفيق المدني، ش. و. ن. ت، الجزائر، د. ت، ص 89.

⁴ - أرزقي شوتيام، المرجع السابق، ص 251.

منه الفتنة وبدل ذلك بالعافية الدائمة وكذلك الغالب عليها بالبرد والثلج ... فنسأل الله تعالى أن يعمره على يد سلطان عدل"¹

وهذا ما حدا بهذه الشخصية الدينية أن تطلب الدعم من السلطة كي تضبط الأمور، حيث تلقى الورثياني الدعم من الباي أحمد القلي الذي زوده بالحنة، فيقول: " قاهر المتمردين سيدي أحمد باي² الذي نصرني وأعطى أمر المحلة في يدي وأحرقت أولاد الخلف وقرية وسر وسكانها وبني عشاش وفي تلك السنة جعلت عليهم وأمرت الخليفة أن يأخذ منهم مائة وسبعين حتى يتوبوا لله ورسوله"³.

وقد استمر هذا التحالف حتى أواخر العهد العثماني، أين بدأ يضعف نتيجة عدة عوامل وعلى رأسها تحرير جميع الثغور من الإسبان، وزوال العامل الديني الباعث على التضامن، إضافة إلى بداية اتساع الهوة بين السلطة والسكان وميلان هؤلاء المرابطين إلى الطرف الثاني، دون أن ننسى تعرض بعض رجال الزوايا والطرق الصوفية إلى التعنيف والاضطهاد، والحرمان من الحقوق التي اكتسبوها على مر الزمن.

2-2- تشكيل قبائل المخزن: حيث انتشرت في كل مكان استراتيجي كما قلنا، وذلك بغية الحفاظ

على المناطق الخاضعة ورد القبائل المعادية، فربط مجموعة من القبائل ببعض المصالح كفيل بإحداث هوة بين القبائل ومنع أي فكرة للتحالف قد تتبادر إلى الأذهان.

وتشكل القبائل المخزنية والمتحالفة والمرابطون أجزاء من منظومة مترابطة متصلة بالسلطة حيث كان نفوذهم كبير وقوتهم حاضرة، أبقت السكان تحت حكم السلطة المركزية، ولكن حالة التعاون هذه كان يشوبها عدم الثقة، والتهديدات دوما موجودة رغم أنها في الغالب كامنة ولا تظهر عادة إلا في شكل حركات منعزلة (تمرد، خيانة، تصفية... الخ)⁴.

2-3- ممارسة الضغط العسكري: وذلك بتشديد الرقابة على القبائل والإغارة عليها من حين لآخر

فجاء في رسالة بعث بها أحمد باي إلى الداوي حسين عام 1828: " أولاد فسسيقة ممتنعون هم أيضا وعصوا شيخهم فغزوناهم في رأس جبلهم بعسكرنا وقومنا فأخذنا لهم خمسة آلاف رأس من الأغنام وسبعمائة رأس من

¹ - الحسين الورثياني، المصدر السابق، ص 43-44.

² - المقصود به أحمد باي القلي (1750-1771).

³ - الحسين الورثياني، المصدر السابق، ص 101.

⁴ - Ernest Mercier : La question indigène en Algérie au commencement du XX siècle, 1901, p 7.

البقر وستين زائله ما بين حمير وبغال وقطعنا منهم ستة عشر رأساً¹، هذه الإغارات مصحوبة ببناء أبراج عسكرية، وتثبيت حاميات تجعل القبائل تحت النظر في الغالب.

2-4-المصاهرة: وذلك بزواج بعض الشخصيات التركية المهمة من بنات العائلات الكبيرة المؤثرة في

الجزائر، كما زوجوا هم بناتهم ببعض رجال العائلات المتنفذة، وهي زيجات سياسية سعى من خلالها رجال السلطة إلى إقامة علاقات قرابة هدفها السيطرة على القبائل الجزائرية، فهم يعلمون مدى نفوذ هؤلاء الرجال في مناطق معينة، فالزواج من عائلة ذات نفوذ سوف يسمح بالتحكم في كامل منطقة أهل الزوجة، وكان أول من انتهج هذا الأمر في بايلك قسنطينة هو رجب باي² الذي صاهر عائلة بوعكاز بتزويجه لابنته أم هاني للمدعو القيدوم أخ شيخ العرب أحمد بن الصخري بعد تأكده أنه لن يتمكن من إخضاع هذه العائلة التي لن تدفع له الضرائب ولن تكف أيدي القبائل عنه، ثم تواصلت المصاهرة بين البايات والعائلات المتنفذة، فجاء الدور على أحمد باي القلي³ الذي صاهر عائلة بن قانة، ثم صالح باي⁴ الذي صاهر عائلة بن جلول، ليختتم أحمد باي هذا الأمر ووسع فيه، حيث صاهر العديد من العائلات كمحاولة منه لربطها جميعا بالسلطة المركزية، فتزوج عيشوش ابنة الحاج عبد السلام المقراني، ومتماسرة من عائلة بن قانة، وجميلة ابنة ذباح بوعكاز⁵.

2-5-تشجيع الصراع القبلي: وذلك بإذكاء روح العداء بين أهل القبيلة الواحدة ودفعهم إلى التناحر

فيما بينهم، فيقول أحمد باي: "إن الحرب هي عادة الأعراب والذي يريد حكمهم قد يتحتم عليه إبقاؤها بينهم والتحريض على المنافسات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس"⁶.

¹ - أرزقي شوتيام: المرجع السابق، ص 197.

² - رجب باي(1666-1674): وعند البعض الآخر رجم ولكن رجب على الأرجح هو الأصح وهو أكثر شيوعا، حسب العنتري كانت سيرته جيدة وواقف على حقوق الناس، وهو الذي بنى جامع رجة الصوف في مدينة قسنطينة، العنتري، المصدر السابق، ص 48.

³ - أحمد باي القلي(1756-1771): وهو جد أحمد باي آخر بايات قسنطينة، اتصف بالتدين والشجاعة في الحروب، كان آغا على مدينة القل لذلك سمي القلي، حارب الكثير من القبائل العاصية كفليسة في بلاد الزواوة وأولاد سلطان بالأوراس، وقد تمكن من تحقيق الأمن في البايك وفرص هبة الدولة، وشجع الفلاحين على الغراسة، وقد أحبه السكان، واستمر حكمه هادئا حتى توفي عام 1771م، العنتري، المرجع السابق، ص 61.

⁴ - صالح باي(1771-1792): أشهر بايات قسنطينة، له إنجازات اقتصادية عدة فأضحت قسنطينة ملتقى القوافل القادمة من طرابلس وغدامس وتونس، إضافة إلى السفن الأوروبية التي ترسو في مواني عناية والقل وسكيكدة، وقام بإصلاحات في النظام الضريبي، والعمراني حيث اهتم بتحميل حي سيدي الكتاني وبنى المنازل ووضع حارة لليهود، وغيرها من الانجازات، وكانت أحواله في غاية الاستقامة، وتمكن من إيصال نفوذ السلطة التركية إلى أماكن لم يبلغها أبدا، ولكن تغيرت سيرته أواخر حياته، فأخذ يظلم الناس دون مبرر ولا يراعي أوضاعهم فظهر ضده الكثير من الخصوم ممن اشتكوا أمره إلى الداي حسن باشا الذي قام بعزله وعوضه بإبراهيم باي بوصبع، العنتري، المصدر السابق، ص 62-65.

⁵ - جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 206-220.

⁶ - أحمد باي، المصدر السابق، ص 40-41.

وتعتبر هذه الوسيلة من أنجع الوسائل، فبفضلها تمكن بايات قسنطينة مثلاً من إضعاف وتفكيك الروابط العائلية والقبلية، إذ كانوا يصدقون على جانب بالامتيازات ويحرمون جانباً آخر منها، ثم يعمدون إلى إضعاف من أغدقوا عليه، في المقابل يمنحون الآخر وهكذا يجدون أنفسهم هم الأقوياء وفي يدهم السلطة اللازمة للتحكم.

وقد شمل هذا الإجراء جل العائلات الكبرى في الشرق الجزائري، فأسرة بوعكاز أوجد لها العثمانيون أسرة قوية في الجنوب وهي أسرة بن قانة، وأسرة المقراني قسمت إلى صفوف عديدة مع إذكاء نار العداء بينها بشكل متواصل¹

فما إن تتوجس السلطة خيفة من نفوذ عائلة منتفذة، أو رأت قوة قبيلة ما بدأت بالازدياد إلا وتتدخل مشعلة حرباً بين الصفوف، فتحرض هذا على ذاك وتتدخل في تعيين الشيوخ وتقسيم النفوذ، مما يولد صراعاً بين أجنحة القبيلة وتبقى هي مراقبة للوضع عن قرب، وعادة ما يخرج أطراف الصراع منهكين، ويكونون بذلك في يد السلطة، فقبيلة ريغة القوية جداً، ورغم كونها قبيلة مخزن إلا أن السلطة لم تترحم لها، فنها تتدخل بين الجانبين (القبالة والظهارة) في محاولة لردم أي محاولة تقارب يمكن أن تحدث.

ففي عهد رئاسة مبارك حدث أمر قلب وضع ريغة بالكامل، وهو نشوب خلاف بينه وبين باي قسنطينة فثار عليه، وفي الوقت نفسه أرسل إلى داي الجزائر ملتمساً منه إيجاد حل للقضية وحمايته من الباي، تزامن هذا الإرسال مع غضب الداي على أحد القادة الذين أرسلهم إلى الصحراء ولم يقوموا بواجبهم وأمر بقتله، فعلمت زوجة هذا القائد بالمكيدة المدبرة لزوجها وأرسلت إلى مبارك تطلب منه إخبار زوجها وحمايته، وهو ما حدث إذ قام مبارك بهذا الأمر وحفظ حياة القائد الذي لم ينس هذا الفضل، فما إن رُد إليه الاعتبار حتى كافأ ريغة وجعلها في حماه، وكعربون على هذا منحها حق استغلال سوق الخميس والتحكم فيه.

لم يستغف باي قسنطينة هذا الأمر، فحرض سعد ابن أخ مبارك ضد هذا الأخير، فقتله وجلس مكانه، ولكن هذا الفعل لم يتقبله جزء من أفراد قبيلة ريغة، فبايعوا بوعبد الله أخ مبارك الذي ثار بدوره ضد سعد طوال خمس سنوات، انتهت بهزيمته، وهو ما دفعه إلى حمل نفسه وغادر إلى المغرب، لكنه عاد وطلب الأمان فحصل عليه ولكنه عاد إلى حياكة الدسائس فتفطن له بوعبد الله وقتله.

¹ - جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 270-272.

ولما علم بوعبد الله أن دسائس سعد إنما جاءت بتحريض من باي قسنطينة فثار ضده، ولكن الباي تمكن من هزيمة بوعبد الله وعين مكانه رجل من أولاد موصلي ولكن لم يكن عليه الإجماع فأزبح بعد شهرين وعاد بوعبد الله لحكم القبيلة، وبعد موته حدث الشقاق بين أبناء القبيلة الواحدة فانقسمت إلى فرعين وبقيت كذلك مع كل العداوة الموروثة حتى الاحتلال الفرنسي كما سبق ورأينا¹.

ويبرز هذا المثال ما سقناه آنفا حول تدخل السلطة المستمر، وإذكاء الصراع بين أبناء القبيلة الواحدة بغية إرهاب الجميع وبقيائها في الصدارة وامتلاكها أفضلية في القوة.

2-6- انغلاق الأتراك على أنفسهم: وتحميش العنصر المحلي وهيمنتهم الشبه مطلقة على كل المناصب،

فلا شيء تقريبا مفتوح أمام الجزائريين إلا بعض الوظائف الإدارية التي تهدف أساسا إلى التحكم في القبائل، إذ لم تُفتح لهم فرصة تولي المناصب السامية في الدولة كالباليات والدايات، أو حتى الالتحاق بالمناصب العسكرية في الإنكشارية ورياسة البحر إلا في الحالات النادرة، رغم السماح للآخرين بالانضمام كالأعلاج²، وحتى الكراغلة كانت لهم صعوبات في هذا، لا لشيء سوى لأن أمهاتهم من السكان المحليين فلم يختلط الأتراك إلا بقدر ما يسمح لهم بالبقاء في السلطة والهيمنة عليها، وفي المقابل لم يحاول الأتراك التدخل في شؤون القبائل ولا في أسلوب عيشها ولا ثقافتها ولا عاداتها، بل بقيت بعيدة عنها، ولم يهتمهم حال القبائل ولم يعنهم التدخل فيها شيئا إلا ما ارتبط بمصالحهم، فلكل قبيلة حرية شخصية في إطار عدم المساس بمصالح السلطة المركزية³.

2-7- إعادة هيكلة البايك وتعيين رجال أكفاء: مع بداية القرن التاسع عشر انتشرت الفوضى

والفلاقل في بايلك الشرق، فتغير الكثير من الباليات وقتل أغليبتهم، وأضحت القبائل تعيش في أزمات متتالية وشهدت بعض الصراعات كثورة ابن الأحرش، إضافة إلى الأزمات الاجتماعية، لذلك سعت السلطة إلى إعادة ترتيب البيت خاصة لما يمثله هذا البايك من وزن ثقيل اقتصاديا وبشرياً، وما يجيء أحمد باي إلا خطة تجسدية

¹ - Charles Féraud, Op ; cit, p 84-86.

² - الأعلاج: هم الذين ترجع أصولهم إلى مختلف البلدان الأوروبية خاصة المظلة على البحر الأبيض المتوسط، الذين يلتحقون بالأتراك بعد اعتناقهم للدين الإسلامي، اتخذوا من مدينة الجزائر مقرا لهم لتحسن أوضاعهم وتحقيق طموحاتهم، شكلوا منذ النصف الأول للقرن 16 أغلبية رجال البحرية الجزائرية، وقد تمكن البعض منهم من الوصول إلى مراكز سامية في الدولة، والعديد منهم أصبحوا رياسا للبحر يقودون الأسطول الجزائري، وفي سنة 1625 كان هناك خمسة وخمسون قائدا منهم، نذكر منهم مراد ريس، وسفر ريس (توماس سابقا)، علي بتشين (إيطالي)، للمزيد حول الأسرى الأوربيين في الجزائر للمزيد، راجع: قرياش بلقاسم: الأسرى الأوربيين في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة مصطفى اسطمبولي -معسكر- الجزائر، 2016/2015.

³ - حنفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص13.

لهذا الترتيب، لما لأحمد باي من علاقات حسنة مع الكثير من القوى الفاعلة في المنطقة، خاصة وأن أحواله هم عائلة بن قانة، وقدرته على التسيير معروفة، ويبدو أن السلطة وفقت في هذا الاختيار، فقد قام هذا الباي بالمهمة على أكمل وجه واستطاع بدهائه أن يربط بين كل القبائل، ويعيد ترتيب الأمور، وظل هذا البايلك مستقرا حتى الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة عام 1837م.

المبحث الثاني الضرائب العثمانية على منطقة سطيف:

تعرف الضرائب على أنها مدفوعات يقدمها كل ساكن للحكومة المركزية (حكومة البلد) مقابل خدمات يحصل عليها، كدفع الأجور وإصلاح المرافق العامة وغيرها،¹ ولم يختلف هذا الأمر عند أي مجتمع أو حضارة على مر التاريخ، فكل السجلات التي تؤرخ للأزمة الغابرة والوسيطه والحديثة تفيد أن الضرائب المفروضة على السكان شكلت موردا اقتصاديا لتلك المجتمعات، وهو الأمر نفسه بالنسبة للجزائر في العهد العثماني، حيث استخلصت أنواع عدة منها ومألت الخزينة بها.

أما عن كيفية إنفاق مواردها، فيشير حمدان خوجة إلى أن مداخيل الضرائب في الجزائر تنفق في دفع مرتبات الجيش والاعتناء بالفقراء وتربية الأيتام ودفع أجور القضاة، ولكن هذه الضرائب التي شكل سكان الريف غالبية دافعيها لم ينجوا منها شيئا بالمقارنة مع ساكني المدن، فالقبائل لم تكن تستفيد من أية مشاريع أو مرافق، والرعية تعتقد أنه من الواجب على الحكومة أن تحميها وتؤمن لها الوقاية لأنها تدفع ما عليها من التزامات.²

ويبدو أن هذا لم يحدث، إذ لم تذكر المصادر التاريخية أي إرجاع للنقود المدفوعة إلى القبائل على شكل خدمات تقدمها السلطة، خاصة أن هذا هو المغزى منها، ولم تتحمل تكاليف المجتمع ونفقاته خاصة في الريف، إلا في القليل النادر كدفع أموال وخدمات للعائلات الكبيرة، ومن كان يقع على عاتقه تحمل التكاليف هي الأوقاف وما يقدمه رجال الطرق الصوفية والزوايا، هذه المؤسسات التي تحملت الجزء الكبير من تسيير الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، يضاف إلى هذا أن المجتمع الجزائري الريفي لم يكن متطلبا، فبعض الغذاء البسيط والمرافق القليلة تكفيه ليعيش حياة عادية.

وقد تطور النظام الضريبي العثماني كثيرا في الجزائر من حيث التنوع، خاصة في أواخر عهده، فيذكر درغرامون أن الكثير من أنواع الضرائب قد أضيفت إلى القائمة، لدرجة أصبح كل شيء خاضع للاستخلاص،

¹ - Paule Vialatte, Op, cit, p 17.

² - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص 105-106.

فالمرجان والشمع ومختلف البضائع ودخول الأسواق والامتيازات والحانات والحدائق وغيرها كلها عليها نوع من الضرائب، مضيفا أن الأتراك لم يدعوا محالا لأي شخص كي يبدع في استحداث أنواع أخرى من الضرائب¹، وتصادف ذلك المعضلات التي واجهت السلطة في جمع الأموال اللازمة لتسيير شؤون الدولة، خصوصا بعد تراجع مداخيل البحر التي كانت تدفعها الدول الأوروبية مقابل حرية الملاحة في المتوسط، وكان هذا نتيجة اختلال موازين القوى البحرية بين الطرفين الجزائري والأوروبي وميلانه لصالح هذا الأخير.

كما أن الدفع قد مس حتى أولئك الذين لم يكونوا يدفعون فيما مضى لأسباب عدة كرجال الزوايا مثل الزبوجي² بنواحي ميله الذي سوف يقف إلى جانب ابن الأحرش اعتراضا على هذا التطور، وقد ازدادت الضرائب ثقلا بسبب تسابق رجال السلطة لنيل المناصب وهو الأمر الذي لن يتمكنوا منه دون رشاوى وأموا تقدم لرجال الدولة السامين كالبايات والدايات وغيرهم، وهي الأموال التي سيحصلون عليها من جيوب السكان، زاد جشع الحكام الباحثين عن المزيد الأمر سوءا، خاصة أثناء تقديم الدنوش، أين كان لزاما على البايات إحضار أكبر قدر ممكن من المال وإلا اتهموا بالتقاعس عن أداء الواجب والتعاطف مع السكان³.

1-الضرائب التي تدفعها قبائل منطقة سطيف:

ليس هناك الكثير من المعطيات حول الضرائب التي كانت تدفعها قبائل سطيف وأوجه جمعها وإنفاقها، إلا بعض الشذرات التي ذكرت هنا وهناك، ولعل أهمها ما نقله المؤرخ سعيد وفي ناصر الدين في كتابه الشرق الجزائري بايلك قسنطينة عن تقرير روسو، حيث ذكر قائمة للقبائل الملزمة بالدفع، ولكن يمكن من بعض المعطيات تقديم معلومات عن النظام الضريبي المطبق في منطقة سطيف إضافة إلى بعض الفرضيات حول مقدارها، وهذا استنادا على عدة مؤشرات:

- أنواع القبائل التي كانت سائدة وعلاقتها بالسلطة (المخزن، الرعية، الممتنعة، المتحالفة).
- أماكن تواجد الأبراج العسكرية، فتواجد البرج دليل على التحكم في القبيلة ولوكان شكليا، مما يعني دفعا للضريبة، حتى ولو كانت هي أيضا شكلية.

¹- De Gramment, Op ; cit, p 232.

²- الزبوجي: مقدم الطريقة الرحمانية، لعب دورا كبيرا في دعم ثورة ابن الأحرش، بدأ صراعه مع السلطة ممثلة في باي قسنطينة بعد حرمانه من بعض الامتيازات منها الإعفاء من الضريبة، جملة معاشي، المرجع السابق، ص 355.

³- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي، المرجع السابق، ص 85.

- ما تزرعه هذه القبائل من جابادات، وما تملكه من أراضي، وهذا حسب ما جاء في سجلات السيناتوس كونسلية، مع مراعاة أن مساحة الأرض المزروعة (عدد الجابادات) والقطعان، كانت قريبة إلى الثبات على العموم، ولم تشهد سوى تغيرات طفيفة مع بداية الاحتلال.

- نوعية الملكية ما بين أراضي عرش وملك وعزل.

- ما جاء في التقارير خاصة تقرير روسو الذي نقله ناصر الدين سعيدوني في كتابه الشرق الجزائري.

واستنادا إلى هذه المعطيات يمكن أن نقدم استنتاجا لهذه الضرائب ونحصرها في:

العشور: وهو أخذ عشر المحصول في النظام الإسلامي، ولكن في الجزائر خلال القرن 19 كان خلاف هذا حيث تحكمت فيه الأعراف، فعوض العشور بالجابادة والتي تعني قطعة أرض يقوم ثوران بحراثتها وهي تعادل ما بين 8 إلى 10 هكتارات وهذا حسب نوعية التربة وسهولة حرثها¹.

ويقدر حمدان خوجة كمية العشور المدفوعة بحمولة بغير قمح ومثلها من الشعير²، وبلغ مقدارها في بايلك قسنطينة 20762 قيسة قمح وشعير، وباحتساب عدد الجابادات التي تزرعها قبائل سطيف يمكننا أن نستنتج مقدار ما تدفعه من ضرائب وهو على الشكل التالي :

القبيلة	عدد الجابادات	العشور: (حمولة قمح)	العشور: حمولة شعير
ريغة الظهارة	1781	1781	1781
ريغة القبالة	1063	1063	1063
عامر الظهارة	955	955	955
عامر القبالة	1335,5	1335,5	1335,5
أولاد نابت	592	752	752
العلمة	1082	1082	1082
الغرازلة	240	240	240
المجموع	7800,5	7800,5	7800,5

الشكل رقم 12: جدول تقريبي للعشور التي تدفعها قبائل سطيف استنادا إلى عدد الجابادات التي تملكها

تعليق على الجدول: من الجدول نستنتج أن العشور الذي كانت تقدمه قبائل سطيف سلطة البايك

أوائل القرن 19 م كان 7800,5 حمولة بغير قمح ومثلها من الشعير، مما يجعل قبائل هذه المنطقة من أكبر

¹- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 84.

²- حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 106.

المساهمين في تمويل الخزينة، إذا ما علمنا أن القيمة التي ذكرناها تعادل تقريبا الثلث، وهذا ليس غريبا عن هذه المنطقة التي تحتوي أجود الأراضي وأوسعها، مع التأكيد أنه هناك الكثير من المناطق التي لا تدفع باعتبارها ممتعة أو غير قادرة لعدم وجود مساحات زراعية مهمة وفقر تربتها.

ومن جهة أخرى فإن القبائل التي تسكن أراضي العرش والرعية منها على وجه الخصوص لا تكتف بدفع هذا النوع فقط، ولكن تفرض عليها ضرائب أخرى استحدثت تباعا تماشيا مع حاجيات الدولة ومع الفساد الذي انتشر، فعلى عاتقها تقع أغلبية الأعباء الضريبية، فهي ملزمة بدفع أنواع عدة من الضرائب، فقبيلة الغرازلة التي كانت تحت سيطرة الحامية التركية في برج زمورة عانت كثيرا من هذا، إذ كان لزاما عليها دفع النقود والمواشي والدواجن وبعض الأنواع الأخرى من الأطعمة لهذه الحامية الموجودة في هذا البرج، حيث تحملوا بإذعان وخضوع مطلق سلوك الأتراك¹، ومن هذه الضرائب:

المعونة: ضريبة تدفعها القبائل الرعية للمساهمة في الحفاظ على قوة الجماعة الإسلامية وتستخدم في تمويل الجند، وهي رسوم عينية أو نقدية، وليس لها قيمة ثابتة، بل تدفع حسب الحاجات، يتقاضاها القياد كلما دعت إليها الضرورة، بمعنى أنها ليست دورية وقارة.

ضيعة الباي: وهي ضريبة تدفعها القبائل الرعية، يستخدمها الباي في شراء الهدايا التي يأخذها معه للباشا في الجزائر العاصمة، وتقدم في الغالب كل ستة أشهر²، وتختلف تسميتها من منطقة لأخرى، وتعرف عند سكان بايلك التيطري بغرامة الصيف وغرامة الشتاء³.

الفرح والبشارة: وهذه ضريبة تدفعها القبائل الرعية عند توليه الباي أو إقراره في منصبه وترمز لفرح القبائل والابتهاج بتوليته، وتكاد تكون سنوية وتوفر الخزينة مبالغ مالية هامة من بايلك قسنطينة، وتختلف قيمة الدفع من قبيلة لأخرى ومن شيخ لآخر، فكان شيخ العرب مثلا يدفع 20 ألف بوجو، وهو ما يعادل 36 ألف فرنك تقريبا، وكان شيخ الحنانشة وأولاد مقران يدفعان 10 آلاف بوجو لكل منهما، أما شيخ فرحيوة فكان لا يدفع أكثر من 500 بوجو⁴.

¹-Rapport de la tribu de Gherazla, Op ; cit, p 4.

²- ناصر الدين سعيدوني، نظام المالي، المرجع السابق، ص 39.

³- ناصر الدين سعيدوني، الملكية والجباية، المرجع السابق، ص 136.

⁴- جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 191.

خيل الرعية: وهي ضريبة خاصة بالقبائل الغربية، حيث تلتزم بعضها بالتبرع بمجموعة من خيولها لركوب هيئة كبيرة من الفرسان ومجموعة من الدواب لنقل المتاع وهي مهمة للسلطة لأنها تعوض النقص الذي قد يكون في خيول حامياتها أو المتعاونين معها كالقبائل المخزنية وغيرها من الضرائب التي تدفع لصالح السلطة، وكانت قبائل سطيف الرعية ملزمة بكل هذه الأعباء مثل الغرازة والعلمة وعامر وغيرها، ولم تكن تدفع هذه الضرائب فقط، بل ألزمت بدفع غيرها كحق الزمام ومهر باشا، والفرس، والبقر، وغيرها.

الزكاة: وهي الالتزام الشرعي الذي يأخذ على رؤوس المواشي كل سنة لفائدة الدولة وهي رأس عن كل مائة من الغنم ورأس من البقر إذ بلغن الثلاثين وجملا واحدا عن كل أربعين، ولكن مع أواخر العهد العثماني لم يعد هناك التزام بالنصاب ولكن تعداه ليكون نقدي، ليشمل أخذ الصوف والزبدة والجلود، ثم ألحقت بها بعض المنتجات كالعسل والشمع والتمر¹، ورغم تشكيك بعض المؤرخين الأوروبيين في إمكانية وجود الزكاة من عدمها إلا أنها كانت موجودة رغم تجاوزها للنص الشرعي، أما الإجراءات المتخذة لجمع الزكاة فإن تلك القطعان المستخلصة تتوجه نحو البايك (أحواش البايك) أين تجمع وتوضع لها علامات مميزة تميزها عن باقي مواشي السكان بغرض حمايتها.

ومن جملة ما يدفعه باييك قسنطينة إلى الداي من ضرائب القبائل:

1500 بقرة تقدم منها 100 بقرة مقابل حق العبور عبر أبواب الحديد.

6000 خروف.

17 فرس وحصان أصيل للدايون والموظفين السامين.

100 بغلة منها 40 من النوع الممتاز، أما الستون الباقية فهي من النوع الذي يحمل الأثقال.

70 برنس من النوع التونسي الرفيع.

40 غطاء من النوع الحايك التونسي الرفيع.

40 طاقية من اللون الأحمر.

¹ - ناصر الدين سعيدوني، الملكية والجباية، المرجع السابق، ص 154.

30 قطعة من جلد النمر أو الأسد.

من 8 إلى 10 أسود أو غور.

700 قفة من التمور.

15 سلة من الزيتون الأخضر.

20 حمولة من الزبدة.

وكل ما ذكرنا كان ضمن ما يعرف **بالدنوش الصغرى** وهي الضرائب التي يدفعها البايات للداي كل ستة أشهر، ويرسلها الباي مع خليفته أو أحد الشخصيات المهمة.

الدنوش الكبرى: وهي ضرائب يدفعها البايك كل 3 سنوات وكان الباي ملزماً بأخذها إلى العاصمة بنفسه، وبلغت قيمة الدنوش في الربع الأول من القرن 19 أواخر العهد العثماني 60 ألف قرش أو دولار إسباني و75 ألف قرش أو دولار إسباني لباييك الغرب و4 آلاف دولار إسباني لباييك التيطري¹.

كما أنه هناك ضرائب استحدثت على أمور عدة وكلها تقع على عاتق قبائل الرعية وبدرجة أقل على القبائل الممتنعة، حين دخولها الأسواق للبيع وهي:

بيع كل بقرة في السوق يكلف 0,05 فرنك، للبائع و0,25 للمشتري.

على كل خروف 0,15 فرنك.

على كل حمولة تمر 0,75 فرنك.

من الزبدة يأخذ 3 %.

0,2 فرنك عن كل حمولة عنب وفراء وزيتون.

0,15 فرنك على كل حمولة من عنب ورمون وليمون وبرتقال².

¹ - ناصر الدين سعيدوني، الملكية والجباية، المرجع السابق، ص 328-332.

² - نفسه، ص 233-231.

مهر باشا: حيث تقدم القبائل ما بين 600 الى 700 حصان وهو ما يصل الى 35000 بوجو للسنة، مع دفع 1000 بوجو للموظف المكلف بهذا الاستخلاص.

كما كانت تؤخذ 25 فرنك على كل حمولة بغل عند أبواب المدينة، وهناك موظف مكلف بهذه المهمة وهو قايد الليل الذي يعترض القوافل لدى دخولها أبواب المدن والأسواق.

الحكور: وهي الضريبة المفروضة على القبائل التي تستغل الأراضي التابعة للبايلك، حيث تعتمد السلطة إلى كرائها مقابل ثمن عيني أو نقدي متفق عليه سلفا دون اعتبار للخسائر أو الجوائح التي يتعرض لها الكثيرون، فتبعات الخسائر تكون على حساب الفلاح¹.

تقدر قيمة الحكور 10 ريالات عن كل جابدة وتسلم نقدا إذا استغلت الأرض من قبل الفلاحين البسطاء، ولكن إذا ما منحت للعائلات المنتفذة أو عليّة السكان فتفرض عليها ضريبة رمزية مقدارها 4 ريالات لكل جابدة، وهو ما يمكن اعتباره غير مصنف كون الفلاح البسيط الفقير ملزم بالدفع أكثر من الغني، ولكن هنا تتدخل الكثير من التأثيرات لاسيما المصالح والعلاقات الشخصية، فدفعت عامر القبالة 800 ريال بوجو، والعلمة 800 بوجو أيضا، والدهامشة 433، ريال بوجو، والغرازة 400 بوجو².

كما ساهمت بعض القبائل في ضريبة حق البقراج، فالغرازة دفعت 300 بوجو، وريغة دفعت 600 بوجو، والعلمة 430 بوجو، وعامر دفعت 1000 بوجو³، كما ساهم بعض المستغلين لأراضي العزل في دفع حمولات التبن للحاميات التركية، ونذكر، بني فودة 35 حمولة، وعزلة واد الذهب 20 حمولة، وعزلة قصر الطير 20 حمولة، والقلعة الزرقة 35 حمولة⁴.

لقد كانت قبائل الرعية مغلوبة على أمرها، فعليها يعتمد الجهاز الضريبي وتمويل الدولة لكونها الملزمة بدفع غالبية الضرائب، فتعرضت لاضطهاد والإكراه والقسر والاستغلال البشع من طرف السلطة، حيث استخلصت منها ضرائب ثقيلة وأرغمت على بيع محاصيلها بأثمان زهيدة وحرمت من الكثير من الامتيازات أو بالأحرى من

¹ - ناصر الدين سعيدوني، الملكية والجباية، المرجع السابق، ص 130.

² - ناصر الدين سعيدوني، بايلك الشرق، المرجع السابق، ص 162-173.

³ - نفسه، ص 326-327.

⁴ - نفسه، ص 253-261.

الكثير من الحقوق التي عدت في نظرها امتيازات مما سينعكس سلبا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية وعلى العلاقات بين القبائل والسلطة.

قبائل المخزن: لم تكن قبائل المخزن المتحالفة مع السلطة تدفع الضرائب إلا العشور والزكاة وهما التزامان إسلاميان يرمزان إلى الرابطة الدينية الموجودة بين الطرفين كما قلنا، وإن ساهمت فإن ذلك لا يتعدى سدس (6/1) المحصول أو حصان واحد وبعض الخراف التي قد تكون صادرتها أصلا من قبائل الرعية، ولكن بالمقابل تنال بعض التجهيزات والمنح كالسلاح والمئونة والحماية وغيرها¹.

القبائل الممتنعة: باعتبارها ممتنعة فإنها لا تشارك في مداخل السلطة إلا شكليا فهي ليست ملزمة بالدفع ماعدا بعض المساهمات التي رضي بها البايك وتدخل في نطاق الاعتراف بالتبعية، مثل ما كانت تقدمه قبائل الصحراء وقبائل منطقة لقبائل ويمكن أن نذكر منها:

معونات بلاد القبائل: وتتكون من كميات محددة من التين والزيتون والأغنام، مع بعض الكميات من الحبوب ومقادير من الفضة، تساهم بها قبيلة فليسة التي تقدم ما قيمته خمسمائة (500 بوجو) وقبائل قيادة بوجني والقبائل التي تتعامل مع برج سباو حيث توفر ما قيمته 3 آلاف بوجو و500 قلة زيت ومائة حمولة جمل من التين الجاف وقيمتها 500 بوجو.

اللزمة: وهي الضريبة التي تدفعها قبائل الممتنعة من أجل الولوج إلى الأسواق وبيع منتجاتها وشراء ما يلزمها، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأسواق كانت من أهم نقاط الضعف التي تعاني منها هذه القبائل، فرغم سكنها الجبال إلا أنها كانت في حاجة إلى ولوج الأسواق للحصول على ما تحتاجه كون الجبال تعرف ندرة في العديد من المنتجات، وقد أحسنت السلطة استغلال هذه النقطة لصالحها.

وكانت قبائل سطيف الواقعة في الجهة الشمالية، الساكنة في الجبال كباور وبني ورثيلان والدهامشة ملزمة بدفع المعونات واللزمة وهي في العادة ذات قيمة صغيرة تعبر عن الولاء والارتباط، حيث كانت هذه القبائل مستقلة، وتستعين السلطة في أوقات الجباية ببعض القوى الدينية من مرابطين وشيوخ الزوايا²، على غرار عموشة

¹ - ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، المرجع السابق، ص 107.

² - Rapport s.c de la tribu de Dehamcha, Op, cit, p 40.

التي تدفع لزمة صغيرة تمنح بواسطة الشيوخ للحامية التركية الموجودة في سطيف، لتتمكن من دخول سوق سطيف ذات الأهمية الكبيرة في المنطقة ككل¹.

2-قراءة في النظام الضريبي أواخر العهد العثماني في الجزائر وموقف القبائل منه:

شهدت الجزائر أواخر العهد العثماني مجموعة من الاضطرابات وعدم الاستقرار فغالبية الدايات الذي تولوا شؤونها في هذه الفترة، خصوصا ما بين (1805-1818) قد قتلوا حيث كانت هناك حالة فوضى سياسية نتيجة الصراع حول السلطة²، تزامن ذلك مع أزمات اجتماعية حادة كالطاعون الذي تلاحقت موجاته والجراد والجفاف والمجاعات³.

وقد ذكر العنزي العديد من الأزمات التي شهدتها بايلك قسنطينة، ومنها:

1778- 1799: جفاف عقبه اجتياح الجراد وسبب في مجاعة مهلكة.

1785- 1786: قلة المحاصيل تسببت في مجاعة أعقبها انتشار الوباء.

1794- 1798: قلة القوات في كامل بايلك قسنطينة، فاضطر صالح باي إلى إيقاف تصدير الحبوب نحو فرنسا لأن البايك يعاني من شدة الأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية.

1805- 1808: عم الجفاف وانقطعت الفلاحة في كامل البايك واستُهلك مخزون الحبوب ووقعت مجاعة شديدة فيقول صالح العنزي "وقعت مجاعة شديدة وقحط وهول أضر بأهل قسنطينة ووطنها ودام الحال كذلك 3 سنين"⁴، وقد زاد الأمر سوءا قيام ثورة ابن الأحرش.

1808: قلت واختفت الأقوات واضطرت الدولة الى استيراد الحبوب من أوروبا.

¹- Rapport s.c de la tribu d'Amoucha, Op, cit, p 15.

²- بداية من عام 1798 عرفت الجزائر تولي العديد من الدايات للسلط ، وجلهم عرف نهاية مأساوية تبين الصراع الموجود على السلطة وهم: الداوي مصطفى باشا (1798-1805): قتل، الداوي أحمد خوجة (1805- 1808): قتل، الداوي علي باشا (7نوفمبر 1808- 4 مارس 1809): قتل، الداوي الحاج علي باشا(4 مارس 1809- 22 مارس 1815): قتل، الداوي الحاج مصطفى (22 مارس 1815- 7 أبريل 1815): قتل، عمر باشا (7 أبريل - 1815- 8 سبتمبر 1817): قتل، علي باشا (8 سبتمبر 1817-1 ماي 1818): مات مطعونا، حسين باشا (1818-1830): آخر الدايات، وقع معاهدة الاستسلام ثم رحل عن الجزائر، أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977، ص 39- 76.

³- De Grammont, Op ; cit, p 232.

⁴- صالح العنزي، مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 27-28.

وجاء في كتاب فريدة مؤنسة: " ثم نزلت مجاعة أصابت العام والخاص وبقيت سنة حتى أصبح الناس يأكلون لحم بعضهم من شدة الجوع وانقطاع الطعام واستمر ذلك على جميع البايك¹."

1819-1822 اختفت الأقوات وعمت المجاعة بباييك قسنطينة الذي عانى من البؤس والحرمان، رافقتها أمراض وأوبئة عدة كالطاعون والكوليرا والحمى الصفراء (التيفوس) والالتهابات الرئوية، والزهري وكلها أمراض خطيرة فتكت بالسكان².

كل هذه الأزمات والضغط على السكان زادها سوء الضرائب المستفحلة التي فرضها البايك (السلطة) والتي كانت متنوعة لدرجه لا يمكن حصرها، فيذكر بايسونال أن أقسى ما كان على الفلاح تحمله هم جنود المحلة الذين ينزلون ضيوفا غير مرغوب بهم على القبائل بموجب حق الضيفة أثناء سيرهم لجمع الضريبة، فكان على كل ساكن أن يأوي مجموعة من الجنود ويشاركهم فراشه ومأكله وإذا أعجبهم شيء مما يملكه يأخذونه، دون أن يتمكن من الاعتراض، ولم يكن أمامه سوى الصبر وتحملهم في انتظار رحيلهم³.

اختلف المؤرخون في هذه الضرائب والنظام الضريبي ككل فيمن يراه ملائما ومنظما وفيمن يراه سيئا ومتحجرا، والأغلبية ترجح الوضع الثاني، فرغم الإصلاحات التي أدخلت على هذه المنظومة مثلما قام به صالح باي، أو أحمد باي في الأخير، إلا أنه لا إجراء حد من زيادة ارتفاعها أو قسوتها.

أول ما يمكن قوله عن الضرائب هو افتقارها للعدالة في المساهمة، ذلك أن غالبيتها يقع على القبائل الرعية رغم فقرها أحيانا، كونها الحلقة الأضعف، فمساهمتها حاضرة في كل الالتزامات، وبالمقارنة مع هذا فإن القبائل المتحالفة (الأجواد - المرابطون) لا تدفع إلا العشور وهو ما يعبر عن التحالف والولاء للجماعة الإسلامية، كما أن القبائل الممتنعة لا تدفع إلا مساهمات رمزية وهو ما يعبر عن الخضوع الشكلي، ويذكر العنتري أن هذه الضرائب لا تسقط عن القبائل حتى في أوقات الأزمات، ولم يسارع البايات لمد يد العون للضعفاء مثلما حدث أثناء عهد عبد الله باي حين عصفت المجاعة بباييك قسنطينة، وحتى ولو ذكرت بعض المصادر أن الالتزامات قد أسقطت فإن ذلك لا يعدو شيئا، فهو واجب عن السلطة إسقاطه أكثر من وجوب القبائل دفعه، لأنه حتى ولو أرادت الدفع فإن ذلك غير ممكن لعدم امتلاكها لشيء أصلا، فيشير سعيدوني ناصرالدين إلى أن النظام الضريبي

¹ - محمد الصالح بن العنتري، فريدة مؤنسة، المصدر السابق، ص 73.

² - نفسه، ص 30.

³ - Peyssonnel, Op ; cit, p 212-213.

للسلطة العثمانية لم يكن عادلا اتجاه القبائل ولا يراعي طبيعة الإنتاج أو وضعية الفلاحين وحالاتهم، ولا يأخذ بعين الاعتبار إلا نوعية الملكية ومتطلبات الخزينة وحاجة الموظفين وهو ما زاد في بؤس وشقاء الفلاحين¹.

كما أن هذا النظام الضريبي ليست له آلية محددة في الدفع ولا معايير يأخذ بها، فكل باي إلا ويحدد الضرائب الإضافية وفق تصوره أو ما يراه مناسبا له، وكان الباي يسعى جاهدا لإرضاء الباشا بإرسال المزيد من الأموال له، وإذا ما تعاطف الباي مع الرعية وأنقص عليهم الضريبة اتهم بتهمة محاولة استمالة العرب للقيام بانقلاب، فمثلا كان صالح باي يأخذ من سلاطين تقرت ما مقداره مليون فرنك، وما كان يأخذه الباي أحمد المملوك هو 500 ألف فرنك².

ومن جهة أخرى يذكر البعض أن النظام الضريبي لم يكن سيئا ويراعي الكثير من المتغيرات، فهو بسيط ولا يؤثر في الوضعية المعيشية للقبائل، ويؤكد بايسونال أن الضرائب أبدا لم تكن سببا في تعاسة الفلاح ببائلك قسنطينة، بل على العكس من هذا كانت له حافزا لزيادة الإنتاج لأنه يفكر في دفع الضريبة قبل التفكير في قوت عياله³، وتنقل جميلة معاشي عن أندري نوشي تأييدا لهذا الطرح، قائلة: " أن ضريبة البائلك لم تكن ثقيلة كما تتصورها، لأن الباي كان يهتم الحفاظ على علاقته الطيبة مع الفلاح وضمان بقاءه بالحقل، إذ كان يعلم أن القضاء على الفلاح يعني القضاء على الفلاحة والنشاط الاقتصادي بالبائلك، وحتى وإن كان لهذا النظام الضريبي عيوب كثيرة إلا أن مزاياه غطت عيوبه"⁴.

هذا، ويعتبر جل الدارسين للحياة الجزائرية خلال العهد العثماني، أن الضرائب كانت تقريبا العلاقة الوحيدة التي ربطت سكان الريف الجزائري بالسلطة الحاكمة، وغير هذا فالتماس بين الطرفين قليل ونادر، فالفلاح لا يعرف السلطة إلا من خلال المحلة التي تمر عليه تسلب وتنهب، حتى أضحت رؤية الإنكشاري دليلا على الظلم والقهر، ولم يكن يلتجأ إليها في الأزمات التي تعصف به إلا نادرا، وكانت العلاقة التي تربط بين الطرفين علاقة عداوة ونفور أو لا مبالاة، فلا السلطة تبحث عن الفلاح ولا الفلاح متعلق بالسلطة، إذ تركت هذه الأخيرة الحرية له في كيفية عيش حياته وتسييرها ولم تحاول أبدا التدخل فيها وتوجيهها، وكان كل ما يهمها هو

¹ - ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، المرجع السابق، ص33

² - جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 191-192.

³ - Peyssonnel, Op ; cit, p 212-213.

⁴ - جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 194.

الحصول على الأموال اللازمة أثناء القيام بجمع الضرائب، مفضلة ما يعرف "سياسة المحافظة"، أي: المحافظة على الوضع القائم دون السعي لإحداث أي تغييرات تقريباً¹.

وإن كانت هذه السياسة قد ساعدت كثيرا العثمانيين ومنحت لهم راحة البال، إلا أنه على المدى الطويل كانت لها عواقب وخيمة، فالسلطة لم تحاول تحسين وضعية القبائل ولا دفعها إلى التطور، مثل تحسين الإنتاج واستخدام الوسائل الحديثة، كما أن هذا الأمر وسع الهوة بين الجانبين وفقدت اللحمة التي تجمع الرعية والسلطة، إذ بقيت غريبة عنها لم تحتك بها ولم تعرفها، والسلطة بدورها لم تمد لها يدها، وفضلت الانغلاق على الذات، ولكن في ظل هذه العواقب الوخيمة وفراغ الساحة من السلطة المركزية التي كانت شكلية، ولدت بعض القوى الاجتماعية وتحولت إلى سلطة حقيقية استطاعت أن تملأ ذلك الفراغ وتمارس الدور الذي كان يجب على السلطة ممارسته، ونقصد هنا القبيلة والزاوية كمؤسسات اعتمد عليها الفرد وتعلق بها، وهي بدورها لم تخيب ظنه أبدا بل كانت حاضرة، دائما إلى جانبه متضامنة معه ملبية لاحتياجاته، وهذا ما جعلهما في عين الفرد أكثر قداسة واحتراما وأهمية من السلطة المركزية.

وقد زادت حدة هذه الضرائب بداية القرن 19، لأنه فيما مضى كانت الحكومة (السلطة) راضية على الواقع، فالأموال متوفرة بكثرة من موارد البحر وكانت تصل بانتظام إلى الخزينة، وهذا الأمر صرف نظر السلطة عن الداخل واكتفت بالحصول على ما هو متاح بوسائل عادية، ولكن سرعان ما بدأت تشح موارد البحر مقابل احتياجات الخزينة المتزايدة خاصة بعد شيوع الفساد من حيث شراء المناصب وبيعها، فلم تبحث السلطة عن وسائل أكثر فاعلية وديمومة للحصول على الموارد اللازمة لتسيير الدولة ولم يتراء أمامها سوى الحل السهل والبسيط الذي يكمن في إفراغ جيوب العالم الريفي القبلي من ثروته القليلة التي لا يمكن تعويضها، والتي هو أصلا بحاجة إليها².

أما من حيث المدونة في جمع الضرائب كما يقول سعيدوني أن النظام الضريبي أواخر العهد العثماني يمتاز بالواقعية ويأخذ في عين الاعتبار واقع البلاد ونفسية الأهالي، إلا أن هذا لا ينطبق على الجميع³، ويذكر لويس رين أن الأتراك لم يكونوا عدوانيين وكانوا يعرفون كيف ينسحبون، فبمجرد إيجاد الوسائل اللازمة لتحصيل الأموال

¹ - جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 80.

² - Ernest Mercier, Op ; cit, p 8.

³ - سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي، المرجع السابق، ص 110.

والمواد الغذائية يعلنون أنهم راضون¹، لكن هل كان النظام الضريبي المطبق على القبائل مرن ومناسب للهيكل الاقتصادي للبلد؟

يمكن اعتباره مرن لأنه استطاع الوصول الى غالبية السكان وجميع الموارد المتوفرة، وصلب لأنه كان مترمنا، ولم يكن ليحقق ذلك لولا تشدده وعدم تساهله، كما أنه يتناسب مع الهيكل الاقتصادي للبلد، فموارده في جملة ما ينتجه السكان (قمح، شعير، زبدة، خشب، صوف ...)، ويساهم في بلورة طبيعة الاقتصاد الجزائري البسيط فهي تفرض لسد فراغات يمكن أن تحدث في الإنتاج ولكن هذه المرونة تقابله صلابة في التعامل، وهذا ما نستوضحه فيما يلي:

- إن قبائل الرعية لم تكن تحظى بفرصة المرونة هذه، حيث كان لزاما عليها الدفع وإلا تعرضت لعقوبات شديدة، فالسلطة ولتأمين نفسها اقتصادا لم تكن لترضى أن تتأخر القبائل في الدفع أو تعلن رفضها له ككل، فهذا سينعكس سلبا على السلطة، على الأقل من ناحيتين:

- عدم وجود أموال لتسيير البلاد كدفع رواتب الجنود والقضاة وإنشاء بعض المرافق وغيرها إذ ما تهاونت في التحصيل خاصة مع عدم وجود سبل أخرى للماء الخزينة.

- عدم إتاحة الفرصة لانتشار الفوضى وعدم الاستقرار بالتساهل مع الراضين للدفع خاصة الرعية، فالممتنعة كان حالها دائما كذلك.

أما وليم شالر فيذكر أن المحلة تخرج في فصل الربيع، فيتقدم شيخ العرب ويصدر له الخزانجي أمرا بدفع المال المترتب على منطقته وأمام انتحال الشيخ للمعاذير وتأكيده على عدم استطاعته الدفع، عندها يتغير لون الخزانجي ويظهر غاضبا يرافقه تهديد بقطع رأس الشيخ، ثم يقيد ولا يطلق سراحه حتى يتعاون شيوخ القبائل في جمع المال اللازم

وقد شهدت هذه الفترة صعوبة في استخلاص الضرائب، فلا يتم ذلك إلا بفرقة عسكرية (المحلة)، حيث تعتبر عملية الجباية من أصعب العمليات وأكثرها توترا، وأصبحت عملية الاستخلاص تتم على شكل غارات مفاجئة، لأن القبائل عادة ما تختفي وتهرب عند سماعها بقدوم المحلة كي لا تدفع، وهذا ليس عملا نظاميا (الغارة) يليق بالسلطة، وعن هذه الإغارات يقول هابنسترايت: "عندما تهرب القبائل من سلطة حكام الجزائر وتمتنع عن

¹ - Luis Rinn, Op ; cit, p 7.

تقديم ما يطلب منها من جباية ومغارم، تحولت المحلات الى غارات مفاجئة على مواطن تلك القبائل، تستولي على ما تجده أمامها"¹.

والأمثلة كثيرة على هذه الغارات ونذكر منها:

حملة يحيى أغا لقتال قبائل بني عباس 1823 حيث أحرق 12 دوار وقطع 7 رؤوس وأسر 16 سجين وقادهم الى الجزائر العاصمة واستخدمهم في الأعمال الشاقة وفي مقالع الحجارة خارج باب الوادي، والأغا نفسه قاد حملة لغزو القبائل ناحية بجاية وأحرق 30 قرية وقطع 6 رؤوس وأحضر 27 أسير للأعمال الشاقة وثلاثين امرأة للمساومة².

ويؤكد قسوة هذه الضرائب ما جاء في رسالة أحمد باي التي وجهها إلى الباب العالي في 16 جويلية 1835 قائلا: "لقد جذبت الأهالي إلينا بالعطايا الكثيرة وباللين والإحسان وأرحناهم من كثير من أنواع الجور التي كانت مسلطة عليهم في الماضي"³، وهو كلام لم ينقله مؤرخ ولكن جاء على لسان أحد الإطارات السامين لسلطة العثمانية في الجزائر كاعتراف على وجود تسلط وجور على القبائل فيما يخص جباية الضرائب الأمر الذي ولد حقدا وامتعاضا في النفوس.

وحتى الإصلاحات التي قام بها أحمد باي لم تكن على الأرجح خدمة يقدمها للقبائل بقدر ما هي موجهة لخدمة أغراض سياسية استوجبها الحكم، فمع تعرض الجزائر للاحتلال الفرنسي عام 1830 وبداية توغله في بايلك الشرق لجأ أحمد باي إلى إلغاء الضرائب وحصرها في العشور راميا ربما تحقيق مجموعة من الأهداف مجملها:

- محاولة تطوير طرق استخلاص الضرائب وعدم اللجوء لاستعمال العنف وتجريد الحملات، وربط العشور بالدين الإسلامي لما يمثله هذا الأخير من رمزية، مشهرا أن تلك الأموال موجهة لبيت مال المسلمين.

- عدم رغبته في إثارة القبائل الساكنة في بايلك قسنطينة وتأليبها عليه، في ظرف هو أحوج ما يكون إليها ولولاها، فالسلطة المركزية قد سقطت وبقي هو في قسنطينة محتاجا الى دعم يتلقاه، والذي لن يجده بطبيعة الحال في الإنكشارية أو الكراغلة وإنما في القبائل القوية التي قد تكون ذات منفعة أثناء نشوب القتال، فأحمد باي

¹ - هابنسترايت: مذكرات الرحالة الطبيب الألماني هابنسترايت، تح وتقد: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، (د.ت)، ص70.

² - De Volex : Tachtifat, Recueil de note historique sur l'administration, imprimerie de gouvernement, Alger, 1852, p 52.

³ - محفوظ سماتي: الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها، تر: (محمد الصغير بناني، عبد العزيز شعيب)، منشورات دحلل، الجزائر، 2002، ص93.

لم يكن قبل هذا يفكر في تغيير النظام الضريبي الذي أوجده صالح باي، رغم مساعيه الحقيقية وأعماله الناجحة في تنظيم البايلك وجعله مستقرا.

وأما المرونة التي أشار إليها المؤرخون فهي تلك المنتهجة اتجاه القبائل الممتنعة التي ترفض المساهمة في الأعباء الضريبية مستفيدة من بعض المزايا كالقوة والتحصن في مناطق الوعرة أين لا تطالها يد السلطة، مثل قبائل شمال سطيف كبنى ورثيلان وبني شبانة التي لا تدفع سوى ضريبة رمزية بعد استعانة السلطة ببعض الفئات كشيوخ الزوايا الذين عملوا على ربط هذه القبائل بالسلطة مادامت كلمتهم مسموعة.¹

وقد رضيت السلطة بالعيش المشترك مع هذه القبائل، فقبلت ببقائها ممتنعة شريطة التوصل الى اتفاق يرضي الطرفين، فيقول أرزقي شوتيام: " لقد اتبعت السلطة إزاء هذه القبائل سياسة خاصة، فلم يكن من أولوياتها فرض الضرائب كما هو الشأن في المناطق السهلية الخاضعة، بل كانت تهدف إلى تحويلها إلى قبائل مخزنية، أو إجبارها على الأقل لدفع ضرائب رمزية تعبيرا عن ولائها وتبعيةها للإدارة"²، خاصة وأن الحملات العسكرية لا تجدي نفعا، كما يذكر صاحب كتاب زهرة النسرين أن أحمد باي ذهب ناحية أولاد سلطان وهي من القبائل القاطنة بالأوراس والصعبة المراس غازيا لإخضاعهم ومطالبتهم بالضرائب، ولكن هذا الشيء لم يفلح، مما اضطره لأخذ القليل من الأموال على وجه الصلح لا عنوة، وهذا الأمر ليس بالصائب أصلا لأنه يمنح القبائل إحساسا بالقوة من ناحية وضعف السلطة من ناحية أخرى ما يزيد لها امتناعا عما كانت عليه.³

وقد كانت لهذا النظام الضريبي انعكاسات سلبية كثيرة أضرت بالجزائر ككل قبل أن تضر بالعلاقة بين القبائل والسلطة خاصة من الناحية الاقتصادية، فالإرهاق الضريبي جعل القبائل مرغمة على التخلي عن الاستقرار مخافة غرات رجال السلطة الذين يمكن أن يطالوها في أي لحظة، خاصة مع بداية الصيف أو الخريف زمن الخروج المحلة، وبدأت حياة البدو والتنقل والهروب من البطش، وهذا التنقل أضرب كثيرا بالقطاع الزراعي عماد الاقتصاد الجزائري الذي يعتمد على الاستقرار⁴، كما أن الظروف الصعبة التي عرفها الفلاح ويعيشها جعلت همته خامدة فاقدا للرغبة في خدمة الأرض المقدسة في نظره والاعتناء بها، واعتمد على زراعة بسيطة قليلة فقط بعيدا عن الحاميات وقبائل المخزن.⁵

¹ - Rapport de la tribu de Beni Yala, Op ; cit, p 232.

² - أرزقي شوتيام، المرجع السابق، ص 274.

³ - محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية، المصدر السابق، ص 90.

⁴ - أرزقي شوتيام، المرجع السابق، ص 285.

⁵ - سعيدوني ناصر الدين والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ، المرجع السابق، ص 55.

وهذا ما أكدته من قبل لويس رين الذي أشار أن الظروف الصعبة حتمت على سكان القبائل الالتجاء إلى تربية المواشي وعدم الاستقرار في الأرض لخدمتها أو الاعتناء بالزراعة مصدر دخلها الوحيد تقريباً¹، ولم يكن الفلاح تحت هذه الظروف المعقدة مهتما بتطوير حياته وإثرائها، ولكن همه الوحيد هو ألا يملك شيئاً مخافة أن يسلبه الأتراك إياه، فلا تتعدى ثروته خيمة ينقلها من مكان إلى مكان، وكان يعمل فقط ليأكل، ومن الأفضل عدم اكتساب شيء ليسهل عليه الانتقال والاختباء بين الجبال، إذا ما وصل الأتراك على حين غرة مع التسلسل أحياناً لزراعة بعض الشعير والفاصوليا².

والأسوأ من هذا، هو زوال الثقة بين الرعية والحكام، ففي مطلع القرن 19 ازداد التدمير ورميت كل العلاقات عرض الحائط حتى تلك التي بناها التضامن الديني ومواجهة الخطر المسيحي، وترجم هذا التدمير على شكل ثورات أو تمردات أو انتفاضات قادها شيوخ الزوايا والمرابطين هنا وهناك، كادت تعصف بالسلطة التركية المركزية قبل أن يعصف بها الاحتلال الفرنسي لو كان لها قليل من التنظيم وقيادة ماهرة تعطيها بعض التجانس كما يقول دوغرامون³.

يخبرنا سعيدوني أن القبيلة كان بإمكانها الاعتراض على النتائج المسجلة في مذكرة كاتب القايد جبيري المكلف بتحصيل الضرائب، قبل أن ترفع إلى الباي الذي يعيد تقدير المبالغ المسجلة في هذه المذكرة وهذه من القوانين التنظيمية، ولكن يكمن الخلل فيما إذا كانت هذه التعليمات تطبق أم لا⁴، فالواقع يخبرنا عكس ذلك فهابنسترايت يفند هذا الأمر عند تطرقه إلى هذه القضية، فالبايات وأعوانهم يبدون قسوة مبالغ فيها، للتمكن من الحصول على مقدار من الضريبة، ولا يمكن لأحد التهرب منها أو تجنبها، وهؤلاء الأعوان يمارسون ضغوطهم بكل حرية، فمن جهة لا أحد بإمكانه الشكاية والاعتراض على الوسائل المستخدمة في ذلك، مخافة التبعات الوخيمة التي تنجر عن تحدي السلطة، ومن جهة أخرى فالأعوان مضطرون لجمع أكبر قدر ممكن من المال أثناء الدنوش وإلا كانت مناصبهم على المحك وحياتهم كذلك، واتهموا بالتساهل مع سكان القبائل وهي تهمة تحمل من ورائها رغبتهم في القيام بانقلاب على السلطة المركزية، وهي تهمة تنتهي بخنقهم⁵.

¹ - Luis Rinn, Op, cit, p 131.

² - Joost Van Vollenhoven: Essai sur le Fellah Algérien, Thèse pour le Doctorat, Faculté de Droit, Université de Paris, France, 1903, p131.

³ - De Grammont, Op ; cit, p 412.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص88.

⁵ - هابسرايت، المصدر السابق، ص84.

ويقر بعض المؤرخين أن عدم تطوير النظام الضريبي ساهم في حرمان الدولة من مداخيل كثيرة وأرباح وفيرة، وأدى في الوقت نفسه إلى إتهام قوى الفرد القبلي المتواضعة أصلاً، فقد أثقلت الضرائب كاهله، كما أنه مر بأزمة نفسية حادة ومستمرة، فلا هو حصل على الاستقرار والاطمئنان ولا تحسنت حالته الاقتصادية، فاضطر إلى العيش في خوف، همه الوحيد إيجاد سبيل لدفع ما عليه من التزام، لأنه يعرف في قرارة نفسه أنه لو لم يتمكن من ذلك فالعواقب عليه ستكون وخيمة، فأهمل ما مقداره $\frac{3}{4}$ الأراضي الصالحة للزراعة.¹

لقد قلنا أن السلطة العثمانية لم تكن تتدخل في شؤون القبائل الداخلية أو نمط حياتها أو طريقة عيشها لا من الناحية السياسية ولا الاجتماعية ولا الاقتصادية، ولكن لم تكن تتسامح فيما يخص الجباية، فإما أن تدفع كل شيء أو تدفع تعبيراً عن الولاء والخضوع، واستمرت العلاقة جيدة فترة طويلة خاصة بوجود التهديد المسيحي، ولما كانت غنائم البحر توفر مدخولاً معتبراً حيث التزم الطرفان (السلطة، القبيلة)، فلا السلطة طلبت المزيد ولا القبائل امتنعت وهو ما شكل المرحلة الأولى ولكن ما إن اختل الالتزام حتى تعرضت البلاد للاضطراب والغليان وهو ما شكل المرحلة الثانية.

في هذا الظرف التجأ الفرد إلى القبيلة واحتتمى بها فهي مصدر قوته بما تمنحه له من دفاع عنه وتضامن معه، خاصة وأنها اعتادت أن تكون وفيه له في هذه الظروف فتكورت القبيلة على نفسها ودخلت في صراع دفاعاً عن مصالح سكانها، واستعدت للصدام مع السلطة التركية، التي بدأ ينظر إليها على أنها خطر خارجي يجب مواجهته، فمما الحقد والبغضاء اتجاهها، خاصة وأن هذا الضغط من قبل السلطة اعتبر فيما يخص الضرائب قضية شرف، ولن يتم التنازل على الشرف بسهولة ولن يتم الدفع حتى يتكلم البارود، فانطلقت الثورات.²

المبحث الثالث: الثورات الشعبية في منطقة سطيف أواخر العهد العثماني:

بدأ ينظر إلى السلطة على أنها خطر خارجي يجب مقاومته، لذلك قامت عدة ثورات، فبعض القبائل لن تتنازل عن حقها بسهولة، ففي رسالة وجهها أعيان قسنطينة يوم 19 أفريل 1871 للحاكم العام دوقيدون، ذكروا فيها الثورات الكثيرة التي قامت ضد الأتراك مثل قبائل حسناوة والحناشنة والحراكتة وأولاد عبد النور في عهد أحمد باي، حيث تصدت هذه القبائل للدفاع عن السكان³، خاصة وأن بعض البايات بلغوا مبلغاً عظيماً من

¹ - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 114.

² - De Grammont, Op, cit, p 40.

³ - محفوظ سماتي، المرجع السابق، ص 92.

الجور والظلم وأعلنوا صراحة عن عدائهم للقبائل مثل محمد شاعر باي قسنطينة (1814-1818) الذي وصفه العنتري بقوله: " هو رجل صاحب بطش عليه صلابة العجم، فيسفك الدماء في الحق والباطل ويأخذ أرزاق الناس بالغزو، ولا يبالي بمن هو طائع أو عاصي وفي زمانه اشتهروا الترك بالظلم وجاروا"¹ ووصف بعده محمد باي مناماني (1824-1826) بقوله: " لكن حين ترجع باي صار لا يفهم ولا يعقل كالجماد واشتهر ظلم الترك وصاروا يقتلون الناس في داخل البلاد والخلق والأحكام وتصبغ الوطن وضعفت الرعية"²، وقد كثرت أواخر العهد العثماني حملات ضد القبائل ونذكر منها:

- حملة الباي محمد الكبير على قبائل الجنوب وصولاً لعين ماضي وقد خلدها كاتبه أحمد بن هطال التلمساني 1799.

- حملة صالح باي إلى تقرت 1792

- حملة الباي الوزناجي (1795-1798) ضد أولاد بوعون في جبال الأوراس والباي إبراهيم الكريتلي ضد النمامشة والعمامرة في عام 1822 واستولى منها على غنائم معبرة قدرها ألف فرنك من كل منهما³.

وقد شهدت منطقة سطيف حملة مشابهة لهذه الحملات، كان الهدف منها إعطاء المزيد من السيطرة للسلطة المركزية على القبائل الممتنعة وبالتالي الحصول على المزيد من الضرائب، أو لإعادة بعث السيطرة التي أحست السلطة أنها تضعف وتراجع، ومن جملة الحملات نذكر:

1- حملة أحمد باي ضد قبيلة قرقور والقبائل المجاورة لها: والتي اشتعلت فيها انتفاضة قادها شيخ العائلة المرابطية الشهيرة بن واري ممثلة في المرباط لخضر بن واري، حيث سيطر على مجال هذه القبيلة بما لديه من نفوذ روحي وعظم شأنه، فقداد أحمد باي حملة انتهت بفشل سببه عدة عوامل: بعد المسافة وصعوبة التضاريس وشراسة سكان المنطقة وعاد إلى قسنطينة، فاستعان بعمار بن عبيد من عائلة بن عبيد التي ذكرناها مقابل امتياز ومكافئة يحصل عليها وهي تنصيبه خليفة على كامل المنطقة من قبيلة ساحل قبلي المجاورة لقبيلة قرقور حتى فرجوة، وعمار هذا ما هو إلا ابن خال لخضر بن واري وحليفه في السابق⁴.

¹ - محمد صالح بن العنتري: فريدة مؤنسة، المصدر السابق، ص 81.

² - نفسه، ص 91.

³ - أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 283-284.

⁴ - Rapport s.c de la tribu de Guergour, Op, cit, p 34.

ولا نستبعد أن تكون هذه الثورة شبيهة بثورة ابن الأحرش في الانطلاقة والأهداف فالزعامة الدينية موجودة، والقبائل المنقادة موجودة والعدو نفسه هو السلطة التركية، كما دخلت بعض قبائل سطيف الأخرى في ثورات ضد سلطة البايات مثل ما قامت به ريغة ضد الوزناجي ونعمان باي وأحمد باي¹ رغم أن هذا الأخير استطاع فرض النظام والاستقرار في البايك، ولكن يبدو أن هذا كان شكليا ومحصورا إذا ما استثنينا الكثير من المناطق الصعبة التضاريس، فبايلك الشرق غالبية غابات وجبال وعرة في الشمال وصحراء في الجنوب، وهو ما يعزز أكثر ما سقناه آنفا عن دور التضاريس الجبلية في تحديد العلاقة بين السلطة والقبائل، وقد لعب الخوف والإكراه دورا كبيرا في تمكن أحمد باي من السيطرة على ما سيطر عليه، والدليل أنه ما إن علمت القبائل أن العاصمة قد سقطت حتى شاع الاضطراب والفوضى وقطعت غالبية هذه القبائل خيوط الخضوع، فيذكر أحمد باي في مذكرته أنه ما إن سمعت القبائل بانسحابه من الجزائر وعودته إلى قسنطينة حتى لاقته في منطقة سطيف بغية إلحاق الأذى به².

لم يكن أحمد باي واضحا ولم يعطي الصورة الدقيقة لهذه الأحداث التي وقعت عام 1830 ولم يذكر أسماء القبائل، ولكن تكتمل الصورة بما ذكره لويس رين في كتابه تاريخ انتفاضة 1871.

عند مغادرة أحمد باي العاصمة الجزائر العاصمة بعد احتلالها وعند وصوله إلى البيان علم أن أحد أفراد عائلة المقراني من أولاد بلقندوز وهو بن عبد الله شيخ مجانة ونائبه الخليفة عبد السلام قد شرعا في الزحف ضده على رأس مجموعة من قبائل عامر وأولاد عبد النور والتلازمة لتساعدهم القبائل المجاورة لسطيف، وازداد الصراع حين دخلت في الخط ريغة الظهارة وشيخها سي محمد الصغير بن سعد، ولكن في المقابل بقي محمد المقراني وفيها للباي يدعمه أولاد ريغة القبالة أتباع الشيخ مسعود³.

ويبدو أن العداء بقي متواصلا من قبل قبائل سطيف ضد السلطة العثمانية ممثلة في أحمد باي، حيث لم تنس اعتداءات هذه السلطة، فنراها قد تحالفت من أجل الإطاحة به والنيل منه، فيذكر العنتري أن سكان وطن

¹ - لويس رين: تاريخ انتفاضة 1871، تر: مسعود حاج مسعود، دار الرائد للكتاب، ط1، الجزائر، 2013، ص309.

² - أحمد باي، المصدر السابق، ص33.

³ - لويس رين، المصدر السابق، ص432.

قسنطينة أنكروا حكم الباي وخرجوا عن طاعته، ولم يتمكن من الوصول إلى قسنطينة إلا بشق الأنفس فقد قاتلته الكثير من العروش أثناء رجوعه من العاصمة¹.

ومن قبائل سطيف التي واصلت عداائه واتصلت بيوسف المملوك وطلبت منه السير نحو قسنطينة وستقدم له يد المساعدة لإسقاط الباي نحد أحمد الشريف شيخ ريغة الظهارة والبعض من عامر الغرابية وفرقة أولاد نابت وأولاد بن يلس².

وقبل هذا، حاولت قبيلة العلمة الانعتاق من سطوة وجور البايك باعتبارها رعية وقامت بثورة واحدة، لكن لم تساعدها لا الظروف والعوامل الطبيعية ولا الإمكانيات، فقبيلة العلمة تسكن سهولا واسعة ليس فيها أماكن للاحتماء كالجبال، ولا تتوفر على الجنود والمحاربين اللازمين للقتال، فلم تقم بأكثر من هذا، وفشلت ولم تعاود الكرة مرة أخرى كما سبق وقلنا، وكان ذلك في عهد الحاج أحمد الباي، وقام بالثورة الفرع الأصلي للقبيلة ونقصد أبناء منصور العولمي³.

ولعل أشهر ثورة شاركت فيها قبائل سطيف ضد العثمانيين أواخر عهدهم هي ثورة ابن الأحرش التي اندلعت كالنار في الهشيم، حيث اتخذ معسكره ناحية جبل مغرس قرب سطيف وجعلها قاعدة لانطلاق عملياته بعد أن جمع حوله أولاد دراج والمعاضيد وأولاد براهيم وأولاد تبان، فلم يكن للسلطة سوى الاعتماد على حليفهم في منطقة أولاد مقران وبعض الإنكشارية لمحاربه⁴.

2- ثورة ابن الأحرش: اختلف في نسب ابن الأحرش، فمحمد بن يوسف الزياني يذكر أنه فتي مغربي درعي النسب⁵، مالكي المذهب ودرقاوي الطريقة⁶ ويعرفه ابن العطار على أنه رجل مغربي يزعم أنه من شرفاء فاس، دخل وسط القبائل ووعدهم بالاستيلاء على قسنطينة، ولتصديقه وإضفاء الشرعية على ما يقوم به ادعى

¹ - محمد الصالح بن العنتري، المصدر السابق، ص 92.

² - نفسه، ص 103.

³ - Rapport de la tribu d'Eulma, Op, cit, p 17.

⁴ - لويس رين: المصدر السابق، ص 25، راجع أيضا، De Gramment, Op ; cit, p 365

⁵ - محمد يوسف الزياني: دليل الجيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، نقد وتبع: المهدي أبو عبيدي، منشورات الجزائر 1978، ص 207.

⁶ - الدراوية: طريقة صوفية تنتسب إلى الشيخ محمد العربي بن أحمد الدراوي الإدرسي المولود عام 1737م، وقد عرفت هذه الطريقة التي تستمد أصولها من الشاذلية انتشارا واسعا بين السكان سواء في المغرب أو الجهة الغربية للجزائر، دعمها سلطان المغرب مولاي سليمان قصد توظيفها في محاربة العثمانيين بالجزائر، حيث اندلعت ثورة ابن الأحرش وهو من درعة وهي قرية في المغرب، والشريف الدراوي، ومن أشهر مريديها الشيخ بوزيان قائد ثورة الزعاطشة 1849، للمزيد راجع: مؤيد صلاح العقبي، المرجع السابق، ص 230-234.

أنه المهدي المنتظر أو مول الساعة وأظهر لهم العجائب وبعض الكرامات، مثل أن البارود لا يعمل فيه (لا يمكن قتله بالرصاص)، فصدقه الكثير منهم واتبعوه وامتثلوا لأوامره ونواهيته فالحقد على السلطة وإظهاره للكرامات مكنته من حشد الأتباع وقيادتهم نحو قسنطينة للاستيلاء عليها¹، وهو ما ذهب إليه العنترى في ادعاء ابن الأحرش للشرف مما مكّنه من التأثير على القبائل وجمع حوالي 10 آلاف مقاتل فقصده قسنطينة التي كان حاكمها عثمان باي غائب ناحية سطيف منهمكا في جمع الضرائب²، وقد عرف ابن الأحرش عند العامة بالبودالي أي أمير الركب أو القافلة، وخاصة أنه أسندت له قيادة الركب المغربي أثناء القيام برحلة الحج³.

قاد ابن الأحرش انتفاضة ضد السلطة التركية معتمدا على إثارة قبائل جيجل بداية من 1803، مشكلا معضلة حقيقية في عهد عثمان باي خاصة لما هدد عاصمة البايك قسنطينة، وفي الوقت نفسه زاد نفوذه بعد تحالفه مع الشيخ الزبوجي مقدم الطريقة الرحمانية في فرجوة الذي كان في صراع مع السلطة ممثلة في عثمان باي الذي قلص نفوذه كثيرا وحرمه من الكثير من الامتيازات التي كان يحصل عليها على غرار جميع المرابطين والشيوخ، ولما طالب بها لم يستجب لمطالبه فكان خير سند لابن الأحرش إذ مكّنه من كسب مزيد من المجندين القبليين، فتحوّلت حركة ابن الأحرش إلى حركة دينية⁴.

تذكر المصادر المحلية خاصة القريبة من السلطة هذه الثورة بكثير من التحامل ووقفت منها موقفا مضادا ودعمت السلطة العثمانية ووصفتها على أنها خروج عن ولي أمر المسلمين، ووصفها الشريف الزهار بالفتنة فتنة، واتهم ابن الأحرش بالعمالة لتونس، مدعيا أن حمودة باشا هو من حرضه للقيام ضد الأتراك فيقول: "إن حمود باشا استدعى ابن الأحرش ووسوس له"⁵، وهو ما ذهب إليه أبي راس الناصري الذي وصفها بالفتنة أيضا قائلا: "ثم عمّتنا فتنة درقاوة وإن لم يكن فيها أتقياء بررة وأقوياء فجرة"⁶.

أما المؤرخون الأجانب ومنهم فيرو وباربروجر فيرجحون أسبابها إلى تدخل الإنجليز الذين دعموه بالأسلحة وأرجعوه على متن سفينة إنجليزية بعد خوضه القتال في مصر ضد الفرنسيين، وسبب مساعدتهم له

¹ - أحمد بن مبارك بن العطار، المصدر السابق، ص 111.

² - العنترى، مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 30.

³ - Charles Féraud : les Chérifs kabyles de 1804 et 1809 in R.A, 1869, p 214.

⁴ - شارل فيرو: تاريخ جيجلي، تر: عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر 2010، ص 150.

⁵ - أحمد شريف الزهار، المصدر السابق، ص 85.

⁶ - ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية، المرجع السابق، ص 309.

تخوفهم من ضياع مصالحهم في الجزائر نتيجة النفوذ الفرنسي بعد معاهدة 17 ديسمبر 1803 بين الداي مصطفى باشا وفرنسا التي شملت صيد المرجان في السواحل الشرقية والحصول على الحبوب¹.

وبغض النظر عما قيل عن الثورة من قبل المؤرخين، إلا أنه هناك أسبابا داخلية حقيقية ساهمت في انتشارها في كامل بايلك الشرق محفزة القبائل المختلفة ولإشعال تمرد قوامه 60 ألف رجل، وقامت بمذابح كبيرة في حق رجال السلطة ومنهم الباي نفسه عثمان باي في نواحي جيجل².

وقد تطرق ناصر الدين سعيدوني للأسباب التي كانت وراء هذه الثورة وحصرها في:

- استعداد سكان القبائل للثورة، حيث كانوا ينتظرون فقط من سيشعل فتيلها في وجه الأتراك، وذلك بسبب سياسة الظلم والجور التي تعرضوا لها والتي ذكرناها سابقا، من ناحية جباية الضرائب واستحداث الكثير منها، مما لا أساس له ولا سند ونهب الأموال والفساد، حيث جاءت كانهفجار لضغط المكبوتات التي كانت النفوس مليئة بها³، ويكفي أن نقول أنه في الوقت الذي اندلعت فيه هذه الثورة كانت الحنانشة النمامشة ملتهبة بعد أن دخلت في صراع ضد الباي عثمان الذي صادر قطعانها من بقر وجمال وأحصنة، ولنا أن نتصور وقع كلمات ابن الأحرش على مسامع محاربيه ممينا إياهم بالانعتاق وهو يضرب الأمثلة بهذه القبائل⁴.

- معاداة شيوخ الزوايا والمرابطين الذين اضطهدتهم السلطة أمثال الزبوجي بنواحي رجاص (ميلة) الذي جرده الباي عثمان من كل امتياز حتى أنه فرض عليه الضرائب، رغم خلفيته الدينية كمقدم للزاوية الرحمانية وهو ما كان غير متعارف عليه.

كما أنه هنالك أسباب أخرى ذكرها حنفي هلايلي حتى ولو كانت غير مباشرة تتمثل في:⁵

- التهميش الذي طال كل الجزائريين من كل النواحي السياسية والعسكرية وغيرها، حيث هيمن الأتراك بشكل شبه مطلق على أمور الجيش ومختلف دواليب السلطة، وشكلوا فرقة منغلقة على ذاتها تمنع أي أحد من

¹- Adrien Berbrugger : un Chérif Kabyle en 1804, R.A, 1858, p 211.

²- De Grammont, Op ; cit, p 364-365.

³- سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص

⁴- محمد الصالح العنتري، فريدة مؤسسة، المصدر السابق، ص 70.

⁵- حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص 13-14.

السكان المحليين الانخراط معهم حتى الذين من دمهم ونقصد الكراغلة، فاليهود والأعلاج كانوا أفضل حالا من الجزائريين، ويتمتعون بحياة جيدة خاصة القريبين من السلطة كبوشناق.

- تزرع الثقة بين الرعية والحكام مما ساهم في تراجع اللحمة التي كانت سائدة وقواها المرابطون والطرق الصوفية، ثقة غابت نتيجة الأعمال التي كان الأتراك يقومون بها ضد القبائل المختلفة.

- التخلص من الإسبان: فقد احتل الإسبان سواحل الجزائر منذ مطلع القرن 16، ولكن الأتراك بمساعدة الجزائريين قاموا بطردهم من جميع الثغور إلا من وهران التي بقيت محتلة حتى عام 1792م، ومادام هناك الإسبان فإن اللحمة الدينية كانت موجودة بسبب وجود العدو المسيحي الكافر جاثما في الديار مما وحد الصفوف، هذا دون أن ننسى أن من استدعى الأتراك حسب بعض المصادر هم المرابطون المتمثلين في أبي العباس أحمد ابن القاضي الزواوي، لكن الطرد النهائي للإسبان حول الأنظار إلى قضايا أخرى ومنها القضايا الداخلية، فحدث هناك نوع من المحاولة لمراجعة بعض الأمور (حق السلطة، الضرائب، العلاقات الاجتماعية) وغيرها، فيذكر دوغرامون أن طرد الإسبان من الأسباب الأساسية التي عجلت بحل الوثاق بين السكان والسلطة العثمانية¹.

- توفر الزعامة الدينية في شخصية ابن الأحرش، فهو من أشرف درعة، ومريد لإحدى الطرق الصوفية الكبيرة وهي الطريقة الدرقاوية وادعى الكرامات مثل أن البارود لا يعمل فيه وفي أتباعه، وادعائه للمهدوية وأنه مول الساعة، وجاء ليوقف جور الحكام وملئ الأرض عدلا ورحمة بعدما ملئت ظلما، فاستغل سذاجة السكان وإيمانهم بهذه الأمور لتحريك مشروعه، وتجدد الإشارة إلى أن فكرة المهدوية أو المهدي المنتظر قد استغلت ووظفت على طول الأزمنة فوظفها عبید الله المهدي أثناء دعوته لإقامة الدولة الفاطمية ووظفها ابن تومرت وبعده ابن الأحرش ثم أثناء مقاومة الاحتلال الفرنسي مثل ما فعل بوبغلة وبومعزة.

هذا، وبغض النظر عن هذه الثورة والأسباب المحيطة بها فهي ثورة تنم وقبل كل شيء بالوضع الذي آلت إليه القبائل المغلوبة على أمرها من وضعية مزرية وصعبة من تصرفات الحكام وحاشيتهم، فينقل حنيفي هلايلي عن ابن أبي الضياف قوله: "أن أهل الجزائر وأعراهما وهم السواد الأعظم سئما سوطوة الجند الأتراك وبلغ السيل الزبي".²

¹- De Grammont، Op ; cit ; p 412.

²- حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص 217.

وقد كانت لهذه الثورة انعكاسات سلبية على بايلك قسنطينة منها:

- قطع الصلة بين كثير من القبائل والسلطة والتي لم تستقم إلا بشكل هش أثناء عهد أحمد باي
- بينت مدى الهوة الموجودة بين الطرفين السلطة والقبيلة.
- كانت هذه الثورة سبب في الضعف الاقتصادي للبايلك، حيث لحقتها المجاعة ومرد ذلك عزوف الفلاحين عن الفلاحة، لكثرة النهب وغياب الأمن، فانعدمت الحراثة وبالتالي انعدمت الحبوب وانتشرت المجاعة عام 1804 حيث أشرف الناس على الهلاك.¹
- تراجع قبضة سلطة البايلك على المناطق الواقعة شمال قسنطينة، حتى اختفت تماما مما فتح الباب لانتشار العصيان والتمرد وأدرك السكان أنه بإمكانهم التملص من ظلم الأتراك وجورهم الذي كانوا يفرضونه، وهذا ما نستخلصه من تتبع الأحداث اللاحقة حيث ما إن تخمد حركة حتى تظهر حركة أخرى في منطقة أخرى.² مثل ثورة درقاوة التي قادها الشريف الدرقاوي في بايلك الغرب والتي جاءت امتدادا لثورة ابن الأعرش.

¹ - صالح العنزي، مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 33.

² - سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق 333.

الفصل الرابع: ————— قبائل منطقة سطيف في مواجهة الاستعمار الفرنسي

المبحث الأول: أساليب السلطة الفرنسية للسيطرة على قبائل سطيف

المبحث الثاني: قبائل منطقة سطيف: التفكيك وإعادة البناء: عامر أنموذجا

المبحث الثالث: ————— مقاومة قبائل سطيف للسلطة الفرنسية

سنقوم في هذا الفصل بدراسة العلاقة التي ربطت القبيلة بالسلطة الفرنسية، ففي عام 1830، تمكنت فرنسا من احتلال الجزائر وأخذت تتوسع ناحية العمق الجزائري ومنها منطقة سطيف التي احتلتها عام 1838، مما أرسى سلطة جديدة تختلف عن السلطة العثمانية من حيث التوجه، والأهداف المسطرة، وقد وجدت هذه السلطة الجديدة نفسها أمام القبيلة التي استعدت للمواجهة، فأدركت أن أي تقدم وتمركز لها في هذه الأرض لن يتم ما لم تسيطر على القبيلة وتقضي عليها، لذلك انتهجت العديد من الأساليب الهادفة إلى تفكيك القبيلة، خاصة تطبيق قانون 22 أبريل 1863، حيث تعرضت جل القبائل للتفكيك ومن جملتها قبائل منطقة سطيف على غرار عامر، ولكن هذه القبائل لم تقف مكتوفة اليدين بل جهزت نفسها وقادت مقاومة متعددة الأشكال وعلى مختلف الأصعدة بالسلاح والرفض، والشكايات وغيرها.

المبحث الأول: أساليب السلطة الفرنسية للسيطرة على قبائل منطقة سطيف.

بعد احتلال قسنطينة، أرادت السلطة الفرنسية تأمين الطريق السلطاني لبابك الشرق لما يحمله من أهمية، فانطلقت صوب سطيف واحتلت في الطريق ميلة ونصبت فيها حامية، ثم أعطيت الأوامر لاحتلال جميلة في 4 ديسمبر 1838، ثم انتقلت القوات الفرنسية نحو سطيف ولكن سوء الأحوال الجوية أخر تقدمها، فأعطى الجنرال قالبا أوامره بالانسحاب والرجوع نحو ميلة ثم عاودت القوات الفرنسية التحرك نحو سطيف ووصلت في 15 ديسمبر 1838 رغم ما لاقته في الطريق من مقاومة للقبائل، ثم قاد حملة ثانية في 1839، ساعدته فيها قوات بقيادة الشيخ مسعود شيخ ريغة القبالة¹.

وبعد التمكن من مدينة سطيف أخذت القوات الفرنسية تتوسع وتمدد للسيطرة على قبائل المنطقة، فأخذت تجهز الحملات، من بينها حملة على أولاد نابت في 23 ديسمبر 1838، الذين هاجموا على الفرنسيين بعد وصولهم إلى سطيف، ثم حملة على بابور بقيادة فروادفون، وفي ماي 1939، قادت القوات الفرنسية حملة ضد أحمد الشريف قايد ريغة القبالة، وحتى المناطق البعيدة عن مدينة سطيف سارت نحوها القوات الفرنسية على غرار بين غبولة (قبيلة بني شبانة) وقبيلة بني ورتلان وهكذا توسعت وبالتالي بدأت في البحث عن السيطرة².

¹- كمال بيرم: احتلال منطقة سطيف وتطور حركة الاستيطان الأوروبي بما بين سنتي (1838-1900)، المجلة التاريخية الجزائرية، ع1، 2017، الجزائر، 49-52.

²- Pélissier de Reynaud : les Annales Algériennes, T3, (librairie militaire, librairie bastide), (Paris, Alger), 1854, p 292.

لقد رفض الجزائريون في معظمهم الاحتلال الفرنسي، واستعدوا للمقاومة، ولكن السلطة الجديدة الباحثة عن السيطرة لتأمين النفس وترسيخ الوجود اتبعت عدة آليات لتحقيق هذا المسعى، خاصة وأنها وجدت نفسها أمام شعب حسن التنظيم كما يقول الأشرف: "وجدت فرنسا نفسها أمام شعب حسن التنظيم، له حضارته الخاصة الشبيهة إلى حد كبير بحضارات البحر الأبيض المتوسط، وهذا المجتمع لا يخلو من العيوب ولكن حبه للحرية وتمسكه بالأرض واتحاد كلمته وأصالة ثقافته وصدق وطنيته وغزارة موارده الطبيعية، ونبل مثله العليا كل ذلك أعطى البرهان الساطع والدليل القاطع على أصالته"¹، وليس كما قال دو طوكفيل أن المجتمع في إفريقيا غير متحضر، بل كان فقط ذا حضارة متأخرة وغير مكتملة²، فهذا الكلام غير دقيق، وهذا التأخر الذي أشار إليه دو طوكفيل، إنما نابع من خلفيته الفرنسية التي حاول من خلالها إسقاط مقوماتها على الجزائر، وحتى وإن كان المجتمع الجزائري متأخرا، ولكنه تأخر مادي وليس معنوي، ففيه الكثير من الجوانب المشرفة، والجانب المادي لم يكن أبدا مقياسا للحضارة والتقدم والتخلف.

كما أن السلطة الفرنسية التي اطلعت على المجتمع الجزائري أدركت أنه لا يمكن التفوق عليه ولن تحقق الانتصار ما لم تجد الوسائل الكفيلة لتفكيك القبيلة، فهي السمة الأبرز للمجتمع التي ستواجهه للاحتلال، فكما يقول دو طوكفيل: "لن نكسر شوكة عبد القادر إلا إذا جعلنا حياة القبائل الموالية له جحيما... وإنني أرى وجوب استعمال كل الوسائل لتضييق الخناق على تلك القبائل والتكدير عليها"³.

ترى ما هي الوسائل التي اتبعتها السلطة الاستعمارية لتحقيق هذا الهدف الذي سطرته؟

بالعودة إلى ما جاءت به مختلف الكتب والتقارير، نجد أن السلطة الفرنسية قد اتبعت استراتيجية متكاملة شملت عدة أساليب تراوحت بين الغلظة واللين، فتعاملت بناء على موقف كل قبيلة من السلطة الجديدة، والاستفادة التي يمكن أن تجنيها هذه السلطة من إخضاع القبيلة الكلي أو على الأقل شذوها إلى فلکها وجعلها تابعة تأتمر وتنتهي بأفكار السلطة وممارساتها، ويمكن أن نميز الأساليب التالية:

¹ - مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص 22.

² - أليكسي دو طوكفيل: نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، تر وتقد: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 126.

³ - أوليفييه ليكور غرانيزون: الاستعمار الإبادة، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية، دار الرائد للكتاب، الجزائر، تر: نورة بوزيدة، الجزائر، 2007، ص 6.

1-الضغط العسكري: أعلنت السلطة الفرنسية عن هذا الخيار منذ اليوم الأول للاحتلال، فرغم معاهدة الاستسلام التي أمضى عليها الداي حسين مع فرنسا ممثلة في قائد جيش الاحتلال دي بورمون يوم 5 جويلية 1830 القاضية باحترام السكان وعاداتهم وأموالهم ومعتقداتهم إلا أن القوة استعملت وبإفراط¹، فما لبث أن توجه الجنرال كلوزيل² ناحية البليدة، وقام جنوده في الطريق بحرق وتخريب المزارع والمحاصيل، إذ شاع أن العرب لا يحبون إلا القوة ولا يخضعون لغيرها³، فجاء على لسان شانغري: " ظهرت وحشية الغزو الفرنسي على الجزائر منذ 1830، لا يجب ترك أحد، إنه الغزو الذي يمارسه الجيش على أكبر نطاق، مصحوب بالنهب والمجازر، فتحول الجنود إلى ذباحين للأهالي، وكانت الفرق التي تقوم بالتدمير تتسلى خاصة في فصل الشتاء"⁴.

لهذا نجد القادة العسكريين الفرنسيين كانوا يرسخون أفكارا تتعلق بضرورة القمع والتعذيب في نفوس جنودهم، منذ اليوم الذي تطأ أقدامهم أرض الجزائر كنوع من التجهيز النفسي كي يكونوا في الوحشية اللازمة لإيقاف مقاومة القبائل، فيستعدون لممارسة تلك الأفعال الشنيعة، مخبرين إياهم أنه لا حل ثالث بين اثنين، إما أن يقوموا بها أو يكونوا أهدافا سهلة لرجال القبائل⁵.

وقد أستخدم هذا الأسلوب بشكل واسع النطاق، فتعرضت له غالبية القبائل حتى تلك التي أبدت ليونة اتجاه السلطة الجديدة، وكأنها رسالة للآخرين أنه حتى المتعاونون لن يسلموا فما بالك بالأعداء، خاصة مع توسع الاستعمار ومعرفته بأحوال البلاد، فكما يقول مول: " إن القوة غير المحدودة ضرورية، وفي الجزائر أكثر من أي

¹ - جاء في البند الخامس من معاهدة الاستسلام 5 جويلية 1830: " ستبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة، ولن يلحق أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات ولا بدنيهم ولا بأموالهم ولا بتجارهم وصناعاتهم وستكون نساؤهم محل احترام"، عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، موفم للنشر، 2009، ص 69.

² - كلوزيل: هو الكونت بيرتران كلوزيل، ولد في 12/09/1772 بأرياج الفرنسية، شارك في العديد من الحروب الفرنسية، ضد اسبانيا وهولندا وتدرج في مختلف الرتب العسكرية، ولكن في عام 1816 حُكم عليه بالإعدام بعد هزيمة واترلو حين رفع الراية البيضاء مما سبب له سخط السكان، فهرب إلى الولايات المتحدة، ليعود عام 1820 بعد صدور العفو في حقه، ثم شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر وأصبح حاكما عاما عليها، وقد رافع ضد فكرة التخلي عن الجزائر في البرلمان الفرنسي، حاول القيام بأعمال استيطانية متأثرا بما عاشه في الولايات المتحدة وأسس مدينة بوفاريك وقاد الحملة على عنابة في 08/11/1830، عوض بالجنرال بيتيرزين كحاكم عام في 31/01/1831، ثم عين حاكما عام مرة أخرى في 1835 ثم عزل ليعاد تعيينه مرة أخرى في 08/07/1837، وفي 12/01/1838 عزل وعاد إلى فرنسا وتوفي بها في 21/04/1842، كريمة حرشوش: جرائم الجنرالات الفرنسيين ضد مقاومة الأمير عبد القادر في الجزائر من خلال أدبياتهم، (1832-1847) (نماذج)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، معهد العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ والآثار، ص 78-80.

³ - أوليفي ليكور غرافيزون، المرجع السابق، ص 182.

⁴ - حرشوش كريمة، المرجع السابق، ص 47

⁵ - نفسه، ص 50

مكان، ولا فائدة من الاستخدام المعتدل فإن ذلك لا يجدي نفعا، فلا مستعمرة في العالم تأسست دون سلطة ديكاتورية، بحيث يمكن امتلاك جيش واستخدامه ضد الطرف الآخر¹.

ففي منطقة سطيف مثلا جُهزت الكثير من الحملات لإخضاع القبائل، خاصة الشمالية منها التي أبدت مقاومة شرسة كعموشة وبابور وساحل قلي هذه الأخيرة رفقة قبائل بني شبانة وبني ورثيلان تعرضت لحملات بشكل دوري ومستمر، تكاد تكون بلا انقطاع، فأولى الحملات العسكرية ضد هذه المنطقة كانت عام 1842م، بقيادة الجنرال سيلاق، ثم أخرى عام 1847م، ثم اشتدت الحملات ما بين 1849-1850م بقيادة الجنرال سالاس و دوبرال والعقيد دو لورمال، ثم التغريم والاضطهاد بعد ثورة المقراني والهدف من كل هذا هو تحقيق ما أشار إليه دو طوكفيل، جعل حياة القبائل لا تطاق².

وقد برز العديد من القادة العسكريين الفرنسيين ممن قاموا بمجازر يندى لها الجبين في حق القبائل الجزائرية، ولعل أول من دخل هذا المجال بقوة الدوق دو روفيغو³، الذي اعتبر كل العرب مجرمين يجب القضاء عليهم دون التفريق في الجنس أو السن، ويجاريه في هذا الطرح الجنرال دي مونتيك (1803-1845) الذي قال في رسالة تبادها مع أحد أصدقائه: " أريك يا صديقي العزيز كيف هي الحرب ضد العرب، تقتل كل الرجال الذين يتجاوزون 15 سنة، وتضع كل الأطفال والنساء في البواخر وترسلهم إلى جزر الماركيز أو إلى أي مكان آخر، وفي كلمة يجب القضاء على كل من لا يزحف أمامنا كالكلب... وأن نأخذ كل ما تملك (القبيلة) أو نخدمه دون التفرقة بين رجل وامرأة، وبين كبير أو صغير، لا يجب أن ينبت العشب من حيث يمر الجيش الفرنسي"⁴.

ولكن القيام بكل هذه الإبادة والمواصلة في تنفيذها أمر صعب التحقيق، وهذا لاعتبارات عدة:

¹- L. Moll : Colonisation et agriculture de l'Algérie, t1, librairie de la Masson Rustique, Paris, 1845, p 19.

²- Rapport de s. c de la tribu de Sahel Guebli, Op ; cit, p 600.

³- الدوق دوروفيغو: ولد في 26 أبريل 1774، خدم كاحتياطي في الفرقة النورماندية عند نشوب الثورة الفرنسية، ثم شارك في الحملة الفرنسية على مصر رقي بعدها إلى رتبة جنرال عام 1805، شارك في الحروب التي خاضتها فرنسا ضد كل من النمسا بولونيا واسبانيا والبرتغال وبروسيا، ثم عين في عام 1810 وزيرا للشرطة، ثم قدم إلى الجزائر أين عين حاكما عاما خلفا للجنرال بيرتران عام 1831، بقي في الجزائر مدة سنتين ارتكب خلالها مجازر عدة، توفي في باريس يوم 26 جوان 1833، كريمة حرشوش، المرجع السابق، ص 122.

⁴- أوليفي لوكور غرانمبون، المرجع السابق، ص 147.

- عدم القدرة على القيام بعمليات عسكرية بشكل دائم ومتواصل، لما تكلفه من أموال وعدة وعناد، هذه الصعوبات يضاف إليها صعوبات أخرى كالظروف الطبيعية والتضاريس الجغرافية ورحابة الجزائر، وقوة القبائل التي أبانت بعد العديد من المعارك والصدامات عن شرف في القتال.

- رفض البعض لهذه الإبادة كالإمبراطور نابليون الثالث، حيث صرح قائلاً إنه يرفض إبادة ثلاث ملايين جزائري كما فعل الأمريكيون بالهنود الحمر في أمريكا الشمالية، معتبراً نفسه ملك الفرنسيين كما هو ملك العرب¹.

فيرى يرى بوديشون الذي تأثر بأفكار داروين أن نهاية العرب وانقراضهم واختفائهم هي نتيجة حتمية، وما الجنود الفرنسيون سوى سبب لتنفيذ هذه الحتمية، فحسبه فإن الطبيعة تتحرك إلى الأمام وتتبنى الخيار الأفضل وتفسح المجال للأصلح، وفي طريقها تدمر المخلوقات الضعيفة غير الصالحة للبقاء، وتعوضها بكائنات أكثر تطوراً، لتستكمل دورة الحياة، مضيفاً أن العرب ما هم إلا كائنات وضعية لم تعرف كيف تستغل المقدرات الطبيعية المتاحة لها، فليس أمامها سوى الانقراض².

يضيف بوديشون بكل حقد قائلاً: " أن العرب كسالى، معادون لكل شيء، وينتهكون القوانين الإنسانية، ويضرون بالأراضي الخصبة، وانقراضهم فيه فائدة عظيمة للبشرية، وقد اختارت الطبيعة الفرنسيين للقيام بهذه المهمة النبيلة وهي واجبة عليهم، ولا يمكن رفضها والتهرب من المسؤولية"³، وبالمقابل دعاهم إلى عدم بذل جهود قصد تحسينهم وترقيتهم، لأن كل ذلك لا طائلة منه وسيذهب أدراج الرياح، فعهدهم قد انتهى ولا يمكن إصلاحهم من جديد بأي حال من الأحوال⁴، قائلاً: " العرب من الناحية الدينية منحرفون، ومن الناحية الأخلاقية فاسدون، ومن الناحية الاقتصادية كسالى وخاملون"⁵.

لقد غذى الدكتور بوديشون النظريات العرقية بمزيد من الأفكار وقوى بذلك الغارات الفرنسية العنيفة على القبائل الجزائرية، وحكم على سكانها بالفناء لأنهم أعراق دونية ولا يجب التأسف عليهم، فالمنافس والجنس يصنعون الإنسان، والعرب لم يكن لهم حظ من هذه الصناعة، فإذا كان الأوروبي اجتماعي ولطيف وودود، والآسيوي غير

¹ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ق2، عالم المعرفة، ط.خ، الجزائر، 2009، ص 24.

² - E. Bodichon : Etudes sur l'Algérie et l'Afrique, Alger, 1847, p 143.

³ - Ibid, p152.

⁴ - E. Bodichon, Op ; cit, p 141.

⁵ - Ibid, p 148.

اجتماعي ولكنه متدين ومثالي، فإن الإفريقي والعربي على الخصوص عدواني وعنيف وغريزته هي من تحركه، يحب السلب والنهب، ولن يردعه شيء ما عدا السيف والعقاب¹.

ويعلق أوليفي غرانميرزون حول تداعيات هذه الأفكار قائلا: "أنها حولت مسار الاحتلال في الجزائر بشكل خطير كونها لا تقترح العقاب على المقاومين والقبائل المقاومة فقط أو الرجال الحاملين للسلاح، ولكنها تتوسع لتشمل الجميع المحارب والمسلم، والأعزل والمسلح، والصغير والكبير، وذلك لتدمير "كائنات" غير قادرة على استغلال الطبيعة بكيفية لائقة، والسماح للشعوب السامية والراقية بالاستحواذ عليها واستغلالها"².

ولتحقيق هذا المسعى في إبادة القبائل الجزائرية، لم يقتصر الأمر على السير إليها بالجيوش وقتلها، فهو عمل شاق على الجيش نوعا ما ويكلف كثيرا من المال والعتاد والوقت، فتم البحث عن طرق عملية أكثر وبتكلفة أقل وتوظيفها لتحقيق هذه الغاية، فبدأت مخيلة المنظرين الفرنسيين في الإبداع، فاقترحوا الكثير من الحلول منها:

- استخدام المجاعة: سواء بحرق المحاصيل والبساتين أو البحث عن مخازن الحبوب وإتلافها وهو ما عرف بسياسة الأرض المحروقة التي انتهجها الجنرال بيجو، فيقول بوسيير: "إنه يمثل تلك العمليات استطاع الفرنسيون إنهاك قوى عدو يبدو وكأن لديه أجنحة، ومحاصرته والقضاء على القبائل الرحالة بالإعياء والإنهاك أكثر من الحديد والنار"³، وهذه المجاعة تجويع اصطناعي، ويمكن أيضا الاستثمار في الأزمات الاجتماعية الناجمة عن القحط والجفاف، فبوديشون سره كثيرا موت مئات الآلاف أثناء مجاعة 1867م، فحسبه قد ساهمت في إبادة القبائل وتحقيق هدف الاحتلال الفرنسي في القضاء على القبائل الجزائرية⁴.

- إتباع وسائل تدفع العرب لمغادرة قراهم وقبائلهم، بتدمير حقولهم ومنازلهم كي لا يتمكنوا من حصد قمح أو شعير، وأخذ مواشيهم وخيامهم ومواعينهم، أخذ كل شيء قد يشكل ثروة لهم، ثم رميهم إلى المناطق القاحلة والأراضي البور حتى يموتوا تدريجيا من سوء التغذية والجفاف والأمراض، حيث تتكفل الطبيعة بهم، والضغط بهذا الشكل على القبائل يحقق هدفين: أولهما ما ذكرناه وثانيهما دفعها نحو التخلي عن قادة المقاومة،

¹- E. Bodichon : le vade mecum de la politique Française, Alger, typographie et lithographie, A. Boyer, 1883, p 3-4.

²- أوليفي غرانميرزون، المرجع السابق، ص 153.

³- نفسه، ص 187.

⁴- E. Bodichon, Op ; cit, p 233.

وهنا نجد لمسة من الماضي الغابر في تعامل الاستعمار مع الشعوب، فقد استوحى هذا المنهج من تعامل القادة الرومان كمينالوس، وماريناس وثيودوسيوس مع قرطاجة والمقاومين النوميديين¹.

-إنزال العقوبات الجماعية والتغريم والحجز والتعذيب، وكل ما من شأنه أن ينهك القوى، وقد لخص قانون الأهالي الصادر عام 1881 هذه العقوبات التي تعتبر من أبشع وأغرب ما توصل إليها العقل البشري من قوانين، فتقول لارشيوركنتفولد في كتابها الصادر 1923م حول التشريع الفرنسي في الجزائر: "أن عقوبات الاعتقال الإداري والتقديم الجماعي والحجز التي مورست في الجزائر تشكل إحدى أغرب وأكثر التشريعات دناءة في التاريخ"².

وقد أجمع المؤتمرون خلال الملتقى الاستعماري الفرنسي عام 1905 على ضرورة إخضاع العرب-بسبب خصوصياتهم العرقية والثقافية والعقائدية- لنظام سلطوي يؤسس لحالة استثنائية، مما يخول للحاكم كسر أشكال المقاومة التي من الممكن أن تنشأ³.

- التضييق التجاري: حيث يرى دوطوكفيل وجوب منع القبائل من التجارة، مثل بيع القطعان واقتناء ما تحتاج إليه من بضاعة، وإذا ما نُفذت هذه الطريقة لأمد طويل فذلك من شأنه منع طرق التجارة وتخفيف منابع الثروة للقبائل فتسقط في هاوية الحرمان فتستسلم أو تموت⁴.

3- مصادرة السلاح: سعى البعض من المنظرين للاحتلال الذين لا يرغبون في الإبادة الجماعية للقبائل الجزائرية إلى ابتكار طريقة أخرى لتحقيق السيطرة، فتوصلوا إلى فكرة مفادها أنه لتحقيق هذه السيطرة يجب انتزاع ومصادرة الأسلحة التي تمتلكها القبائل وجعل سكانها عزلا، وإبقاء أفضلية امتلاك السلاح في يد السلطة الفرنسية، فعندما لا تجد تلك القبائل السلاح اللازم للمقاومة فإن السلطة تكون في أمان وهو هدف سام سعت

¹- E. Bodichon, Op ; cit, p 141.

²- أوليفي لوكور غرانيزون: في نظام الأهالي، تشريح مسح القانون الاستعماري في الجزائر وفي الإمبراطورية الفرنسية، تر: العربي بوينون، منشورات السائح، ط1، الجزائر، 2001، ص 141.

³- نفسه، ص 12.

⁴- أوليفي لوكور غرانيزون، الاستعمار الإبادة، المرجع السابق، ص 127.

إليه، ومن جهة أخرى أشار أنصار هذه الفكرة إلى أن نزع السلاح هو ما شكل الأمم المتحضرة، لأنها تركت المحكومين تحت ضبط الحكام، ولا بد للجيش الفرنسي أن يسبق عمله في نزع السلاح أي عمل آخر¹.

كانت معظم القبائل الجزائرية تملك أسلحة متنوعة، سيوفا وبنادق، ورغم كونها غير متطورة إلا أنها تشكل خطرا على السلطة الفرنسية بتركها في أيدي القبائل كي تستخدمها في القتال والمقاومة، وإذا ما امتزجت هذه الأسلحة بالطبيعة الشرسة للعرب وشخصيتهم القوية، فهذا من شأنه أن يشكل تهديدا حقيقيا، فعلى السلطة أن تضمن أن تكون الوحيدة التي تحوز الأسلحة، إذا ما أرادت أن تؤسس لعمل استيطاني في الجزائر، فالمبدأ الذي يجب أن تقف عليه السلطة الفرنسية هو عدم ترك أي قبيلة مسلحة وهو ما سيؤدي إلى التقليل من الخسائر سواء البشرية أو المالية مع ضمان السيطرة الكاملة².

ولكن، كيف السبيل إلى تحقيق هذا الهدف في ظل عدد من العوامل الصعبة التحكم على رأسها شراسة القبائل، التوزيع وكثرة القبائل، ومساحة الجزائر المعتبرة وتنقلات القبائل وغيرها؟

يقترح كيتارد أن القبائل الضعيفة وقليلة القوة التي لا ترغب في تسليم أسلحتها لحاجتها الماسة إليها للدفاع عن نفسها ضد هجمات "المتوحشين" يجب وضع جيش لحمايتهم، أما القبائل القوية فسيتم سحقها بالعمل العسكري، ثم إملأء الشروط عليهم، وعلى رأس تلك الشروط التخلي عن الأسلحة، أما القبائل الممتنعة في الجبال والصحراء فسيتم حصارها هناك ومنعها من النزول نحو السهول للحصول على حاجياتها، مما يضطرها في الأخير إلى التواصل مع الفرنسيين وتسليم أسلحتها وتقديم الولاء³.

وقد شدد كيتارد على هذا العامل الذي حسبته هو مفتاح كل عمل استعماري تطمع فرنسا في تحقيقه على الأراضي الجزائرية، فنزع السلاح من القبائل وحرمانها من شراؤه واستيراده هو الحل الوحيد لتحويل المقاتلين إلى فلاحين، حتى الخيول ستتحول إلى الفنتازيات والاستعراضات بدل خوض المعارك.

4- استنساخ التجربة التركية: لاقى هذا الطرح إعجاب غالبية الفرنسيين، القادة منهم والمنظرين، فالفرنسيون على غرار الكثير من شعوب أوروبا لا يعرفون عن الجزائر إلا الشيء القليل، فما هي نظرتهم سوى أرض خصبة وغنية وتصلح مستعمرة، تسيل اللعاب من أجل احتلالها في سياق الحمى الاستعمارية التي اجتاحت

¹- M. Quitard: du désarmement des Arabes, la vigne libraire, Paris, 1841, p 9.

²- Ibid , p 67.

³- Ibid, p 8.

أوروبا بعد الثورة الصناعية، ونستشف هذا من قول أحد مساعدي كلوزيل الذي قال: "أصدقكم القول أنني لا أعرف عن مدينة الجزائر أكثر من الوصف الذي قدم عنها"¹، فإذا كان هذا حال مدينة الجزائر التي لطالما وصفها الرحالة وأسهبوا في ذلك، فما بل لك بالعمق الجزائري بقبائله وعاداته وتقاليده وتركيبته؟

إن هذا الجهل بالعمق الجزائري، الصدام مع القبائل، قوى فكرة الاقتداء بالأتراك في الحكم وإتباع سياستهم التي كانوا ينتهجونها مع القبائل الجزائرية، وذلك بالاستثمار في أصحاب المناصب العليا والوجاهة، فالعثمانيون لم يسارعوا إلى بث الشك حولهم في أعين العرب ولكنهم تمكنوا من استمالتهم²، إذ عملوا طوال مدة إقامتهم في الجزائر على الاحتفاظ المطلق بالسلطة. ولكن هذا الاحتكار لم يمنعهم من نقل جزء منها إلى بعض القبائل أو العائلات الكبيرة، وجعلها تحس بالقوة والأمان طالما هي تحت جناحهم، ودعموا هذا الإحساس بإجراءات عملية كالإعفاء من الضرائب، وإشراكهم في جمعها وتقليدهم بعض المناصب البسيطة التي لم تتعد شيخ العرب في الغالب، إضافة إلى بعض الامتيازات الأخرى، وفي مقابل الحصول على بعض الخدمات، أولاهما العمل على تهدئة القبائل خاصة والممتنعة وربطها دائما بمحور السلطة، خاصة أنها ومنذ ما قبل العهد العثماني كان نفوذهم يشمل مناطق واسعة جدا وقبائل كثيرة³.

رأى بعض الفرنسيين أن التوجه للاستعانة بالقبائل المتنفذة التي كانت ذات حظوة زمن الأتراك أمر ضروري، فيقول ميرسي: "لتنظيم قيادة هذه الشعوب الأصلية غير المعروفة لحد الآن، كان من الضروري قبول مساعدة الشخصيات بشكل أو بآخر، زعماء مشبعين بالتقاليد"⁴، ويوافقه في هذا الطرح العديد من القادة الفرنسيين والمنظرين أمثال الدكتور مول، الذي يرى أن النظام الوحيد القادر على استيعاب السكان هو الذي يركز على منح صلاحيات واسعة للزعامات المحلية وجعلهم وسطاء، شريطة أن يحدث كل هذا تحت الرقابة الفرنسية، حيث يتم ربط أولئك بمصالح وروابط تتخذ صفة الابتزاز تمنعهم من الإفلات منها⁵.

ولهذا نشهد في العهد الفرنسي بروز الكثير من الشخصيات، سواء تلك التي لها تقاليد الزعامة، أو التي استفادت من الجو العفن الذي خلفه الاحتلال، فبحثت عن مصالح لم تتمكن من تحقيقها يوما من الأيام.

¹ - إيفون توران: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس والمؤسسات الطبية والدين) (1880-1830)، تر: عبد الكريم أوزغلة، مر: مصطفى ماضي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000، ص 37.

² - L. Moll, Op; cit, p 42.

³ - Ibid, p 61.

⁴ - Ernest Mercier, Op ;cit, p 40.

⁵ - L. Moll, Op ; cit, p 62-63.

وقد استمالت السلطة الفرنسية الكثير من هؤلاء وخلعت عليهم مختلف الألقاب ووشحتهم بالأوسمة، فهذا خليفة وذلك باشاغا، وهذا قايد وغيرهم كثير، ولم يكن هؤلاء يأبجون للامتيازات المالية التي يحصلون عليها رغم كثرتها، إذ بعد دراسة مستوفية لعقلية الزعامة الجزائرية، خلص المنظرون الفرنسيون لنتيجة مفادها أن هاته الزعمات لا تأبه في معظمها بالامتيازات المادية، فهذه الأخيرة ليست المعيار كما هو الحال في أوروبا، وإنما المعايير المعتمدة تكمن في خلع الألقاب وبعض الفروق في اللباس، وإذا ما تحقق هذا فهو أكثر من كافي، وفي الوقت نفسه غير مكلف البتة وله رمزية كبيرة عند القبائل¹.

ومن الأمثلة على ذلك ابن قانة الذي عين خليفة على الصحراء، وعائلة المقراني التي استأثرت بلقب خليفة ثم باشاغا بجانة، كما حصل البعض على الأوسمة مثل يحيى الشريف أحمد بن سليمان قايد ريغة القبالة الذي نال وسام جوقة الشرف الذي يعد من أعلى الأوسمة التي تمنحها السلطة الفرنسية².

وقصد استخدام هؤلاء المتنفذون أكثر في التأثير على القبائل، قامت السلطة الفرنسية بأخذهم في رحلة إلى فرنسا، لتبث في أنفسهم الانبهار الحضاري وتفوق الآخر، ويشاهدوا ما وصلت إليه فرنسا من تطور وتقدم في الكثير من المجالات التي لا تزال عند غالبية الجزائريين أمرا بعيد المنال أو لا يعرفونه أصلا، ويشيدوا بهذا التطور، ويكتبوا ذلك في رحلات³، ويرووا ما شاهدوه مما سيزيد من خضوع القبائل، وترسيخ فكرة أنه لا طاقة لهم بمواجهة فرنسا، وسيصدق الناس هذا، لما لهاته الشخصيات المسافرة من وزن تتمتع بها عند غالبيتهم، فكتب أحمد ولد القاضي آغا فرندة: "إن ما شاهدناه من الجيوش في ذلك اليوم ما هو إلا جزء واحد من تسعة عشر جزء مثله، كل جزء تعلم ما عليه فرنسا من القوة والعظمة"⁴، وطالب أحمد ولد القاضي من القبائل طاعة السلطة الفرنسية والامتثال لها، وحمد الله لأنه أنعم عليهم بمثل هذه الدولة العظيمة⁵.

وفي منطقة سطيف استعانت السلطة الفرنسية ببعض العائلات ذات النفوذ الديني والديني على غرار ما فعل الأتراك، ومنحت لتلك العائلات الامتيازات نفسها والنفوذ نفسه الذي كانوا يملكونه زمن الأتراك.

¹- L. Moll, Op ; cit, p 84.

²- Rapport de s.c de la tribu de Rigba Guebala, Op ; cit, p 25.

³- جمع هذه الرحلات الأستاذ: علي تابليت ووضعها في كتاب سماها: خمس رحلات جزائرية إلى باريس، منشورات خمسينية جامعة الجزائر، 1962-2012.

⁴- أحمد ولد القاضي آغا فرندة: الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، 1887، ص 27.

⁵- نفسه، ص 9

ومن هؤلاء عائلة بن عبيد في قبيلة ساحل قبلي ذات النفوذ الديني، والدواوي بن كسكاس في قبيلة عامر، وعائلة بن سماتي وبن جدو في بني يعلى ذات التأثير الديني، وقد منحت هذه العائلات الكثير للسلطة الفرنسية خاصة في تهدئة القبائل المقاومة الشرسة، فيذكر شارل فيرو أن عائلة بن سماتي قد لعبت دورا لا يستهان فيه في التأثير على السكان مما سمح للسلطة الفرنسية بالاستقرار وتنظيم المنطقة المكونة من شمال سطيف ووادي الساحل¹.

ولبسط السيطرة أكثر استعانت فرنسا ببعض العائلات التي لا تنتمي إلى منطقة سطيف ولكن تأثيرها يشمل هذه المنطقة، على غرار عائلة بن حبيلس وعلى رأسها الشيخ بلقاسم بن حبيلس، هذه العائلة التي كان نفوذها يصل إلى جبال بابور بما فيه من قبائل، وقد قدم بلقاسم بن حبيلس مساعدة هامة للقوات الفرنسية في قمع الثورات التي قامت في تلك الناحية، كثورة بوجعة بن مينة، الذي استسلم في 19 ماي 1851، وثورة المقراني 1871² وعائلة بوعكاز من فرجيوة، وعائلة المقراني من بجانة التي ساعدتها في السيطرة على سطيف بعد التوغل ناحية قسنطينة وحصارها وتنظيم المنطقة حتى 1871 تاريخ ثورة الحاج محمد المقراني، وهؤلاء من أصحاب النفوذ والأجواد أو الارستقراطية المحلية³.

كما استعانت فرنسا بأصحاب النفوذ الديني، فإضافة إلى بن سماتي وبن جدو، قامت باستقدام سي عزيز ابن الشيخ الحداد شيخ الطريقة الرحمانية من الصدوق وعينته شيخا على إحدى القبائل الأكثر شراسة في المنطقة وهي عموشة بعدما عجزت لمدة طويلة من إخضاعها، خاصة وأن أهل المنطقة يدينون بالولاء للطريقة الرحمانية، ورغم قصر فترة توليته وانتهائها بالاستقالة، إلا أنها كانت تجربة تبين مدى حرص السلطة الفرنسية على توظيف أصحاب النفوذ في عمليات التهدئة⁴.

كما أن هذه القيادات عرضت على السلطة الفرنسية خدماتها قصد تهدئة القبائل، ففي مارس 1831 توجه مجموعة ممن كان لهم النفوذ في منطقة سطيف ممثلين في أحمد المقراني، وبن قانة، وفرحات بن السعيد وبوضياف إلى الجنرال بيرتران وطرحوا عليه مسألة توليتهم مقابل مساعدتهم للسلطة الفرنسية في إحلال الأمن⁵.

¹- Charles Féraud, Op ; cit, p 91.

²- فارس كعوان، المرجع السابق، ص 73-75.

³- Rapport de s.c de la tribu de Babor, Op ; cit, p 42.

⁴- الملحق رقم: 06، قرار تعيين سي عزيز الحداد شيخا على قبيلة عموشة، وثيقة من سجل قبيلة عموشة.

⁵- كمال بيرم: المرجع السابق، ص 48.

وقد قدمت هذه الزعامات خدمات غاية في الأهمية للسلطة الفرنسية، وظهر ذلك جليا في ثورة المقراني، حين ساندت هذه العائلات سلطة الاحتلال وقوضت هذه المقاومة وأفشلتها، حيث يشير يحي بوعزيز إلى أن سي عزيز والإخوان الرحمانيين قد واجهوا صعوبات جمة مع هذه العائلات مثل بن حبيلس والداودي بن كسكاس وبن علي الشريف للقيام بالثورة والسير بها إلى الأمام¹.

وفي أهمية هذه العائلات بالنسبة للسلطة الفرنسية، يشير هيغونو إلى أن الاستعانة بها وفر الكثير من المشاكل، لاضطلاعهم بالكثير من المهام، السياسية والإدارية والعسكرية والدينية والمالية، مقابل حصص من الضرائب، فدوغم كان من الصعب الحصول على منظومة أبسط وأكثر فاعلية في ما يخص الاستجابة للوضع الاجتماعي للعرب²، مضيفا أن هؤلاء لديهم من الخبرة ما يكفي لتسيير القبائل والتعامل معها مهما كانت صفة هذه الأخيرة، لأنهم استأثروا بهذه المهام منذ بداية التواجد العثماني في الجزائر، وبالتالي فاعتيادهم على القيادة سيمنح السيطرة اللازمة وفعالية أكثر³.

لكن، وبالرغم من اعتماد السلطة الفرنسية على هذه الفئة، إلا أنها لم تكن تثق فيها ولم تول لهم أدنى اعتبار، فيقول لويس رين: "إننا على الرغم مما كنا نبديه لهم من احترام وتسامح وتقدير وامتنان ظاهري، إلا أننا في الحقيقة لم نكن نولي أدنى اعتبار لآرائهم في المسائل السياسية وأساليب تصريف الشؤون التي تخصهم"⁴ ومن الأسباب التي أدت إلى ذلك:

- إن هذه المنظومة عسكرية أكثر منها مدنية، فطالما استخدمت لقمع القبائل خلال العهد التركي، وقد عززت صورة الحرب بعد الاحتلال الفرنسي، كما أن وساطتها أزلت فرص قيام اتصال مباشر بين الفرنسيين والقبائل وإحداث تغيير، هذا أبقى الأمور على حالها، وكما كانت عليه وهو الأمر الذي ترفضه فرنسا باعتبارها تسعى إلى إحداث تغيير جذري في المجتمع الجزائري يتماشى مع طموحاتها⁵.

- الخوف منهم وعدم الثقة فيهم، ذلك أن وضع عشرات القبائل وعشرات الآلاف من الهكتارات تحت وصايتهم أمر مثير للقلق، فبإمكانهم في أي لحظة أن يجمعوا آلاف المقاتلين مهددين بذلك السلطة، نعم هم

¹ - يحي بوعزيز: وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 22-23.

² - Ferdinand Hugonnet : Français et Arabes en Algérie, édition Sertorius et Challamel, Paris, 1860, p 188.

³ - Ibid, p 189.

⁴ - لويس رين: تاريخ انتفاضة 1871، تر: مسعود حاج مسعود، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2013، ص 71.

⁵ - Ernest Mercier, Op ; cit, p 42.

يقدمون خدمات جليلة ودائما ما يستغلون الفرص لإثبات الولاء، لكن في الوقت نفسه تزداد قوتهم، فينقل عبد الحميد زوزو على لسان أحد الفرنسيين قائلا: "إن التأثير على المسؤولين الأهالي مليء بالمصاعب الجمة بالنظر إلى عجرفة بعضهم، وتحلي البعض الآخر بالمرأوخة والتملص، وإن الوسيلة الوحيدة لقهرهم في البداية هو معرفة مكامن خباياهم، وإشعارهم أثناء المحادثات معهم أنه ما من مأمّن من شيء قد يؤدي إلى شنقهم بمنتهى بساطة"¹،

كما أن الخوف منهم نابع من معرفة الفرنسيين أن العرب لا يحبون الغرباء، لاسيما المسيحيين منهم، وذلك التحالف الذي عقده مع فرنسا، إنما يدخل من باب البحث عن المصالح والسعي وراء اقتناص الفرص، وعادة لا يكون هذا التحالف سوى للضرورة فقط، فهم لم يكونوا مستعدين للتخلي عن امتيازات تمتعوا بها لمدة طويلة²، وينبه دوطوكفيل إلى عدم الثقة فيهم، فمنحهم الأراضي وتسهيل رحلات الحج لهم، وتعليق النياشين والأوسمة على صدورهم لم يكن كافيا لمنعهم عن الانتفاضة، وقيادتهم الثورات ضد السلطة الفرنسية لاستعادة أملاكهم وشرفهم واعتبارهم³.

- زاد هؤلاء القادة من حقد القبائل على الفرنسيين، فقد كان البعض منهم أسوأ حتى من الفرنسيين أنفسهم، فعادة ما يكذبون في عرض الحقائق خدمة لمصالحهم أو في إطار صراع الصفوف، مقدمين إياها كما يريدون هم فقط، وكانوا يضغطون على السكان بشكل كبير أثناء تلقيهم لأوامر معينة من قبل السلطة، ويغالون في تنفيذها، خاصة ما تعلق بالجباية، واتخذوا من مناصبهم فرصة للشراء، فإذا طالبت منهم السلطة 200 بهيمة للسُّخرة من القايد يحضر هو 300 ، ثم يعتمد فيما بعد إلى تسريح تلك المائة الزائدة مقابل المال، وذهب البعض منهم أبعد من هذا أثناء القيام بالحمالات على القبائل يمارسون أفعلا شنيعة في حقها، فابن قانة مثلا كان مشهورا بالتمثيل بقتلاه في المعارك وذلك بقطع آذانهم⁴.

- كان هؤلاء يملكون الكثير من الأراضي الخصبة، آلاف الهكتارات منها، والاستعمار بحاجة إليها لتجسيد برامجه الاستيطانية خاصة مع تزايد الهجرات الأوروبية إلى الجزائر، وهو ما سيعجل بالصدام وإن طال الأمر، وبالموازاة مع ذلك فإن امتلاك الأرض يعني امتلاك القوة، وتوزع القوة بين عدة أطراف وعدم حصرها في السلطة الفرنسية يذكي الصراع في محاولة لفرض كل طرف منطقته على الآخر وهو أمر غير المسموح به.

¹ - عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص 178.

² - Fallet, Op ; cit, p 25.

³ - أليكسي دو طوكفيل، المصدر السابق، ص 125.

⁴ - F. Hugonnet, Op ; cit, p 86.

ولهذا نجد ورغم الحماس الذي أبداه الكثير من الفرنسيين في استخدام أحد أساليب الأتراك وأكثرها أهمية في الحكم، إلا أنهم وضعوا ضوابط لذلك، فميرسي المساند لهذا التوجه الهادف إلى السيطرة على القبائل، يؤكد على ضرورة أن تكون هذه الآلية مؤقتة، لأنها لا تتماشى مع المصالح البعيدة لفرنسا في التوسع والإخضاع المطلق للجزائر، ولا مع مصلحة السكان الأصليين، لذلك نلاحظ أن السلطة الفرنسية قد بدأت بتخفيض تأثير الزعامات المحلية، ليزول بشكل شبه تام مع نهاية ثورة المقراني، إذ اختفت جميع العائلات الأرستقراطية رغم عدم مشاركتها إطلاقاً أو بصورة محتشمة في ثورة شخص كان لوقت قريب من أفرادها¹، وفي المقابل تمت عملية رفع بعض الأشخاص إلى مكانة مرموقة لم يحملوا أبداً بالوصول إليها، كنوع من خلق التوازن وزرع الشقاق أكثر، فيقول بوديشون: "إذا كنا حقاً نريد تقويض سلطة هؤلاء المؤثرين، يجب أن نخفض قيمتهم، ونتوجه إلى الطبقات الدونية، ونختار أكثرهم وضاعة ونضعهم على القمة، ونزيدهم نفوذاً"²، ولكن تعيين أشخاص دونيين للتحكم في القبائل، وإزاحة هاته الزعامات لا ينجح كونهم لا يحظون بالقبول المعنوي لدى السكان، فالسلطة الفرنسية يمكن أن تفرضهم بالقوة المادية، ولكن لا يمكن لها أن تمنحهم القوة المعنوية وقوة الرأي³.

وقد أصيب هؤلاء بخيبة أمل كبيرة لما آل إليه وضعهم وهم يرون كل الخدمات الكبيرة التي قدموها للسلطة الفرنسية تذهب أدراج الرياح، ولم تعد أعجابههم التي تمتعوا بها طيلة قرون سوى ذكريات من الماضي يتذكرونها بكل حسرة، فيقول لويس رين: "لقد أصيب كل الذين تفاعلوا في خدمتنا بخيبات أمل"⁴.

وبالفعل خنقت السلطة الفرنسية هذه العائلات التي طالما قدمت الكثير لبسط سيطرتها، فنجد مثلاً: عائلة بن عبيد في منطقة سطيف قد قلص نفوذها رغم بقائها تتمتع بالأبهة القديمة التي كانت عليها، حيث قامت السلطة الفرنسية بتعيين سعيد بن عبيد قايد على قبيلة قرقور والساحل قبلي وغيرهما عام 1847، ولكونه شاب وذو شخصية قوية تمكن من الاحتفاظ بمنصبه حتى عام 1852م، وهو العام الذي جزئت فيه المنطقة إلى قيادات صغيرة فتقلص نفوذه بشكل كبير، حيث أصبح يتحكم في قيادة فقط، ثم آلت القيادة في قرقور إلى محمد الصغير بن حجاج من العائلة نفسها أيضاً، ولكنه لم يحتفظ بالقيادة أكثر من عام، ليعوض بسي أحمد بن زيدان، مشير الصبايحية، وبقي فيها حتى عام 1872، ومشير الصبايحية أقل رتبة من عائلة بني عبيد، ثم في عام 1889 تواصل

¹- Ernest Mercier, Op ; cit, p 43.

²- E. Bodichon, Op ; cit, p 238.

³- أليكسي دو طوكفيل، المصدر السابق، ص 124.

⁴- لويس رين، المصدر السابق، ص 71.

إضعاف القيادات الأهلية في هذه المنطقة، حيث أسندت مهام تسييرها إلى سي رابح أحمد وهو موظف كنائب أهلي لا يتمتع بأي نفوذ أو أجماع من الماضي¹.

كما وصل البعض إلى حالة لم يعد يملك فيها ما يأكلون، وأصبحوا عاطلين عن العمل والفقر بادي على وجوههم، فينقل لنا بن سديرة أحد الرسائل التي كتبها له واحد من هؤلاء من منطقة قنرات شمال سطيف يترجاه في الحصول على عمل كقايد في المكتب العربي بقنرات، قبيلة بني يعلى يكفل له مصاريف الحياة².

5-تشكيل الفرق العسكرية: شكلت السلطات الفرنسية فرقا عسكرية من العنصر المحلي كونه يعرف الكثير من الخبايا التي لا يعرفها الاحتلال، مهمتها إسناد القوات الفرنسية أثناء القيام بمختلف المهام كجمع الضرائب والسير لقتال القبائل، ومن هذه الفرق نجد الزواف والقوم والصبايحية³، وقد أثبتت هذه الفرق كفاءتها في الاضطلاع بهذه المهمة.

تأسست فرقة الصبايحية بمنطقة سطيف بتاريخ 26 جانفي 1863م، وأوكلت مهام تسييرها إلى الرقيب أنطوان ميرسي⁴، وقد تشكلت بادئ الأمر من 29 فردا، نذكر منهم، الشعي بن احمد، مسعود بلحمواني، بشير بن سعد، مهناني مسعود وابنه محمد، حمو بن سعد ومحمد الضعير بن لخضر، المشري بن محمد، دباح بن شريف وأبيه، أحمد بن سي احمد، الحميدي بن محمد، محمد بن عودة⁵.

¹- Rapport de s.c de la tribu de la tribu de Guergour ; Op ; cit, p 34-35.

²- بلقاسم بن سديرة: كتاب الطالب المبتدأ في تخريج الخط العربي، مطبعة جوردان، الجزائر، 1893، ص 180.

³- أسست السلطة الاستعمارية مجموعة من الفرق من السكان الجزائريين الأصليين وهي الزواف: حيث قام كلوزيل بإنشاء فرقتين بتاريخ 1830/10/01، وأمره ملكية في 1831/03/21، من الزواوة، والتي سرعان ما استقطبت سكان من مختلف المناطق وأصبح فيه الزواوة قلة، وحصلوا على الصفة العسكرية بقرار 1831/03/21، وقد تأسست فرقة ثالثة في 20 مارس 1837 من بقايا الحامية التركية في قلعة المشوار بتلمسان، القومية: تأسست هذه الفرقة بزعمامة مصطفى بن إسماعيل شيخ الدواير والزماله الذي كان من أكبر أعداء الأمير عبد القادر، وكانت أول الفرق التي تأسست من هذا الصنف من تشكيل الجنرال يوسف المملوك حيث شكلوا قوة شبيهة بالشرطة عرفت بالشرطة المسلحة للأقاليم المعترف بها بالسلطة الفرنسية، وقد خاضت هذه الفرقة معركة الزقاق رفقة مصطفى بن إسماعيل (400 قومي)، الذين كانت لهم اليد الطولى في هزيمة الأمير، كما كان لبن قانة فرقة من القومية، وهما نوعان: المشاة تتقدم الكنايب لإخضاع المناطق والأقاليم، فرق تعمل كالشرطة بغرض الحراسة والحفاظة على النظام العام، بقيت في العمل حتى 1962، الصبايحية: موجودة منذ العهد العثماني، وهي تعني الخيالة، وتعرف عند العامة بالسياس يقول عنها ليونال أوجين: "أغلب فرق الصبايحية من الأهالي البدو الرحل الذي من صفتهم الاستغلاية والكسل والاتكال والامتناع من كل عمل يدوي"، للمزيد حول هذه الفرق وفرق أخرى راجع: محمد بجاوي: المندوبون الجزائريون في الجيش الفرنسي 1830-1900، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006/2005.

⁴- Bulletin officielle de Gouvernement Général de l'Algérie, imprimerie et papeterie Bouyer, 1863, p 80.

⁵- Rapport de s.c de la tribu de Rigba Guebala, Op ; cit, p 271.

وقد قدم هؤلاء الصبايحية خدمات جليلة للإدارة والسلطة الفرنسية، فمثلا تعيين سي احمد بن جدو كقائد أهلي في 15 سبتمبر 1847 على بني يعلي، ورغم الدعم الذي حصل عليه من قبل عائلة ذات نفوذ كعائلة بن سماتي، إلا أنه لولا فرقة القوم التي ساندته وعملت على تنفيذ أوامره ومراقبة السكان وبقيت وفية له لما تمكن من البقاء في السلطة أبدا لرفض السكان توليته عليهم¹.

وقد تحصل هؤلاء على امتيازات ومنح وأراضي نظير هذه الخدمات، في إطار ربطهم بالسلطة وإبقائهم في خدمتها والتعامل معها، ومن هذه الامتيازات ما تحصلنا عليه من جدول شكاوى أعد في 24 أكتوبر 1890م، حيث طالبوا برفع مساحات الأراضي التي منحت لهم، رغم أن ما منح لهم أساسا لا بأس به وقد جاءت على الشكل التالي²:

اسم الصبايحي وأصله	المهنة (المهمة)	الأرض الممنوحة كامتياز
الشعبي بن احمد (عامر القبالة)	صبايحي عين نائب أهلي في دوار أولاد سي احمد (مازال في الخدمة)	يزرع جابدين، منحتا له كامتياز 40 هكتار، (طالب هو ب 105 ه)
مسعود بلحمواني (أولاد ذياب، العلمة)	صبايحي في المكتب العربي (سطيف) متقاعد	يتقاضى راتب تقاعد ومنح 20 هكتار (يزرع جابدين).
مهناني مسعود وابنه (عامر الظهارة)	صبايحي في المكتب العربي (سطيف) متقاعد، ابنه لا يزال في الخدمة	حصول على راتب تقاعد، وتمنح له 10 ه، (يزرع جابدة)
المشري بن محمد (عامر الظهارة)	توفي أثناء الخدمة	تمنح لعائلته 235 ه، 70 آ وراتب تقاعد
دباح بن الشريف وأبيه (من ريغة)	صبايحي فارس متقاعد مسرح من الخدمة (يعمل كشاوش لدى نائب محافظ بلدية سطيف)	منحت له 30 ه، وقد طالب هو قدرها 110 ه

الشكل رقم 13: جدول يمثل مجموعة من الصبايحية والامتيازات التي منحت لهم في منطقة سطيف.

ويذكر جورج فوازان أن هؤلاء الصبايحية قدموا خدمات جليلة للسيطرة على الجزائر، إلى جانب شجاعتهم في المعارك، يقومون بدور الدركي على أراضي القبائل التي عينوا فيها، فدون عددهم البالغ أكثر من 6 آلاف، ستكون الحرب ضد القبائل مستحيلة، وفوق هذا ساهموا في بلورة شعور التمسك بالسلطة الفرنسية، فمستواهم المعيشي الجيد وامتيازاتهم، تشد النظر إليهم، وتدفع للاقتداء بهم³.

¹- Rapport de s.c de la tribu de Beni Yala, Op ; cit, p 41.

²- Rapport de s.c de la tribu de Rigba Guebala, op ; cit, p 266-270.

³- George Voisin, Op ; cit, p 84-85.

ورغم مهامهم الكثيرة إلا أن مجال تدخلهم لم يكن واضحاً، خاصة مع عدم وجود نصوص إدارية تنظيمية تشرح وظائفهم، ولكن ما هو مؤكد أن وظيفتهم ازدواجية، إذ عليهم الاهتمام بمصالح الجانبين المعادين، السلطة الفرنسية والقبائل الجزائرية رغم ميلانهم لصالح الطرف الأول، فالصبايحي يراقب دواره أو القبيلة المسئول عنها ويمثل السكان الأصليين أمام السلطة الفرنسية، كما كان لزاماً عليه إبقائهم خاضعين مضطعاً بكل ما يجري عندهم، ويساعد السلطة في جمع الضرائب ويسير مع الجيش في الحملات العسكرية وينقل الأخبار، وهذا ما صعب مهامهم أكثر فأكثر، لأنه من الصعب التوفيق بين مصالح جانبين متعارضين حتى في أبسط الجزئيات¹.

هذه الفئة لم يسمح ولاؤهم للسلطة سوى التمكن من الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية، وتمت دعوتهم إلى الحفلات وألبسوا خلعا جميلة، ولكنهم طالما بقوا في مرتبة أدنى من الأوروبيين مهما كانت خلفيتهم وثراؤهم ومكانتهم الاجتماعية، سواء كانوا من الطبقة الأرستقراطية أم من المتشردين المحرمين².

ويعلق ميرسي على الحالة التي آلت إليها هذه الطبقة الأرستقراطية قائلا: " اختفت هذه الشخصيات مع الماضي التي كانت تعيش فيه، اختفت نتيجة اختفاء العناصر المغذية لها، وثروتهم التي جمعوها أنفقها أحفادهم بجنون، ولم تعد العائلات العظيمة من الماضي سوى من عامة المتجمع، فقد فقدت النفوذ ولم يبق لهم سوى النظر إلى ذلك الماضي البعيد وتذكر الأجداد"³.

6- تأسيس المكاتب العربية: هي هيئة مهمتها خلق تواصل بين السلطة الفرنسية وسكان القبائل، كان أول عهدها عندما بدأت محاولات السيطرة على القبائل، حيث اقتنع داميرون أنه لا بد من الخروج من المدن والاحتكاك بالقبائل فاستحدثت نظاما إداريا يتوافق مع طبيعة القبائل، ونفذ مشروعه بعد وصوله إلى منصب الحاكم العام عام 1837م، فأسس مديرية الشؤون العربية في 22 أبريل 1837م، ووضعها تحت قيادة بيليسي دي رنو⁴.

¹- Abderrazak Djellali : le caïdat en Algérie au XIX^{émé} siècle, in cahier de la méditerranée, N 45, 1992, p 42.

²- Ibid, p 45.

³- Ernest Mercier, Op ; cit, p 60-61.

⁴- صالح فركوس: إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد (1844-1871)، منشورات جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006، ص 18.

تطور الأمر لتتحول إلى مكاتب عربية باقتراح من لامورسيير، وهي فكرة لاقت استحسان الجنرال بيجو الذي قبلها ورسمها بقرار رسمي مؤرخ في 17 أوت 1841م، بقيادة دوماس الذي أنشأ شبكة منظمة لمراقبة المجال القبلي، لتأسس بمرسوم وزاري وتعتمد من قبل الماريشال الدوق دي دولماتيه بقرار 1 فيفري 1844م¹.

وكان تأسيس المكتب العربي قائم على ثلاثة مبادئ: تشتيت المجموعات الأهلية، وتوفير الأمن، وتسيير الشؤون الإدارية بتكلفة أقل، وقد شهدت هذه المكاتب بروز ضباط أكفاء تمكنوا من تعلم اللهجات المحلية، ومعرفة الحالة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والذهنية لسكان القبائل، وكتبوا في ذلك مؤلفات ومصنفات كدوماس، وفيرو وأرنست ميرسي وغيرهم كثير.

مهام المكاتب العربية: يستعرض هيجونو مهام المكاتب العربية باعتباره كان رئيس إحداها وجمعها في النقاط التالية²:

- ربط السلطة الفرنسية بالقبائل.
- مراقبة السكان الأصليين والاطلاع المستمر على ما يحدث لهم وبهم.
- مراقبة إدارة القادة العرب والشكاوى التي يتم تقديمها من قبل المواطنين، وتصنيف القضايا، وإصدار الأحكام والعقوبات: السجن، التغريم، الحجر... إلخ.
- اقتراح تعيين أو فصل مختلف الرؤساء الأهالي، والإشراف على إدارة وسلوك القضاة المسلمين.
- قيادة القوات العربية وتنظيم الدعم في حالة الحرب.
- تنفيذ أوامر السلطة العليا والتواصل معها بالوثائق وتوفير المعلومات والبحث عن المذنبين واعتقالهم.
- إقرار أنواع الضرائب وجمعها وتحديد قيمتها.
- الغابات: يقدم جميع المعلومات عن الغابات، حيث يتم استكشاف البلاد والاطلاع على مصادرها، وبحث السبل لجعل الحياة فيها ممكنة.

¹- F. Hugonnet, Op, cit, p 181.

²- F. Hugonnet: souvenir d'un chef de bureau Arab, édition Michel Lévy frères, paris, 1858, p 11.

- الملكية: يقترح الأعمال التي يجب القيام بها فيما يخص أراضي الجزائريين والاطلاع على مواقع الأراضي الخصبة، ويراقب علاقات المستوطنين مع السكان الأصليين.

- تأطير السكان الأصليين أثناء تعبيرهم عن مشاعرهم (السوق، إقامة الحفلات، السباقات)، فهو من يمنح التراخيص لذلك.

هذا، ولم تسلم أي قبيلة من الوقوع تحت نظر المكاتب العربية، حتى قبائل الرحل، فتحركاتها لم تمنع ذلك، إذ كانت هذه المكاتب على دراية بالحركة الداخلية لكل عشيرة واتجاه رحلتها، وتحديد نوعية الاتصالات والعلاقات التي تقيمها، وهذه غاية بخلفية استعمارية محضة¹.

فقد أوصى بهذا المنظرون الفرنسيين، فيقول مول: " يجب أن يكون هناك جرد لجميع القبائل مع الإشارة إلى أراضيها وأصلها وارتباطها بالقبائل الأخرى وبأخلاقيها وشخصيتها، وطريقة حياتها ومواردها، ولاسيما توضيح كامل علاقاتها، كونها كلها معلومات مفيدة، يتمكن بفضلها جنرالائنا من معرفة ما ينبغي توقعه أو خشيته، باختصار لا يجب أن يفلت شيء من رقابتنا"².

كما اضطلعت هذه المكاتب بعمليات الجوسسة على الشخصيات المنتفذة لصالح السلطة الاستعمارية على أمل إبقائهم دائما تحت المراقبة ومعرفة خباياهم، فالسلطة الفرنسية لم تكن تثق فيهم، وللمكتب العربي بسطيف الكثير من هذه المواقف، نذكر منها³:

- أرسل مكتب سطيف جواسيس للتأكد من نوايا شيخ فرجوة بوعكاز، وأفادت التقارير التي أرسلها المكتب للسلطة الفرنسية أن بوعكاز كان دائما على استعداد للجهاد إذا ما وطأت أقدام الفرنسيين مجال حكمه، وخلصت عملية الجوسسة إلى أن الوقت لم يحن للدخول في معركة ضد هذه الشخصية.

¹ - فاطمة حباش: المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة وهران، الجزائر، 2014/2013، ص 54.

² - L. Moll, Op ;cit, p 84

³ - صالح فركوس، المرجع السابق، ص 354-373.

- أما المقراني، فقد أرسل تقرير حوله في شهر أفريل 1844، يشير إلى أنه جهز حملة ضد أولاد نايل لأنها رفضت دفع الضريبة له، كما أنه في عام 1850 أعد تقرير يفيد بتقاعس الخليفة المقراني في استخلاص الضريبة من قيادته، وحثت على ضرورة مراقبته أكثر.

ويمكن أن نلاحظ هذا الاهتمام الخاص بالقبائل الجزائرية من قبل السلطة الفرنسية في الجداول الإحصائية التي أعدت أثناء القيام بعمليات التحديد التي جاء بها القرار المشيخي 22 أفريل 1863م، والتي تطرقت إلى مختلف التفاصيل وقدمت إحصائيات في غاية الدقة، فمثلا لو لاحظنا جدول ريغة القبالة رأينا ذلك الاهتمام¹.

¹ - Rapport de s.c de la tribu de Righa Guebala, Op ; cit, p ,77.

الفصل الرابع: قبائل منطقة سطيف في مواجهة الاستعمار الفرنسي

الدوار	الفصيلة	الفرقة	أصل السكان	عددهم	مساحة الدوار
الحميات	1- أولاد سبع	1- أولاد سبع 2- دواوقة 3- أولاد حميدة 4- أولاد سي احمد 5- أولاد ستة 1- سباكرة 2- شراشرة 3- أولاد باروش 4- أولاد سايج 5- أولاد المجاسي 6- أولاد الواسة 7- شواش	عرب عرب	2351 1965 - 4316	32000 هكتار
السكرين	الفريقات	1- أولاد عيسى بن يحي 2- أولاد شقوار 3- أولاد حماجة 4- أولاد بوعبد الله 5- أولاد زير 6- أولاد منان	عرب	3071	32000
بوطالب	1- بوطالب 2- أولاد مهاجر	1- بوطالب 2- بني حماي 3- حدادة 4- قنيقة 5- أنوال 1- أولاد هاجر 2- أولاد علي بن مناني 3- أولاد مبارك 4- ألواتل 5- أولاد لمهاري 6- أولاد بوسلامة 7- أولاد قبالة	بربر 4/1 بربر 5/4 عرب	1268 2388 - 3656	32000
تنزارت	المواساة	1- المواساة 2- الحامة 3- أولاد سفيان 4- أولاد مسعود	بربر عرب بربر بربر	2956	2400
المجموع				13999	120000

الشكل رقم 14: جدول يمثل فروع السكان في قبيلة ريغة القبالة حسب سجلات السيناتوس كونسيلت.

8- تأسيس الحالة المدنية: لم يعرف الجزائريون الحالة المدنية، فقد كانوا يتبعون الطريقة الإسلامية في التسمية، فنجد الاسم يضاف إليه اسم الأب والجد، فيقال مثلاً عمر بن أحمد بن السعيد، وتضاف أيضاً إلى الأسماء كنى، تدل على المكان والمهن ونحوهما، فيقال، الزواوي، والسطايفي، أو الدباغ، والنجار وغيرها، وكان مشاعاً استعمال آل، وآيت، وبني، وأولاد¹.

ولكن مع بداية الاحتلال حاولت السلطة الفرنسية تعميم الحالة المدنية وفق ما هو معمول به في فرنسا، رامية في بادئ الأمر تحقيق مجموعة من الأهداف كالتعرف على الأشخاص وملاحقتهم، جمع الضريبة، لذل سنت مجموعة من القوانين، كقانون 1838 و1848، حين صرح لاباسي قائلاً: "يتطلب الأمر بإلحاح إنشاء مؤسسة تعوض أو تذكر بالحالة المدنية"²، لتتوج هذه القوانين بتأسيس قانون الحالة المدنية في 23 مارس 1882، الذي نص على إنشاء الحالة المدنية عن طريق منح الألقاب والكنيات للعائلات.

وكان الهدف الأسمى من هذا القانون هو إدماج الجزائريين عن طريق تفكيك المجتمع القبلي، وإبعاد الفرد عن الجماعة فيقول أغوست برنارد بعد تطبيق القانون: "لقد حططنا بنى المجتمع الأهلي، فبعد هذا القانون لم يعد للقبائل وجود إلا بالجنوب الجزائري، ولا لتقسيماتها أي معنى، وليست لها أي دلالة سياسية، فهي مجزأة أكثر فأكثر"³.

ونلاحظ أنه في قبائل منطقة سطيف قد بدأ تطبيق الحالة المدنية ومنحت الألقاب للسكان، مثل قبيلة بني شبانة، ففي شكاية نجد توقيعات الأشخاص وقد اختفت الأسماء الثلاثة والثنائية المعمول بها، وأصبح لكل واحد لقب خاص به، فنجد مثلاً: تحرييلت محمد بن بلقاسم، تال انزار محمد بن أحمد، تال انزار رابح بن أحمد بوشلاغم الطاهر بن علي⁴.

وتجدر الإشارة إلى أن السلطة الفرنسية حاولت انتهاج العديد من الأساليب لتفكيك القبائل، ولعل أبرزها هو القانون المشيخي 1863 الذي كانت له فعالية في هذا، وهذا ما سنراه في المبحث التالي:

¹ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، ق 2، المرجع السابق، ص 456.

² - يسمينة زمولي: الألقاب العائلية في الجزائر، من خلال قانون الحالة المدنية أواخر القرن التاسع عشر (1870-19010) قسنطينة نموذجاً، دار البصائر، ط 1، الجزائر، 2007، ص 25.

³ - نفسه، ص 40.

⁴ - Rapport de s.c de la tribu de Beni Chebana, Op ; cit, p 48.

المبحث الثاني: القبائل السطايفية: التفكيك وإعادة البناء: عامر أنموذجا:

اخترنا قبيلة عامر لنوضح التفكيك الذي تعرضت له القبائل الجزائرية عموما والسطايفية على وجه الخصوص كونها أنموذجا حيا للعمل الشامل للتمزيق الذي كانت القبائل الجزائرية عرضة له، فرغبة السلطة الفرنسية في تغيير الأوضاع وقطع صلة الجزائريين بماضيهم بما يتماشى مع نظرتها الاستعمارية الاستيطانية، وموقع القبيلة الاستراتيجي (الطريق الرابط بين العاصمة وقسنطينة)، وتمركزها قرب مدينة سطيف وغلبة الأراضي الخصبة على مجالها التي تتيح الكثير من الفرص للاستيطان وتجسيد المشاريع، كلها عوامل ساهمت في ممارسة ضغط على قبيلة عامر من قبل السلطة، فإذا كانت الكثير من الأماكن لا تزال تحتفظ باسمها كالدھامشة وبني ورثيلان وبني شبانة، فإن اسم عامر أضحى في خبر كان، وصارت تطلق فقط على بعض الأجداد التي يتغنى بها أهل سطيف، فلم يعد لهذه القبيلة أي وجود في واقع الناس.

1-لمحة عن تاريخ قبيلة عامر أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي:

كانت قبيلة عامر قبل الاحتلال الفرنسي مكونة من ثلاثة أجزاء هي: عامر القبالة وعامر الظهارة وأولاد نابت، وواقعة تحت نفوذ عائلة تنحدر من ضابط تركي اسمه يلس، فتسموا بأولاد يلس، على غرار موصللي الذي خلف أولاد موصللي.

تبدأ حكاية يلس مع عامر عند انتقاله إلى المسيلة أين تزوج بامرأة من هناك تنتمي لعائلة ذات نفوذ ومكانة كبيرين، فانتقل إليه هذا النفوذ بفعل المصاهرة، وهو الأمر الذي أهله كي يقربه إليه أحمد باي ويعينه كقايد على أولاد دراج¹.

خلف يلس ولدين محمد الصغير وأحمد خوجة، عين الأول قايد على المسيلة وعين الآخر على قيادة أولاد دراج، وأنجب خمسة أولاد، إبراهيم، ولس، ومحمد خوجة، وصالح وهني وتوجهت العائلة إلى صدراتة الواقعة في مجال قيادة عين تاغروت وتقلص نفوذها، ولكن صالح لم يستغ الوضعية التي آلت إليها العائلة، فتوجه إلى قسنطينة لملاقاة الباي وطلب منه عطاء يمنحه إياه، فعينه الباي قايدا على صدراتة².

¹- Charles Féraud, Op ; cit, p 86-87.

²- Ibid, p 88-89.

وفي عام 1823م، تم تعيين صالح بن أحمد خوجة حفيد يلس من قبل أحمد باي شيخا على عامر، وفي الوقت نفسه عين أخوته على قبائل سطيف، هني قايدا على عموشة، ومحمد خوجة قايد على بابور، ولكن يبدو أن قيادة هذين الأخيرين كانت شكلية لأن هاتين القبيلتين كانتا ممتنعين ولا تعترفان بسلطة الأتراك¹.

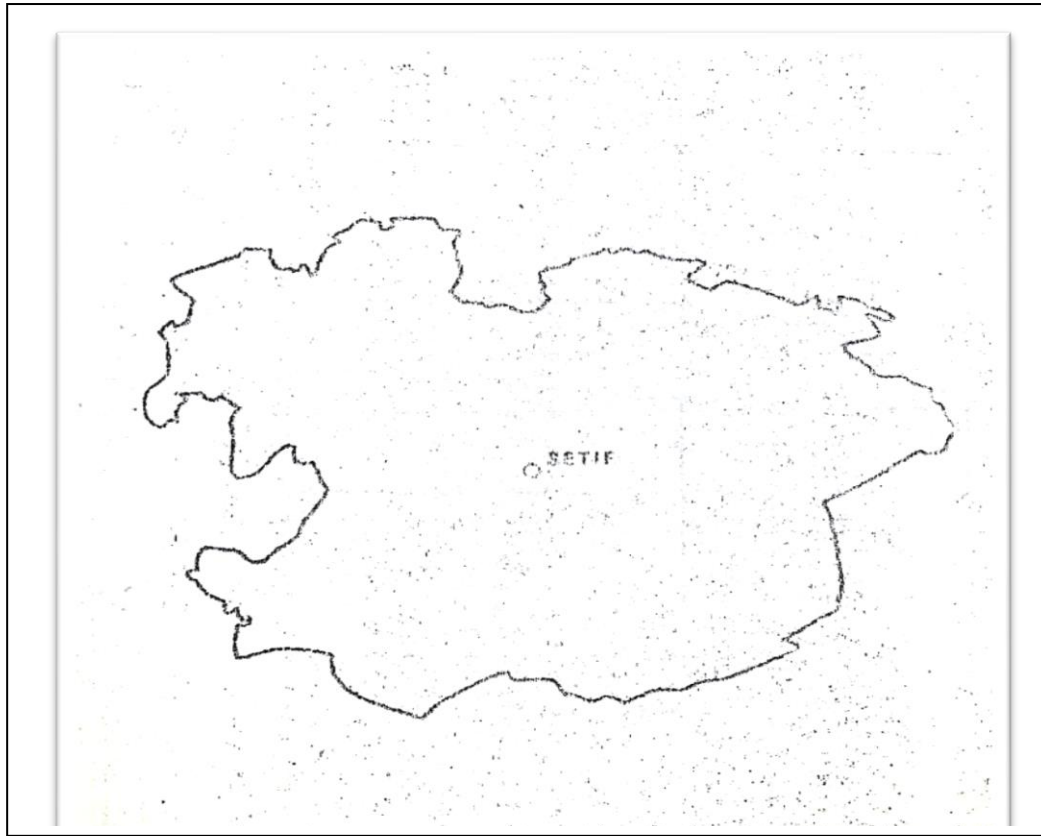
وقد شارك صالح بن يلس مع أحمد باي في معركة سطاوالي بقي ويا له حتى بعد سقوط العاصمة، وأثناء العودة من العاصمة، أحس صالح أن الباي يضمّر له الشر ويريد خنقه، فغافله وهرب إلى قبيلته عامر تاركا ابنه محمد وأخوه هني في قبضة الباي، ولكنه هرب فيما بعد نتيجة ضغط من الباي، بعدها بقيت عامر بلا قائد في فوضى مدة سنتين، كما أنّها لم تكن تدفع الضرائب وهو ما يشير إلى تراخي قبضة السلطة التركية، وكانوا يحتكمون إلى شيخ منهم، ورغم عدم دفعهم للضرائب إلا أنّهم لم يكونوا في عداء حقيقي مع سلطة بايلك الشرق كون هذه الأخيرة كانت منشغلة بالاحتلال الفرنسي².

حدث وأن توجه الحاج أحمد باي إلى الشيخ سعد، شيخ قبيلة ريغة لتأديبه ولكنه انهزم، وبما أنه أصبح محاصرا استنجد بصالح، الذي استجاب له وفك عنه الحصار، فوعده الباي بإطلاق صراح ابنه من الأسر، ولكنه نكث بوعده، فحالما وصل إلى قسنطينة قام باغتياله، هذا الأمر أثار صالح الذي هادن ريغة ودخل معها في تحالف، فتوجه إلى قسنطينة ولكن ما إن وصل إلى أولاد عبد النور حتى قفل الكثير ممن كانوا عائدين خصوصا من عامر، ولم يبق معه إلا بعض الفروع كأولاد زايد من عامر وأولاد الشيخ سعد من ريغة، ولما علم أنه لا طاقة له بحرب الباي أخذ عائلته وتوجه إلى الحضنة رفقة أبناء الشيخ سعد، وأقبلت قوات الباي تطارده مدة سنتين ولكنها فشلت في القضاء عليه رغم المساعدة التي تلقته قواته من ريغة الظهارة، ورغم هذا كله إلا أن هذه القبيلة بقيت موحدة حتى عام 1849 كما يوضح الشكل التالي³:

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 5.

²- Charles Féraud, Op ; cit, p 89-90.

³- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 26-27.

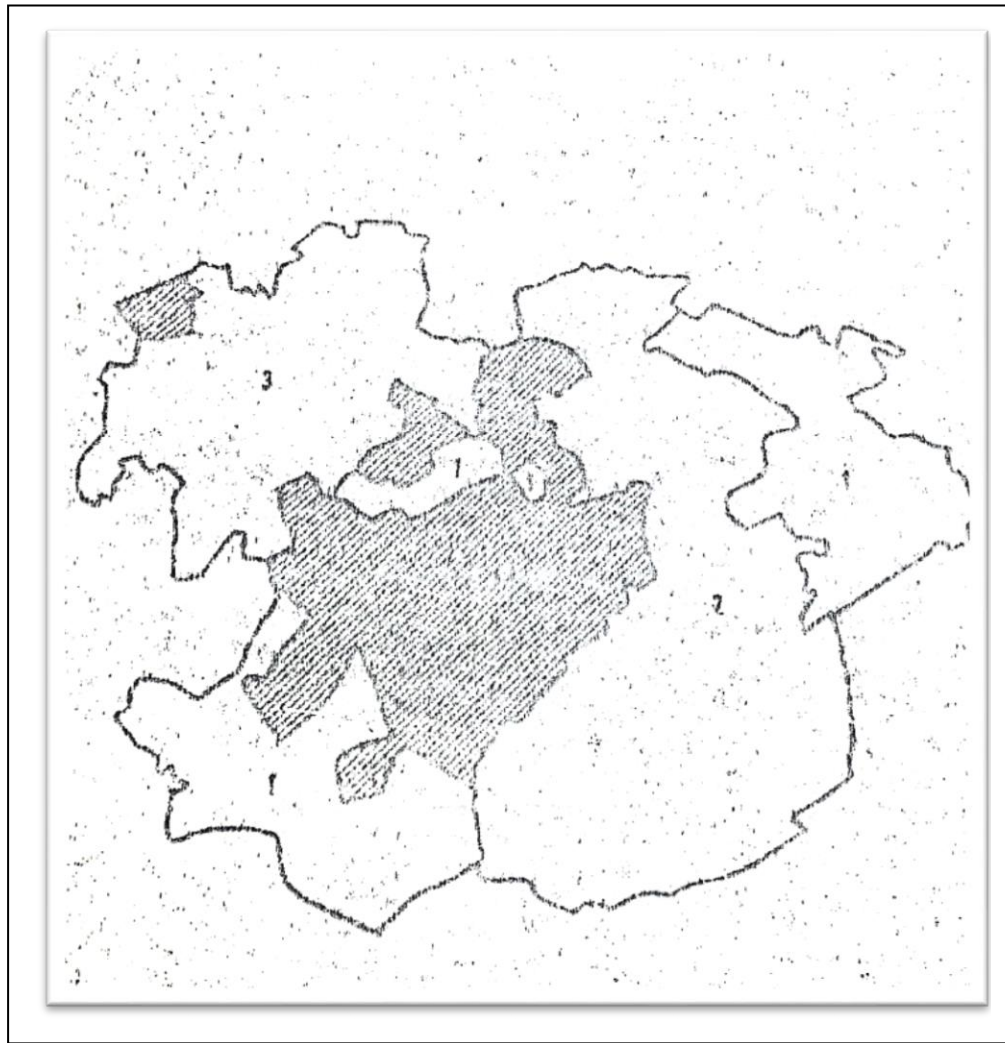


السلم: 400000/1

الشكل رقم 15: خريطة توضح حالة عامر أواخر العهد العثماني حتى عام 1849م¹.

ثم ما لبث البايك أن التفت إليهم، وعين عليهم قائدا جديدا من أهالي قسنطينة عام 1833م، يدعى محمد الشريف، هذا الأخير توفي 20 يوما قبل حملة فرنسا على قسنطينة 1837م، أما أولاد يلس الذين أبعادوا عن حكم عامر، فقد التجئوا إلى فرنسا من أجل استعادة نفوذهم، لكن لم يتمكنوا من ذلك، أما عامر فقد دخلت تحت حكم بن واني حتى عام 1846م، وهو العام الذي توفي فيه، ثم عين عليهم براهيم بن هني كقايد لمدة سنتين، ثم في عام 1849م، تم تقسيمها إلى ثلاث قبائل، وهي قيادة عامر وتضم عامر القبالة والظهارة، أولاد نابت على الشكل التالي:

¹- Abdelkrim Badjadja, Op; cit, p 15.



السلم: 1/ 400000

1- عامر القبالة  مدينة سطيف والمراكز الاستيطانية التي بدأت في الظهور

2- عامر الظهارة 3- أولاد نابت

الشكل رقم 16: خريطة تمثل المرحلة الأولى من تقسيم قبيلة عامر عام 1849¹.

2- تفكيك قبيلة عامر: من القبيلة إلى الدوار: تبدأ في عام 1849 عملية تفكيك قبيلة عامر لتصبح

ثلاثة أجزاء على النحو التالي:

¹- Abdelkrim Badjadja, Op, cit, p 16.

2-1- عامر القبالة: بدأت عملية مصادرة أراضيها، وتم استقطاع أجزاء منها لتأسيس ثلاث مراكز هي العناصر، عين الصفية، وفارماتو، ثم ما بين 1850-1853 تأسست مصانع كثيرة على وادي بوسلام، ومزارع في خلفون وعين التبينت وغيرها، ثم في عام 1854-1857 انتزعت منها أراضي ومنحت لشركة جونفواز قدرها 20 ألف هكتار، وهي أكبر مساحة تنتزع منها أدت إلى دق المسمار الأول في نعش تفكيك هذه القبيلة¹.

ثم بعد ذلك تم تحديد الدواوير وفق ما بقي من مجالها تنفيذا لقانون السيانتوس كونسيلت 22 أبريل 1863 الذي سنتحدث عنه لاحقا، وعدد هذه الدواوير ستة (06)، وكانت على الشكل التالي:

أولاد عدوان: يحده دوار أولاد علي بن ناصر من الشرق، مجال مدينة سطيف من الجنوب، وقبيلة عموشة من الغرب والشمال، وجماعته التي تمثله محمد بن حنيش: شيخ، سي علي بن عزيز: عضو²

أولاد منصور: يحده دوار أولاد علي بن ناصر من الشرق والجنوب، مجال مدينة سطيف من الغرب، وجماعته: محمد بن الشريف: شيخ، محمد بن القرشي: عضو.

أولاد علي بن ناصر: تحده قبيلة عموشة من الشمال، والدهامشة من الشمال والشرق، وعامر الظهارة من الشرق، ودوار أولاد صابر والمركز الاستيطاني من الجنوب، ودوار أولاد منصور من الغرب

أولاد صابر: تحده قبيلة عامر الظهارة والعلمة من الشرق، وريغة القبالة من الجنوب، ودوار قجال من الغرب، وأولاد علي بن ناصر من الشمال، وجماعته، البشير بن بلقاسم: شيخ، سي محمد الصحرابي: عضو

قجال: يحده مجال مدينة سطيف شمالا، وريغة القبالة جنوبا، وأولاد صابر من الشمال والشرق، وجماعته: سعيد بن العناش: شيخ، الشريف بن الطاهر: عضو.

بن ذياب: يحده دوار قجال من الشمال والشرق، ريغة القبالة من الجنوب والغرب، عامر الظهارة من الغرب والشمال الشرقي³، جماعته سعيد بن العناش: شيخ، سي الحاج بن ساعد: عضو⁴.

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, 56.

²- Ibid, p 61.

³- Ibid, p 72

⁴- Ibid, p 74.

2-2-أولاد نابت: كانت قبيلة أولاد نابت تتكون من أربع مشيخات، ولا ندري السبب الذي جعلها بهذا التنظيم وليس على شكل دواوير، ولكن الراجح أن هذه المصطلح مشتق من تواجد زاوية سيدي حسن التي يرجع أصل شيخها إلى الأشراف، هذه الزاوية التي تبوأ مكانة مرموقة ولا شك أن المنتسبين إليها هم من أسسوا هذه المشيخات، وهي:

- 1-مشيخة أولاد يوسف: تتكون من الفروع: أولاد دودون، أولاد مسعود، العالم، أولاد يعقوب.
 - 2-أولاد طويجين، تتكون من: أولاد جليل، أولاد عمار، أولاد زغوان، أولاد طويجين.
 - 3-مشيخة أولاد سعيد، تتكون من: أولاد سي سالم، أولاد سي عبد الرحمن، أولاد عون، أولاد سعيد.
 - 4-مشيخة أولاد مخلوف: تتكون من: أولاد مخلوف الفوافة، أولاد مخلوف اللوطة، أولاد ضيف¹.
- ثم تم إعادة رسم ملامح القبيلة بتقسيمها ودمج فروع المشيخات مع بعضها البعض دون الأخذ في عين الاعتبار المشيخات السابقة، فانبثقت خمسة دواوير: هي:

- 1-الحمامة: يتكون من أولاد فلاح، أولاد محمد، الفرادة، أولاد سي حسن، أولاد مسعود.
- 2-العيني: يتكون من أولاد يعقوب، أولاد دودون، العالم، أولاد سي سالم، جزء من أولاد عون.
- 3-طكوكة: يتكون من أولاد سعيد، أولاد سي عبد الرحمن، أولاد مخلوف الفوافة.
- 4-المترونة: يتكون من أولاد ضيف، أولاد مخلوف اللوطة، أولاد سي قاسم، أولاد يعقوب، أولاد سي حسن، جزء من أولاد عون، جزء من أولاد سي سالم، جزء من أولاد زغوان، جزء من أولاد تويجين.
- 5-شرفة: يتكون من جزء من أولاد تويجين، أولاد عمار، جزء من أولاد زغوان، أولاد جليل، جزء من أولاد سي سالم، جزء من أولاد سي عبد الرحمن².

2-3-قبيلة عامر الظهارة: التي بفعل مصادرة أجزاء منها لصالح شركة جونفواز، وبعضها الآخر من أجل توسيع مدينة سطيف وإنشاء المراكز الاستيطانية، فأضحت مقسمة إلى ثلاث أجزاء على الشكل التالي:

¹- Rapport de S.C de la tribu de Ouled Nabet, Op ; cit, p 23.

²- Ibid, p 224.

- مجموعة غرب مدينة سطيف: بمساحتها 16937هـ، 21آ، 9 س، يتكون من دوار أولاد بلقاسم، ودوار مالح على بعد 20 كلم من مدينة سطيف.

- مجموعة شرق مدينة سطيف: يتكون من دوار بني براهم، ودوار مجوناس على بعد 25 كلم شرق مدينة سطيف

- مجموعة شمال مدينة سطيف: يتكون من دوار الشعبية على بعد 10 كلم شرق سطيف.

ثم بعد ذلك استقطعت أجزاء من دواير بلقاسم ومالح لأغراض استيطانية توسعية، كما أن دوار شعبية استقطعت منه 150 هـ منحت لعامر القبالة كتعويضات¹.

2-3-1-أراضي العزل الموجودة في القبيلة: بما أنها من صيغة العزل، فقد ادعت فرنسا ملكيتها بحجة أنها وريثة السلطة العثمانية، فقامت بمصادرتها ومنحها لبعض الأعضاء، والباقي تركته للسكان مقابل حقوق الكراء والضرائب وبعضه ألحق بملكية الدومان: وكان تقسيمها على النحو التالي:

- عزل أولاد ذهاب²: مساحته 1544هـ، 86آ، 77 س آ، ألحق بمديرية أملاك الدولة التي بدورها قام بتوزيعها على النحو التالي:

- 1174هـ، 64آ، 23 س آ: خصصت لبناء بلدة أولاد ذهاب

- 169هـ، 59آ، 78 س آ: ألحقت بأملاك البلدية

- 200هـ، 62آ، 76 س آ: شاغرة، ثم كراها لبعض السكان المحليين وبعض الأوروبيين، والملاحظ أن غالبية العائلات التي استأجرت أراضي بهذا العزل، لا تنتمي لقبيلة عامر الظهارة، وربما هم أشخاص قدموا خدمات للاحتلال أو احتاجوا لمكان يؤويهم بعد توسع الاستعمار وفقدانهم لأراضيهم وأصبحوا مستأجرين بعدما كانوا ملاكا، وعددها (36 عائلة) منهم³:

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 3.

²- Ibid, p 5.

³- Ibid, p 26-27.

الفصل الرابع: قبائل منطقة سطيف في مواجهة الاستعمار الفرنسي

العائلة	الأصل
عائلة محمد عواد	بوطالب (ريغة)
الحسين بن الزين	ريغة
الحسين بوجمعة	من الغرب
أحمد بن الزين	ريغة
السعيد بن الربيع	عموشة
الربيع بن المسيلي	عموشة

الشكل رقم 17: جدول يمثل عائلات اكرت أراضي في عزل أولاد ذهاب (عامر الظهارة).

الملاحظ من خلال هذا الجدول أنه تم إدخال عناصر من خارج القبيلة وزرعها فيها، كبداية لفك اللحمة القبلية، حيث أدت السلطة الفرنسية أن أصعب عائق تواجهه هو اللحمة القبلية المرتبطة بالأرض، فكرست ظهور الفردية، مما يسهل من عملية التفكيك التي ستستمر مدة من الزمن.

أما الشخصيات المتنفة التي استأجرت أراضي في هذا العزل، فنجدها ممن خدمت فرنسا كالدودي بن كسكاس الذي سيقوم بدور كبير في كبح مقاومة المقراني، أو تم الاستئجار لبعض الأوروبيين هم¹:

الاسم	تاريخ الكراء	مدة الكاء	التمن(فرنك)	ملاحظات
سي الشعبي، قايد المكتب العربي	1858/05/24	3 سنوات	14000	// //
دوادي بن كسكاس شيخ عامر القبالة	1860/10/12	عام واحد	1630	// //
دوادي بن كسكاس	1861/10/14 1863/08/24	3 سنوات	1600 1600	اكرت أراضي عدة مرات.
هنري ميتس	1861/09/16	غير معروفة	غير معروف	710 هكتار

الشكل رقم 18: جدول يمثل بعض الأشخاص الذين اكرتوا أرضا بعزل أولاد ذهاب (عامر الظهارة).

2- عزل قلال: مساحته 3639 هـ، 25 آ، 20 س آ، منها 87 هكتار بيعت و3539 هـ، 25 آ،

20 س آ، بقيت شاغرة، خصصها الجيش الفرنسي بغرض الحصول على التبن للأحصنة، ثم تم كرائها لمجموعة من

¹ - Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 28.

الفصل الرابع: قبائل منطقة سطيف في مواجهة الاستعمار الفرنسي

العائلات لا صلة لهم بالقبيلة وليست من سكانها، وعددها 83 عائلة منهم¹:

العائلة	الثروة	الضرائب(فرنك)
سي علي بن الحامدي (19 فرد)	24 بقرة، 100 خروف، 4 أحصنة، 3 بغال، ½ جابدة ²	105 ف، 50 سنتيم
سي علي بن زيان (11 فرد)	3 ثيران، 20 خروف، 4 أحصنة، 3 بغال، ½ جابدة	36 ف، 50 سنتيم
سي بلقاسم بن علي بن خليل (6 أفراد)	5 ثيران، 64 خروف، حصانين، 3 بغال	//

الشكل رقم 19: جدول يمثل بعض العائلات التي اكرت أراضي في عزل قلال.

- عزل حمان: اكرت بعض الأشخاص من ذوي النفوذ: هم³:

الاسم	سنة الكراء	المدة	ملاحظات
الحامد بن جدو	1857/04/01	3 سنوات	قايد بني يعلى
بوزيد	1863/01/09	3 سنوات	قايد عامر الظهارة
الحاج منصور بوعكاز	1863/10/29	3 سنوات	من فرجية
ديورارت	1860/10/12	غير محددة	مستوطن

الشكل رقم 20: جدول يبين بعض الأشخاص المتنفذين الذين اكرتوا أراضي بعزل حمان.

الملاحظ من الجدول أعلاه، أن السلطة الفرنسية ورغبة وإرادة منها في تفكيك القبيلة، عملت على استقدام عناصر سكانية أجنبية عن القبيلة، ومنحتهم الأراضي للاستقرار، وكان هذا الأمر في السابق غير موجود، وإدخال هذه العناصر يذهب بلحمة القبيلة وتضامنها فيما بينها، وبالتالي تظهر الفردية، ثم مع مرور الوقت تختفي القبيلة القائمة على الإحساس المشترك بالانتماء والتضامن.

2-3-2-عملية التحديد وإنشاء الدوار: لتحديد القبيلة وتشكيل الدواوير أعدت لجنة مكونة من:

أوجيرو: رئيس.رينغاد: عضو المجلس العام لمقاطعة قسنطينة.

دوفونتاف: رئيس المكتب العربي.

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 30.

²- الجابدة هنا تعدى ما اتفق عليه عند مجموعة من المؤرخين، هنا الجابدة لخصوبة الأرض تقرب 20 هكتار كما جاء في السجلات.

³- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 28.

برنارد: مراقب أملاك الدولة

فيفينو: جيومتري

ماير: مترجم عسكري.

- **الدراسة الطبوغرافية:** بعد تعيين اللجنة المكلفة بالتحديد وإصدار قرار البدء بذلك ، خرجت اللجنة للقيام بالدراسة الطبوغرافية وتحديد مجال القبيلة والدواوير بمعية أعضاء الجماعة وشيخ القبيلة سي بوزيد بن هني¹. وتوصلت اللجنة إلى أن الأرض واسعة وسهلة وجيدة وبها غابات قليلة أو بالأحرى نادرة، مع وجود مصادر مياه كثيرة، 80 منبع جيد التدفق حتى في الصيف، وأكثر من 20 بئر جيدة، وأودية عدة مثل وادي بوسلام، وادي قلل، ومنبع حار(51°م)، بالإضافة إلى قيامها بإحصاء السكان وممتلكاتهم، وما يتوجب عليهم من ضرائب اتجاه الإدارة الاستعمارية وخرجت بالإحصائيات التالية²:

الشكل 21: جدول إحصائي لقبيلة عامر الظهارة بعد عمليات التحديد، أعد في 26 أوت 1867

¹ - قرار تحديد وتقسيم قبيلة عامر الظهارة، الملحق رقم 7، وثيقة مستخرجة من سجل قبيلة عامر الظهارة

² - Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 2.

الفصل الرابع: قبائل منطقة سطيف في مواجهة الاستعمار الفرنسي

اسم الدوار	الشعبية	أولاد قاسم س آ	مالح	بني براهيم س آ.	مجنونس	الجموع	المساحة			السكان			المحاربون		الثروة الاقتصادية								نوع السكن			عشور/فرنك		زكاة/ فرنك																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																															
							رجال	نساء	أطفال	فرسان	مشاة	جانبات	جمال	أحصنة	أفراس	مهور	بغال	أحرة	ثيران	خرفان	ماعز	قربي	خيمة	منزل	عادية	إضافية	سنتيمات	عادية	إضافية	سنتيمات																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																													
9889.49					351.4	250.59	486.92	287.46	132.17																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																																		</

تقرر تقسيم القبيلة إلى خمس دواوير لكل دوار كما قلنا جماعة خاصة به، ترتبط بشكل إداري فقط مع الجماعات الأخرى ومع شيخ القبيلة، ترابط بعيد عن اللحمة القبلية التي كانت سائدة، خاصة مع بدأ عملية إدخال العناصر الخارجية، ففقدت القبيلة شيخها الذي هو رمز وحدتها.

كما تم خلال عملية التحديد إعادة تنظيم الأراضي على خلاف ما كانت سائدة وفق ما وضعناه في الفصل الثاني، فالسلطة العثمانية قد رحلت، والقوانين العقارية قد شرعت، وعملية المصادرة والإلحاق ونحوها قد تمت، فجاءت حصيلة الأراضي في القبيلة كما يلي¹:

- أراض الملك: 2500 هـ، 23 آ، 15 س آ

- أراضي جماعية: 21021 هـ، 65 آ، 75 س آ

- أراضي البلدية: 6301 هـ، 12 آ، 60 س آ

- أملاك الدولة: 4941 هـ، 59 آ، 86 س آ

- أملاك مشتركة: 770 هـ، 23 آ.

بهذا التقسيم أضحي الاستعمار الفرنسي الدخيل يملك أراضي في القبيلة، فالأنهار والآبار والعيون والطرق والغابات وغيرها، كلها أصبحت ملكا له، وبالتالي فهو يضع موطأ قدم هناك، مما يمكنه من التوسع والانتشار انطلاقا مما استأثره لنفسه ومصادرة المزيد من الأراضي والإتيان بالعنصر الأوروبي وزرعهم في القبيلة.

وكمحاولة من السلطة الفرنسية إضفاء الشرعية على عمليات التقسيم والتأكد من التحديد، فإنها قامت بإشراك جماعة القبيلة المعنية بالتقسيم وجماعات القبائل والدواوير التي تشاركها الحدود الجغرافية، ووقع الجميع على المحضر النهائي للتقسيم، وسعيا منها لوأد أي محاولة اتصال بين الدواوير وإعادة هيكلة القبيلة، قامت بتعيين جماعة لكل دوار، وقد جاءت هذه التعيينات كما يلي:

¹- Rapport de s.c de la tribu de Amer Dahara, Op ; cit, p 52.

ممثلي جماعات القبائل التي حضرت عمليات التحديد كانت كالتالي:

- 1-جماعة عامر الظهارة: سي بوزيد بن هني (قايد)، معمر بن إسماعيل، الحاج محمد.
 - 2-جماعة عامر القبالة: سي الداودي بن كسكاس(قايد)، سي يوسف بن سي الميهوب، الشريف بن العربي.
 - 3-جماعة عين تاغروت: محمد بن عبد السلام المقراني (قايد)، سي الغربي، المبارك بن الحاج.
 - 4-جماعة أولاد موسلي: الجودي بن محمد (قايد)، سليمان بن السعيد، سي محمد الصغير بن الطاهر.
 - 5-جماعة ريغة الظهارة: أحمد بن الشيخ مسعود (قايد)، براهيم بن أحمد الشيخ، قدور بن بوعزيز.
 - 6-جماعة ريغة القبالة: الصغير بن عروسي، محمد الصغير بن الطيب، عاشور بن احميدة.
 - 7-جماعة العلمة: أحمد بن سليمان (قايد)، عمار بن عبد الكريم، عاشور بن بوزيد.
 - 8-جماعة أولاد يوسف: أحمد خوجة بن عاشور (قايد)، وزيد بن السعيد، سعيد بن احمد.
 - 9-جماعة بني مروان: الحاسي بن بعلي (قايد)، مصطفى بن الدميري، فرحات بن الحاج.
 - 10-جماعة الدهامشة: حسن بن الشادلي (قايد)، علي بن بلكبير، الحاج عمار بن الساسي.
 - 11-جماعة أولاد نابت: يلس بن بوزيد (قايد)، علي بن معوش، محمد بن سي الشريف¹.
- وبعد أن تأكدت السلطة الفرنسية أن القبيلة قد قسمت، بدأت في تنفيذ المرحلة الثانية وهي تحديد الدواوير، ولكل دوار حدوده الإدارية، المثبتة بشكل نهائي والتي لا مجال للتراجع عنها أو الاعتراض عليها، وأضحى لكل دوار جماعته وتلك القبيلة بدأت بالتمزق والانحلال، وجاءت حدود كل دوار على النحو التالي:
- 1-الشعبية: يحده من الشمال قبيلة أولاد نابت ومن الجنوب بلدية سطيف، ومن الشرق بلدية الاوريسيا، ومن الغرب بلدية البحيرة

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 52-53.

2-مالح: يحده من الشمال قبيلة عين تاغروت، ومن الشرق بلدية البحيرة، ومن الجنوب بلدية سطيف، ودوار أولاد قاسم ومن الغرب بلدية ريغة.

3-أولاد قاسم: يحده من الشمال بلدية سطيف، ومن الجنوب ريغة القبالة، ومن الشرق قبيلة عامر القبالة، ومن الغرب قبيلة ريغة الظهارة.

4-مجوناس: يحده من الشمال قبيلة الدهامشة، وقبيلة أولاد يوسف، ومن الشرق بني مروان ودوار بني براهم، ومن الجنوب دوار بين براهم وعامر القبالة، ومن الغرب عامر القبالة.

5-بني براهم: يحده من الشمال بني مروان، ومن الشرق قبيلة العلمة، ومن الغرب عامر القبالة.

أما الدواوير فقد حددت، ولكل دوار حدوده الإدارية، المثبتة بشكل نهائي والتي لا مجال للتراجع عنها أو الاعتراض عليها، وأضحى لكل دوار جماعته وتلك القبيلة بدأت بالتمزق والانحلال، وجاءت حدود كل دوار على النحو التالي:

2-3-3-من الدوار إلى البلدية: في 24 ديسمبر 1870، وبعد انقضاء حكم الإمبراطور نابليون الثالث وقيام جمهورية مدنية في فرنسا صدر قرار إنهاء النظام العسكري الذي كان يسير الجزائر في المناطق التالية وتعويضه بالنظام المدني تحت السلطة المدنية¹، فظهر إلى الوجود ثلاث أنواع من البلديات هي:

1-البلديات الكاملة الصلاحية: لها رئيس بلدية، كاملة الصلاحيات، ولديها مجلس مدني معين بالاقتراع، يتم إنشاء هذه البلديات بمجرد إدراك السلطة العليا أن المركز الاستيطاني يصل إلى درجة معينة من الرخاء، ويمكن أن يلبي جميع احتياجاته، نفقات التعليم العام وصيانة الطرق وبناء المنشآت².

2-البلديات المختلطة: أنشأت بموجب مرسوم 24 نوفمبر و10 ديسمبر 1871 تتكون من اتحاد مجموعة من الدواوير، يديرهم مفوض أو مدير مدني، بمساعدة واحد أو أكثر من الإداريين الأوروبيين يعينون من قبل المحافظ، كل واحد منهم مسؤول عن مراقبة قسم أهلي أو أوروبي³.

¹ - سعيد مزيان : السياسة الاستعمارية في منطقة القبائل وموقف السكان منها (1871-1914) ، ج1، دار سيدي الخير للكتاب، الجزائر، 2012، ص 355.

² - Paul Viallete , Op ; cit, p 8.

³ - Ibid, p 9.

3- البلديات الأهلية: والتي سكانها من الأهالي فقط (السكان الأصليون)، تقع غالبيتها في المناطق الصحراوية والجبلية التي لم يتمركز فيها العنصر الأوروبي، تناقصت مع مرور الوقت، وتحولت إلى بلديات مختلطة، حتى بلغت عام 1900م، 12 بلدية فقط، أسندت إدارتها إلى الجنرالات وشيوخ القبائل¹.

ووفق هذا الترتيب فإن قبائل سطيف ودواويرها وقعت أغلبيتها تحت التصنيف الثاني، ومن بينها قبيلة عامر الظهارة، حيث وزعت دواويرها على مختلف البلديات، المختلطة الحديثة النشأة في المنطقة، كمرحلة ثانية من تفكيك القبيلة، وكانت وضعية القبيلة ودواويرها كالتالي²:

- دوار أولاد قاسم: ألحق بالبلدية المختلطة عين ولمان عام 1868م، التي شملت أيضا الفريقات من ريغة القبالة، وكل من: قبلة زديم وشط المالح، وخربة قصر الطير، وأولاد محلة وأولاد سي احمد من ريغة الظهارة.

- بني براهيم: ألحق بالبلدية المختلطة العلمة عام 1868م، التي شملت أيضا: دواير مريود وبازر من قبيلة العلمة.

- دوار مالح: ألحق بالبلدية المختلطة عين عباس عام 1867م التي شملت أيضا المترونة وطكوكة من قبيلة أولاد نابت، ودوار أولاد منصور من عامر القبالة.

- مجوناس: ألحق بالبلدية المختلطة عين الكبيرة عام 1868م، رفقة دوار الدهامشة (قبيلة الدهامشة)، وأولاد علي بن ناصر من قبيلة عامر القبالة.

- الشعبية: ألحق بالبلدية المختلطة سطيف عام 1868 م التي شملت أيضا الحاسي، عين زقادة، ومزارع عين موس، وخلفون والعناصر ومزارع الباز وفرماتو وتملوكة.

ونلاحظ هنا الخلط والتفرقة بين دواوير القبيلة الواحدة بهدف عدم تمكنها من الالتحام مجددا، وذلك بإلحاق كل دوار ببلدية مختلفة، ودمج دواوير عدة لا تنتمي إلى القبيلة نفسها، فتفكيك القبائل المنطلق من تفكيك الأرض التي هي حجز زاوية في القبيلة، سيؤدي إلى انهيارها -ليس اقتصاديا فحسب- ولكن اجتماعيا وثقافيا، فالأرض برمزياتها وحضورها هي هوية القبيلة، وهو ما يوضحه الشكل التالي:

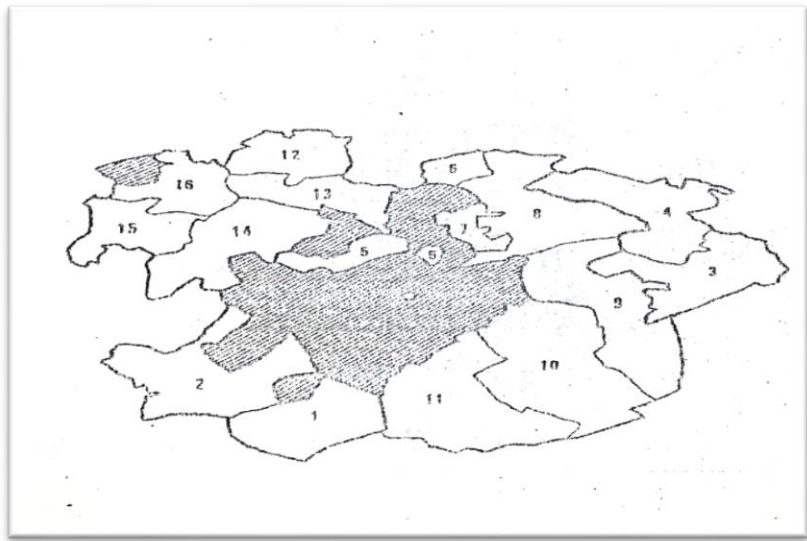
¹- Paul Viallete, Op; cit, p 10.

²- Abdelkrim Badjadja, Op ; cit, p 50-59.

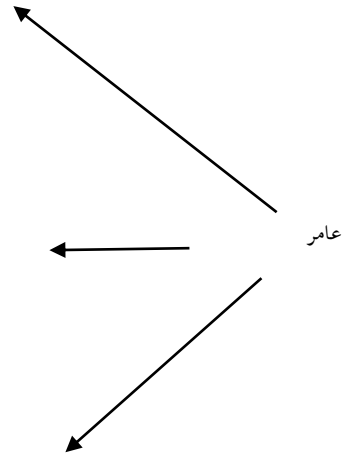
حدود القبيلة والدواوير

المراكز الاستيطانية

السلم 400000/1



خريطة عامر بعد تنفيذ قانون 22 أفريل 1863

الدواوير المنبثقة بعد القانون المشيخي 22 أفريل 1863	القبيلة ما بين 1830-1863 قسمت عام 1949	القبيلة حتى عام 1830
1- أولاد قاسم 2- مالح 3- بني براهيم 4- مجوناس 5- الشعيبة	عامر الظهارة	
6- أولاد عدوان 7- أولاد منصور 8- أولاد علي بن ناصر 9- أولاد صابر 10- قجال 11- بن ذياب	عامر القبالة	
12- الشرفة 13- طكوكة 14- المترونة 15- الحمامة 16- العنيني	أولاد نابت	
16 دوارا	ثلاثة فروع	قبيلة واحدة

الشكل رقم 22: خريطة قبيلة عامر بعد انتهاء عمليات التحديد¹.

¹ - Abdelkrim Badjadja, Op; cit, p 17.

المبحث الثالث: مقاومة قبائل منطقة سطيف للسلطة الفرنسية

في عام 1830 تمكنت فرنسا من احتلال مدينة الجزائر، ووقع الداي حسين معاهدة الاستسلام، واضعا بذلك الحد لثلاثة قرون من الحكم التركي بايجايياته وسليبياته، وكان من جملة من شاركوا في عملية صد الحملة الفرنسية الحاج أحمد باي¹، باي قسنطينة، في سيدي فرج واسطاوالي، ولكن بعد الهزيمة التي تكبدها الجيش الجزائري قفل هذا الأخير راجعا إلى عاصمته قسنطينة، استعدادا للجولة الثانية التي سيخوضها عام 1837م.

ويبدو أن خبر الهزيمة قد سبق أحمد باي إلى بايلك الشرق، فبدأت مفاصل السلطة التركية هناك بالتفكك، واثارت القبائل وأغار بعضها على بعض واضطربت الأحوال، حتى أن الباي لقي صعوبة كبيرة في الوصول إلى عاصمته، فعندما وصل إلى نواحي سطيف خرجت قبائل تلك الناحية لقطع الطريق عليه وملاقاته، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على عدم التوافق بين السلطة والسكان، رغم أن أحمد باي يشير في مذكراته إلى أن هذه الملاقاة تمت بتحريض من بعض أعيان مدينة قسنطينة الذي ذاقوا ذرعا من حكمه ويتحينون الفرص من أجل التخلص منه، ولكن هذه الإغارة انتهت بانتصار أحمد باي².

وقد انعكس انهزام الجيش الجزائري أمام جيش الاحتلال على الوضع السياسي، فقد شهدت مختلف المناطق اضطرابات وفوضى، وانحل العقد الذي كان موجودا بين الطرفين، ولم يسلم بايلك الشرق من هذا ومنها منطقة سطيف حيث حاولت بعض القبائل الإغارة على مدينة سطيف، على غرار ما قامت به قبيلة الدهامشة لما سمعت بسقوط مدينة قسنطينة³.

ويرجع بعض الدارسين هذه الفوضى التي انتشرت إلى عاملين أساسيين هما:

- انهيار السلطة التركية وعدم بروز بديل عنها ممن يمكن أن يحل محلها ويسير المرحلة، هذا الأمر حد من القدرة على تسيير البلاد وفرض النظام، فرغم ما قد يقال عن مساوئ السلطة التركية إلا أنها كانت تتحكم في زمام الأمور وتفرض الأمن، وبغيابها تكالبت القبائل على بعضها البعض، وشاعت اللصوصية واختفت العدالة،

¹ - لم يقصد الحاج أحمد باي مدينة الجزائر للمشاركة في الحملة الفرنسية ولكن قصدها من أجل أداء الالتزامات المالية على عاتق بايلكه المثلثة في الدنوش، وتصادف وجوده هناك مع وصول الحملة الفرنسية، وقد قدم هذا الباي نصائح وخطط من أجل صد الحملة ولكنها لم تأخذ بعين الاعتبار، حول الموضوع، راجع أحمد باي، مذكرات الحاج أحمد باي، المصدر السابق، 11-15.

² - نفسه، ص 18.

³ - Rapport s. c de la tribu de Dehamcha, Op ; cit, p 40.

ولجأ كل واحد إلى القوة لفرض منطقته، ولكن هذا الأمر ارتبط بصدمة الاحتلال، إذ سرعان استتب الأمن، فتولى الأمير زمام الأمور في منطقة الغرب، وأحمد باي في الشرق، رغم أن الوضع لم يعد أبدا كما كان في العهد التركي¹.

- لم يعرف معظم السكان ما العمل الواجب القيام به، فهم دون خبرة في مواقف كهذه، حيث لم يسبق لهم أن عايشوا أمرا مماثلا، كما أن الأتراك أبعدهم ولفترة طويلة عن مقاليد السلطة، وإن أسندت لهم مهام فما هي إلا رتب صغيرة ومهام بسيطة وبعيدة عن مراكز صنع القرار، لذلك كان كل واحد يفعل ما يراه مناسباً ومفيداً له ولقبيلته رغم أنه قد يكون ضاراً بالآخرين، مثل الإغارة على القبائل والاستيلاء على أموالها.

1- الموقف من السلطة الفرنسية: كان حال معظم القبائل الجزائرية التي دخلت في مرحلة اضطراب وفوضى، ولكن هذه الحالة لم تمنع من بروز قف من السلطة الجديدة أهمها:

1-1- المتعاونون: هناك من القبائل والخيام الكبرى ممن تقبلوا وجودها، وتعاملوا معها، كما تعاملوا من قبل - مع السلطة التركية، رغم أن صدمة الاحتلال قد أفقدتهم توازنهم وأخلطت أوراقهم، وبقوا حائرين مترددين، هل يحذون حذو الغالبية ويقاومون، أم يعملون على صيانة مصالحهم التي اكتسبوها وطوروها طوال قرون وذلك بالتواصل مع العدو وتقديم خدماتهم له، ولكن سرعان ما اختاروا الموقف الثاني، فباستثناء أحمد باي وبومزراق ممن كانوا في خدمة الأتراك، فإن الجميع اصطف خلف السلطة الجديدة، خادمين كما يقول الأشرف: " قضية غير عادلة ولكنها غائمة"²، وقد أشار قبله ميرسي الذي بين موقف هذه الفئة قائلاً: "سرعان ما رأينا عددا كبيرا من الجنود السابقين أو بالأحرى الزعامات يسارعون في إعلان وطلب أن يكونوا تحت السلطة الفرنسية"³.

ومن هؤلاء نذكر، المقرانيون في بجاية، الذين نالوا منصب الباشاغا، حيث تحكموا في الكثير من المناطق والقبائل في هذه الناحية ومنها سطيف، التي كانت تحت حكم أحمد المقراني جد محمد المقراني الذي قاد ثورة 1871م⁴، وعائلة بن قانة التي على رأسها بوعزيز بن قانة الذي وضع نفسه في خدمة الفرنسيين بداية من 30 سبتمبر 1838 تاريخ تنصيبه شيخا للعرب، وساهم كثيرا في تثبيت الاحتلال بمنطقة الزيان، ومنح للفرنسيين

¹ - أليكسي دو طوكفيل، المصدر السابق، ص 19.

² - مصطفى الأشرف، ص 54.

³ - Ernest Mercier, Op ; cit, p 15.

⁴ - Charles Féraud, Op ; cit, p 8.

فرصة التوسع بشكل سريع وعملي دون تكاليف في الجهة الجنوبية لبابلك الشرق¹، ومن جملة العوامل التي حثت هاته الخيام الكبيرة والقبائل القوية على التعاون نذكر:

- الرغبة في الحفاظ على المصالح المكتسبة: حيث تمتع البعض بامتيازات اكتسبها في العهد العثماني، لم يكونوا مستعدين للتخلي عنها، فينقل مصطفى الأشرف عن دولي بريسيك قوله: "كان هؤلاء عملاء الأتراك سابقا قد استجابوا للعروض المغرية التي قدمها لهم الجنرال بواسي، قائد الجيش الفرنسي في وهران، وهو أول من أدرك التوافق بين مصالحنا ومصالحهم، والفائدة التي يمكن أن نجنيها من ولائهم لنا، وكانوا لا يفتؤون يعربون عن استعدادهم لتقديم خدماتهم لنا"².

- الانتقام من السلطة العثمانية التي قد تكون أبعدهم عن الحكم أو أساءت لهم بأي شكل من الأشكال، أو استاءوا من بعض قادة المقاومة كالأمير عبد القادر، الذي عندما توجه إلى الشرق لينظم المقاومة فيها، اتصل بالمقرانيين وعين خليفته على مجانة ووقع اختياره على محمد بن أحمد بن عبد السلام المقراني، وكان من ضمن من شملته سلطة هذا الخليفة قبيلة الغرازة الرعية والتي كان على رأسها قايد تركي اسمه محمود بن داودي من أولاد موصلي، الذي عزله الأمير، فالتجأ هذا الأخير إلى قسنطينة والتحق بالفرنسيين وأصبح ضابط في فرقة الصبايحية³.

- الرغبة في الحصول على امتيازات طالما حرموا منها، أولئك الذين كانوا مغمورين وأخطأهم فرص الحياة، ففي العهد العثماني كان على المرء أن يحوز على بعض الصفات والمقومات كي يتمكن من تبوأ مكانة مرموقة، كالنسب الشريف، وامتلاك الأرض، والمال وغيرها، وهو ما لم يكن متاحا لهم، فلما ساء الوضع وجدوا الفرصة سانحة للحصول على مبتغاهم.

1-2-المقاومون: يعتبر هذا الموقف الأكثر انتشارا ووضوحا، لأنه الأكثر منطقية، فطالما قاومت القبائل كل دخيل واعتبرته خطرا خارجيا يجب التكتل من الداخل ومقاومته، فقد ألفت التضامن والتلاحم فيما بينها لسد كل هذه الأخطار التي تهدد وجودها، ولا يكمن الخطأ في موقف القبيلة، بل كل الخطأ في الاستعمار لأنه سلك سلوكا يتسم بالوحشية منذ البداية وهو الأمر الذي لم يشجع أبدا على إقامة أي فرص للتواصل أو

¹ - إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية (1837-1934)، دار هومة للنشر، الجزائر، 2012، ص 34-35.

² - مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص 56.

³ - Rapport s. c de la tribu de Gherazla, op ; cit, p 4.

التحاور، ومن أهم الأسباب التي أدت إلى بروز المقاومة كواجهة اتخذتها القبائل الجزائرية كما ذكرها حمدان خوجة نجد¹:

- الشعور بالاستعباد من أمة أجنبية: وهو الأمر الذي يتعارض مع مبدأ القبيلة الأساسي المتمثل في الميل نحو الحرية والاستقلال، فاعتبرت السلطة الفرنسية مصدرا للشقاء وتنغيص الحياة، فحسب كلود لوفي ستراوس، فإن هذه المجتمعات تكره الأجانب، إذ تعتبرهم عامل اضطراب، وتدمير لوحدها ووجودها، وتذهب باستقلاليتها وتستعبد²، وقد أحست القبائل الجزائرية بحصار يخنقها ويهدد وجودها بسبب الانتشار الكثيف وتدخل السلطة الفرنسية في كل كبيرة وصغيرة مرتبطة بحياتها الخاصة، وقد نوه أليكسي دو طوكفيل إلى هذا الأمر، حين عرض تقريراً عام 1847 أبدى فيه إعجابه وارتياحه بانتشار المراكز الفرنسية في المنطقة التلية كالشبكة مما يسمح بالانقضاض على كل قبيلة تتحرك ومحاصرتها ومعاقبتها³.

- اختلاف الديانة: حيث اعتبر الاستعمار الفرنسي غزواً مسيحياً، فطالما عاشت الجزائر في حذر وترقب من مختلف الهجمات التي تطالها من القوى الأوروبية المسيحية، فتكونت صورة سوداوية حولها، فالجتمع الجزائري ككل لا يولي اهتماماً بالجنسية، فهو لا يفرق بين الفرنسي والإنجليزي والإسباني، ولكن ما يعرفه هو ثنائية (المسلم/ المسيحي)، وبما أنه كذلك فمحارته واجبة والرضا بحكم الكافر كفر⁴.

هذا، وما زاد الطين بلة ووسع الهوة، هو السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر والعمل على محاربة الإسلام واللغة العربية، ومصادرة الأوقاف وتحويل المساجد وهدمها وإغلاق المدارس والاستهزاء بالأولياء والمعتقدات والطقوس، فيقول لامورسيير: "كم خلقنا لأنفسنا من مشكلات بهذه الطريقة"⁵.

وما يؤكد هذه النقطة، هو حضور الدين في جميع المقاومات التي خاضتها القبائل، فأغلبها كان تحت قيادة رجال الزوايا والطرق الصوفية، فالأمير عبد القادر منتسب إلى الطريقة القادرية، ولالة فاطمة نسومر من

¹ - محمد العربي الزبيري: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973، ص 153-154.

² - أيفون توران، المرجع السابق، ص 146-147.

³ - أوليفي لوكور غرانيزون، المرجع السابق، ص 136-137.

⁴ - الطاهر عمري: دور بني المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار (1830-1900)، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر، 1999/1998، ص 81.

⁵ - إيفون توران، المرجع السابق، ص 128.

الطريقة الرحمانية، أما المقراني ذو الوجه السياسي من الأجواد، لولا الطريقة الرحمانية ومقدمها الشيخ الحداد لما تمكن من الانطلاق في ثورة 1871م، وبوعمامة وغيرهم.

وتجدر الإشارة إلى أنه ورغم الدافع والصبغة اللذين منحهما الدين للمقاومة والسير بها بقوة إلى الأمام، فهذا لا يعني أن الجزائريون متعصبون لدينهم، وقد أشار أليكسي دوطوكفيل إلى هذا بقوله: "رغم أن الدين لعب دورا في المقاومة وأعطى مشروعية حمل السلاح، إلا أنه كان سببا ثانويا في جملة أسباب حمل السلاح، لأن الفرنسيين هوجموا على أساس أنهم غزاة أجنب أكثر من كونهم مسيحيين"¹

- الخوف من الفقر: وهو سبب رئيسي في مقاومة القبيلة للسلطة الاستعمارية، فهذه مست بمصدر رزقها عندما بدأت تضع يدها على مواردها الرئيسي وضمانها الوحيد الذي يكفل لها العيش، وهي الأراضي بمختلف القوانين والإجراءات التعسفية، ولم تستسغ القبيلة أن ترى أبناءها يموتون جوعا، فغالبية الذين حملوا السلاح لم يكونوا في الأصل محاربين، بل أرياب عائلات وفلاحين يسعون لمجابهة مشاق الحياة وضمان قوت أبنائهم الذين سرعان ما رأوهم يموتون جوعا نتيجة الفاقة، حيث وصل ما صودر خلال القرن التاسع عشر إلى 3 ملايين هكتار من الأراضي الخصبة²

وأشار دو طوكفيل إلى أن سكان القبائل يحملون السلاح لأنهم اقتنعوا بفكرة عن الاحتلال فحواها أنه يريد الاستيلاء على أراضيهم بالقوة والاستقرار فيما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم خاصة مع قدسيته مضافا أن لا شيء يثير استيائهم ومخاوفهم أكثر من ظهور المزارعين الفرنسيين وراء الجنود، فهم مستعدون أن تخلوا عن الحكم والسلطة، ولكن ما إن يظهر المعمر حتى يدركوا أن الأمر لا يتعلق بالغزو ولكن تجريدهم من ممتلكاتهم وأراضيهم التي توارثوها أبا عن جد، بما تحمله من رمزية الانتماء ومورد اقتصادي³.

وقد كان الجزائريون على حق في هذا، وهو ما ظهر مع مرور الأيام حين تعرضهم لأزمة 1867-1869، التي جعلتهم يأكلون حتى الجثث، حيث يشير تقرير رفع إلى الإمبراطور نابليون الثالث حول دائرة تيمور

¹ - أليكسي دو طوكفيل، المصدر السابق، ص 30.

² - عدة بن داهة: الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962)، ج2، ط.خ. بوزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص12.

³ - أليكسي دو طوكفيل، المصدر السابق، ص 62-63.

(الغزوات حاليا)، إلى أن السكان يعيشون بؤسا شديدا لدرجة أنهم لا يجدون ما يقتاتون به سوى بعض الجذور وأنهم يموتون جوعا¹.

- ما وقع من أحداث: وكم هي كثيرة، حيث بدأت منذ احتلال فرنسا للجزائر، رغم تعهد سلطة الاحتلال ممثلة في دي بورمون باحترام السكان وعقيدتهم وأموالهم عند إمضاءها لمعاهدة الاستسلام مع الداي حسين، ولكن شيئا من هذا لم يحدث فقد استبيحت المدينة وتمت الكثير من الانتهاكات وازدراء المقدسات، ثم ما تكلمنا عنه من إبادة للقبائل، وهو ما دفع بالحقد والغضب إلى أوجه.

- الإحساس بالأفضلية: رغم ما أصاب الجزائريون من مصائب، ومشاهدتهم للولايات تقع على رؤوسهم، ناهيك عن التفوق العسكري والمادي للمستعمر، ورغم ما قاله ابن خلدون من أن المغلوب يتشبه أبدا بالغالب، إلا أن كل هذا عاد بالإيجاب عليهم من ناحية رفع الروح المعنوية اللازمة في هذه الفترات، وكان الإيمان بالتفوق يسود غالبيتهم، فالفرنسيون حسب ما هو سائد ما هم إلا كفار نجسون، وهم مؤمنون طاهرون، وبين الفرنسيين تشيع الرذائل وتنعدم الأخلاق أما بينهم فلا، وما احتلالهم وسيطرتهم عليهم إلا مكتوب عليهم من قبل الله ويجب الصبر على الابتلاء، وبالصبر سينزل مهما طال الزمن، وما هذه الدنيا سوى سجن للمؤمنين، فيقول بوجولا: "إن العرب أحسن أخلاقا من الكثير من الأوروبيين المقيمين في الجزائر، فكيف يمكن أن نتوقع أن يمتثلوا لقوانيننا ومبادئنا وأوامرنا، فالإنسان بطبيعته لا يمكن أن يتخذ كقدوة له شخصا يحتقره"².

لهذه الأسباب انطلقت المقاومة وانتشرت في كامل ربوع الجزائر، متخذة إشكالا عدة ما بين المسلحة والشكاوي والعرائض، وكلها تعبر عن رفض القبائل لهذه السلطة الجديدة، وكان الريف مسرح المقاومة التي تقودها القبائل، أم المدن فإنها لم تكن في مستوى التطلعات والآمال، والمدينة الوحيدة التي شرفت نفسها بالقتال كانت قسنطينة، حتى أن غالبية ساكنة المدن من الحضر لم يساندوا الثورات التي اشتعلت في الأرياف لاعتبارات عدة كالإحساس بالتفوق واحتقار أهل الريف، فيذكر لويس رين عريضة موقعة من أعيان قسنطينة موجهة للسلطات الفرنسية بتاريخ 29 أبريل 1871م، جاء فيها: "إن سكان المدن بصفتهم قوما مستقرين مثقفين يحبون الهدوء والسلم والسكينة والازدهار، يحترمون السلطة...أما البدو (القبائل)، فقد ابتلاهم الله بالطمع في ثروات غيرهم، وعدم القدرة على الكسب بنزاهة، ينشدون امتلاك الثروة بالخصومات والانقسامات والصراعات الدفينة

¹ - عدة بن داهة، المرجع السابق، ص 17.

² - مصطفى الأشرف، المرجع السابق، ص 52.

والنهب"¹، وقد استغرب لويس رين هذه الكلمات من هؤلاء الحضر مختصرا شعوره بقوله: " هذه هي العبارات القاسية جدا والمفعمة بالفرع والأنانية التي استخدمتها فئة الحضر "².

وعلى غرار الكثير من مناطق الجزائر لم تكن منطقة سطيف بمنأى عن المقاومة، بل شرفت تاريخها، إذ شاركت في الكثير من المقاومات التي قادها رجال الزوايا والمقاومون الأحرار ومن بين هذه المقاومات نجد:

1- المشاركة مع الأمير عبد القادر: بعدما فرغ الأمير عبد القادر (1808-1883) من تنظيم دولته ناحية الغرب الجزائري اتجهت أنظاره إلى الجهة الشرقية من الجزائر، فتنقل إلى هناك لوضع أسس المقاومة، وقد اتصل الأمير بالعديد من القبائل والزعامات المحلية لهذا الغرض، منهم: بوعكاز والمقراني، فعين بن عبد السلام المقراني خليفته على مجانة، ووصل نفوذ هذا الأخير حتى منطقة سطيف، وفيما يخص قبائل سطيف فإن البعض منها قد أعلنت ولائها للأمير وبايعته ومن جملتها قبائل ريغة الظهارة وشيخها محمد الشريف، وعموشة التي خلد موقفها الشاعر بن عبد الله، شاعر الأمير بقصيدة من الشعر الملحون عام 1837م، جاء فيها³:

حين كبر محي الدين شيخ الأعراب	أعطاه السر وطابعه أمزمزم
نصروه أعرابها وبايعوه الأنجباب	قضيا ومفتا شيوخها وعالم
مزاية وبوسلام أخصالهم شايعين	ونجوع عموشة ازولو الغلبة
لو نحكي لك علي صرى وما صار	غزوات كثيرة ما نطيق نحسب
أنجوع المهمة والجاه والشنا والجهاد	بيهم هذه البيداء أضحات عامر
ودرقاوة وشعانية وعموشة الأجماد	ذوبني سيدي يحي من أولاد عسكر

وقد خاض الأمير معارك ناحية سطيف، ففي ماي 1839م، عاد الجنرال قالبوا إلى سطيف ومعه الخليفة أحمد المقراني على رأس كوكبة من فرسان الحشم وريغة القبالة وعامر والعلمة برفقة الحاج مسعود من قصر الطير، في الوقت الذي كان فيه الحاج مصطفى صهر الأمير عبد القادر ومعه الشريف بن الشيخ سعد حليفه وآل ريغة

¹ - لويس رين، المصدر السابق، ص 308 309.

² - نفسه، ص 330.

³ - سفيان لوصيف: شيوخ العلم في منطقة عموشة، المرجع السابق، ص 18-19.

الظاهرة، يغيبون على سطيف وضد المتعاونين مع فرنسا، ثم سرعان ما تصادم الطرفان في منطقة القلعة الزرقا (20 كلم) من مدينة سطيف، وقد انتهت المواجهة باهزام قوات الأمير عبد القادر على يد قوات الجنرال لوفاسور، وهو الأمر الذي سهل على القوات الفرنسية التمرکز في سطيف وجعلها قاعدة للتوسع نحو المناطق الأخرى لاسيما نحو الجنوب، ثم في 15 أكتوبر 1840، تم إنشاء فرع سطيف ويتضمن جريد وخلافة مجانة ثم توسع مجالها ليشمل جيجل وبجاية.¹

وبالحديث عن مقاومة الأمير عبد القادر لابد أن نشير إلى دور القبيلة في قيام دولته ودورها في سقوطه، فعندما رغبت القبائل ناحية الغرب الجزائري في تنظيم نفسها ومواجهة السلطة الاستعمارية التي هي خطر خارجي استوجب التكتل، اتجهت إلى الشيخ محي الدين كي يقودها لكنه اعتذر عن ذلك، مقترحا في الوقت نفسه ابنه عبد القادر، الذي قبل ونادى بالبيعة بين القبائل.

وقد استند في المطالبة بالبيعة على قبيلة الحشم التي ينتمي إليها، التي يمكنها أن تمنحه قوة فوق قوة القبائل الأخرى، حيث اعتمد الأمير في هذا على العلاقات القبلية التي عرفها المجتمع الجزائري من تحالفات للنصرة وللعبية، إضافة إلى علاقات الجوار، وكلها علاقات تقف لصالحه حيث تحول دون المساس به كفرد، فالاعتداء على الأفراد في المجتمع القبلي يعني الاعتداء على كامل القبيلة.²

إن الاعتماد على قبيلة الحشم كدعامة للتأسيس سرعان ما أظهرت الحاجة إلى ضم مختلف القبائل، فلا يمكن الاعتماد على قبيلة واحدة لتأسيس دولة، ولكن تلك القبيلة يمكنها ضم القبائل الأخرى كما رأينا سابقا، فضم الأمير قبائل الجوار التي تسكن سهول غريس، كاليقويية، بني عباس مهاجر وغيرها، وعندما أرسى دولته جعلها مقاطعات وقسم المقاطعات إلى قبائل وعوض إذكاء الصراع بين القبائل كما عملت السلطة العثمانية من قبل فإنه قام بتجميعها.³

ولكن إذا كانت العلاقات القبلية قد ساعدت الأمير في إقامة دولته، فإنها من جانب آخر كانت سببا في سقوطه، حيث بدأ ضعفه بتحطم قرابة الجوار واستسلام القبائل للسلطة الفرنسية منذ عام 1842، وقد تفتن

¹ - لويس رين، المصدر السابق، ص 43-8.

² - الطاهر عمري، المرجع السابق، ص 145.

³ - نفسه، ص 150.

الجنرال بيجو لها الأمر وفهمه، حين عمل على إضعاف القبائل باستخدام سياسة الأرض المحروقة، وحرمانها من الأراضي وغيرها من السياسات، فحسب بيرنارد: " إن خطة بيجو كانت تعمل على أن تنتزع من الأمير عبد القادر مواقع القوة، وذلك بسحق جميع القبائل المتمردة وجلبها إلى صف الاستعمار بطريق المصلحة"، وفي مراسلة للماريسال بيجو مع وزير الحربية بتاريخ 9 مارس 1842، أوضح فيها أن هزيمة الأمير تعتمد على إقناع القبائل أن لا طائل من المقاومة معه لأمره ميؤوس منه، واستخدم بيجو في هذا حتى الفتوى بحرمة الجهاد مع الأمير وهي الفتوى التي استخلصها بيجو بواسطة ليون روش من شيوخ المشرق، والهدف منها 6 هو إضعاف الروح المعنوية، فالقبائل سوف تتقبلها لما للشيوخ من تأثير¹.

ليس هذا فحسب، ولكن كان على الأمير الدخول في صراع مع القبائل القوية المخزنية التي كانت تقاسمه النفوذ والرقعة الجغرافية، حيث أدرك الأمير أنه بإمكان هذه القبائل أن تمنحه المزيد من القوة التي يحتاجها، وبدورها هذه القبائل رفضت أن تكون تحت إمرة قبيلة أخرى اعتزازا بعصبيتها وحسدها، فصعود الأمير يعني صعود قبيلة الحشم وتسيدها على القبائل الأخرى وهو ما ترفضه التقاليد القبلية، فبعد مبايعة الأمير رفضت قبائل المخزن الدخول في طاعته، ومنها قبائل الدواير والزمالة التي كان شيخها مصطفى بن إسماعيل، واعتزازا بقبيلته امتنع عن الدخول تحت حكم " ولد صغير"، قاصدا الأمير، إضافة إلى قدور بن المورفي شيخ قبيلة البرجية، والشيخ سيدي العربي شيخ قبيلة سيدي العربي²، وقد تكونت منهم رابطة يقودها الشيخ مصطفى بن إسماعيل حاربت الأمير الشاب بحماس، حيث رأى هذا الشيخ أنه أضحى خارج الاهتمام رغم كل المجد والماضي الذي يحوزه³.

لقد كان مصطفى بن سماعيل مرشحا بقوة لنيل المشيخة على القبائل الأخرى، وقد رشحه لهذا المنصب والد الأمير عبد القادر، فيذكر المازاري أن الشيخ محي الدين قال حينما التجأ الناس إليه لتولي زمام القيادة قال: "

¹ - الطاهر عمري، المرجع السابق، ص 150.

² - Pélissier, Op ; cit, p 373.

³ - Léon Plée : Abd el Kader nos soldats, nos généraux et la guerre d'Algérie, Ed1 imprimerie de p. Bourdier. Paris, 1865, p 159.

لا أرى هذه الشروط متوفرة إلا في ولدنا الشجاع مصطفى بن إسماعيل، فهلموا معي وامددوا أيديكم لعقد البيعة له، إلا أن مصطفى رفض¹.

وقد تفتن الأمير لهذه القبائل وقوتها وعمل جاهدا من أجل استقطابها، خاصة أن والده قد نصحه بذلك، حين قال له: " إياك أن تنزع المخزن من يدك، فإن نزعته فأنت الحقيير"²، فدخل معهم في حروب محاولا ضمها، حتى أنه في معاهدة دي ميشال أدرج بندا يتيح له التحكم في قبائل الدواير والزماله حتى ولو دخلت مدينة وهران، ولا شك أن التناحر بين الأمير وزعماء القبائل المخزنية قد أضعف الجاني، وأهدر الكثير من القوة مما يمكن توظيفه في محاربة الاستعمار الفرنسي³.

2-ثورة مولاي محمد في قبائل شمال سطيف: بدأت ثورته في ربيع 1846م، حيث تنقل بين مختلف مناطق شمال سطيف في قرية غبولة بقبيلة بني شبانة وكان من رفقاء بومعزة الذي قاد مقاومة في جبال الونشريس وحوض الشلف، ودخل في صراع مع أعوان السلطة الفرنسية وبالتحديد بوعكاز بن عاشور شيخ فرجية، وتنقل بين مختلف قرى ومدائر قبائل سطيف الشمالية، وخاض عدة معارك كمعركة جبل عيني وأولاد نابت وجبل مغرس وثنية طكوكة، وبين عفيف وبين وجهان(قبيلة بني شبانة) وبني يعلى وبني ورثيلان⁴، وقد حشد مختلف قبائل الناحية تحت قيادته بعدما تحالف مع شيوخها، ومنهم أحمد بن مرزوق شيخ عموشة، وأولاد يحي وأولاد خلف الله وأولاد بلقاسم⁵، وتمكن من جمع 10 آلاف من المشاة و 300 فارس بحلول جوان 1846، ولكن سارت إليه فرقة فرنسية وهزمته، وهزيمته توسعت القوات الفرنسية نحو منطقة قرقور لتحريك تجارة الخشب، وبهذه الهزيمة انفض عنه سكان عموشة، إلا أن مولاي محمد بقي قويا وصاحب المبادرة خاصة لما تزوج من ابنة الشريف بن ساسي أقرباء عائلة بن عبيد حيث تمكن من جمع بعض القوات مشعلا المقاومة من بابور ولكن لم يتمكن من إحداث فارق أو إعادة رسم شبكة المقاومة خاصة بعد تمكن القوات الفرنسية من إخضاع قبائل منطقة ساحل قبلي وتدمير

¹- آغا بن عودة المازري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19م، تح: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1990، ص 100.

²- نفسه، ص 109.

³- Péliissier, Op ; cit, p 354.

⁴- يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج2، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 48.

⁵- المبشر، ع 2، 30 سبتمبر 1847م.

السكان ومللهم، لاسيما وأن القوات الفرنسية قد خربت وأحرقت ما يملكونه كحقول القمح (سياسة الأرض المحروقة)¹.

وقد قاد الشيخ مولاي محمد ثورة كبيرة تمكن على إثرها من تهديد مدينة سطيف تهديدا حقيقيا، مما اضطر السلطات الفرنسية لإرسال حملة كبيرة تمكنت من إبعاده ولكنها لم تقض عليه، أما عموشة فقد التحقوا بقايد ساحل قبلي وأعلنوا له الولاء².

عاد مولاي محمد من جديد على أمل إشعال فتيل الثورة في القبائل الشمالية لمنطقة سطيف، ولكن فطن له شيخ فرجوة بوعكاز بن عاشور، فتصدى له وألحق به هزيمة مكنته من أخذ جميع الأموال التي كان قد سلبها من الفرنسيين والموالين لهم³، فانسحب الشيخ مولاي محمد بمساعدة الزواوي بن عمر أوعمار ومنداسي بن ساسي الذين رافقوه حتى إيلماين بمنطقة برج بوعريج⁴، فانتهت مقاومته وفقد القدرة على المواجهة، ولم يطل الأمر حتى أسر من قبل حاكم سور الغزلان⁵.

ورغم انسحاب مولاي محمد إلا أن تبعات مقاومته لم تنته، فعموشة التي شكلت العمود الفقري لقواته لم تستسلم رغم إعلانها عن بعض الإذعان، واستمرت حتى عام 1850، أين قاد العقيد دو لورمال إغارة في الليل ضد بني مرعي، هذا الأمر جعل سكان عموشة يذعنون أكثر، ويقبلون تنصيب شيخ عليهم⁶، وهو الشيخ منصور بن عبيد، الذي شارك على الأرجح رفقة سعيد بن عبيد في الحملة السالفة الذكر⁷.

في عام 1853م، وبعد ثورة عموشة على شيخهم الذي عينته السلطة الفرنسية، وجهت هذه الأخيرة حملة عسكرية شملت إضافة إلى عموشة، بابور وبني سليمان، أنجر عنها المزيد من الإذعان الذي أبدته هذه القبائل نتيجة الضغط العسكري المفروض عليها، ولكن الكر والفر بينها والقوات الفرنسية قد تواصل، خصوصا وأن هذه القبائل عموشة تهددا، كبدت فرنسا خسائر فادحة في موقعة سيدي عطية⁸، وكان على القوات الفرنسية الانتظار

¹- subdivision de Sétif (1834-1907), correspondance (1834-1883), 61561/qz 984 pju31, 2 ml, p 7.

²- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 15.

³- المبشر، ع 5، 15 نوفمبر 1847.

⁴- subdivision de Sétif (1834-1907)... , Op ; cit, p 8.

⁵- المبشر، ع 15 مارس 1848.

⁶- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 15.

⁷- سفيان لوصيف، المرجع السابق، ص 20

⁸- نفسه، ص 20

حتى عام 1856م، لإرسال 14 فرقة عسكرية انطلقت من مدينة سطيف، سهلت من بناء مركز تاقيطونت وحصن عسكري في المنطقة، ولكن القبيلة لم تقدم أي شيخ كي يحكمها، وبقيت على هذه الحال حتى عام 1864 لتتحرك من جديد، رفقة الكثير من قبائل سطيف على غرار بابور وساحل قبلي وبني مرعي وريغة الأمر الذي قضى على الهدوء في كل جبال بابور والجبال المجاورة، وبعد ضربات عديدة أذعنت عموشة وغيرها من قبائل الناحية وبقيت كذلك إلى غاية اندلاع ثورة 1871م¹.

ولم تكد تنطفأ مقاومة مولاي محمد حتى برز الشريف بوبغلة التي امتدت إلى ناحية بابور التي كانت في ثورة 1849، وكان على القوات الفرنسية حشد الكثير من الجنود لإخمادها، ولم تنتهي أحداث بوبغلة حتى ثار السكان من جديد عام 1856 وخاضوا معارك عديدة كمعركة وادي البارد خراطة وجبل منتانو (قبيلة عموشة)، وقد زاد نار المقاومة اشتعالا رواج إشاعة مفادها أن السلطة الفرنسية تسعى للاستحواذ على أراضيهم وتجنيد أبنائهم في الجيش الفرنسي، واستغل سكان بابور وعموشة وقبائل المنطقة رحيل القوات الفرنسية للقتال في إيطاليا عام 1859م، ليقودوا مقاومة أخرى²

3-مقاومة قبيلة ساحل قبلي: خضعت هذه القبيلة للسلطة الفرنسية عام 1842م، بعد أول عملية عسكرية فرنسية قادها الجنرال سيلاق لكن ذلك كان شكليا فقط مستفيدة من حصانة موقعها وتضاريسها الجبلية، ولكنها شاركت بانتظام في جميع المقاومات التي أبدتها المنطقة ضد الاحتلال الفرنسي، عام 1847، 1849، 1850، 1851، 1853، 1864، 1871م.

1847: مقاومة ضد الجنرال بيدو

1849-1850: مقاومة ضد الجنرال سالاس ودوبرال والعقيد دو أومارال

1851: ثاروا مع القائد بوبغلة ضد الجنرالين بوسكي ولانكو وشاركوا في معركة ثالة اوزرار

1864: تحالفوا مع عموشة وقاموا بثورة في كامل شمال سطيف³

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha Op ; cit, p 16-17.

²- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 49.

³- Rapport de s.c de la tribu de sahel Guebli, Op ; cit, pp 599-600.

4- ثورة 1871: تعتبر ثورة 1871 من أكبر الثورات التي شاركت فيها قبائل سطيف فمعظمها كانت في الصفوف الأمامية، كريغة وعامر وأولاد نابت وساحل قبلي وبني شبانة وبني يعلي وبني ورثيلان وعموشة وبابور، وقد خاض هذه المقاومة سكان القبائل تحت قيادة المقراني¹، وبتأطير الشيخ الحداد² والإخوان الرحمانيين، وعلى رأسهم سي عزيز بن الشيخ الحداد الذي خاض معارك كثيرة، كتلك التي وقعت في مغرس بمساعدة من أولاد نابت ومحمد الصغير بن سعد شيخ ريغة ويلس بن بوزيد، لينتقل بعدها سي عزيز إلى جبل طافات من قبيلة القرقور بمساعدة أعيان من عائلة المقراني وأعيان بابور كالحاج بورحلة وابن جاب الله محمد، وعمر بوعرعور مقدم الزاوية الرحمانية في تابابورت، ولكنهم انهزموا أمام الجيش الفرنسي الأكثر تنظيماً الذي ساعدته بعض العائلات الكبيرة والشخصيات المتنفة في المنطقة كالداودي بن كسكاس وعائلة بني عبيد وابن حبيلس بالمقارنة مع المجاهدين الذين مع سي عزيز الذين كانوا أقل تنظيماً وتأطيراً³.

ورغم الانهزام في هذه الثورة، التي كانت ثورة فلاحين، إلا أنه بعد انتهائها حاولت السلطة الفرنسية الإمام بالحالة العامة للقبائل وإدراك نفسياتها، فأعدت تقريراً بمعية المكتب العربي، تشرح فيه الوضعية العامة لهذه القبائل بعد ثورة 1871، وإعداد دراسة استشرافية لمواجهة احتمال اندلاع ثورة أخرى.

أعد تقرير حول قبائل منطقة سطيف عي عام 1873، تحت عنوان: تقرير حول الحالة السياسية في إقليم سطيف 1873، تطرق فيه إلى مجموعة من القضايا أهمها:

الزعامات المحلية: أشار التقرير إلى أنها مكونة من القياد والعائلات والشيوخ القدماء الذين بقوا أوفياء للسلطة الفرنسية خلال فترة الانتفاضة، منوها إلى أن هذا الارتباط والوفاء مبني على الطموح والمصالح، فهذه

¹ محمد المقراني: ابن أحمد المقراني ولد ما بين (1810-1820) بمجانة، ناحية برج بوعريش، سليل أمراء قلعة بني عباس، خلف والده على رأس مجانة بعد وفاته في عام 1853، ولكن سرعان ما بدأت السلطات الفرنسية تضايقه، مما أثار استياءه، وإضافة لعوامل أخرى كالأزمة الاقتصادية التي ألمت بالجزائر وعدم تجاوب السلطة الفرنسية معها ومساعدة الجزائريين، قرر محمد المقراني القيام بالثورة ضد الفرنسيين والتي عرفت بثورة 1871، التي انطلقت في 16 مارس 1871، لتشمل في وقت وجيز بمساعدة الإخوة الرحمانيين غالبية الجهة الشرقية، ولكن سرعان ما انتهت الثورة خصوصاً بعد استشهاد المقراني في 5 ماي 1871، للمزيد حول المقراني، راجع: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 100-156، ص 189-222.

² الشيخ الحداد: محمد أمزيان الحداد من مواليد 1793 بقرية الصدوق (ولاية بجاية حالياً)، أصوله من بني منصور (البيبان)، عرف بالحداد لامتهان عائلته الحدادة، تعلم على يد والده ثم تنقل إلى زاوية الشيخ أعراب في منطقة أث ايراثن، التي كان يديرها الشيخ علي بن عيسى، الذي لمس فيه ذكاء فرفاه إلى مقدم للطريقة الرحمانية، وعندما عاد إلى الصدوق تولى مشيخة زاوية أبيه، رزق بولدين محمد وعزيز الذين سيكونان سندا له في ثورة 1871، وقد شكل الحداد السند الرئيسي لهذه الثورة وقاد آلاف الإخوان الرحمانيين للجهاد، استسلم للجنرال سوسيه يوم 13 جويلية 1871 وتم سجنه إلى أن توفي في سجنه بتاريخ 29 أبريل 1873، للمزيد حول الموضوع: راجع: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 100-156، ص 189-222.

³ - لويس رين، المصدر السابق، ص 312-117.

الزعامات تعلم أن بعد عدة سنوات أن الرأي العام في فرنسا سوف يضغط لتشكيل حكومة جزائرية مما قد ينعكس عليهم بالإيجاب، لأنهم قد يكونون جزء منها، مشيرا إلى أنهم ورغم الأمل الذي يحذوهم إلا أنهم خائفون من تطبيق مبادئ الجمهورية الفرنسية، فهم أقوىاء مادامت هناك فوضى، ففي ظل الفوضى عززوا نفوذهم، وامتيازاتهم وقطعائهم ومساحة أراضيهم مما انعكس على مستوى تأثيرهم على الآخرين¹.

وحذر التقرير من مغبة هذا النفوذ واستغلاله كما استغله المقراني من قبل فهو سيقبض ولاءهم لسلطة الاحتلال حيث يمنحهم شعورا بالقوة، وقد بانت بوادر حول هذا الأمر، فهم حاليا ورغم تمسكهم بالأمل إلا أنهم يجهزون أنفسهم لعواقب وخيمة، إذ أعطت لهم ثورة المقراني تصورا حول ما يمكن أن يحدث، ولهذا فقد عملت سلطة الاحتلال إلى تقليص نفوذهم كما أشرنا سابقا بالمقارنة مع الماضي، وأوصى معد التقرير إلى أنه من الضروري التحلي عنهم، وإن كان هذا سيولد أزمة، ولكنها ستكون آنية².

الروح الجماعية للقبائل: أشار التقرير إلى أن الروح المعنوية للقبائل بعد هذه الثورة مرتفعة بالرغم من التبعات الوخيمة التي سلطتها السلطة الفرنسية على عموم المشاركين فيها، وأكد أن هذا " التمرد " قد ضرب سنوات من العمل لفرنسة الجزائر عرض الحائط، كما انحصر بسببه الاحتلال الذهني الذي رافق الاحتلال العسكري، وسيكون استرجاعه صعبا جدا، حيث توسعت الهوية كثيرا بين سكان القبائل والسلطة الفرنسية، خصوصا وأن رد الفعل الفرنسي كان قاسيا (قتل، وتشريد، ومصادرات، وتهجير، ونفي)، ولاسترداد الاحتلال الذهني تستلزم لذلك مدة طويلة من التحضير والتأثير³.

5-تقديم العرائض الشكايات: تعتبر المقاومة بالعرائض الشكايات من أول أنواع المقاومة التي عرفتھا الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي حتى وإن لم تكن منتشرة بقوة على اعتبار أن المجال فُسح لقصبة البندقية كي تتكلم، وكانت من أول العرائض التي قدمت لسلطة الاحتلال تلك التي قدمها أعيان الجزائر العاصمة إلى الوسيط الإنجليزي باعتباره ممثل أملاك الغائبين بعد احتلال العاصمة، والذي بدورها نقلها إلى القائد الفرنسي بوتزل، وقد

¹- Correspondance confidentielle 3 Octobre 1871- 9 Avril 1880, p 32

²- Ibid, p 33.

³- Ibid, p 35-36.

طالب المحتجون بإرجاع الأراضي التي استحوذ عليها كلوزيل والتي كانت التابعة للأوقاف عام 1830م، رغم تعهد دي بورمون بحمايتها بمقتضى اتفاقية الاستسلام الموقعة بينه وبين الداي حسين، إلا أن طلبهم قوبل بالرفض¹.

وتواصل الاحتجاجات، ومنها احتجاجات أولاد بوحنيفة وأولاد سليمان التي تعود إلى سنة 1867م، حيث كانوا يذهبون إلى باب المكتب العربي ويتجمعون هناك حاملين محارثهم الخشبية، وحبالهم المصنوعة من الحلفاء مطالبين بإرجاع أراضيهم والكف عن مصادرتها، لأن ذلك سيؤدي إلى شنقهم وموتهم وهي الرمزية التي يحملها الحبل حول الرقبة².

احتجاجات قبائل منطقة سطيف: تزخر سجلات السيناتوس كونسيلت بمجموعة هامة من نصوص العرائض والشكايات، التي تبين بشكل لا يرقى إليه الشك مقاومة القبائل الجزائرية بأسلوب حضاري رفيع، ينم عن وعي ما يحيط بها من تعسف، ونظرا لكثرتها فإننا سنقدم مجموعة منها فقط بما يتيح الإمام بالموضوع:

من قبيلة قرقور: اشتكى السيد الأخضر بن هواري ونيابة عن إخوته أن أرضا لهم قد صودرت من قبل السلطة الفرنسية، رغم كونهم قد اشتروها بمالهم، وقدموا جميع الوثائق التي تثبت ذلك، مؤكدين أن إلحاق أرضهم بمصالح الدومين فيه انتهاك صارخ لحقوقهم، ولكن السلطة الفرنسية رفضت الدعوى، بحجة أن الأرض قد تُركت دون زراعة أكثر من المدة التي ينص عليها القانون، وبالتالي ألحقت بأمالك الدومين³.

شكوى قبيلة بني ورثيلان من أعمال التحديد والتقسيم: اشتكى سكان هذه القبيلة من الضرر الذي لحق بهم، نتيجة أعمال التحديد التي قامت بها اللجنة المعدة لذلك، مبينين في عريضة موجهة إلى سلطة الاحتلال أن تقسيم قبيلتهم بين الدواوير، سيؤثر عليهم سلبا من الناحية الاجتماعية كونه سيقطع روابط القرابة باعتبارهم ينحدرون من جد واحد مشترك، واقتصاديا لأنه سيحرمهم من مداخيل أرضهم خاصة الثروة الوحيدة في القبيلة أشجار الزيتون والتين، حيث تقع هذه الأشجار كلها في مجال معين من القبيلة، وعند القيام بعمليات التحديد ألحقت كل تلك الجهة بدوار محدد، مما انجر عنه فقدان الجميع لثروتهم ومصدر رزقهم، بفقدان أراضيهم التي تقع فيها أشجارهم من التين والزيتون، وقد قيدت الشكوى بتاريخ 22 نوفمبر 1898م⁴.

¹ - عدة بن داهة، المرجع السابق، ج2، ص 69-70.

² - نفسه، ص 87.

³ - Rapport de s.c de la tribu de Guergour, Op ; cit, p 203.

⁴ - نص العريضة، الملحق رقم: 08، عريضة مستخرجة من سجل قبيلة بني ورثيلان.

شكوى قبيلة بني يعلى من الحرمان من خدمات الغابة: تعتبر الغابة من المصادر الرئيسية لحياة القبائل، ولكن السلطة الفرنسية صادرتها بموجب القوانين العقارية المختلفة لاسيما القانون 16 جوان 1851م، وقد شمل هذا القرار قبيلة بني يعلى التي حرمتها السلطة ممثلة في حارس الغابات فورستي مما تجود عليهم الغابة من خشب وغيرها، وقد قدمت الشكوى إلى مفتش قرقور ونائب محافظ بجاية.¹

عريضة شيخ قصر الطير يحي الشريف بن أحمد سليمان: تعتبر من أهم العرائض التي قدمت من قبل أعيان منطقة سطيف إلى السلطة الفرنسية، دفاعا عن مصالح قبائلهم لما لحق بها من ضرر نتيجة سنوات من الضغط والإرهاق، وتكمن أهميتها في كونها جاءت شاملة تطرقت للكثير من القضايا التي كانت تنغص حياة القبائل، كما أنها صدرت من شخصية منتفذة خدمت عند السلطة الفرنسية إلا أن ضميره لم يسمح له سوى أن يكون مدافعا عن قبيلته بالخصوص والقبائل السطايفية والجزائرية على العموم ومن أهم ما قدمه فيها نجد:

القوانين العقارية: التي طالت القبائل، مبينا أنها لم تعد إلا بالضرر عليها، لأنها أتلقت ما كان بين أيديهم من أراضي وجلبت لهم الخسائر، ضاربا المثل بثلاث قبائل كبرى في المنطقة وهي مجانة وعامر وريغة، هذه الأخيرة فقدت معظم أراضيها ووزعت على مختلف المصالح الفرنسية، منها 6000 هكتار من الغابات للدومين، 40071 من جانب الخمس، و1500 هكتار من السبخات، كما استحوذت البلدية على 30541 هكتار.²

الحالة المدنية: التي كرستها السلطة الفرنسية، حيث أشار إلى أنها غير لائقة بالمسلمين وما رضي بها الناس إلا قهرا، وقد كان في هذا محقا خاصة بسبب الانعكاسات التي انجرت عنها، لاسيما ما تعلق بخلط الأنساب وتضييعها.

- الربا: الذي أرهاق الجزائريين بسبب أنهم ملزمون بتسديد فوائد الديون الكثيرة التي تصل في بعض الأحيان إلى ما فوق 100%، كما أنه حرام وفق التشريع الإسلامي ولا يلتجأ إليه المسلمون إلا للضرورة القصوى، مشتكى من الفوائد الضخمة التي تثقل كاهلهم، وتدفعهم دفعا للتخلي عن الأرض، ووضح أنها تبلغ 30 فرنك لكل 100 فرنك.

¹ - نص العريضة، الملحق رقم: 09، عريضة مستخرجة من سجل قبيلة بني يعلى.

² - الشيخ يحي الشريف بن أحمد سليمان: نص عريضة الشيخ يحي الشريف بن أحمد سليمان، مؤرخة في 28 جويلية 1891، مطبعة روك، سطيف، الجزائر، 1891، ص 54.

- **الضرائب:** التي كانت كبيرة ولا يستطيع السكان دفعها.

- **رفض التجنس:** بالجنسية الفرنسية، لأن ذلك سوف يخرجهم من دينهم، لذلك فهو ضروري إبقائهم على حالهم، يتمتعون بأحوالهم الشخصية التي حددها الدين الإسلامي.

- **إلغاء الخدمة العسكرية الإلزامية.**

- **تعيين ممثلين للجزائريين في المجالس الفرنسية.**

- **الاحتفاظ بالقوانين الشخصية** فيما يخص المعاملات الإسلامية كالزواج والطلاق ونحوهما، مع الاحتكام إلى القوانين الفرنسية فيما يخص الجنايات والجنح والشيء المثير للانتباه في هذه العريضة أنها تحمل صبغة وطنية، فهو قد تكلم عن العرب والقبائل وأن لا شيء يفرق بينهما، ومحاولا في الوقت نفسه أن يطرح جميع مشاكل الجزائريين¹

وربما هذه العريضة تدخل في إطار معالجة النخبة الجزائرية للمشاكل الجزائريين مع بداية القرن 20، حيث بدأت تنتشر أكثر فأكثر طريقة جديدة للمقاومة، في إطار النهضة الجزائرية وبوادر الحركة الوطنية.

6- رفض تعيين الشيوخ وقتلهم : وهو ما حدث مع عموشة التي رفضت أكثر من مرة تعيين شيوخ يمثلونها، وهذا الرفض، لديه صبغة رمزية معناها، فحين أراد السلطة الفرنسية تنظيم المنطقة أرسلت محمد بن الحاج إلياس المدعو علي بن الخادم إلا أن سكان عموشة اغتالوه بعين سلطان، ثم تم تعيين بلقندوز فحاول النزول من جهة جبل مقرس لكنه أجبر على التراجع بعد تصدي السكان له، ليعن بعده السعيد بن عبيد الذي تمكن من هزيمتها لكن دون تمكنه من إجبارها على الخضوع للفرنسيين، ثم عين بعد منصور بن عبيد عام 1851 إلا أن عموشة ضلت من أشرس القبائل في ناحية بابور²، رفض السلطة الفرنسية ككل، كما تعرض بعض القياد للقتل على يد سكان القبائل ومنهم قبيلة بني يعلى التي أعلنت خضوعها شكليا عام 1844م، وتم على موجب هذا تعيين سي محمد الشريف بن السماقي الذي قتل على يد سكان هذه القبيلة الذين وصفتهم سجلات السيناتوس

¹ - أحمد بن سليمان، المصدر السابق، ص 55-56.

² - سفيان لوصيف: احتلال منطقة عموشة وتصاعد المقاومة الشعبية (1840-1920)، مجلة قضايا تاريخية، ع9، 2018، ص 169.

كونسيلات بالحاقددين على فرنسا، ثم ترأسهم عام 1850م قايد آخر وهو سي أحمد بن جدو على كره منهم، حيث لولا فرق القوم التي بقيت تسانده لحذا حذو سلفه .

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن مقاومة الرفض كانت سائدة ضد الاحتلال، حيث أصبحت القبائل أكثر انغلاقا وانكماشاً إلى الداخل قصد مواجهة الخطر الخارجي.

7-التضامن القبلي: يعتبر التضامن من الأسس التي تقوم عليها القبيلة خاصة أثناء الأزمات، ولم تشهد الجزائر أزمة أو محنة أكثر من الاحتلال الفرنسي فخلال الأزمة الفلاحية بالجزائر عام 1867، والتي تأثر بها السكان نجد تضامنا كبيرا لا يملك أحد سوى الوقوف له وقفة احترام.

ففي عز الأزمة هناك قبائل أو فروع قبائل تنازلت عن مساحات وأوقفتها على قبائل أخرى للرعي، رغم أنها كانت بحاجة إليها، وهذا قصد مواجهة المحن المترتبة عن الجفاف والقحط التي طالت غالبية القبائل الجزائرية عموما والسطايفية على وجه الخصوص، وقد أحصينا في سجلات سيناتوس كونسيلات أكثر من عشرين عقد وقف بهذه الصيغة ومنها:

في قلعون: وقف من عقلاء أولاد سي الشيخ أحمد بن عبد الرحمن وحمو بوغلووس وأحمد بن عبد القادر والسعدي بن الحاج في المكان المسمى تاسيرا لصالح سكان قلعون عموما¹.

في منتانو: وقف من عقلاء فرقة أولاد حمزة وهم عمار بن بعاع وأحمد بن محنان وعبد الرحمن هواري وعلي بن عطية ومحمد بن السعيد، في المكان المسمى شعبة الكاغد على جميع سكان منتانو للرعي في تاقيطونت، وقف من عقلاء جماعة منصور بن السعيد وهم عمار بن أحسيس وحمو بن يعقوب وعمار بن باج والعمرى بن عبد القادر والحسين بن بلقاسم في المكان المسمى أخندوق على جميع سكان دوار تاقيطونت لرعي مواشيهم والانتفاع بها انتفاعا مؤبدا دائما².

¹- Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 386.

²- Ibid, p 345.

المبحث الثالث: تشييد المراكز الاستيطانية كإجهاز نهائي على القبيلة

لقد تمكنت السلطة الفرنسية من السيطرة على قبائل سطيف، باستعمال مختلف الأساليب، واستطاعت تفكيكها كما فعلت مع عامر، ولكن قبائل منطقة سطيف، لم تكتف بمشاهدة السلطة الجديدة تقوم بعملها، ولكنها قاومت بمختلف الطرق الممكنة، ولكن تلك المقاومة-خاصة العسكرية- لم تنجح نظير عدم تكافؤ القوى، فمضت السلطة الفرنسية في عملية التفكيك، فبالموازاة مع العمل العسكري، أخذت تشرع القوانين العقارية، لكي يسهل عليها القيام بالنشاط الاقتصادي الذي هو هدف أساسي، فاتبعت سياسة زراعية ومالية تتناسب مع توجهها، كما سعت إلى إقامة المراكز الاستيطانية وتوطين المعمرين في قلب القبائل، لتحقيق التفكيك النهائي، والقضاء على القبيلة بشكل دائم، فلن ينجح الاستعمار دون تثبيت المعمرين، وهو ما سنتناوله في هذا الفصل.

المبحث الأول: تنفيذ القوانين العقارية على قبائل سطيف:

لا يختلف اثنان في كون الدافع الاقتصادي ساهم بشكل كبير في استعمار الجزائر، إذ تزامن هذا العمل مع انطلاق الثورة الصناعية التي عرفتها أوروبا خلال القرنين 18 و19م، فالجزائر بالنسبة لفرنسا سوق جيدة لإنتاج ما تحتاجه من سلع ومن مواد أولية لازمة لدفع الصناعة، وتصريف ما يفيض عن حاجتها إليها.

وبما أن الأرض هي الثروة الوحيدة المعتبرة القابلة للاستثمار خلال فترة القرن 19 في الجزائر، فقد كانت أول ما عشت بها الآلة الاستعمارية الاقتصادية، فبمجرد تمكن الاحتلال من العاصمة، بدأ في تنفيذ سياسة الاستيلاء عليها ووضع اليد على الأملاك المتاحة، فصادر أملاك الأوقاف أولا بقانوني 8 سبتمبر و7 ديسمبر 1830م، وهي كثيرة جدا رغم المعارضة الشديدة التي أبدتها المسؤولين عنها، كما أصدر بارتزان قرارا في 10 أوت 1831م، يقضي بمصادرة أملاك الأتراك الذين غادروا الجزائر، باعتبارها (فرنسا) هي الورثة للحكومة السابقة، ومن حقها أخذ تلك الممتلكات، رغم الوعود المقدمة سالفا في إطار معاهدة الاستسلام¹.

ثم، وطوال ربع قرن تقريبا، بقيت الفوضى تشوب الحالة العقارية، ولكون هذا لا يخدم المصالح الاقتصادية الفرنسية، خاصة مع ظهور مستجدات واحتياجات الاستيطان، فقد سعت سلطة الاحتلال إلى تنظيمها بما يلائمها، ولكن المهمة لم تكن سهلة بسبب عدة عوامل، كإتلاف الكثير من الوثائق العائدة للفترة العثمانية خصوصا بعد احتلال العاصمة أين أحرق الجنود الفرنسيون الكثير منها دون عناء البحث عن محتواها، وذهاب

¹ - Luis Rinn, Op ; cit, p 2.

الموظفين الأتراك الذين كانوا ينظمون العملية، واختفاء السجلات، وكلها ذرائع استغلها الاحتلال لإصدار أوامر وقوانين تتماشى مع مصالحه ومصالح المعمرين¹.

وابتداء من 1844م إلى غاية بداية القرن العشرين، توالى التشريعات العقارية، لتمس جميع أنواع الأراضي خاصة أراضي القبائل، وأحدثت فيها تغييرات كثيرة، ومن أبرز القوانين التي كان لها التأثير المباشر والمتواصل نجد:

1- قانون 21 جوان 1844م:

ينص على حق السلطات العسكرية في مصادرة أراضي القبائل التي: " تقترف أعمالا إجرامية " ضد فرنسا أو ضد القبائل الموالية لها بغض النظر عن نوعها وشدتها، أو التي لم تحرث أراضيها وتركها بورا، أو تلك التي رحلت عن أراضيها وتركتها مهما كان السبب، إلا إذا عادت في مدة لا تتعدى الشهر.

وقد سبب هذا القانون أزمة للقبائل، خاصة في دعم مقاومة الأمير عبد القادر، فما وُضِع هذا القانون سوى لتنفيذ القبائل عن مساندته وإبعادها عنه وإبقاء سكانها فلاحين وضمان عدم تحولهم إلى محاربين كما أوصى بذلك المنظرون الفرنسيون على غرار دوطوكفيل، حيث وُضعت القبائل بين نارين، فمن جهة لا بد عليها من مساندته ومقاومة الاحتلال، ومن جهة أخرى ستعرض للعقوبات إذا ما فعلت ذلك، كما أن ضغط الآلة العسكرية للسلطة الفرنسية أبعد القبائل عن أراضيها، وحال دون رجوعها إليها في المدة المحددة، وهي في الأصل فترة قصيرة لا تتماشى مع واقع الحال، وتجدد الإشارة إلى أن هذا القانون من اختراع المارشال بيجو للقضاء على المقاومة الشرسة التي لاقته خاصة مقاومة الأمير عبد القادر².

2- قانون 1 أكتوبر 1844م:

تطرق القانون الأول لعدة مسائل، فقد ثبت وأضفى الصبغة القانونية على ما تملكه الكولون من عقارات، بغض النظر عن طريقة الحصول عليها، كما ثبتت صلاحية العقود التي يحملونها دون الأخذ في عين الاعتبار أنها

¹ - الطاهر ملاحسو: "نظام التوثيق في ظل التشريعات العقارية بالجزائر (1830-1962م)", مداخلة مقدمة ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962م)، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، بالتنسيق مع المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، 2007م، ص 27.

² - إبراهيم لونيسي: بحوث في التاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر إبان الاحتلال، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 109.

عرفية فقط وغير موثقة وما فيها من لبس باعتبار الكثير منهم حصل على أملاكه بطرق مشبوهة¹، كما نص على أن جميع المعاملات العقارية سوف تكون وفق القوانين الفرنسية، ولا بد من التحقق من سندات الملكية لدى العرب من حيث الصحة².

كما سمح هذا القانون لمصلحة أملاك الدولة بالاستحواذ على جميع الأراضي غير المزروعة التي لا يثبت أصحابها ملكيتها بعقد صريح مسجل في المصالح الإدارية الفرنسية، حيث لجّل زرع الأرض من عدمه معيارا لتنفيذ هذا القانون³.

إن توفر العقود والاستئناس بها يثبت الملكية، لكن ليس في هذه حالة، إذ انجرت عنه مشاكل عدة للجزائريين، خصوصا مطالبتهم بتقديم العقود في أجل أقصاه 3 أشهر لدى مدير المالية في الجزائر العاصمة، وهو أمر غير قابل للتحقيق لعدة أسباب كالانتشار الكبير للسكان، وبُعدهم عن العاصمة وعراقيل التنقل، وصعوبة سماع الأخبار، إضافة إلى أن غالبية السكان لا يملكون عقودا مكتوبة، كونهم توارثوا أرضهم بشكل عرقي فقط من آبائهم وأجدادهم، وحتى في حالة وجود سندات ملكية، فإن الأمل في البقاء كملاك للأرض بالنسبة للجزائريين أمر مُستبعد بسبب الشروط التي فرضتها الإدارة الاستعمارية لإثبات صحة العقود، حيث يجب أن تكون دقيقة، ومثبتة قبل 5 جويلية 1830م، وموقعة من شخص رسمي ومُعترف بأهليته لإثبات العقود وإبرامها كالقضاة والمفتين، وإلا اعتُبرت الأرض شاغرة وأُلحقت بأملاك الدولة لتفعل بها ما تراه مُناسبا، كمنحها للأوروبيين مثلا، وبانتهاء هذه العملية، فقد الجزائريون من ممتلكاتهم (أراضيهم) ما يُقارب 150 ألف هكتار لعدم امتلاكهم العقود أصلا أو اعتبار عقودهم غير قانونية⁴.

لم تُأخذ الكثير من العقود بعين الاعتبار، وأدرجت في صفة "غير قانونية" لأسباب عدة، مثل كونها غامضة ومبهمة ومحركة من أشخاص غير رسميين، مما جعلها غير مؤهلة لإثبات الملكية، وفي حالة ما إذا حاول الجزائريون اللجوء للقضاء لإثبات صحة عقودهم والاحتفاظ بأراضيهم، كانت مصاريف التقاضي تُثقل كاهلهم، ويفقدون المزيد منها ببيعها أو رهنها، نتيجة بحثهم عن موارد مالية لمواصلة النزاعات القانونية التي لن تكون في صالحهم أبدا، فكم هو صعب الحصول على حق في محاكم منحازة.

¹ - عدة بن داهة: الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، ج 1، المرجع السابق، ص 317.

² - Calvalli Marcel : Céréales en Algérie, Thèse pour le doctorat en droit, Faculté d'Alger, 1935, P 30.

³ - خثير عزيز : السياسة العقارية الفرنسية بالجزائر في القرن 19م، م.ج.ب.د.ت، 2م، ع 4، ديسمبر 2016، ص 182.

⁴ - Laynaud: Notice sur la propriété foncière en Algérie, Giralt, Alger, 1900, p 34-35.

هذا، وقد اعتُبر ترك الأراضي بورا وعدم زراعتها بحسب قانون سببا لفرض ضريبة قدرها 10 فرنكات للهكتار الواحد وهو مبلغ كبير جدا بالنظر إلى حالة الجزائريين المالية، ومن لم يدفع فسيُفقد أراضيه تلقائيا بسبب الإهمال والغياب، ويتم إلحاقها بالدومين والمصالح العامة¹.

3- قانون 16 جوان 1851م:

يرى لايونود أن هذا القانون يُعدُّ ميثاقا للعقار في الجزائر لأنه عالج الكثير من القضايا الشائكة التي انجرت عن القوانين السابقة، فقد اعترف مثلا بملكية القبائل لأراضيها على قدر المساواة مع الأوروبيين شرط توفر عقود الملكية، وألغى أيضا قرار نزع الأراضي بسبب عدم زراعتها، كما تطرق إلى مسألة الغابات².

كما أجاز هذا القانون التعامل بالقانونين: التشريع الإسلامي والقانون الفرنسي، فللمسلمين الحرية في الاحتكام للقانون الإسلامي عند التعامل فيما بينهم، ولكن عند الدخول في صفقات ومعاملات مع الأوروبيين، لا بد أن يتم ذلك وفق القانون الفرنسي³.

لكن، من جهة أخرى، يرى رجل القانون جودان أن هذا القانون هو نظرية السلب والنهب، أو قانون الابتزاز، لأنه بالموازاة مع إقرار السلطة الفرنسية حق القبائل في الملكية، اشترط عليها التنازل عن جزء مما تملكه من أراضي، بحجة أنها تملك أكثر مما تحتاجه، وما يؤكد هذا الطرح هو أن القانون جاء تحت ضغط الكولون الراغبين في الحصول على مزيدٍ من الأراضي⁴.

أما جيمت فيرى أن هذا القانون غامض نوعا ما، لأنه يجمع بين عدة متناقضات، فقد أقر للقبيلة حق ملكية أراضيها الموثقة، ولكن في الوقت نفسه أقر حق السلطة في ملكية أراضي تلك القبائل التي ليس لها عقد حيازة قديم، وهو ما يعيدنا إلى القوانين السابقة، كما سمح بإرساء اللبنة الأولى بما يُعرف بالدومين العام، حيث أعطى تصنيفا للأمولاك غير الخاصة وألحقها بالدولة (الملكية العامة)، وشملت هذه الأملاك قنوات السقي، قنوات الملاحة، العيون، الآبار، البحيرات المالحة، مجاري المياه، الينابيع وغيرها⁵.

¹- M. Laynaud, Op ; cit, p 30.

²- Ibid, p 43.

³- Ibid, p 44.

⁴- إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 17-18.

⁵- بن يوسف محمد الأمين: ملكية الدومين وتطور الاستيطان الفرنسي في الجزائر (1830-1870)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة وهران، الجزائر، 2013/2014، ص 96.

ومن أهم ما جاء أيضا في القانون، ما تعلق بأراضي الغابات وضمّها إلى أملاك الدولة، حيث صُودرت ما مساحته 200 ألف هكتار، حيث جاء في القانون 220 مادة تمنع كلها جميع الخدمات التي تقدمها الغابات للقبائل، وبعد هذا القانون أصبح العيش بجوار الغابات أمرا لا يُطاق وحياة الكثير من القبائل على المحك، حيث تنزل العقوبات القاسية على أبسط الأمور التي تعد في نظر القانون مخالفات مثل جمع الحطب¹.

3-1- حرمان القبائل من خدمات الغابة:

تم إلحاق الغابات الجزائرية بمصالح الغابات كما قلنا بموجب قانون 16 جوان 1851م، وذلك لاعتبارها فضاءات شاغرة ومحررة من أي ملكية ولا يمكن لأحد المطالبة بها²، وكان هذا الإلحاق بطريقة متحايلة وماكرة، حيث استند إلى قوانين إسلامية، فكل أرض غير مُحياة بواسطة الزراعة هي أرض دون مالك، وليس إدماج الغابات فحسب كما هو معروف عنها (أماكن ذات أشجار كثيرة ومساحات واسعة)، ولكن شمل القانون حتى الأجمات الصغيرة أيضا³.

بلغت مساحة الغابات التي تم التعرف عليها حتى عام 1838م بمليون هكتار تقريبا، واعتبرت ملك للدولة، ثم توسعت هذه المساحة لتبلغ 750 ألف هكتار إضافية عام 1870، لتضاف إليها 550 ألف هكتار بعد القانون الإمبراطوري المصغر 1887م، وبلغت مطلع القرن 20م، ما مقداره 3.5 مليون هكتار تقريبا موزعة حسب المصالح كالتالي⁴:

المصلحة	مصالح الغابات	السلطة العسكرية	الدومين	البلديات	ملكيات خاصة
المساحة (هـ)	2 503 336	744 356	249 861	280 685	468 495

الشكل رقم 23: جدول يُمثّل مساحة الغابات التابعة لكل مصلحة حتى عام 1887م.

¹ - عدة بن داهة، المرجع السابق، ص 329-33.

² - شارل روبر أجيرون: المسلمون الجزائريون وفرنسا (1871-1919م)، ج2، تر: م. حاج مسعود وأ. بكلي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007م، ص200.

³ - M. Rebattu : le Régime Forestier de l'Algérie, Extrait du Bulletin de la réunion d'études Algériennes, Paris, 1900, p 3.

⁴ - ibid, p 3.

أما من حيث الأشجار ونوعيتها، الشكل التالي¹:

النوع	صنوبر حليبي	بلوط أخضر	الفلين	الزان	أرز	حلفاء
المساحة(هـ)	900 (ألف)	600	440-342	150	135	800

الشكل رقم 24: جدول يمثل مساحة كل نوع من الأشجار في الغابات الجزائرية.

الملاحظ من هذا الجدول اهتمام الفرنسيين بالغابات، خصوصا الأشجار ذات الفائدة الصناعية، والتي يُمكن أن تساهم في الاقتصاد الفرنسي، فكل هذه الأنواع بإمكانها إرساء قاعدة صحيحة للانطلاق في تأسيس صناعة خشبية مهمة.

ولتنظيم الغابات والتحكم فيها أكثر، أصدر قانون 20 أوت 1881م، القاضي بإلحاق هذا المجال بوزارة الفلاحة، وفي عام 1900م تكون جهاز محافظة الغابات من 3 محافظين (محافظ لكل مقاطعة)، 15 مفتش، 19 نائب مفتش، 20 عون حراسة، 88 دركي وحارس، 200 مأمور أهلي ومترجمين وشواشة².

3-2- أهمية الغابات لقبائل سطيف:

تلعب الغابة دورا مهما في حياة القبائل الجزائرية، فيذكر شارل رويير أجيرون على لسان أحد الإعلاميين الذي قال عام 1882م: "كانت الغابة في الزمن الغابر تفي بنصف بل بثلاثي ضروريات معاش الأهالي"، وإذا ما استثنينا الأيام المثلجة والمطيرة، فهي مرعى دائم لقطعان الماشية، التي كان عددها يتحدد بما تملكه القبائل من غابات وأجمات في أراضيها، وبدورها كانت هذه القطعان تمثل ثروة مهمة، وكان الرعي يمثل نشاطا أساسيا للقبائل وبعضها لا تمارس نشاطا آخر غيره، وبفعل مصادرة الغابات، اختفت القطعان الكبيرة، واختفت معها القبائل التي تمتهن هذا النشاط³.

وعلى سبيل المثال قبيلة ريغة الظهارة التي كان للغابة دور كبير في نشاطها الاقتصادي وثروتها التي تمتلكها، خاصة في عدد رؤوس الماشية لكل الدواوير التي تنتمي لها، وهو ما نستوضحه في الجدول التالي:

¹- M. Rebattu, Op ; cit. p 4

²- Calvalli Marcel, Op; cit. p 144.

³- شارل رويير أجيرون، المرجع السابق، ص 195.

عدد الماعز	عدد الغنم	الدُّوار	
11651	8369	أولاد تَبَّان	تسكن الجبال والغابات
11983	5196	أولاد براهيم	
6546	7826	أولاد سي أحمد	
534	3726	لا ربعا	
344	1825	أولاد عبد الواحد	
155	2166	بلاد عين تيتست	
89	1471	بلاد محجوب	
78	1341	بلاد راس الماء	
780	2108	ولاد محلة	
106	722	بلاد قبلة زديم	
360	1476	أولاد بوظهرة	
84	1094	بلاد شطّ المالح	
301	1925	بلاد شعبة قصر الطير	
361	1771	بلاد عين القصر	
33372	41016	16 دوارا	المجموع

الشكل رقم 25: جدول يمثل ما تملكه فروع قبيلة ريغة من رؤوس الغنم والماعز¹.

أعد الجدول في 12 جوان 1866م.

نلاحظ من خلال الجدول، الدور الذي تلعبه الغابة في تحديد عدد رؤوس قطعان القبائل، حيث نجد الدواوير الثلاث الأولى التي تسكن أو تحتوي مجالها على غابات تملك قطعانا أكثر وبكثير من الدواوير التي تسكن السهول والسبخات، فأولاد تبان وأولاد براهيم وأولاد سي أحمد، ثلاثتها تملك تقريبا نفس ما تملكه الدواوير الأخرى مجتمعة فيما يخص الغنم، أما من حيث الماعز الذي يعتبر حيوانا جبليا، فهو أكثر من ضعف ما تملكه الدواوير الأخرى.

ليس الرعي فقط، ولكن تقدم الغابة خدمات أخرى لا تقل أهمية فتعتبر موردا هاما لجمع حطب التدفئة الضروري لفصل الشتاء القارس في منطقة سطيف، أو الحصول على الجذوع اللازمة لبناء المنازل والخيام والمحاريث

¹ - Rapport de s. c de la tribu de Righa Dahara, Op ; cit, p 53.

وعصي الأدوات الفلاحية وصناعة القطران والفحم، أو الإتيان بالأغصان من أجل تغذية المواشي في الأيام المثلجة والمطيرة أين يكون قصد الغابات للرعي مستحيلا، وقد احتفظت قبائل سطيف بهذه الحقوق كما وضحنه في الفصل الثاني

وهذه الحقوق التي كانت مع بداية الاحتلال سرعان ما تمت مصادرتها نتيجة تطبيقات قانون 16 جوان 1851م، ففي العام 1854م أُصدر قرار يمنع هذه القبائل من كل هذه الامتيازات، ويبدو أن ترك هذه القبائل تتمتع بها لمدة معينة كان لدوافع استعمارية، فالسلطة الفرنسية لم ترغب الدخول في صراعات متعددة الجبهات، حين تبدأ في مصادرة أملاك القبائل وتحدد وجودها¹.

أما في شمال سطيف، حيث تغطي الجبال والغابات على الأراضي، ولا يوجد غيرها تقريبا، فقد كان هناك حصول على حقوق الاستغلال، فقبيلة بني يعلى استفادت من بعض الخدمات التي تقدمها الغابة كالأعشاب لإطعام الحيوانات والخشب لبناء المنازل والمحارث والأدوات الفلاحية والرعي، وهذا وفق قرار الحاكم العام المؤرخ في 4 ديسمبر 1887 موقرار 3 أفريل 1888م².

ويظهر هذا القرار منافيا لقانون 16 جوان 1851م، ولكن ربما تكون هذه الاستفادة نتيجة تأثير عائلة بن سماتي التي قدمت خدمات جليلة للسلطة الفرنسية وساهمت في توسعها هناك، كما أنه قد يكون رغبة من السلطة الفرنسية في التأثير على السكان وربطهم بمجموعة من المصالح خصوصا وأن هذه المنطقة معروفة بعداوة فرنسا وما يمت إليها من صلة، كما أن تميز المنطقة بالجبال والغابات وعدم وجود موارد كثيرة غيرها كما قلنا آنفا لم يتيح الفرصة لوجود نشاطات أخرى فتم الإبقاء على الأمور كما كانت عليه.

ورغم هذا القرار، فإن قبيلة بني يعلى قد عاشت جحيم تعسفات حارس الغابة المدعو فورستي الذي حرّمها من كل هذه الامتيازات رغم القوانين التي أصدرت لصالحها، حيث تجاوزها كلها وأنزل بها الغرامات والعقوبات، وهو ما يظهر من الاعتراض الذي قدمه سكان دوار ثليجان للحاكم العام يشكون تضررهم منه .

فلم يكن أي أحد في منأى من العقوبات، إذ تم تنفيذ هذا القانون من قبل السلطات الفرنسية على القبائل بكل ما يحمله من قسوة رغم علمها بما تمثله الغابة من أهمية في استمرارية هذه القبائل، وبما سينجر عنه من

¹- Rapport de s. c de la tribu de Righa Dahara, Op ; cit p 65.

²- Rapport de s. c de la tribu de Beni Yala, Op ; cit, p 54.

انعكاسات سيئة عليها بقطع أحد أهم سبل ضمان البقاء، فجاء على لسان بيليسييه: "إننا نجازف بحكم هذا المظهر الأخير بتخطي الحدود التي تسمح لهم بتأمين شروط حياتهم".¹

فإلى غاية 1890م، حررت إدارة الغابات 96570 دعوة قضائية ضد الجزائريين، فالرعي ممنوع والحصول على الحطب ممنوع والسكن بجوار الغابات ممنوع، وحتى هروب الحيوانات إلى الغابة يحتسب مخالفة وتصدر بشأنها عقوبة ويصادر الحيوان²، وشملت العقوبات الغرامة الجماعية، وهي عقوبة فيها من البشاعة الشيء الكثير، فكيف يُعاقب شخص عن عمل قام به شخص آخر، فجاء في القانون الصادر بتاريخ 21 فيفري 1903م حول الغابات: "في أي إقليم كان مدنيا أو عسكريا، وبصرف النظر عن الإدانات الفردية التي يتعرض لها مرتكبو الجنايات أو الجنح أو المخالفات المتعلقة بجرائق الغابات أو شركائهم، فإن الدواوير والقبائل والأقسام تتعرض لغرامات جماعية".³

وتجدر الإشارة إلى أن هذا القانون (التغريم الجماعي) سنه بيجو في إطار سياسته "الأرض المحروقة" الساعية للقضاء على مقاومة الأمير عبد القادر، ثم ألغاه جيروم نابليون أخ الإمبراطور نابليون الثالث أثناء عمله بوزارة الحربية، ليعاد العمل به في إطار قانون 17 يوليو 1874م المعد لمكافحة حرائق الغابات.⁴

4- قانون 22 أفريل 1863م:

قانون جاء به الإمبراطور نابليون الثالث، بمساعدة مجموعة ممن يطلق عليهم محبوا العرب، حيث أدى انتزاع الأراضي من الجزائريين إلى استياء كبير، فالمصادرات تحدث جهارا نهارا ولأدنى الأسباب وبتواطؤ بين الجهاز الإداري والجيش الفرنسي والمعمرين، فأعلن نابليون الثالث أن الجزائر مملكة عربية، وأنه ملك العرب كما هو ملك للفرنسيين، وواجب عليه أن يحمي رعاياه في رسالة إلى الحاكم العام بيليسي.

وقد ارتكز هذا القانون على ثلاث مبادئ أساسية تضمنتها المواد الثلاث الأولى من نصه:

- تعيين حدود أراضي القبائل وتثبيتها، والاعتراف للقبائل بما تملكه من أراضي جماعية.

- تقسيم أراضي القبائل التي عُينت حدودها بين دواوير تنبثق عن القبيلة.

¹- عدي الهواري، المرجع السابق، ص62.

²- عدة بن داهة، المرجع السابق، ص329-332.

³- أوليفي لوكور غرانيزون، في نظام الأهالي...، المرجع السابق، ص169.

⁴- نفسه، ص169.

- توزيع الأراضي داخل الدواوير بين الأفراد، واستحداث الملكية الفردية، ولكل فرد حق التصرف في قطعة الأرض الخاصة به كما يريد.¹

شكل هذا القانون تضاربا بين الدارسين والمؤرخين، فهناك من اعتبره لصالح العرب، لأنه يضع بين أيديهم أراضيهم ويحفظها من المصادرة ونحوها، وجانب يرى أنه لصالح الفرنسيين بما يحمله من أهداف خفية.

الأهداف المُعلنة للقانون:

- رغبة الإمبراطور في طمأنة القبائل حول ما تملكه من الأراضي، وجعل العرب ملاكا لها باسم القانون لازدهار حياتهم، وتنفيذا لوعود 5 جوبلية التي قطعها دي بورمون للداي حسين وأخلف بها، ففي رسالة بعث بها إلى بيليسي بتاريخ 6 فيفري 1863م جاء فيها: "يبدو لي ضروريا من أجل راحة وازدهار الجزائريين دعم وتعزيز الملكية التي بين يدي مُلاكها".²

- جعلهم ملاكا بعد انتشار دراسات وآراء تذهب إلى أن هذه القبائل ليست مالكة، فما هي إلا منتفعة ومستفيدة، والأرض كلها للحكومة أو السلطة، فهنري ديديه يقول: "الملكية هنا (الجزائر) في يد مجموعة من القبائل والقادة، حصلوا عليها كإكراميات، والأكثر شيوعا هي الجماعية والتي هي ملك للدولة، وليس للقبائل سوى حق الانتفاع".³

الأهداف الخفية للقانون:

- اكتشاف الأراضي الشاغرة والاستيلاء عليها، فقبل هذا القانون وتطبيقه لم تكن لفرنسا خطة واضحة أو خريطة كاملة للأراضي الجزائرية، ولكن بعده توضحت الصورة وصنفت الأراضي، وأُلحق الكثير منها بمصالح الدولة⁴، وما يدعم هذا الرأي، أن تطبيق هذا القانون كان على مرحلتين تماشيا مع حاجات الاستيطان وتوسعات الاحتلال، كما أنه اهتم فقط بالقبائل التي تضم مجالاتها الأراضي الخصبة والسهول والمياه حيث وضعت لها مخططات دقيقة وخرائط توضح كامل التفاصيل، أما تلك التي تقع في الجبال أو المناطق السهلية والصحراوية حيث الأراضي أقل خصوبة فلم تعد حولها سجلات مفصلة والخرائط والمخططات التي رسمت لتوضحها جاءت عامة

¹ - شارل أندري جوليان: تاريخ الجزائر المعاصرة (الغزو وبدايات الاستعمار) (1827-1871م)، مج1، تر: جمال فاطمي وآخرون، دار الأمة للطباعة والنشر، ط1، 2013م، ص696.

² - E. Gueit : du Régime de la terre Arch en Algérie, Thèse pour le doctorat en Droit, Faculté de droite du Paris, 1900, p 76.

³ - Ibid, p 33.

⁴ - الطاهر ملاحسو، المرجع السابق، ص35.

اكتفت بإبراز الحدود العامة للقبيلة والإشارة لبعض التضاريس فقط بالمقارنة مع ما أعد من سجلات لتلك التي تستوطن السهول.

- تحقيق السلم والأمن والراحة للجيش الفرنسي، حيث شكلت القبائل دفاعا مستميتا عن أراضيها، مما خلق مصاعب جمة له، وعند طمأنة القبائل أن أراضيها ستبقى لها وفي مأمن من التجاوزات، فستخمد نار المقاومة، فجاء في رسالة نابليون إلى بيليسي: "وكيف يتحقق لنا دوام السلم في ناحية مادام الخوف والقلق نازلين بقلوب أهلها في أن ما يملكون من عقار سيخرج من أيديهم".¹

- ترويض السلوك القتالي للفلاحين بتحويله من مالك إلى عامل بسيط أقرب إلى الأجير، مما ينجر عنه دفعه إلى أن يكون فقيرا معوزا وضعيفا، فاقد للحمة التي كانت تربطه بالقبيلة وهي الأرض، يجري فقط وراء تحصيل قوت يومه الذي لن يتأت له إلا بشق الأنفس، ولن يفكر أبدا في الثورة أو بالتضامن مع أفراد قبيلته.²

- إن استحداث الملكية الفردية بالجزائر، سيسمح للمستوطنين الأوروبيين بالتغلغل بين المزارعين الأصليين وسكان القبائل واستثمار أموالهم ثم التوسع على حسابهم وجعل حياتهم لا تطاق، فالمستوطن عندما يحصل على أراضي في القبيلة فإنه يمنع أي كان من المرور منها أو المساس بها وإلا ستنطلق معارك قانونية يخرج منها بأضعاف ما منحه له السلطة من أراضي بادئ الأمر، ونتيجة لهذا يحدث تفكك في النسيج القبلي، ويتجاوز المستوطنون مبدأ التمليك الذي حصلوا عليه بعدة طرق أخرى مثل المصادرة للنفع العام، مع اعتبار حاجيات الاستعمار بكل أشكالها ضمن هذا المجال، فالملاحظ أن غالبية المستوطنات التي أنشأت في منطقة سطيف على سبيل المثال كانت في قلب القبائل.³

- حتى تلك القبائل التي لم يمسهما التحديد بشكل مباشر إلا أنها كانت ضمن الخطة، ونعني هنا قبائل البدو التي فقدت حق الانتفاع من الترحال للبحث عن الكأ بسبب تحديد القبائل وتشكيل الملكية الفردية للمعمر الفرنسي، والغابات أضحت تحت سلطة الدومين، تلك القبائل التي كانت تقلق السلطة الفرنسية بسبب ترحالها، وما للترحال من أبعاد.⁴

¹ - إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 19.

² - عدة بن داهة: "الخلفيات الحقيقية للتشريعات العقارية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962م)"، أعمال الملتقى الوطني.... المرجع السابق، ص 138.

³ - Didier Guinard : Conservatoire ou révolutionnaire, le S.C de 1863 appliqué au régime soucier de l'Algérie, Revue d'histoire XIX siècle, 2010, N 43, 2010, p 83.

⁴ - عدي الهواري، المرجع السابق، ص 106-107.

- إحداث نقلة في مجال الاستثمار وطرقه بالانتقال من استثمار المستوطنين إلى فتح السوق للشركات الأوروبية للاستثمار في المجال الفلاحي، فظهرت عدة شركات استفادت من امتيازات مالية وتسهيلات بالجملة كشركة جينغواز.

وفي ختام هذه الأهداف الخفية فإن هذا القانون رُمى إلى إيجاد السبل الكفيلة والآليات اللازمة قصد تفكيك القبيلة الجزائرية الصامدة في وجه توسع السلطة الاستعمارية، وذلك من خلال قطع أواصر الوحدة بين المنتمين لها، وحدة تتجسد في الأرض بمختلف أبعادها، إذ أدركت السلطة الفرنسية أن أي عمل استعماري استيطاني لا بد وأن يتخذ الأرض كقاعدة للانطلاق¹.

ويوضح لنا مرسى ذلك التأثير الذي انجر عن تطبيقات السيناتوس كونسيلت، فقد قسم تماسك القبيلة وحرمتها من قائدها، وبالتالي لم تعد صالحة للمقاومة الحرية، وتوقفت الثورات وأضحت الخيول تستخدم للعمل الفلاحي الذي هو أقل صخباً وأكثر فائدة، بعدما كانت تستخدم للحروب، وتوسعت المراكز الاستيطانية، ومع مرور الوقت أضحت التمرد والمقاومة أكثر استحالة².

أما الأسر القوية المتنفذة، فإن هذا التحول كان لها قاتلاً لأنه جفف مصادر إيراداتها ومداخلها، وأضعفت عناصر قوتها لأنها كانت تحصل على الضرائب من القبائل الواقعة تحت سلطتها³.

وتجدر الإشارة إلى أن عمليات السيناتوس كونسيلت كان لديها غلاف مالي يغطي نفقاتها وتكلفتها، فقبيلة فرفور المتوسطة المساحة، وحسب رسالة مؤرخة في 30 جوان 1899م أثبتت أن عملية التحديد كلفت 9085 فرنك و23 سنتيم⁴.

على غرار قبائل المنطقة التالية، كانت قبائل سطيف عرضة لتطبيقات القانون المشيخي 22 أفريل 1863م، ولم تسلم منه ولا واحدة، تطبيق صارم مدفوع بالأهداف العلنية والخفية، وكان هذا التطبيق على مرحلتين، شملت المرحلة الأولى القبائل السهلية الموجودة بالقرب من مدينة سطيف على غرار عامر التي رأينا عملية تفكيكها ووريعة وأولاد نابت، إضافة إلى بعض القبائل التي يُخشى بأسها، القريبة من سطيف مثل عموشة، أما

¹ - عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، ج2، المرجع السابق، ص29.

² - Ernest Mercier, Op ; cit. p 59.

³ - ibid. p 60.

⁴ - Rapport de s.c de tribu de Guergour, Op ; cit, p 254.

الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف

المرحلة الثانية فقد كانت تنفيذا لقانون 1887م، وهو المكمل للقانون المشيخي 1863م، وكان التنفيذ على الشكل التالي: (القبائل التي شملتها الدراسة).

القبيلة	الدواوير المنبثقة	تاريخ التحديد	أعضاء لجنة التحديد
ريغة الظّهارة	أولاد تبان، أولاد براهيم، أولاد سي احمد، لاربعا، أولاد عبد الواحد، بلاد عين تيتست، بلاد محجوب، بلاد راس الماء، ولاد محلة، بلاد فؤلة زدم، أولاد بوظهرة، بلاد شط المالح، بلاد عين القصر، بلاد شعبة قصر الطير	6 سبتمبر 1866م	- أوجيرو: عقيد (رئيس). - دوبولينك: رئيس المكتب العربي سطيف (نائب). - برنارد: مفتش أملاك الدولة. - مثناسيني: محافظ سطيف. - مويار: مترجم عسكري. - فيفنيو: جيومتري.
عامر القبالة	أولاد عدوان، أولاد منصور، أولاد علي بن ناصر، أولاد صابر، بن دياب	26 فيفري 1867م	الأعضاء أنفسهم
عامر الظّهارة	الشّعبية، ملاح، أولاد قاسم، مجوناس، بني براهيم	8 أوت 1867م	- أوجيرو: (رئيس). - رينفاد: عضو المجلس العام لمقاطعة قسنطينة (نائب). - دوفنتاف: رئيس المكتب العربي. - فيفنيو: جيومتري. - ماير: مترجم عسكري.
عموشة	تاقيطونت، ثنية الطّين، قلعون، منتانو، قرقور	6 جوان 1867م	//
العلمة	بلاعة، مزبود، سخرة بازر، التّلة	24 سبتمبر 1868م	//
أولاد نابت	الشّرفة، طاكوكة، المطرونة، الحمامة، العيني.	25 نوفمبر 1869م	//
الغزازلة	غزازلة (دوار واحد)	6 ماي 1869م	//

شكل رقم 26: جدول يمثل القبائل التي تم تحديدها بقانون 22 أبريل 1863م (مأخوذ من السجلات)¹

¹ - سجلات السيناتوس كونسيلت.

تم البدء في تحديد هذه القبائل بأخذ عدة أمور في الحسبان:

- التماشي مع توسع الاستعمار في هذه المنطقة فنجد كمرحلة أولى اتخذ مدينة سطيف كمركز دائرة للانطلاق في التوسع تدريجيا ليشمل القبائل المجاورة لها، فالملاحظ على هذه القبائل السالفة الذكر قربها كلها من مدينة سطيف.

- أنها تمتلك أجود الأراضي وأوسعها، أما القبائل البعيدة، ولشراسة المقاومة هناك وتضاريسها الصعبة، وتأخر الوصول إليها فتم إدراجها في المرحلة الثانية من تطبيقات قانون السيناتوس كونسيلت المعروف بالقانون المشيخي المصغر حين استدعت ضروريات الاستعمار ذلك.

5- قانون 30 مارس 1871:

الذي كان تطبيقا لقانون 1845م، القاضي بمصادرة أراضي الجزائريين (القبائل) التي تشارك في أعمال عدائية ضد فرنسا أو الموالين لها¹، ونفذ هذا القانون كعقوبة لثورة 1871م، ومن قبائل منطقة سطيف التي مستها هذا، نجد قبيلة ريغة صدرت منها: 20071 هكتار²، وساحل قبلي: تعرضت لحكم جماعي بقرار من الحاكم العام مؤرخ في 19 سبتمبر 1871م، ثم قرار 24 جويلية 1872م، المؤكد بقرار 13 ماي 1875م، القاضي بمصادرة 3 قطع أراضي ألحقت بأمالك الدولة بما مجموعه 2600 هكتار³.

6- قانون واري: جويلية 1873م:

أتى به الدكتور واري مهندس من الكولون، وعُرف بقانون المستوطنين الراغبين في مزيد من الأراضي، جاء ليقتضي على ما تبقى من الأراضي الجماعية التي سلمت من تطبيقات القانون 22 أبريل 1863، حيث ألغى هذا القانون صفة أراضي العرش ولم يعترف سوى بالملكيات الخاصة التي تخضع للقوانين الفرنسية، ما فتح المجال لتصبح الصفقات التجارية بين المعمارين والجزائريين حرة⁴.

¹ - حياة قنون: الاستيطان الفرنسي ومصادرة أراضي الجزائريين، مجلة الحوار المتوسطي، ع 43، ص 153.

² - عريضة شيخ قصر الطير أحمد بن سليمان، المرجع السابق، ص 4.

³ - Rapport de S.C de la tribu de Sahel Guebli, Op.cit. p 563.

⁴ - عدّة بن داهة، الملتقى الوطني للعقار، المرجع السابق، ص 240.

الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف

وقد تتبع هذا القانون الأراضي التي لم يتم التثبُّت منها بعد نهاية أعمال القانون المشيخي في 19 ديسمبر 1870م، حيث يتوجه مستشار مُحقق مزود بالسجلات والقوائم، ويحدد الشخص المالك للعقار، وفي حالة الشيوخ يتم تقييد أسماء كل المالكين وحصتهم من ذلك العقار¹.

وكان القانون يسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف²:

- أراد المشرع أن يكون القانون الفرنسي سيد جميع المعاملات مهما كان أطرافها وإبعاد القانون الإسلامي الذي يحتكم إليه الجزائريون.

- مصادرة ما تبقى من أراضي العرش التي كانت محمية بقانون 1863م، وفتحها أمام المستوطنين، فقد رأى واري والمساندون له أن الإمبراطور أخطأ عندما ترك بعض الأراضي للقبائل تتصرف فيها طريقة جماعية، لأن هذا من شأنه إعاقاة الأعمال الاستيطانية ومشاريع الشركات الكبرى ويحد من تدفق رؤوس الأموال نحو الجزائر مما يضيع الكثير من فرص الاستثمار وإبقاء الجزائر عربية وعدم التمكن من فرنستها.

- تشجيع الجزائريين بحق امتلاك الأرض، وبأن لكل عضو الحق في بيع نصيبه، وهذا ليس من صالح الجزائريين، إذ سرعان ما يتخلون عنها للكولون بسبب الفقر وعدم المقدرة على خدمتها.

ومع موعد الانتهاء من تطبيق هذا القانون، كانت العملية قد شملت 167 قبيلة، بتعداد سكان يبلغ 669587 نسمة، وجاءت إحصاءاته كالتالي:

الملكيّات الخاصة بعقود فرنسية 904444هـ.

مساحة الملكيّات الجماعية بعقود فرنسية 436826 هـ.

مساحة الملكيّات الخاصة الناجمة عن عقود الموثقين أو العقود الإدارية 238571هـ.

أماكن الغابات والدولة 659254هـ.³

¹ - بليل محمد: تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساتها على الجزائريين بين 1881 و 1914 القطاع الوهراني نموذجاً، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة وهران السانبا، 2006، ص 70.

² - Laynaud, Op ; cit, p 77.

³ - ibid, p 102.

7- قانون 28 أبريل 1887م: السيناتوس كونسيلت المصغر:

جاء هذا القانون تكملة للقانون المشيخي 22 أبريل 1863م، هدفه النفاذ إلى أراضي العرش المتبقية والتي لم يمسها القانون المشيخي السالف الذكر أو قانون واريي الذي وجدت فيه نقائص، هدف إلى إيجاد أوعية عقارية أخرى يمكن استغلالها من قبل السلطة الفرنسية وتسهيل حصول الأوروبيين على أملاك أخرى، إذ كانت هناك قبائل ظلت مقاومة وصامدة لم تتمكن السلطة الفرنسية من النفاذ إليها وتطبيق التشريعات العقارية عليها، وهذا تماشيا مع الاحتلال وتزايد أعداد المعمرين والحاجة لمزيد من الأراضي، فالمشرع أراد عرض المزيد من الأراضي في المزاد العلني بهدف تصفية تلك الأملاك وإعادة تقسيمها وتوزيعها على القادمين الجدد من الكولون فالحاجيات الاستعمارية لم تكن تتطلبها من قبل¹، وقد كانت قبائل سطيف عرضة لهذا القانون، وشمل القبائل البعيدة عن المركز كقبائل شمال سطيف (ساحل قبلي، وبابور، وبني ورثيلان، وبني يعلى)، أو جنوب سطيف مثل ربيعة القبالة.

8-ردود أفعال القبائل حول القوانين المشيخية: من لحظة بداية تنفيذ قانون 1863 إلى غاية تعليق

العمل به عام 1870م، تم تحديد ما مساحته 6883751 هكتار وتوزيع كل ذلك على 656 دوار، أقرت منها الحكومة 1186492 هكتار ملكا للبلديات.²

يبدو في الظاهر أن هذا القانون يحمي القبائل من خلال تمكينها من أراضيها ومنحها عقودا على ذلك، ولكن المتضمن فيه يجده منحرا حاسما فيما يخص العقار بالجزائر عموما وفي القبيلة على وجه الخصوص، حيث قلب كل ما هو متعارف عليه لوقت طويل في الملكية العقارية، وتكمن مساوؤه في كونه:

- قسم الأرض إلى ملكيات خاصة، مما أدى بسكان القبائل إلى عدم قدرتها على فلاحتها، فاضطروا تحت الحاجة إلى بيعها بأبخس الأثمان لمن يملك المال وهم المستوطنون والمرابون اليهود، وبما أن الثروة الوحيدة للقبائل كانت الأرض وحياتها كلها معلقة بها، فقد أدى ذلك إلى إفقارها بأكملها ومن ثم اندثارها³.

- فتت العلاقات التي كانت تشد لحمة القبيلة، لأن الأرض برمزياتها وحضورها تمثل رابطا متينا حفظ علاقات القبيلة الداخلية والخارجية، تم هذا التفتيت دون إيجاد روابط بديلة تملأ الفراغ، فزال الجماعة، واختفى التضامن، فبعد هذا القانون لم تعد القبيلة ذلك الكل المبني المتراص، بل مجموعة من الأفراد أضيف بعضهم إلى

¹ - بليل محمد، المرجع السابق، ص 75.

² - إبراهيم لونيسي، المرجع السابق، ص 21.

³ - محفوظ سماتي، المرجع السابق، ص 157-158.

بعض، بعد تشكيل الدوار، فهذا الأخير لا يتشكل بالضرورة من أفراد القبيلة نفسها، إنما أضيف بعضهم إلى بعض من قبائل مختلفة، ومن قد تكون بينها عداوة في السابق¹.

وقد تباينت ردود أفعال القبائل حول هذه القوانين لاعتبارات عدة، مثل: الخوف، والأمل السائد في النفوس جراء الكلمات البراقة حول التمليك، والجهل حول ماهية هذا القانون وإبعاده، وبين مساندة الاستعمار ورفضه، ولكن على العموم كان الرفض هو الغالب، فجاء على لسان أحد الشيوخ من أولاد رشناش رسالة تلخص مدى البؤس واليأس من هذا القانون ورفضه المطلق، مع معرفة عميقة بتداعياته المستقبلية قائلاً: "تأسيس الملكية الفردية والسماح لأصحابها ببيع حصصهم بعد القسمة يُعتبر حكماً بالإعدام على القبيلة، وفي ظرف عشرين سنة بعد تنفيذ هذه الإجراءات القانونية، سيصبح أولاد رشناش جزءاً بعد حين"².

1- قبيلة بني ورثيلان:

من النماذج حول رفض قرارات السيناتوس كونسيلت 1887 ما قدمه سكان بني ورثيلان في شكوى من 5 فقرات إلى محافظ عمالة قسنطينة في أبريل 1894م، حيث رفضوا هذه العملية جملة وتفصيلاً لما تعود عليهم به من ضرر، خاصة فيما يتعلق بأشجار الزيتون التي تشكل ثروة غالبية سكان المنطقة وبما أن هذه الأشجار تقع كلها في منطقة واحدة، فبالتالي أصبحت ملكاً للدوار واحد رغم أنه مُشترك بين جميع سكان القرية، ناهيك عن الضرائب التي سوف تترتب عن عملية التقسيم التي لا طاقة لهم بها بسبب نقص غلة الأرض³.

2- قبيلة أولاد نابت:

على عكس قبيلة بني ورثيلان، فإن هذه القبيلة رحبت بعملية التحديد والتقسيم، ويّين أعضاء جماعتها ذلك في رسالة مؤرخة بتاريخ 8 نوفمبر 1869م، جاء فيها: "هذا رضى أصحاب جماعة عرش أولاد نابت وجماعات الدواوير من العرش المذكور، وأنهم قبلوا أن يكون تقسيم وطنهم على خمسة دواوير حسبما ذلك مُبيّن

¹ - عدي الهواري، المرجع السابق، ص 69.

² - محفوظ سماتي، المرجع السابق، ص 145.

³ - أنظر نص الرسالة، الملحق رقم: 2، شكوى قبيلة بني ورثيلان، نص الشكاية محفوظ في سجل قبيلة بني ورثيلان.

الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف

ومقرّر في الكواغط الكاينة (الوثائق الموجودة) في جميع خدمة الجماعة، وبسبب ذلك وضعوا أصحاب الجماعات خط يدهم أسفله¹.

وهنا نتساءل لم قبلت قبيلة أولاد نابت بهذا القرار رغم أن غالبية القبائل رفضته؟ ونعزي ذلك لعدة أسباب، ربما إلى رغبة السكان في التملك وجعل ما بين أيديهم موثق توثيقا رسميا ولن ينافسهم فيه أحد، أو الحصول على الأرض، فالبعض لم يكن يملك شيئا ووجد الفرصة سانحة في هذا القانون، أو جهل القبيلة بتداعياته الخطيرة، أو تعرضهم للابتزاز والتهديد من قبل المعمرين، فالضغوطات على القبائل والتهديد بالقتل والابتزاز من قبل المعمرين كان كبيرا، ناهيك عن الأمل واعتقاد السكان أن أراضيهم قد أصبحت لهم بموجب القانون.

المبحث الثاني: السياسة الزراعية والمالية الفرنسية في منطقة سطيف:

كان الاقتصاد الجزائري في الريف خلال العهد العثماني بسيطا، يوصف على أنه اقتصاد اقتنيات موجه أساسا لتغطية حاجات الاستهلاك بالدرجة الأولى مع البحث عن مبادلات تجارية بسيطة من الفائض، لا تتعدى في الغالب مقايضة السلع بعضها ببعض مع الاعتماد بشكل كبير على الرعي وزراعة الحبوب، ووجود حرف تحويلية لا تخرج عما تجود به الأرض والمواشي من مواد أولية².

ورغم بساطته إلا أنه تميز بمجموعة من الخصائص، منها التوازن بين جميع أطرافه كالإنتاج والاستهلاك ومعرفة الأرض ومقدراتها، واندماج الفرد في الجماعة بفعل أراضي العرش والأسر الكبيرة، والاعتماد على تقنيات ووسائل بسيطة كالحراث الخشبي ونظام الاستراحة والتنقلات الدورية لقبائل البدو، وخضوع كامل للتقلبات المناخية، إلا أنه كان يلبي الحاجات المختلفة البسيطة التي تضمن الحياة، وقد أثبت كفاءته في مواجهة الأزمات الاقتصادية كالجماعة والجفاف وحافظ على المجموعات البشرية، إلا أنه لم يمنحها التطور المطلوب³.

ولكن شهد هذا الاقتصاد بمجيء الاستعمار صدمة عنيفة لم يكن مستعدا لها، أحدثت تحولا جذريا، حينما حاولت السلطة الاستعمارية إدماجه في اقتصاد السوق العالمي رغم كونه غير مؤهل لذلك، لا من حيث وفرة رؤوس الأموال ولا التقنيات المستخدمة ولا التنافسية، فهو ضعيف في الكثير من النواحي، ليس هذا فحسب،

¹ - أنظر الملحق رقم: 10، رسالة قبيلة أولاد نابت يقرون فيها بموافقتهم على أعمال التحديد والتقسيم، نص الرسالة محفوظ في سجل قبيلة أولاد نابت.

² - محفوظ سماتي، المرجع السابق، ص 43.

³ - Pierre Bourdieu, Op ; cit, p 144-145.

ولكن أدخلته بسرعة وضغط شديد رغبة منها في ترسيخ وجودها في الجزائر، وتحقيق واحد من أهم أسباب الاستعمار وهو الجانب الاقتصادي، الأمر الذي ترتبت عنه الكثير من السلبيات.

كانت أولى خطوات تحويل الاقتصاد والسيطرة عليه هو الاستحواذ على الأراضي بمختلف الطرق المتاحة، بالقوانين العقارية، والعقوبات، والمصادرات، لتأتي الخطوة الثانية وهي إدخال المزروعات الصناعية، ثم إدخال تعديلات في النظام الضريبي بما يتماشى مع السياسة الفرنسية.

1- السياسة الزراعية:

بُغية خدمة الاقتصاد، سعت الإدارة الاستعمارية إلى إدخال أنواع جديدة من المزروعات، وتوسيع ما كان سائدا منها، وذلك على حساب القبائل، ومن أهم المزروعات نجد:

القمح: رأينا في الفصل الثاني كيف كانت الحبوب من أهم ما تنتجه القبائل الجزائرية والسطايفية على وجه الخصوص، ومع السلطة الجديدة انتشرت هذه الزراعة بشكل كبير خدمة للاقتصاد الفرنسي، حيث كانت سطيف منطقة واعدة في هذا المجال، وتتوفر على جميع الشروط للحصول على أفضل النتائج، وقد رأينا أنواع القمح التي كانت تُزرع، فتوسعت زراعته بفعل المعمرين الذين منحوا هكتارات عدّة أو شركة جونفواز. ويعتبر القمح موضوع تجارة كبيرة في الجزائر بسبب أهميتها الاقتصادية وقيمتها الغذائية.

زراعة الكروم: احتلت الكروم المرتبة الثانية في الجزائر بعد زراعة الحبوب من حيث الأهمية والمردودية، هذه الزراعة لم تكن منتشرة قبل الاحتلال إلا بشكل ضيق لأسباب دينية بحتة، ثم أحضرها المستعمر لتكون ميزة هذه المستعمرة، فكل الظروف مهيئة لنجاحها كالترية الجيدة والمناخ المعتدل، فكانت الخمور المنتجة في الجزائر ذات جودة عالية تنال التقدير في جميع أنحاء أوروبا¹.

ولم تبدأ زراعة الكروم في وقت مبكر من الاحتلال، فحتى عام 1864م لم تكن تتجاوز 3,148 هكتار، ولكنها نمت لتصل إلى 6,904 هكتار في عام 1874م، وهذا عند الأهالي².

أما عند الأوروبيين، فقد شهدت تطورا ملحوظا، فما بين 1843-1846م، كان هناك من 5 إلى 63 هكتار موزعة على الساحل الجزائري ومتيجة والمدية ومليانة، ووصلت عام 1866م إلى 10490 هكتار، لترتفع عام 1875م إلى 20 ألف هكتار، مستفيدة من انتقال هذه الزراعة من جنوب فرنسا إلى الجزائر بفعل مرض

¹- M. Cavalli, Op ; cit, p 118-119.

²- عدّة بن داهة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، ج1، المرجع السابق، ص 188.

الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف

الفلوكسيرا¹، والذي أضر كثيرا بالمحاصيل، وبعد تراجع طفيف أعوام 1876-1877 عادت إلى ازدهارها عام 1878م، وواصلت صعودها لتتبع المرتبة الأولى من حيث المداخيل، فوصلت عام 1900م إلى مائة ألف هكتار²، وقد وصلت لهذه المكانة بفضل الاستحواذ على مساحات مهمة من أراضي القبائل ومنح التمويل من قبل المؤسسات المالية والأرباح التي تقدمها للعاملين فيها.³

نظرا للعوامل السالفة الذكر، زرعت الكروم في كل الجزائر، وارتفعت المساحة التي تغطيها من سنة إلى أخرى، والجدول التالي يبين ذلك:

السنة	المساحة (الهكتار)
1850	570
1855	414
1856	293
1865	10490
1866	11430
1872	16688
1873	17245
1874	18324
1875	20044
1880	23724
1865	70886
1890	110042
1895	122186
1900	154430

الشكل رقم 27: جدول يوضح زراعة الكروم في الجزائر ما بين 1850-1900⁴

¹ - الفلوكسيرا: حشرة تصيب بالمرض الكروم أشجار، حيث تتغذى على الجذور بمص عصارتها وتنشر عليها الطفيليات، فتموت النبتة بموت الجذور، وهو مرض جد فتاك بالخصول.

² - M. Calvalli, Op ; cit. p 120-121.

³ - محفوظ سماتي، المرجع السابق، ص 157 158.

⁴ - M. Calvalli, Op ; cit. p 122.

الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف

نلاحظ من خلال الجدول التطور السريع لهذه الزراعة، ففي عام 1850م لم تكن تتعدى 570 هكتار، وقد تناقصت عام 1856م إلى 293، لكنها سرعان ما شهدت تطورا كبيرا وانتشارا واسعا، ففي أقل من 50 سنة، تضاعف العدد بمئات المرات من الهكتارات.

أما من حيث الإنتاجية، فنجد المقاطعات على الشكل التالي:

المقاطعة	المساحة (هكتار)	الإنتاج (هكتولتر)
الجزائر	الجزائر	7,841,045
	المدينة	221,824
	مليانة	426,887
	الشلف	260,779
	تيزي وزو	431,777
وهران	وهران	5,071,027
	معسكر	705,252
	مستغانم	2,666,849
	سيدي بلعباس	1,543,153
	تلمسان	969,849
قسنطينة	قسنطينة	1,311
	باتنة	286
	عناية	941,726
	بجاية	389,934
	قالة	12,765
	سكيكدة	591,633
	سطيف	5,471
		228

الشكل رقم 28: جدول يمثل إنتاجية الخمر حتى عام 1934م¹.

الملاحظ من هذا الجدول أن عمالة وهران هي أكبر مساحة والأكثر إنتاجية، وهذا نظرا إلى ملائمة المناخ في تلك الناحية، لتليها مقاطعة الجزائر في المرتبة الثانية لنفس الأسباب، أما مقاطعة قسنطينة فهي الأضعف ويفارق شاسع عن العمالتين الأوليتين، حيث المناخ أكثر برودة، كما أن اهتمام هذه المقاطعة كان منصبا على

¹- M. Calvalli, Op ; cit. p 125.

إنتاج الحبوب بشكل أساسي، وهذا ما ينطبق على منطقة سطيف فهي ضعيفة جدا لا تتعدى المساحة المزروعة حتى عام 1934م 228 هكتار، بإنتاجية تقدر بـ 5,471 هكتولتر، وعلى الرغم من أن منطقة سطيف لا تُنتج الخمر، ولكن تأثير زراعة الكروم يشملها، وله تأثيرات عليها لخصها عدة بن داهة فيما يلي¹:

- تراجع مساحات زراعة الحبوب، إذ توجهت الأنظار إلى زراعة الكروم، وسبب هذا أن ثمن الخمر أعلى من ثمن القمح، ففي عام 1879م بلغ مردود الهكتار الواحد من الكروم 4 آلاف فرنك، بالقابل لم يتعد مردود الهكتار الواحد من زراعة الحبوب 300 فرنك، وهو ما يفسر جشع الكولون لتوسيعهم للمساحات الزراعية، فتراجع المساحات الزراعية الخاصة بالحبوب أدى إلى نقص الغذاء لمجتمع يعتمد بشكل واضح على هذا المنتج.

- الفقر المدقع لسكان القبائل الجزائرية لأنه لا يتناسب مع عقيدتهم، فلا هم يستثمرون فيه ولا يعملون في مزارع الكولون الذين ينتجون، كما أن الكروم تأثر سلبا على الأرض، فحتى تلك التي تقع بمحاذاة مزارع الكروم لم تسلم من الأمراض.

- تأسيس الكولون العامل في الكروم لجماعات ضغط تأثر في السياسة العامة للحكومة العامة في الجزائر، إذ كانوا يساهمون في نصف ميزانية الجزائر، مما مكّنهم من تمرير مشاريع استعمارية استيطانية على حساب القبائل الجزائرية خاصة فيما يخص دعم المشاريع الاستيطانية،

التبغ: إن التبغ ليس وليد الاحتلال الفرنسي، ولكن زراعته تمت قبل ذلك، حيث انتشرت بالخصوص في مدينة الجزائر ومنطقة القبائل، ولكن بمجيء الاحتلال ولأغراض تجارية وسّع زراعته، واستقدم أنواعا عدة من أمريكا خاصة وأن الظروف كلها كانت مواتية لدعم هذا النشاط، فزُرعت سهول متيجة وسيبوس²، وانتشرت لتصل إلى سهول سكيكدة وقالة ومعسكر وتلمسان وعين تيموشنت، وتجدد الإشارة إلى أنّ التبغ المنتج من قبل الأهالي أكثر جودة³.

أولى محاولات زراعة هذه المادة كانت عام 1843م، وسرعان ما حققت نتائج جيدة، فما بين سنتي 1875-1876م، وصل الإنتاج إلى 55 ألف قنطار⁴، وكان هذا الارتفاع في المردود مرّده التسهيلات المقدّمة

¹ - عدة بن داهة، المرجع السابق، ص 362.

² - M. Calvalli, Op ; cit. p 139.

³ - رايح لونيبي وآخرون : تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1989م)، ج1، دار المعرفة للنشر، الجزائر، 2010 م، ص 96.

⁴ - شارل روبير أجيريون، المرجع السابق، ج1، ص 378 379.

لهذه الزراعة، مثل حرية البيع والمعالجة، والقروض الممنوحة، وهو ما أوصل مساحة التبغ مع أوائل القرن 20م (1906م) إلى 121 ألف هكتار¹.

القطن: كان القطن أيضا معروفا في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، حسبما ذكره حمدان خوجة الذي زرع هذه النبتة وقدمت له مردودا جيدا في سهول متيجة².

وحاول الاستعمار تنمية زراعة القطن في الجزائر ونشرها بين الفلاحين، فما بين 1846-1852م كان القطن يتربع على عرش الاهتمام، وقصد تحقيق أفضل النتائج والعودة بالفوائد منها، تم تقنين هذه الزراعة، فأصدر المرسوم الإمبراطوري 16 أكتوبر 1853م الذي جاء ليشجع هذه الزراعة عن طريق إشراك العنصر المحلي (السكان) الجزائريين في المزارع الأوروبية.

وقد وصلت كمية الإنتاج عام 1852م إلى 104 آلاف كغ في مساحة قدرها 2052 هكتار، لترتفع عام 1866م رغم الأزمة الفلاحية إلى 900 ألف كلغ، مستفيدة من تراجع المزارع الأمريكية نتيجة قيام الحرب الأهلية الأمريكية، الأمر الذي دعم الطلب العالمي، كما أن الحوافز الإدارية والمالية، مثل منح القروض والأقساط والشراء من قبل الحكومة ساهمت في ذلك³.

ولكن استتباب الأمن في الولايات المتحدة وعودة المزارع للإنتاج وإيقاف الإعانات أضرب كثيرا بهذه الزراعة، فتراجعت عام 1876م إلى 204 هكتار فقط في مقاطعة وهران رغم الريادة التي حصلت عليها هذه الأخيرة في هذا المجال⁴.

إن إدخال هذه الزراعات الموجهة كموايد أولية للصناعة، وتشجيعها على الانتشار، أضرب كثيرا بالقبائل، خاصة وأنها استقطعت لها الأراضي التي كانت تُزرع قمحا بالأساس، ومع جشع المعمرين المدعومين بالسلطة الفرنسية وبترسانة قانونية، لم يبق لسكان القبائل الشيء الكثير، وتقلصت مساحاتهم الزراعية، مما سيجعلهم في موقف خطير مع بداية ظهور الأزمة الفلاحية عام 1867م.

¹- M. Calvalli, Op ; cit, p 139.

²- حمدان خوجة، المرجع السابق، ص 87.

³- Calvalli, Op ; cit, p 140.

⁴- Ibid, p 141.

2- تربية الأغنام:

اعتبرت السلطة الفرنسية تربية الأغنام عنصرا أساسيا في منظومة الاقتصاد المطبقة في الجزائر، حيث يشير تقرير فيفر ألبرت إلى أن أي تقدم هما كان في المجال الزراعي ووفرة المحاصيل إلا أنه من الواجب تربية الأغنام، والمحافظة على ما هو موجود منها وتطويرها وتحسينها لتحسين إنتاج الصوف واللحم وهذا في تقرير رفعه إلى الحكومة الفرنسية¹، وقد اشتهرت سطيف بتربية المواشي، خاصة الغنم منها، وكانت القبائل تملك آلاف الرؤوس، وعندما حلت السلطة الفرنسية دفعت المعمرين للبحث عن توسيع هذا النشاط وإدخاله في خدمة الاقتصاد الفرنسي ككل، حيث يذكر فيفر ألبرت أنه عند زيارته لسطيف وجدها مركز غنم كبير وبها سوق مهمة حيث تتوفر المنطقة على شروط ازدهار هذا النشاط، فقد التقى بالمعمر نوسيل الذي تمكن من الفوز في عدة مسابقات بنوعية كباشه مرينو التي تمنح صوفا جيدا ومتوسط لحم يبلغ 18 كلغ².

وقد أدخل المعمرون هذه السلالة بمساعدة شركة جنيغواز، انعكس هذا التحسين في السلالات بشكل ايجابي، فأصبحت الخراف الجزائرية في المرتبة الثانية في السوق الفرنسية بعدما كانت تصنف الرابعة أو أكثر، وقد انتشرت في مراكز عين أرناط، فرماتو، المهديّة وغيرها، وكلها مناطق مفتوحة تمكن من الاستثمار في هذا المجال³.

3- البحث عن المعادن:

اهتمت السلطة الاستعمارية بإدخال الاقتصاد الريفي البسيط في الاقتصاد الفرنسي، فبالإضافة مع الاهتمام بالزراعات الصناعية وتربية المواشي، قامت بالبحث عن المعادن، فحفرت أراضي القبائل ومنها قبائل سطيف، بحثا عما يمكن إيجاده منها وتوظيفها في خدمة الاقتصاد ككل.

من بين القبائل التي تم البحث في أراضيها، نجد قبيلة القرقور، فبحسب سجلات السيناتوس كونسيلت التي حفظت رسالة مؤرخة في 3 أكتوبر 1898م من قبل مصالح المناجم، أشارت إلى أنه تم إجراء دراسات حول وجود معدن الفوسفات من عدمه، وخلصت أن هذا المعدن غير موجود في مجال القبيلة⁴.

¹- Viger Albert : Etude sur la question Ovine en Algérie, imprimerie Typographique et Lithographique, 1982, 9-10.

²- Ibid, p 21.

³- Ibid, p 23.

⁴- Rapport de S.C de la tribu de Guergour, Op ; cit, p 123.

نص المراسلة، أنظر الملحق رقم: 11، مراسلة حول عملية البحث عن معدن الفوسفات في قبيلة قرقور.

ولكن أبحاث أخرى جرت على قدم وساق لاكتشاف أي معدن يمكن استغلاله، وخلصت الأبحاث إلى وجود العديد، منها: الزنك، الرصاص، الحديد وغيرها في كل من لافايت (بوقاعة)، وعين الروى، وحمم قرقور، وقد تأسست عدة شركات للاستغلال مثل:

- مؤسسة مناجم الزنك لقرقرور برأس مال قدره 6 ملايين فرنك، مقرها الرئيسي باريس، ومقرها المحلي عين الشجرة ببوقاعة، تنتج الزنك، الرصاص والحديد، وفي بداية 1864م مؤسسة فرنسية بلجيكية، استغلت حقوقا حصرية لتزويد الجيش بمعدات من هذه المعادن¹.

وشملت عملية البحث قبيلة بني شبانة أيضا، فحسب دراسة ومراسلة قام بها مهندس المناجم جاكوب تحمل الرقم 200، مؤرخة في 11 أوت 1894م، توصل إلى وجود الفوسفات في كل من بني شبانة وبني ورثيلان، وريغة القبالة، وهو الأمر الذي سيسمح بتدعيم القطاع الفلاحي².

والملاحظ هو التركيز على الفوسفات، وليس هذا من قبيل الصدفة، ولكن لهذا المعدن أهمية كبيرة في تطوير الإنتاج الفلاحي، حيث يستخدم كأسمدة لتخصيب التربة، بمعنى البحث عن تكامل بين مختلف القطاعات الاقتصادية خدمة للاقتصاد الفرنسي على حساب القبائل.

4-الإرهاق الضريبي:

فرضت فرنسا مجموعة من الضرائب على القبائل الجزائرية التي كانت وجهتها تمويل المشاريع الفرنسية وتحسين معيشة الكولون، ووصل ما دفعه الجزائريون عام 1870م 14 مليون فرنك ضرائب عربية (العشور، الزكاة...)، و220 مليون فرنك ضرائب فرنسية³، ويرى أجيرون أن النظام الضرائبي الجزائري عُذ من أكثر الأنظمة إجحافاً، لأنه أخضع الجزائريين لنظامين ضريبيين في الوقت نفسه، الالتزامات الإسلامية كالزكاة والعشور والضرائب الفرنسية⁴.

¹- Maurice Villard et Yves Bassard, Op ; cit, p 200.

²- Rapport de S.C de la tribu de Beni Chebana, Op ; cit, p 287.

نص المراسلة، أنظر الملحق رقم: 12، مراسلة من مهندس المناجم حول وجود الفوسفات في بعض قبائل منطقة سطيف، المراسلة محفوظة في سجل قبيلة بني شبانة

³- يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 42.

⁴- شارل روبير أجيرون، المرجع السابق، ص 149.

لم يسلم شيء من الإجحاف الضريبي الفرنسي، فمن ضريبة الرأس التي وصلت إلى 50 فرنك في عمالة قسنطينة، و28 فرنك في الجزائر، و28 فرنك في وهران¹، إلى الضريبة على الكلاب، فقرار 8 نوفمبر 1856م، أقر في مادته الأولى أنه على كل مالك كلب أن يدفع عليه ابتداء من 1 جانفي 1857م ضريبة قدرها ما بين 1 إلى 10 فرنك²، وما زاد الأمر سوء بالنسبة للقبائل هو قرار 1845م، القاضي بدفع الضرائب نقدا بعدما كانت عينية في الغالب، كدفع شاة لكل 50، أو $\frac{1}{10}$ المحصول³.

في الفترة العثمانية وحتى بداية الاحتلال، كانت المقايضة هي السائدة، فلم تكن هناك حاجة للنقد، وهذا لا يعني أن النقود غير موجودة، بل هي موجودة، فالعائلات الكبرى كانت تملك الكثير⁴. ولكن كان هذا الأمر ثانوياً، وعندما فرض النقد سعى السكان للحصول عليه، وكانت ثروتهم الغالبة هي القمح غذاؤهم الرئيسي فبدؤوا يبيعونها للحصول على النقود، مما خلق لديهم عجزاً مالياً استمر طوال أعوام، فالضرائب تدفع في موسم الحصاد، حيث تكون الأسعار منخفضة لا تتعدى $\frac{2}{3}$ قيمتها الفعلية، فيبيعها الفلاح اضطراراً، وعندما يريد شراءها وقت الحاجة للزراعة مثلاً في الخريف تكون أسعارها مرتفعة، فساءت حالة أفراد القبائل، وكثرت عليهم الديون، وتهاقت عليهم المزابون للاستحواذ على أراضيهم بأجنس الأثمان، مما انجر عنه فقدان الأرض آخر معاقل البقاء، كما أصبح هناك تفضيل لادخار النقود عوض الحبوب، حيث تغيرت عقلية الفلاح وأفرغت المطامر التي كانت ممتلئة فيما مضى، مما جعل القبائل تنهار انخياراً شديداً أثناء الأزمة الفلاحية عام 1867، حين لم تعد للنقود أي قيمة⁵.

هذا، وقد تطفل الاقتصاد المالي وفتح شهية طمع الربح، فالعديد قد أعمى بريق النقود بصرهم، ورأوا أن ادخارها أفضل بكثير من ادخار الحبوب، خاصة الأعوام التي تشهد ارتفاعاً في الأسعار، فضاعت الغايات الأساسية لادخار، مما أدى بدوره إلى إزالة الروابط التضامنية للقبيلة، وتلاشت العلاقات الاقتصادية التقليدية فاتحة المجال لبروز الفردية ومحاولة تجاوز العقبات بالاعتماد على النفس فقط وليس كما كان في الماضي حيث يستنجد الفرد بقبيلته وعشيرته ليضمن الحماية ومواجهة الخطر حيث يوجد أناس مطاميرهم ممتلئة⁶.

¹ - أي رأي غولدنغار: المرجع السابق، ص 80

² - Paul Vialatte, Op ; cit, p 27.

³ - الجيلالي صاري: الكارثة الديمغرافية (1867-1868)، منشورات ANEP، الجزائر، 2008م، ص 190-191.

⁴ - يذكر محمد الصالح بن العنتري أن أمير بني عباس حمل معه إلى جعفر باشا هدايا كثيرة منها 6000 روبل أو ما يعادل 2400 ريال إسباني، المصدر السابق، ص 32.

⁵ - عدي الهواري، المرجع السابق، ص 30.

⁶ - شارل روبر أجيرون، المرجع السابق، ص 675.

إن الحاجة المتزايدة للنقود دفعت الفلاح للاستدانة ممن يملكون المال، وهم في العادة اليهود والأوروبيين بفائدة تصل إلى 100%، وعندما لا يتمكن من التسديد لعدة أسباب يضطر إلى رهن أرضه وفقدانها فيما بعد، فيبقى بلا أرض، فيقول مارتن بيري: "إن اتساع ظاهرة الربا قد نتج عن الاحتلال الفرنسي الذي غير شكل فاجئ كل ظروف الحياة السابقة للسكان الأصليين، يستدين العربي لشراء الحبوب اللازمة لاستمراره وزرع أرضه ودفع الضريبة"¹.

والربا المفروضة على سكان القبائل تعجل باختيارهم، فقد بعث الامبراطور نابليون رسالة على مكامهون عام 1863، جاءت فيها فقرة بعنوان "الربا والقبيلة": "عندما لاحظ العرب انخفاض ثروتهم، بفقدانهم الأرض وتراكم الضرائب، لجأوا إلى الاستدانة، وهذا ما سيؤدي إلى انهيارهم، قريبا... هناك خوف عندما يصبحون جميعا ملاكا عقاريين من أن يتعرض قسك كبير منهم لانتزاع ملكيته وتنتقل كافة أملاكهم إلى الدائنين"².

وهكذا شكلت الربا عبئا ثقيلا على سكان القبائل، فعندما تكون الفوائد بسيطة ويمكن للفلاح أن يتحكم فيها ويغطيها، سيكون بمنأى عن الصعوبات، ولكن ما إن ترتفع—كما حصل أثناء الاستعمار الفرنسي—في مقابل عدم وجود ما يغطيها ستبدأ حياته في الاقتصادية والاجتماعية في التراجع، وسينهار في الأخير، خصوصا أنه سيفقد أرضه، فالحاجة الماسة للنقود لدفع الضريبة وبريقها وجهل الأفراد بالمعاملات القانونية، ونفسيته المضطربة بفعل الخوف من ضياع الأملاك كلها أسباب تسهم في هذا الانهيار الذي لن يتجاوزه عام 1867 أثناء الأزمة الفلاحية³، وقد كانت قبائل سطيف تدفع الضرائب للسلطة الفرنسية ومنها:

العشور: هو التزام إسلامي يعني $\frac{1}{10}$ المحصول، ويُأخذ من القمح والشعير والزبيب وغيرها، وهي المحاصيل التي يمر عليها حول كامل على زراعتها⁴.

ولكن استبدل العشور بمقياس آخر وهو الجابدة كما رأينا سابقا ويُأخذ على كل جابدة حمولة قمح وحمولة شعير، ولكن بإدخال النقود أصبح مقدارها ما بين 25 فرنك إلى 30 فرنك للجابدة⁵، وهي مبالغ ضخمة

¹ - عبد اللطيف بن أشنهو: تكون التخلف في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 74.

² - نفسه، ص 73.

³ - نفسه، ص 74.

⁴ - شارل روبير أجيرون، المرجع السابق، ص 681.

⁵ - Abdelkrim Badjadja, Op; cit, P 35.

الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف

بالمقارنة مع المستوى المعيشي للسكان وقد تطورت العصور لتشمل منتجات أخرى خلاف القمح والشعير، كالخضر والفواكه والكروم، وكان هذا ابتداء من 20 سبتمبر 1886¹.

الزكاة: هو التزام بدفع رأس ماشية من الأصناف التالية: الجمل، البقر، الغنم، الأحصنة، تفرض على الجزائريين دون استثناء، وقد اعتبرت السلطة الاستعمارية ضبطها أمرا في غاية الصعوبة لكون الكثير من القبائل كانت تتنقل، لذلك تم تطبيق المادة 14 من قانون الأهالي، فكل من يحاول إخفاء مواشيه يتعرض للغرامات، فمثلا من أخفى ثورا غرم بما مقداره 97.6 فرنك².

وقد دفعت قبائل سطيف هذه الضريبة على غرار جميع قبائل عمالة قسنطينة على النحو التالي:

النوع للرأس	الفترة	جمال	بقر	غنم وماعز	أحصنة
1870-1863	4 فرنك	3 فرنك	0,15 فرنك	0,20 فرنك	
1898-1888	4 فرنك	3 فرنك	0,20 فرنك	0,25 فرنك	

الشكل رقم 29: جدول يمثل معدل ما دفعته قبائل سطيف ضرائب على مواشيتها خلال القرن 19م³

الحكور: ضريبة في مقاطعة قسنطينة يكون كزيادة على مقدار العشر، تقدر بـ 25 فرنكا للجابدة

اللزمة: وهي ضريبة على السكان، فكل شخص لا بُدَّ أن يدفع ضريبة عن نفسه وأول ما طبقت كانت في منطقة القبائل من قبل الجنرال راندون، وتتعلق بأولئك القادرين على حمل السلاح، وهي كالتالي: الأثرياء: 15 فرنكا، ومتوسطو الثراء: 10 فرنكات، والفقراء: 5 فرنكات، والأكثر فقرا: معفون من الدفع⁴، ولكن تطور مقدار اللزمة، ففي سنة 1882 وبعد تحريات لجنة خاصة لهذا الغرض، تم استحداث تغييرات فيما يتعلق بالأغنياء، حيث أصبحوا يدفعون ما بين 500 إلى 600 فرنك⁵.

السنتيمات الإضافية: هي ضريبة تعادل 18% من الضرائب الأخرى كالزكاة والعشور وغيرها.

¹ - نادية زروق: سياسة الجمهورية الفرنسية الثالثة في الجزائر (1870-1900)، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2014، ص 166.

² - نفسه، ص 168.

³ - Abdelkrim Badjadja, Op; cit, P 35.

⁴ - ibid, p 36.

⁵ - نادية زروق، المرجع السابق، ص 168.

الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف

والجدول التالي يبين ما تدفعه قبائل سطيف من ضرائب لسلطة الاحتلال الفرنسي خلال القرن 19م¹:

السنة	المجموع	الستيمات الاضافية	الزكاة	الستيمات الاضافية	الحكور والعشور	الضريبة القبيلة
26 أوت 1867	55077 ^F ,44 ^C	1508 ^F ,54 ^C	8380 ^F ,99 ^C	68949 ^F ,95 ^C	38239 ^F	عامر الظهارة
26 فيفري 1867	83398,70	1963,35	1052,5	10812,85	60097,50	عامر القبالة
1 جويلية 1867	68802,06	1730,81	9617,05	8764,20	48690	العلمة
21 فيفري 1870	13609,77	128,02	711,20	1948,05	10822,5	العزازلة
25 نوفمبر 1869	42808,2	1943,45	8549,05	4926,7	27389,00	أولاد نابت
5 ديسمبر 1868	-	-	-	5600,33	36713,28	عموشة
1 ماي 1895	2 62 117,71	-	-	-	-	بابور
//				6682,05	3 18585,8	بني شبانة
//	26460				4 26460	بني ورثان
20 ديسمبر 1889	44070,74	-	-	7947,19	5 36123,55	الدهامشة
16 سبتمبر 1892	22797	5015,54	10875,75	-	6 7056,25 7 4865 11921,25	قرقور
1 أكتوبر 1886	105904,05	-	-	19079,45	8 86806,6	ساحل قبلي
	73785,91	-	-	13305,65	9 60480,25	ريغة القبالة
6 ماي 1890	105300.3	11 20656, 8	54360	-	10 30283,5	بني يعلى

الشكل رقم 30: جدول تفصيلي لما تدفعه قبائل منطقة سطيف من ضرائب للسلطة الفرنسية في القرن 19م

التعليق على الجدول: من خلال استقراء الأرقام المقدمة في الجدول، نرى مقدار الإرهاق الضريبي الذي

تعرضت له قبائل منطقة سطيف، حيث دفعت الآلاف من الفرنكات لتغطيتها، فرنكات ليس بالإمكان الحصول عليها إلا بشق الأنفس لقبائل كبني ورثان وبابور وعامر وغيرها، ورغم أن هذه القبائل كانت تدفع الضرائب في

1- جدول معد انطلاقاً من سجلات أرشيف مديرية مسح الأراضي سطيف.

2- لم يفصل الجدول الإحصائي في نوع هذه الضرائب ولكن ذكرها بشكل مجموع.

3- هذه ضريبة هي الزمة، حيث قبائل هذه المنطقة بحكم انتمائها لمنطقة القبائل تدفع الزمة ولا تدفع العشر والزكاة.

4- ضريبة الزمة.

5- يشمل هذا المبلغ الحكور والعشور والزكاة دون تفصيل.

6- العشور.

7- الحكور.

8- يشمل المبلغ الزمة والعشور والزكاة دون تفصيل.

9- يشمل المبلغ الحكور والعشور والزكاة دون تفصيل.

10- هي فوائد تدفعها القبيلة، ولم تحدد السجلات نوع الفائدة ولا عما ترتبت.

11- على عكس النسبة المتعارف عليها، فإن قيمة الستيمات الإضافية التي كانت تدفعها القبيلة هي 38%.

العهد العثماني إلا أنها لم تبلغ أبدا هذا المبلغ، فبعض القبائل كما رأينا لم تكن تدفع إلا رمزيا، مما سمح لها ببقاء مستواها الاقتصادي والمعيشي مقبولا وجيدا في كثير من الأحيان رغم الأزمات الاقتصادية التي تتعرض لها المنطقة، ولكن السلطة الفرنسية على عكس سابقتها العثمانية لم تتسامح إطلاقا خصوصا وأنها ترغب في قلب البيئة الاجتماعية والقضاء على القبيلة، فلم تصمد أمام الأزمة الفلاحية.

5- الأزمة الفلاحية عام 1866-1869: تدهور المجتمع القبلي في منطقة سطيف:

في عام 1866 واجه المجتمع القبلي في منطقة سطيف أزمة اقتصادية خانقة، أثرت فيه بشكل كبير ودفعته نحو الانحيار والتدهور، وقد كانت هذه الأزمة نتيجة عدة عوامل:

- العوامل الطبيعية: حيث شهدت هذه الفترة تقلبات جوية كبيرة، فيشير العنترى، إلى أن المجاعة والأزمة الغذائية التي حدثت مردها القحط والجفاف الذي أدى إلى ييس الزرع¹، فمنذ عام 1865م لم تهطل الأمطار، ولم تتبلل الأرض إلا قليلا، وتواصل شح المطر حتى فصل الربيع، فجفت العيون والآبار، ولما دخل شتاء سنة 1866 تواصل الجفاف والقحط منذرين بأزمة حادة².

- سقوط أمطار غزيرة وثلوج في عام 1867، فتهطل كميات كبيرة من الأمطار والثلوج وتشكل الجليد كلها عوامل أدت إلى إتلاف مخازن الحبوب، وإتلاف الزرع وفساده بكثرة المياه وحتى النباتات والأشجار لم تسلم، ثم حل بعد ذلك الجفاف³.

- غزو الجراد: حيث اجتاحت هذه الحشرة معظم مناطق الوطن الشمالية، في عام 1868، فيقول العنترى: " فإن الجراد قد نزل على الوطن، وانتشر في نواحيه كما لا يخفى، فأهلك الحرث والنسل"⁴، ففي فصل الربيع -وبعدما اخضرت الأرض وبشرت بموسم جيد ينسي السنة التي قبله- قدمت أسراب الجراد، وأتت على الأخضر واليابس، وأكلت السنابل حتى الجذور وجردت الأشجار من اللحاء، ويذكر فيلاكروس وهو من المعمر أنه رأى سرب الجراد يتقدم على امتداد حوالي 8 كلم⁵.

¹ - العنترى، المصدر السابق، ص 54.

² - كمال بن صحراوي: مجاعة 1868 في الجزائر من خلال نصوص محلية وأخرى فرنسية، مجلة عصور الجديدة، م7، ع 26، 2017، ص 283.

³ - أني راي غولديغار، المرجع السابق، ص 462.

⁴ - العنترى، المصدر السابق، ص 57.

⁵ - A. Villacrose : Vingt ans en Algérie, Challamel, Paris, 1875, p 244-246.

العوامل الناجمة عن الاستعمار:

- تغيير ذهنية الفلاح كما رأينا، حيث دفع دفعا لادخار النقود عوض الحبوب، فمنذ فرض النقد لدفع الضرائب، وجد الفلاح نفسه مرغما على بيع حبوبه وإفراغ مطاميره، ولما وصلت الأزمة، وجد نفسه بنقود لا تساوي شيئا، فطالما واجهت الفلاح هذه الازمات فيما مضى ولكنه استطاع تلقي صدمتها ومواجهتها.

- مصادرة الأراضي وتطبيق القوانين العقارية، فسلب الأراضي التي كانت ثروة السكان الوحيدة أضر كثيرا بالقبائل اثناء الأزمة، فقبل الاحتلال كانت ثروة السكان مكونة من الأرض ومخزونات الحبوب والمواشي، ولكن بعد الاحتلال سلبت الأراضي فاخفتت معها الحبوب والمواشي، وما زاد الأمر سوءا، المغالاة في تصدير الحبوب¹، وتضيف غولديزغار موضحة دور الاستعمار في تفشي الأزمة: " لقد تم تكسير عالم الأهالي من قبل القمع العسكري، وسلبت منه أحسن أراضيها، وذلته الإدارة الحاضرة في كل مكان"².

ويؤكد هذا مارسيل إمريت الذي يقول: " عجز العرب عن مقاومة الجوع والجفاف لا شيء سوى لأن الاستعمار سلبهم الأراضي والانتفاع بها وسلبهم حتى الأنهار في وقت الجفاف في حين كان بالإمكان استغلال المياه لسقي المزروعات وشرب القطعان، فالحرمان من الماء أدى إلى اختفاء أغلب القطعان، وبما أن الفلاحة هي الغالبة ولا توجد هناك لا صناعة ولا تجارة، فقد تركوا دون مورد"³، مقدما مثالا بمنطقة القبائل التي أرجع صموده وقدرتها على تجاوز الأزمة ومساعدة الآخرين إلى أنها كانت منطقة عسكرية، وبالكاد دخلها المستوطنون للاستحواذ على أراضيها والاستيطان بها فبالكاد أخذ منهم شيء⁴.

ومن جهته حاول العنزي أن يبين أن السلطة الفرنسية كان لها فضل كبير في مساعدة السكان والاهتمام بهم، فيقول: " ولولا فضل الدولة الفرنسية، وتعطفاتها الخيرية وإحسان ولائها على كثير من الخلق بسلف الحبوب ونحوها لضاع الناس بأجمعهم"⁵، ولكن هذا الكلام الصادر منه نابع من مركزه الذي يشغله لدى السلطة الفرنسية.

إن الأزمات الاقتصادية عبارة عن حلقات متصلة من الكوارث، فبعد الجفاف والقحط انتشرت المجاعة على نطاق واسع، ولم يجد الناس ما يأكلونه، لأن الأراضي لم تزرع، فمثلا سهول سطيف وقسنطينة لم تزرع سوى

¹ - أي رأي غولديزغار، المرجع السابق، ص 466.

² - نفسه، ص 461.

³ - Marcel Emerit : l'état d'esprit des Musulmans d'Algérie de 1847-1870, R.H. M. C, T8, N2, 1961, 117.

⁴ - ibid, p 117

⁵ - العنزي، المصدر السابق، ص 58

ثلث سوى ثلث الأراضي التي كان من المفروض زراعتها، وقد ارتفعت الأسعار، ولم يعد للنقود قيمة، فوصل صاع القمح في قسنطينة إلى 60 فرنك، ليرتفع في 25 جوان 1867 وهو موسم الحصاد إلى 100 فرنك¹.

إن عدم زراعة الأرض أدى إلى استبداد الجوع وعدم وجود القوت، فاضطر السكان إلى التهام أي شيء، كجذور النباتات، وحتى القطط والميتة، فيقول العنترى: " فإن الجل الكثير من أولئك المصابين صاروا يقتاتون مالا يباح اقتيائه، فتراهم يزدحمون للوصول إلى هر وذم وميتة"².

كما أدى الجفاف ونقص العلف إلى انتشار مرض الرهمة بين المواشي، وهو مرض يصيب البقر والغنم نتيجة قلة التغذية فتضعف وتنفق، فازداد البوس على الفلاحين³.

هذا، وأدى انتشار الجراد إلى انتشار الجوع أيضا، كما ساهم في ظهور أمراض عديدة كالكوليرا والتيفوس، فالجراد الكثير تراكم في الآبار والوديان ملوثا الماء، فمات السكان ونفقت حيواناتهم.

خلفت هذه الأزمة وفيات كثيرة فقد سجلت 222 وفاة شهريا مقابل 8 ولادات عام 1867⁴، فمدينة سطيف التي أصيبت بالجفاف في الجنوب واجتاحها كثرة الجليد في الشمال، وصل الفقر فيها إلى أوجه، وكانت الطرقات مليئة بالجلث، حيث كان يموت ما بين 5-8 أفراد يوميا⁵، وانتشرت فيها الكوليرا والتيفوس، إذ وصلت الكوليرا على هذه المنطقة ما بين 23-25 جويلية عن طريق بسكرة، وقضت على 5394 فردا، ثم وصلت موجة ثانية في 10 أوت خلفت 558 وفاة⁶.

وقد عانت مختلف قبائل منطقة سطيف من هذه الازمة على غرار أولاد نابت التي انهارت ديموغرافيا بعدما فقدت الكثير من أراضيها بسبب شركة جنيفواز حيث تآكلت أراضي العرش، ومنحت السلطة الفرنسية بعض أراضيها لبعض الشخصيات المؤثرة كقايد أولاد بن بوزيد، ورغم أنها تسكن مجالا خصبا سهول واسعة

¹- أني راي غولديغار، المرجع السابق، ص 467.

²- العنترى، المصدر السابق، ص 55.

³- نفسه، ص 54.

⁴- كمال بن صحراوي، المرجع السابق، ص 282.

⁵- أني راي غولديغار، المرجع السابق، ص 506-507.

⁶- فارس كعوان، المرجع السابق، ص 148.

واودية عديدة إلا أنها لم تستطع النجاة فهي لم تقدر على التكيف مع التحول الاقتصادي ومع هذه الازمة، ففقدت في ظرف سنتين ما يقرب من 1990 فردا، وهو ما يعادل 25% من سكانها¹.

ولم تكن قبائل منطقة شمال سطيف عفي غنى من هذه الازمة، قد أرخ الشيخ الموهوب أولحبيب ما وقع، حيث أن الجراد قد حل بها في عام 1864 ولم يترك شيئا إلا أكله، ورغم اختفائه فقد عاود الظهور عام 1865 في نواحي بني ورثيلان ولكثرته وصفه قائلا: " والتقطوه التقاط الزيتون ودفنوا بيضه وفرضت الإدارة الفرنسية على الناس التقاطه وفرضت الغرامات على المخالفين"².

مضيفا أنه في عام 1866 حل جفاف رهيب فالأمطار لم تهطل طوال الشتاء حتى الصيف، ثم نزل وخصب أهل الجبال، ثم توقف وأعقبته حرارة شديدة في فصل الخريف، معلنة بداية الجفاف، فغلت الأسعار وصار الناس يموتون من الجوع³.

ولم تنته هذه الازمة حتى خلفت تدهورا كبيرا في القبائل، حيث فقدت مواردها الاقتصادية، وتراجعت ديموغرافيا، واختفت بعض الفرق، وانفصلت أخرى كما حدث لأولاد خيل من عامر التي اتجهت صوب الغرازة واستقرت هناك.

المبحث الثالث: تشييد المراكز الاستيطانية كإجهاز نهائي على القبيلة:

1- المحاولات الأولى للاستيطان: بدأت أولى محاولات الاستيطان والتوسع في منطقة سطيف على حساب القبائل المختلفة مباشرة بعد تمكن السلطة الفرنسية من وضع قدم لها هناك بداية من عام 1840م، إذ تفتن الاستعمار لأهمية المنطقة وإلى ما سيحنيه منها من فوائد كثيرة تعود بالمنفعة العامة على سير عملية الاحتلال ككل، ولهذا فبحلول عام 1842م، كانت السلطة الفرنسية قد قطعت شوطا كبيرا في هذا المجال، حيث بنت ثكنة عسكرية ومصلحة طبية (مستشفى) وبعض الشقق، كما أقامت مطحنة مائية على مجرى وادي بوسلام لطحن الحبوب اللازمة لتموين الحامية العسكرية الفرنسية الرابضة هناك، فبدأت بهذا أول ملامح سطيف بصيغتها الأوروبية⁴.

¹ - أي راي غولديغار، المرجع السابق، ص 510.

² - فارس كعوان، المرجع السابق، ص 149.

³ - نفسه، ص 150.

⁴ - Charles Féraud, Op ; cit, p 8.

وقد بلغ عدد المستوطنين في سطيف عام 1843م وهم من التجار والصناعيين، ليرتفعوا عام 1844م، بلغوا 232، ولكونهم صناعيين وتجار فلم يكونوا يشكلوا قاعدة للاستيطان، لذلك استقدمت السلطة الفرنسية معمرين فلاحين، وأقامت مطحنة ومشتلة لغرس 30 ألف شجرة، ولتدعيم الاستيطان أكثر تم تدشين طريق سطيف-بجاية، من قبل الجنرال بارال ثم غورمال¹.

ولتوسعة مركز سطيف، لجأت السلطات الفرنسية إلى اقتطاع أجزاء من قبائل عامر الظهارة والقبالة، والعلمة وأولاد نابت وريغة القبالة والظهارة وعموشة، وغيرها، فمن الأولى 14850 هكتار، بحجة أنها تملك أكثر مما تحتاج²، ومن الثانية 10748 هكتار على النحو التالي: بوعراش: 504 هكتار، بونشادة: 1728 هكتار، أولاد سي قاسم: 110 هكتار، أولاد تيليوبان: 200 هكتار. وبغية استيعاب السكان العرب تم تأسيس حين عربيين هما تيمار وراس الماء، فاقطعت من العلمة: 1200 هكتار، ومن ريغة القبالة: 1400 هكتار، وريغة الظهارة: 150 هكتار، ومن أولاد مالك: 600 هكتار بمجموع 3350 هكتار³.

وفي العام 1849م، بدأت المراكز الاستيطانية بالانتشار في المنطقة، وكان مركز عين الروى أولها خارج مدينة سطيف، والذي شيد من قبل الجنرال دوبرال والعقيد دولورمال، وجاء تأسيسه لاعتبارات عسكرية واستراتيجية، فهو حصن أقرب إليه من مركز، يتيح القدرة على مراقبة قبائل سطيف الشمالية المتحصنة هناك بالجبال كبابور والمهددة لهذه المدينة على الدوام إضافة إلى حصارها اقتصاديا وحرمانها من الكثير من النشاطات الاقتصادية اللازمة لاستمراريتها كالنزول إلى الأسواق، كما أنه يسمح بمراقبة وضمان استمرارية السير في الطريق الرابطة بين مدينة سطيف وبجاية، وهي طريق استراتيجية مهمة، فجل ما تبادله سطيف يكون مع بجاية، أين يوجد الميناء الذي يوفر الفرص للاتصال مع فرنسا ومع العالم الخارجي ككل⁴.

ثم توالى المراكز الاستيطانية في الظهور على جل المنطقة، فمنذ 1849م لم تتوقف طيلة القرن التاسع عشر، فظهر مركز العناصر، عين الصفية وفرماتو في التاريخ السالف الذكر، ثم ما بين 1850-1851م، وتأسست مصانع كثيرة على واد بوسلام ومزارع في خلفون، عين التبينت، والنافورة الرومانية وغيرها⁵.

¹ - كمال بيرم، المرجع السابق، ص 63.

² - Rapport de S.C de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 3.

³ - Rapport de s. c de la tribu d'Amer Guebala, Op ; cit, p 23.

⁴ - Charles Féraud, Op ; cit. p 15.

⁵ - Rapport de S.C de la tribu d'Amer Dahara, Op ; cit, p 46.

وقبل هذا قامت الفرقة العسكرية 19 الخفيفة التي عوّضت الفرقة العسكرية 61 في أكتوبر 1842م بمواصلة البناء، حيث أنشأت ثكنتين أخيرين ومستشفى وشقق ومخازن للحبوب وحديقة للثيران وشارع للفرسان وسجن عسكري وسجن للأهالي، ومكتب عربي وكنيسة كاثوليكية وفندق، وانتهت هذه الأشغال بحلول فيفري 1847م¹، ثم توالى الإنشاءات، فبُنيت محافظة الشرطة سنة 1851م، ومركز البلدية سنة 1856م، ثم مقر المحكمة سنة 1860م، وفي نهاية الستينات بلغت مدينة سطيف مساحة 64 ألف هكتار².

كُلّلت الجهود الفرنسية بتحويل سطيف إلى مدينة أوروبية، فيذكر مالستان أنه في العام 1853م أصبحت المدينة فرنسية تماما، بسكان يبلغ عددهم 2000 أوروبي أغلبهم من العسكريين، وأضحت الكثير من الشوارع تحمل أسماء أوروبية مثل شارع جوستينيان، شارع القديس أوغسطين وشارع توجان³.

وقد شهدت مدينة سطيف تطورا ملحوظا، ففي العام 1880م كانت لها شوارع واسعة مزينة بأشجار التوت، وحديقة جميلة تصطف فيها العواميد وشواهد القبور من روما السطايفية، يسكنها 9000 نسمة ما بين عرب وأوروبيين⁴.

ثم في العام 1896م أضحت سطيف ثاني أهم مدينة في إقليم مقاطعة قسنطينة، بسكان يبلغ عددهم 12000 نسمة منهم 2553 فرنسي، 1164 يهودي، 7808 من العرب، من أهم المباني فيها الكنيسة الكاثوليكية، المعبد البروتستانتي، المسجد، ومقر شركة جينفواز، بشوارع أنيقة، ومصاييح كهربائية⁵.

وهذا التطور الذي عرفته مدينة سطيف ليس من قبيل الصدفة، فهي تمتلك كل المقومات لذلك، فموقعها الاستراتيجي المتمركز في وسط مقاطعة أو بايلك قسنطينة جعلها مركز عبور يمكن الانطلاق منه للوصول إلى كل المناطق، وسهولها الخصبة ووفرة مياهها يفتحان الآفاق للاستثمار الاقتصادي، وكلها عوامل تساعد على تحقيق نتائج طيبة في هذا المجال، بالرغم من أن سكانها من الأوروبيين لم ينموا بوتيرة متسارعة تعكس الجهود المبذولة والآفاق المستقبلية المتاحة، ولا شك أن للمقاومة والأزمة الفلاحية دورا كبيرا في هذا.

2- طرق الاستحواذ على أراضي القبائل لتأسيس المراكز الاستيطانية: لتحقيق المشاريع الاستيطانية

الفرنسية في المنطقة المعتمدة على الأرض بالدرجة الأولى، لجأ الاحتلال إلى استحداث الكثير من الآليات

¹- Charles Féraud, Op ; cit, p 11.

²- ibid, p 16-17.

³- هانريش فان مالتسان: المرجع السابق، ص 170-171.

⁴- Paule Bourde: à travers l'Algérie 1879, G. Charpentier éditeur, Paris, 1880, P 174-175.

⁵- Claparé de Arthur, Op ; cit, p 87-89.

للحصول على العقار وتركيز المستوطنين الذين هم عماده الأول، والذين لن ينجح دونه في تنفيذ أي مشروع يجعل من الجزائر فرنسية، وقد تماشت آلياته بصعوبات وعراقيل واجهت توسعه، ونذكر بالتحديد رفض القبائل لأي عمل أو تواصل متعلق بالوافدين الجدد، خاصة وأن غالبية الأراضي على اختلاف أنواعها في المنطقة سطيف كانت ملكا لها، وفي ظل حاجة الاستعمار المتزايدة ابتكر عدة طرق للاستحواذ على الأرض قد تجاوز هذه الصعوبات نذكر أهمها:

2-1- تنفيذ القوانين العقارية: رأينا فيما سبق القوانين العقارية المتلاحقة التي أقرتها السلطة الفرنسية

والتي في ظاهرها تنظيم العقار ولكن في الباطن هو الاستحواذ على أراضي القبائل، خاصة وأن هذه الأخيرة لا تقبل البيع أو التنازل، فتم الاستحواذ على أراضي العزل والغابات والأنهار وغيرها.

2-2- العقوبات: وهو ما حدث لبعض القبائل عقب القيام بثورات عدت جرائم من منظور السلطة

الفرنسية، كما حدث لقبائل عدة عقب فشل ثورة المقراني، فموجب قانون 1871م صودرت أراضي القبائل كعقوبة لها نظير مشاركتها في هذه الثورة، وجاء هذا تجسيدا لقانون 1845م القاضي بمصادرة أراضي القبائل التي ترفع السلاح في وجه فرنسا، ومن بين من شملهم هذا القرار:

قبيلة ساحل قبلي¹: اقتطعت منه 3 قطع أرضية بقرار الحاكم العام المؤرخ في 19 سبتمبر 1871م وقرار

24 جويلية 1872م المؤيد بقرار 13 ماي 1875م على النحو التالي:

- 820 هكتار حجزت لتأسيس المركز الاستيطاني عين الروى.

- 607 هكتار لتأسيس دوار مترونة وطكوكة.

- 1200 هكتار احتُفظ بها لتأسيس المركز الاستيطاني الدراوات.

قبيلة بابور: صودرت أجزاء من أراضيها وأسس فيها المركز الاستيطاني شيفروفييل (بني عزيز)

Chévreul، والمساحة المصادرة هي 4500 هكتار في الجهة الجنوبية غربية للقبيلة².

¹- Rapport de s.c de la tribu de Sahel Guebli, Op ; cit, p 563-564.

²- Rapport de s. c de la tribu de Babor, Op ; cit, p 43.

قبيلة ريغة الظهارة: مصادرة 3400 هكتار في عين عزل وتأسيس مركز عين عزل، حيث استقرت هناك عائلات أوروبية وبدأت في العمل الزراعي¹.

2-3- مصادرة أراضي المخزن: هناك عينات عدة لأراضي المخزن التي تم الاستحواذ عليها، ورغم امتلاك أصحابها ما يثبت أنها لهم من عقود موثقة وصحيحة، ولكن عدتها سلطة الاحتلال كأراضي عزل، لديها الحق في مصادرتها، ومن هذه ما نجده في قبيلة ريغة القبالة، وذلك لبناء المركز الاستيطاني بئر حدادة مثل:

- **بلاد ملؤل:** وهي أرض زراعية ورعوية في الشمال الغربي للدّوار، حُجزت بأمر قضائي رقم 318/3 من السيد أحمد باي بن رابح، ومساحتها 9 هـ و 25 آر².

- **دانة المشري:** مساحتها 5 هـ و 76 آر، حُجزت من نائب القايد أحمد بن سليمان وعائلته، كما انتزع منه المكان المسمى المطار المدني، مساحته 2 هـ و 5 آر.

- **راس مطاع مذرعة:** مساحتها 76 هـ و 63 آر، حُجزت من أولاد أحمد بن الشريف بن الشيخ سعد بن قسوم.

- **شطّ التين:** ومساحتها 146 هـ و 5 آر، حُجزت من كل من:

1- محمد ولخضر إبن الحاج بن قانة بن محمد بن امبارك بن مسعود بن السعدي: 30 هـ.

2- مسعود بن محمد بن امبارك بن مسعود بن السعدي: 30 هـ.

3- قايد أحمد بن سليمان³: 72 هـ و 25 آر.

والكثير من الأراضي التي لا يسع المقام لذكرها كلها⁴.

2-4- التنازلات: هناك البعض ممن تنازلوا عن أراضيهم لصالح الإدارة الاستيطانية، حيث ساهمت بعض الزعامات المحلية وعائلاتهم في انتقال الأراضي للمعمرين بشكل سلس، وبالتالي إنشاء المراكز الاستيطانية، ومن

¹ - Rapport de s.c de la tribu de Rigba Guebala, Op ; cit, p 75.

² - ibid, Op ; cit, p 68-69.

³ - أحمد بن سليمان: قايد ريغة القبالة، عين رسميا بعد عملية التقسيم التحديد التي طالت هذه القبيلة، حاصل على وسام جوقة الشرف، وهو وسام يُمنح لمن يقدم خدمات جليلة للسلطة الاستعمارية، ورغم ذلك صودرت أملاكه وفتنت، ويدخل هذا في إطار تفكيك الأسر الكبيرة المتنفة.

⁴ - ibid, p 70 -75.

قدموا تنازلات نذكر ما حدث في قبيلة عموشة عندما تنازل مجموعة من السكان عن أراضيهم لمصلحة أملاك البلدية وأملاك الدومين، ومنهم:

في دوار منتانو:

1- أحمد بن خريفي: عقد التنازل بتاريخ 1 أوت 1868م للمكان المسمى بوالزيوت، مساحته الإجمالية 24هـ، 20آر و4س آ للمصالح البلدية.

2- سعيد أوعلي: عقد التنازل بتاريخ 1 أوت 1868م، للمكان المسمى سيدي عطية، مساحته الإجمالية: 12هـ، 79آر، و25س آ، للمصالح البلدية

دوار قلعون:

1- عامر بن حبيلس: عقد التنازل بتاريخ 1 أوت 1868م، للمكان المسمى بوقبرارة: مساحته الإجمالية: 3هـ، 16آر، 25س آ.

2- مبارك بن مقراط: عقد التنازل بتاريخ 1 أوت 1868م، للمكان المسمى راس الترك: مساحته الإجمالية: 67هـ، 83آر، 16س آ¹.

إذا كان البعض يتنازل عن أرضه بمحض إرادته وهذا نادرا، حيث لم تشر السجلات إلى أي صفقة عُقدت أو كان سكان القبائل طرفا فيها، فإن البعض تنازل عن أرضه من أجل الاستفادة من غيرها، مثل ما نجد ذلك عند قبيلة أولاد نابت، فحسب عقد مؤرخ في 20 ديسمبر 1868م²، فإن جماعة دوار لعيني إحدى الدواوير المشكلة لهذه القبيلة قد سلموا للبايلك أرض حرث داخل غابة جبل عيني الموجودة على الطريق الرابطة بين بجاية وسطيف، على شرط أن يسلمهم أرض موجودة بين المكان المسمى زهر البراليل وشعبة بريو المعيز الظهراوية والطريق المار بين جامع الحرية إلى عين الصفى ومساحتها 19هكتارا، وهذا قصد الاستفادة منها في الرعي على اعتبارها هي الأقرب لهم وتكفيهم الكثير من المشقة³.

¹- Rapport de s. c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 70-72.

²- نص العقد، أنظر الملحق رقم: 13، عقد تنازل من جماعة قبيلة أولاد نابت على جزء من أراضيها للسلطة الفرنسية مقابل الاستفادة من غيرها، عقد محفوظ في سجل قبيلة أولاد نابت.

³- Rapport de s. c de la tribu d'Ouled Nabet, Op ; cit, p 190.

2-5-الشراء: لم تُصادف في جميع السجلات التي اطلعنا عليها حالات بيع، فمن النادر أن يبيع أحد سكان القبيلة أرضه بشر إلى مُعمر إلا إذا اضطر لذلك اضطرارا شديدا، وفي قبيلة الغزالة المغلوبة على أمرها طوال القرن 19م، نجد جماعة الغزالة قد قبلت ببيع 8 هكتارات في المنطقة الواقعة بين الجباس وواد الخرواع للمعمر مرطاس¹ (مارتي)، وقد وُثِّق العقد بتاريخ 13 ديسمبر 1871م.²

ويبدو أن مارتي هذا كان يملك هناك منزلا، ثم استهوته أرض بالحوار لاحتوائها على مادة الجبس، فأنشأ محجرة لاستخراج هذه المادة، وبدأ عمله هناك واحتاج إلى التوسع وهذا مدرج في رسالة بعث بها إلى رئيس اللجنة الإدارية بسطيف، وعلى الأرجح هذا هو سبب البيع الناتج عن الضغط والإكراه³.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن تصور عمليات البيع التي تحدث بين الأوروبيين والجزائريين في غالبيتها على أنها عملية عادية قائمة على الرضا بين البائع والشاري والوصول إلى اتفاق يحفظ حقوق الجانبين، ولكن هذه العملية تتم وفق الإكراه واستعمال الضغوطات والتهديدات والابتزاز عادة.

3-إنشاء المراكز الاستيطانية: يُمكن التمييز في منطقة سطيف بين نوعين من الاستيطان، الاستيطان الذي قامت به الشركات الكبرى ممثلة في شركة جينفواز وبين الذي قام به الأفراد:

3-1-شركة جينفواز: جاءت شركة جينفواز السويسرية في إطار بحث السلطة الفرنسية على رأس مال وشركات يمكن أن تُؤسَّس للاستيطان الحقيقي الواسع المعتمد على رؤوس الأموال وليس الأفراد، فتقوم بإنشاءات وأعمال تُمكنها من جلب المستوطنين، فالحكومة رأت أن الاعتماد على الأفراد في دفع العملية الاستيطانية أمر لا يعود بالنتائج الكافية ولن يوسع العملية للحد المطلوب، فطلبت مساعدة الشركات الكبرى لتمويل القطاع الاقتصادي، ومنها الشركة العامة الجزائرية التي مُنحت 100 ألف هكتار.

وجونفواز شركة سويسرية عامة محدودة، برأس مال قدره 5 ملايين فرنك فرنسي، حصلت ما بين 1853-1857م على أراضي قدرها 20229 هكتار؛ 20 ألف هكتار بقرار إمبراطوري مؤرخ في 26 أبريل

¹- Rapport de s.c de la tribu de Ghezazla, Op ; cit, p 121.

²- نص العقد: أنظر الملحق رقم: 14، عقد بيع من قبل جماعة قبيلة الغزالة لصالح المعمر مارتي، عقد محفوظ في سجل قبيلة الغزالة.

³- Rapport de s.c de la tribu de Gherazla, Op ; cit, p 173.

1853م، و229هـ، بقرار من الأمير نابليون الذي شغل منصب وزير الجزائر والتعمير في 30 ديسمبر 1858م¹.

وقد مُنحت شركة جنيفواز هذه الأراضي شريطة بناء مساكن لخمسمائة عائلة أوروبية، حيث وعدت هذه الشركة كل أسرة بمنحها منزلا وعشرين هكتارا، على أن تدفع الأسرة خمس قيمة المنزل، وكنوع من التحفيز لتحقيق نتائج أفضل أعفيت من الضريبة، وقد قامت هذه الشركة بمشروع ضخم، وتمكنت من استقطاب 50 أسرة مهاجرة من سويسرا، و30 ألف مهاجر من ألمانيا وإيطاليا، وأول رئيس لهذه الشركة هو الكونت فرانسوا أوغست ساوتر دي بريجار، ومجلس إدارتها كان على الشكل التالي منذ 1853²:

ساوت دي بوريجارد رسنل منذ 1853م.

دوبان أميدي نائب رسنل منذ 1857م.

آمياو تران منذ 1860م (إداري).

آرثر بوسي منذ 1861م (إداري).

مارك شوفي منذ 1866م (إداري).

كرامر لويس منذ 1858م (إداري).

دوكرو أليكساندر منذ 1862م (إداري).

جولي روشات منذ 1864م (إداري).

لويس سورت أوديي منذ 1858م (إداري)³.

وقد اشتغل في هذه الشركة أو شغل مجالها الكثير من الأوروبيين والعرب الذين عملوا في مزارعها أو سكنوا منازلها، حيث أشار أحد التقارير إلى ضرورة إسكان العرب بالقرب من الأوروبيين قصد تطويرهم وتلقينهم أساليب عيش جديدة، وهو الهدف الذي أشرنا إليه سابقا والمراد من وراء انتزاع أراضي الجزائريين ومنحها للأوروبيين،

¹- Rapport de la compagnie Genevoise des colonies de Sétif, Dix-neuvième rapport de conseil d'administration, 3 Mars 1870, Sétif, Algérie, p 4.

²- أمحمد عميروحي: آثار السياسة الاستعمارية الاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954م)، ط.خ، وزارة المجاهدين، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م، ص59.

³- Les rapports de la compagnie Genevoise... Op; cit, p 2.

الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف

بحجة عدم قدرتهم على خدمتها، وقد تم استقطاب بعض الجزائريين للعمل في بداية 1870م، حيث وصل إلى مزارعها عرب من الجنوب والحضنة ومجانة وكان عددهم 544 نسمة، ولا شك أن المجاعة التي سبقت هذا التاريخ قد لعبت دورا في نزوح هؤلاء السكان بحثا عن حياة أقل قسوة¹.

أما تطور السكان فكان على النحو التالي: (حسب إحصائيات 31 ديسمبر 1869م)

الحالة المدنية في 1869م ²			الزيادة في السكان	عدد السكان في 29ديسمبر 1869م					
الوفيات	الولادات	الزواج		المجموع	البنات	الأطفال (ذكور)	النساء	الرجال	
7	22	5	91	428	92	136	100	100	الأوروبيين
63	62	48	588	2917	468	664	991	794	العرب

الشكل رقم 31: جدول يمثل تطور السكان الأوروبيين والعرب في مزارع شركة جنيفواز.

التعليق على الجدول: نلاحظ من خلال الجدول أن هذه المراكز قد عرفت استقطابا كبيرا للسكان العرب خلال سنة 1869، وهذا راجع إلى الأزمة الفلاحية التي عصفت بالمنطقة حيث بحث سكان القبائل المجاورة عن أمل للحياة فيها، وبالعكس من هذا شهدت هذه المراكز ثباتا في عدد السكان الأوروبيين وتناقصهم في بعض الأحيان، وهذا راجع إلى أن هذه المراكز لم تكن في مستوى تطلعاتهم، فالكثير من الأوروبيين تخلوا عما استثماروه فيها، أما من ناحية الولادات والوفيات فيبقى هناك فارق شاسع بين العرب والأوروبيين، فالولادات تعادل ثلاثة أضعاف، وهذا تماشيا مع إجمالي عدد السكان، أما الوفيات فدائما ما نعوزها إلى الأزمة الفلاحية، حيث بلغت تقريبا عشرة أضعاف وهو معدل ضم جدا، يبين الحالة التي وصل إليها السكان بعد السياسة الزراعية والمالية التي انتهجتها السلطة الفرنسية في المنطقة، ويبين لنا الجول التالي عدد المواليد والوفيات التي شهدتها هذه المراكز ما بين 1860-1869:

¹- Les rapports de la compagne Genevoise... Op; cit, p 63.

²- Ibid, p 57.

العدد	السنوات	1860	1861	1862	1863	1864	1865	1866	1867	1868
الولادات عند الأوروبيين	23	19	23	13	21	12	15	14	14	14
الولادات عند العرب	-	62	109	116	79	44	52	25	38	38
الوفيات عند الأوروبيين	13	9	7	8	6	12	9	5	8	8
الوفيات عند العرب	-	63	39	58	41	60	37	120	236	236

الشكل رقم 32: جدول يمثل عدد الولادات والوفيات لدى السكان الأوروبيين والجزائريين ما بين (1860-1868م)

في مراكز جنيغواز¹.

التعليق على الجدول:

الولادات: عند استقراء هذه الأرقام، نجد أن الولادات عند الأوروبيين في هذه المراكز بقيت ثابتة تقريباً مع بعض الاضطراب، مثلما حدث عام 1863م، حيث كانت هناك 13 ولادة فقط، وهذا راجع لمغادرة البعض منهم لهذه المراكز بسبب الخسائر التي تكبدوها، حيث كان اقتصادها مُتذبذباً لترتفع في العام التالي، أما الولادات عند العرب في هذه المراكز فقد بدأت بشكل جيّد مع بداية الستينيات، وظلت في الارتفاع حتى بداية عام 1867م، أين شهدت انخفاضاً شديداً وسريعاً، وهذا راجع إلى الأزمة الفلاحية.

الوفيات: ما يُقال عن الولادات يقال عن الوفيات، فالوفيات عند الأوروبيين ضلت ثابتة تقريباً طوال فترة الستينيات، حتى في وقت الأزمة الفلاحية بسبب المستوى المعيشي الجيد، فهم لم يكونوا عرضة للمجاعة، كما أن الحالة الصحية والطبية عندهم جيدة جنباً إلى جنب الأمراض، أما الوفيات عند الجزائريين فكانت مرتفعة، تماشت مع التعداد السكاني المتواجد والذي رأيناه في الجدول السابق، ولكنها في أعوام 1867-1868م ارتفعت بشكل جنوني أكثر من 150%، وهذا مرده إلى الأزمة الفلاحية أيضاً، حيث انتشرت المجاعة نتيجة القحط وتلاها الوباء والجراد وغيرها فكثر الوفيات، مما أثر سلباً على الوضعية الديمغرافية.

وهذا يعني من جانب آخر أن هذه المراكز لم تقدم أي إضافة لسكان القبائل المحيطة بها، بل على العكس زادت من يؤسهم كونهم صودرت أراضيهم التي استولت عليها شركة جنيغواز لبناء هذه المراكز، وتركتهم مع معاناة فقر دائم تدهورت معه البنية التقليدية القبلية.

¹ - Les rapports de la compagnie Genevoise... Op; cit, p 5-6

المراكز الاستيطانية لشركة جونيغواز:

تقع أملاك الشركة كلها بالقرب من مدينة سطيف، لا تتعدى مسافة 20 كلم في الغالب، أما مقر المؤسسة ومكاتبها ومنازل موظفيها فهي في المدينة، وهذه الشركة لم تعرف الاستقرار لا في الإنتاجية ولا في المردودية، حيث شهدت بعض فترات الرخاء، وخاصة عند القيام بالحرب الفرنسية الأمريكية أين ازدهرت تجارة القمح فارتفعت الأسعار، فكانت إيراداتها عام 1894م تقارب 208122 فرنك حسبما صرح به مجلس إدارتها، حيث أنتجت 18403 قنطار من القمح الصلب، و4457 من الشعير، وكان عائد الهكتار 21 فرنك، وهي نسبة يمكن رفعها يقول مديرها بالنظر إلى اكتشاف الفوسفات في عدة نواحي قريبة¹.

ولكن بعد نهاية الحرب وعودة الأسعار إلى معدلها الطبيعي، اتضح أن السلطة الفرنسية قامت بصفقة سيئة، لأن الشركة بنت منازل لم تكن في متناول الناس، ومع الرسوم المفروضة لم يجد غالبيتهم ما يُسدّدون به قروضهم فاضطروا للرحيل وتركها، كما أن ما أنفقته الشركة أدى بها إلى الإفلاس لأنها لم تستطع تغطية النفقات، ناهيك عن أراضيها التي لم تعد تستهوي الأوروبيين لشرائها، فاستأجرتها للعرب².

ولكن على كل حال، تبقى الحركة الاستيطانية التي قامت بها هذه الشركة جيدة، ويعود الفضل إليها في ازدهار حالة التعمير والاستيطان بمنطقة سطيف، حيث في العام 1900م، أصبح عدد سكانها 3674 نسمة بمدخول سنوي قدره 461275 فرنك، ثم ارتفع سنة 1910م ليلغ 774400 فرنك.

ما يهمنا هنا هو ما عادت به هذه الشركة من انعكاسات سلبية على البيئة القبلية في منطقة سطيف، حيث تركزت مزارعها الواسعة على أراضي قبيلة عامر التي فُككت لإيجاد الوعاء العقاري اللازم لتنفيذ هذه المشاريع، كما أنها استولت على أجود وأخصب الأراضي التي كانت القبيلة تحتاجها للاستمرار، فعشرون ألف هكتار (20 ألف مما منح للشركة وحدها) من أصل حوالي 57 ألف هكتار رقم كبير للغاية، يعادل ثلث مساحة القبيلة تقريبا، ثم ما لبثت هذه القبيلة أن استقطعت منها أجزاء أخرى للأغراض الاستيطانية أيضا، مما حكم على هذه الأخيرة بالزوال في نهاية المطاف.

¹- Calparé de Arthur, Op ; cit, p 93-95.

²- Paule Bourde, Op ; cit, p 176-177.

وكان عدد المراكز التي أنشأتها هذه الشركة 20 مركز، وهي: مالحة، عين ملح، عين الطريق، الموان، الحاسي، الوارية، قوسيمات، مسعود، الورييسيا، معيدوار، محادر، أوقرينة، زايري، عين موسى، الحرملية، عين رقادة، موان (مدينة)، عين أرناط، البحيرة، مدينة سطيف (مقر الشركة ولواحقه).

مركز عين أرناط: يقع على بُعد 10 كلم من مركز مدينة سطيف، مساحته: 1104 هـ، و64آر، يتكوّن من قسمين:

المجال الحضري: يقطنه 10 معمرين تحصلوا على منازل بنفس المساحة، فمثلا: المعمر بوان جولس كانت المساحة الممنوحة له 63 آر و75س آ، والمعمر كور أوجين: 63 آر و75س آ.

المزارع: نجد فيه 18 معمرًا تحصلوا على مساحات واسعة قصد زراعة الحبوب، فمثلا بوان جولس السالف الذكر لديه مزرعة تقدر مساحتها بـ98 هـ، 51آر، والمعمر لاشنال فرانسوا تحصل على 40 هـ¹. والزراعة المشهورة هي زراعة الحبوب، وقد رقيت إلى بلدية في 23 أوت 1861م².

مركز الموان: يقع على بعد 16 كلم من سطيف، مساحته 2172 هـ، 89آر، 35 س آ، ويتكون من مزارع ومركز حضري، فنجد المعمر شوفالي جون لويس تحصل على 4 هـ، 58آر، 54س آ، وشامبون فرانسوا تحصل على 4 هـ، 43آر، 54س آ، وتملك جونفواز في المجال الحضري 249 هـ، 34آر، 32س آ، وفي المجال الريفي 766 هـ، 73س آ، وما هو مشهور فيها هو إنتاج الحبوب وأشجار الفواكه والحدائق³.

أولاد خيل: أشرنا إلى أن عامر هي المتضررة أكثر من هذه الحركة الاستيطانية التي تبنتها شركة جينفواز، ليس فقط لخروج الكثير من أراضيها من يديها، ولكن لفقدانها أيضا لحمتها القبلية المرتكزة على الأرض، حين فقدت جزءا من سكانها الذين اضطروا للهجرة، خاصة لما عصفت المجاعة (1868-1869م)، ونقصد بالتحديد أولاد خيل.

يشكل أولاد خيل جزءا من قبيلة عامر، ولكن استحواذ شركة جينفواز على أراضيهم اضطرتهم للرحيل نحو مجال قبيلة الـ5 غزازلة، حيث ثبتوا في عزل عبد الباقي⁴.

¹- Puvée de centre d'Ain Arnet, N 4.

²- Tessier Octave : Algérie, Géographie, Histoire, Statistique, Description, Marseille Camion librairie, Alger Bastide librairie, 1865, p 95.

³- Rapport de centre de Mahouan, N 36.

⁴- Rapport de s.c de la tribu de Gherazla, Op ; cit, p 4.

الباز والحرملة: مساحة الباز 679هـ، والحرملة 800هـ، كانتا مركزين كبيرين، ومنظرهما جميل بسبب غراسة أشجار الفواكه التي كانت ناجحة جدا، كما زرعت جنيفواز في الباز 40هـ من الكروم التي تنتج نبيذا أحمر وأبيض عالي الجودة، مستفيدة من مياه وادي بوسلام¹.

3-2- استيطان الأفراد والحكومة مباشرة: إن الاستيطان الذي قامت به شركة جونفواز لم يقدم المرجو وبعد التوسع في المنطقة والاستيلاء على المزيد من الأراضي وتمكن السلطة الفرنسية من امتلاك وعاء عقاري كبير شرعت في الدراسات من أجل إعداد مراكز، وكما كانت هذه الأخيرة كثيرة، حيث ترامت على سطيف من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ولم يوقف السلطة الفرنسية في العملية الاستيطانية إلا الوصول إلى الجبال حيث لا مجال لمثل هذه الإنشاءات لاعتبارات عدة، وقد أخذنا بعض النماذج لاستحالة الإمام بكلها، بعضها من جنوب المنطقة وبعضها من الشمال.

1-1- مركز عين أزال: Ampère

1-1- التسمية: عين أزال اسم عربي أصله عين الغزال، يعني العين التي تشرب منها أو توردها الغزالان، أطلق عليها بعد استقرار الفرنسيين فيها اسم أمبير تيمنا بالعالم الفرنسي الشهير أندري ماري أمبير Ampère André Marie².

يقع مركز أمبير جنوب مدينة سطيف على بعد حوالي 80 كلم منها، شيد فوق أراضي قبيلة ريغة الظهارة على ارتفاع 960م، وهي أراضي سهلية واسعة وناعمة شمال العين المذكورة سابقا، وتقرر إنشاء هذا المركز بقرار من الحاكم العام موقع في 7 أفريل 1876م، حسبما أشار إلى ذلك التقرير المعد حول المركز، ورغم صدور قرار الإنشاء وذكر اسم عين أزال في أجندات السلطة الفرنسية منذ عام 1876م، إلا أن التنفيذ الميداني لم يتم إلا في 3 مارس 1882م³.

وبغرض تجسيد المشروع الاستيطاني لعين أزال، أعدت لجنة بقرار من الحاكم العام بتاريخ 21 ديسمبر 1881م، برئاسة فور نائب محافظ سطيف، ومكونة من: هيجو محافظ أملاك الدومين، كوسي محافظ الغابات،

¹- Calparé de Arthur, Op ; cit, p 92.

²- أندري ماري أمبير: ولد بليون سنة 1775م، عالم فرنسي تخصص في الفيزياء والرياضيات، والفلسفة، وقد قام بتجارب كثيرة في المجال الكهرومغناطيسي، وإليه يُنسب الفضل في تطوير علم الكهرومغناطيس، عضو في العديد من الأكاديميات، كالأكاديمية الفرنسية للعلوم، والأكاديمية الروسية للعلوم، وباسمه تسمى وحدة قياس التيار الكهربائي، أمبير، توفي عام 1836. المصدر:

www.larousse.fr/encyclopedia/personnage/Andr%C3%A9_Marie_Amp.

³- Rapport de centre d'Ampère, N 130.

مارتان طبيب، لاكوت جيومتري، سوزان مدير البلدية المختلطة ريغة، بيش عضو المجلس العام لسطيف، وغيرهم من الأعضاء، وهي لجنة متكاملة، أخذت بعين الاعتبار جميع الجوانب، الملكية، مصالح الغابات، الحالة الصحية، والجيولوجيا وغيرها من المجالات اللازمة لبدء الإنشاءات.

وكان هدف اللجنة هو إمكانية إقامة مركز استيطاني في هذه المنطقة، ودراسة مختلف الأبعاد الواجب الأخذ بها لإنشاء كهذا، مثل الفوائد المرجوة تحقيقها، والتكاليف اللازمة، والتي قُدرت بـ 128 ألف فرنك¹.

وبعد المعاينة والاطلاع، خرجت اللجنة ببعض الاستنتاجات اللازمة للإنشاءات تمثلت في:

1-2-الأمن والتأثير السياسي: الأمن متوفر، لأن الفرنسيين سيطروا وسكنوا هذه المنطقة منذ مدة مثل منطقة بومستور، كما تم القضاء على الثورات في تلك الناحية والإمساك بزمام السيطرة عليها، أما التأثير السياسي المرجو هي خلق حالة تقارب بين الأوروبيين والسكان المحليين وجذبهم ناحية الحضارة الفرنسية، وذلك بزرع الفرنسيين والمعمرين بينهم، كما يمكن الارتكاز على هذا المركز وجعله نقطة انطلاق للتوغل نحو الجنوب والسيطرة عليه.

1-3-الوضع الصحي: ممتاز رغم وجود بعض المستنقعات التي يمكن أن تخلق أمراضا كالكويليرا، ولكن بالوقاية وبالتحفيف والتمسك بقواعد النظافة ينقص من تأثيراتها السيئة، ويمكن كذلك استغلال مياه هذه المستنقعات في الري وتأسيس نشاط فلاحية.

1-4-الملكية: نوعان: أملاك الدولة، التي يمكن أن تمنح 3800 هكتار للانطلاق في الأشغال، فالدولة تملك مساحات واسعة حصلت عليها من عمليات التحديد التي طالت قبيلة ريغة بموجب قانون السيناتوس كونسيلت، ولكن هناك بعض المعمرين الذين سبق لهم وسكنوا هناك وأسسوا ملكيات خاصة، يمكن أن يشكلوا النواة الأولى التي يتكامل حولها المعمرون الذين سيلتحقون بهذا المركز الاستيطاني فيما بعد².

1-5-الطرق والمواصلات: تعتبر من العناصر الضرورية للإنشاء فلا شيء سيتحرك دونها، وهو أمر صعب في حالة تأسيس هذا المركز بالطرق والمواصلات قليلة، ولكن هذا المشكل سيُحل تدريجيا مع استقطاب السكان وانفتاح آفاق الاستثمار، خاصة مع وجود مزرعة بومستور، كما تم إعداد طرق مثل الطريق رقم 11.

¹- Maurice Villard et Yves Bassard, Op ; cit, p 398-402.

²- Ibid, p 400.

1-6- مياه الري والشرب: موجودة مثل عين أزال (18ل/ثا)، ووجود بعض العيون الأخرى مثل سبخة ملول وواد بير، وبير الشام، ولكن توصلت اللجنة إلى أن هذه الأودية ليس بإمكانها تغطية الحاجات المائية للمركز في حالة ما ازدهر وتوسع في المستقبل¹.

وتبلغ مساحة مركز عين أزال في الإجمال: 6670 هـ، 09آر، 50 س آ، حيث تشمل هذه المساحة كل المجال، سواء الشق الحضري، القطع المخصصة للفلاحة أو الحدائق، والمرافق العامة، أما المجال الحضري، فقد كانت مساحته، 61 هـ، 41 آر، 48 س آ، وهي إحصائيات قدمت في 19 أفريل 1921².

كما استفاد العديد من المعمرين من قطع أرضية، سواء كانت مخصصة للبناء وإنشاء حدائق، أو مزارع للحبوب، ومن جملة ممن تحصلوا على الأراضي نجد³:

- المعمر لاغارد إرنيس (Lagard Eenest): الذي كان يملك منزلا وحديقة في المجال الحضري بمساحة 8 آر، ويملك في المجال الريفي 06 قطع أرضية بمساحة 57 هـ، 73 آر، 80 س لآر، وقد منحت له بموجب قرار مؤرخ في 1898/12/07.

- جوزيف جير (Gerrier Joseph): يملك أيضا منزلا وحديقة في الجمال الحضري بمساحة 8 آر، و06 قطع أرضية في المجال الفلاحي بمساحة 60 هـ، 99 آر، حصل عليها في 1997/10/25

والملاحظ عند معاينة سجل المركز الاستيطاني لعين أزال نجد أن كل المعمرين قد حصلوا على قطع أرضية متساوية المساحة في المجال الحضري، و06 قطع في المجال الفلاحي، وهذا كنوع من التنظيم⁴.

كما كان هناك أراضي لبعض العرب في هذا المركز، ولكن تحصلوا عليها في وقت متأخر، وربما كان عن طريق الشراء، حيث وبعد مرور مدة من التنازل عن الأراضي للأوروبيين انتشرت ظاهرة الاستعادة من السكان العرب كنوع من المقاومة والرغبة في استرجاع أرض الأجداد، ومن هؤلاء:

¹- Maurice Villard et Yves Bassard, Op ; cit, p 405.

²- Rapport de centre d'Ampère, Op ; cit, N 130.

³- Ibid, p 2

⁴- خريطة المركز الاستيطاني عين أزال، الملحق : 15 و16، خريطة موجودة على مستوى مديرية مسح الأراضي لولاية سطيف

- علي بن لخضر: يملك قطعة أرض مساحتها 8 آر.
- صغير بن العروسي: يملك قطعة أرض مساحتها 88 هـ، 84 آر، 5 س آر¹.
- كما نجد في المركز أراضي تابعة لمختلف المصالح الفرنسية، هي:
- أملاك الدومين، محفوظة لاحتياجات الإنشاءات المستقبلية بمساحة 2 هـ، 43 آر، 04 س آر.
- أملاك مشتركة تتمثل:
- في أماكن تواجد المياه (العيون والآبار والسواقي) مساحتها 20 آر.
- أماكن عامة: تتمثل في الحدائق وأماكن التسلية والطرق ونحوها، مساحتها 16 آر
- مدرسة للذكور أنشأت عام 1902
- مقابر للمسلمين والأوروبيين.²

2-مركز تيزي نبشار:

يقع مركز تيزي نبشار في قلب دوار تاقيطونت، الذي يشكل جزء من قبيلة عموشة، رفقة الدواوير قرقور، قلعون ومنتانو وثنية الطين، وقد كان هذا الدوار تستوطنه عدة فروع هي: أولاد مرحوم، وأولاد عبد الرحمن، بني منان، وأولاد عزوز، وأولاد عثمان، وأولاد داود، وأولاد عالية، وأولاد منصور بن السعيد، وأولاد موفق، بمجموع سكان بلغوا 1161 في عام 1867م.

وبعد تمكن الاحتلال الفرنسي من المنطقة ولتوفر الأسس لتأسيس مراكز استيطانية (الأرض والمياه ولموقعها الاستراتيجي على الطريق الرابطة بين بجاية وسطيف ومراقبة جبال بابور)، قرر بناء مراكز استيطانية، كعموشة وعين الكبيرة وتيزي نبشار.

تبلغ مساحة هذا المركز 343 هـ، 61 آر، 10 س آر، وبمعاينة الخريطة المعدة للمركز، نجد أنه يقع على أرض جيدة خصبة، تتخللها شبكة مائية مهمة لتطوير قطاع الفلاحة ولتربية المواشي، يحده من الجنوب شعبة الكرمة، التي تفصله عن باقي أجزاء دوار تاقيطونت، ومن الشمال الشرقي، شعبة ايرسيست، ومن الشرق شعبة

¹- Rapport de centre d'Ampère, Op ; cit, p 33.

²- Ibid, p 51.

الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف

ادودان، وشعبة إمليزن ومن الشمال دوار تاقيطونت وشعبة سيدي أوغاب ومن الغرب شعبة أوزري، ويتضمن المركز أيضا غابة واسعة وهي غابة سيدي موسى¹.

وقد حصل المعمرون أيضا في هذا المجال الاستيطاني على قطع أرضية في الشق الحضري وأخرى في الشق الفلاحي الريفي وأخرى كحديقة بالقرب من المنزل، ونذكر من جملتهم²:

- المعمر فريديريك أميدي Frédéric Amédée: تحصل على قطعة أرضية في المجال الحضري، مساحتها: 70 آ، 70 س آ، وقطعة كحديقة للممارسة زراعة الخضر والفواكه مساحتها: 40 آ، 50 س آ، وثلاث قطع في المجال الريفي الفلاحي لزراعة الحبوب بمساحة: 48 هـ، 67 آ، وهذا بقرار مؤرخ في 12 مارس 1882

- المعمر غاري مارسلان Garrie Marcelin: تحصل في المجال الحضري على قطعة أرضية مساحتها آ، وحديقة للممارسة زراعة الخضر والفواكه مساحتها: 45 آ، ووثلاث قطع لزراعة الحبوب بمساحة: 38 هـ، 89 آ.

وهدف السلطة الفرنسية من خلال إنشاءها لهذه المراكز هو تفكيك القبيلة ووضعها تحت المراقبة المستمرة، حيث تقع هذه المراكز كما قلنا في وسط القبائل، مما يقطع أي محاولة أو تفكير في استعادة اللحمة القبلية: كما تميزت هذه المراكز بمجموعة من الخصائص:

- تواجدها دائما في أماكن تتخللها شبكة مائية مهمة، وقد أخذ هذا الجانب على قدر كبير من الجدية، فدائما ما تقع هذه المراكز بالقرب من الأودية أو تتخللها أودية، وهو أمر حيوي ركزت عليه السلطة الفرنسية، فلا استيطان دون ماء، كما أن الاستحواذ على الماء ومنع القبائل عنه يفضي بها إلى الهلاك، فلا قبائل دون ماء.

- دائما ما تشيد هذه المراكز في قلب القبائل، وفي أحصأ أراضيها، بل في قلب الدواوير، مما يسهل لاحقا عملية التفكيك والاستحواذ الكلي عليها تدريجيا.

¹ - خريطة المركز الاستيطاني تيزي نبشار، الملحق رقم: 17، خريطة محفوظة على مستوى مديرية مسح الأراضي لولاية سطيف

² - Rapport de centre de Tizi N'becheur.

- حصل المعمرون على مساحات واسعة جدا، ولا مجال للمقارنة بين ما تملكوه وما بقي للجزائريين، أو ما استحوذت عليه المصالح الفرنسية الأخرى كالبليات والغابات والدومين.

- كل المراكز بما شقين: ريفي وحضري، مع مراعاة أن الأول أوسع بكثير، فهو مزارع لإنتاج الحبوب، أما المناطق الحضرية فهي للسكن فقط وتأسيس حدائق.

- أغلب المراكز وأكثرها اتساعا تقع في جنوب سطيف وسطيف وسط، فهناك تتواجد المناطق السهلية الواسعة، أما في الناحية الشمالية، حيث تقع القبائل في مناطق جبلية، فلا تتواجد مراكز استيطانية مهمة، والسبب يكمن في كونها لا تتوفر على مناطق زراعية واسعة لغلبة الطابع الجبلي، كما أن الاستيطان في الجبال يتطلب نفقات كبيرة لتهيئة الأرض، ناهيك عن كون الجبال دائما ما تكون معقلا للمتمردين والثائرين (غياب الأمن).

- لم تتوسع هذه المراكز في المناطق المحاذية للجبال إلا لتشكيل نقاط مراقبة وخط دفاع أول ضد القبائل الجبلية وغاراتها، فمركز عموشه في تاقيطونت شيد لمراقبة قبائل عموشه، ومركز سيلاق شيد لمراقبة جبال بابور، ومركز حمام قروور شيد لمراقبة قبائل قرقور، ساحل قبلي وبني شبانة، في طريقة تذكرونا بما قام به الرومان عند استحداثهم خط الليمس.

خاتمة

من خلال دراستنا لهذا الموضوع توصلنا إلى النتائج التالية:

- إن القبيلة بنية اجتماعية، لها خصوصيتها، وأبعادها التي تستند عليها، فهي تركز على أسس محددة وشديدة التركيز ولا يمكن أن تقوم إلا بها، وهي النسب والعصبية القبلية والتضامن الاجتماعي، والأرض، وكل مساس بهذه المقومات يعرض القبيلة للخطر.

- تعتبر القبيلة سلطة، ولكنها على نطاق محلي، على عكس السلطة المركزية التي تتحكم في مجال يشمل العديد من القبائل.

- دخلت القبيلة والسلطة في علاقة متراوحة بين التعايش والصراع، يتحدد هذا وفق عدة معطيات كالالتزام الطرفين بما هو منوط بهما، فيكون حضور القبيلة في حالة غياب السلطة المركزية أو في حالة قلة تمثيلها.

- تعتبر القبيلة قوة في نظر الأفراد بوجودها وبرمزيتها، وأي مساس بها يجعلهم يسارعون إلى الالتحام بها لمواجهة أي خطر قد يهددها.

- إن القبيلة والسلطة وباعتبارهما سلطتين في الوقت نفسه، فتقاسمهما المجال يخضع للكثير من الضوابط، فكل واحدة منهما ما تضطلع به من مهام، وقد يستمر الحضور القبلي بوجود السلطة المركزية، وقد يختفي أيضا، وربما قد ترقى بعض القبائل لتأسس دولا.

- لا يمكن فهم المجتمعات التقليدية والإمام بمختلف العلاقات التي تحكمها ما لم نتمكن من فهم العلاقة بين القبيلة والسلطة.

- تعتبر منطقة سطيف مثالا حيا لعلاقة القبيلة والسلطة، فهي تقدم نموذجا متكاملًا عن هذا في فترة القرن التاسع عشر.

- تعتبر منطقة سطيف من أقدم المناطق المأهولة بالسكان، وذات التاريخ العريق الذي لا يزال يحتاج إلى الكثير من الدراسة والتنقيب، فتاريخها مغيب بشكل كبير، فقد استقطبت الكثير من الأقوام وخصوصا العرب الذين امتزجوا بالبربر وشكلوا عرقا واحدا دون وجود أي فوارق تذكر.

- خلال العهد العثماني شهدت الجزائر، ومنها منطقة سطيف، أنواعا عدة من القبائل من منظور السلطة، وهي القبائل المخزنية، الرعية، والممتنعة، والمتحالفة، وتعتبر الضرائب عنصرا أساسيا في تحديد العلاقة بين القبيلة والسلطة.
- عرفت قبائل منطقة سطيف حالة اقتصادية جيدة خصوصا أن لديها المقومات اللازمة لذلك، فالنشاط الزراعي والرعوي والحرف والمبادلات التجارية كانت كلها حاضرة، ساهمت في تحسن الحالة المعيشية لهذه القبائل، ولكن كل هذا كان استهلاكيا بالدرجة الأولى.
- عرفت منطقة سطيف على غرار باقي مناطق الجزائر، أنواعا عدة من الملكية، وكان أكثرها شيوعا أراضي العرش في المناطق ذات اللسان العربي، والأراضي الخاصة لدى القبائل ذات اللسان البربري.
- يعتبر المناخ عاملا أساسيا في تحديد الكثير من عناصر حياة القبائل السطيفية، فالمناخ هو من يتحكم في الاقتصاد، والإنتاج والاستهلاك، وحركات القبائل واستقرارها.
- من الناحية الثقافية، لم تكن قبائل سطيف في معظمها على جانب كبير منه فلم تتعدى بعض المدارس والزوايا، زاد الأمر سوءا حضور الاحتلال الفرنسي الساعي لطمس الهوية والثقافة الجزائرية.
- اتبعت السلطة التركية العديد من الإجراءات لإخضاع القبيلة وإبقائها تحت السيطرة، كالحجوة إلى الشيوخ والمرابطين لما لهم من تأثير، الحرمان مما تقدمه الأسواق، وإتباع سياسة فرق تسد، وكلها أساليب قد أتت أكلها في الغالب، واستطاعت السلطة تسيير هذا المجال لفترة طويلة دون حدوث الكثير من القلاقل.
- لقد تمكنت السلطة التركية على المحافظة على علاقة هادئة تقريبا مع القبائل، فلا هي حاولت التدخل في خصوصياتها، ولا القبائل طمعت في السلطة، وعاش الطرفان في سلام، ولكن هذا سوف تغير بتغير الوضع وظهور معطيات جديدة لاسيما مطالبة السلطة من القبائل دفع مزيد من الضرائب.
- تعتبر سنة 1830 (الاحتلال الفرنسي) حدثا مفصليا على الجزائر عموما وعلى علاقة القبائل بالسلطة، لأنه غير الكثير من المفاهيم، فمن حالة التعايش التي كانت في العهد العثماني، ستكون هناك حالة صراع شديد من أجل البقاء بالنسبة للقبائل، ومن أجل السيطرة الكاملة للسلطة الفرنسية الجديدة.

- اتبعت السلطة الجديدة كل الإجراءات المتاحة وغير المتاحة للقضاء على القبيلة، لاعتبارها القبيلة العدو الأساسي الأول، وإدراكها أنه لا يمكن لها المضي في مشروعها الاحتلالي ما لم تقض على القبيلة، فاستعملت الإبادة الجماعية والضغط العسكري، واستوحت من الأتراك أيضا بعض الإجراءات كالاتماد على العائلات الكبيرة في التسيير.

- أخضعت السلطة الفرنسية القبائل الجزائرية عموما وقبائل منطقة سطيف على وجه الخصوص لمختلف القوانين العقارية الهادفة لإرساء المزيد من التفكيك، وكان أكثرها تأثيرا القانون المشيخي 22 أفريل 1863، الذي ساهم في تفكيك القبيلة كما حدث لعامر، فيعد هذا القانون أصبحت القبائل من الماضي.

- اتبعت قبائل منطقة سطيف كل السبل في المقاومة لإحساسها بالخطر الخارجي، بداية من المقاومة الشعبية -تحت قيادة مختلف الشخصيات كالأمير عبد القادر والمقراني- إلى تطوير نماذج أخرى للمقاومة كالرفض، والمقاومة السياسية والشكايات.

- إن الضغط الذي تعرضت له قبائل منطقة سطيف أدت إلى اختفائها تماما، فم تعد تذكر إلا على شفاه الناس، وتذكر بها الأجداد على غرار قبيلة عامر، فلم يكدها يحل القرن العشرين حتى تفككت القبيلة الجزائرية والسطايفية لدرجة لم يعد بالإمكان إحيائها من جديد.

- حاولت السلطة الفرنسية مزاحمة القبائل في منطقة سطيف على المجال، فاتبعت سياسة اقتصادية ومالية، أدت مع مرور الوقت إلى انخيار القبائل، الانخيار الذي ظهر جليا أثناء الأزمة الفلاحية 1867.

- كان الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف متأخرا نوعا ما، فغالبية لم يبدأ إلا في ثمانينيات القرن التاسع عشر، ومرد هذا المقاومة الشديدة للقبائل السطايفية.

- عرفت منطقة سطيف نوعين من الاستيطان: استيطان الشركات ممثل في شركة جينفواز واستيطان الحكومة ممثل في تأسيس مختلف المراكز الاستيطانية، ولكن الهدف منه هو المزيد من التفكيك للقبائل الجزائرية.

- لم يكن التفكيك الذي شهدته قبائل منطقة سطيف على قدر واحد من القوة، فبعض القبائل استطاعت الحفاظ على جزء من هويتها، ومرد هذا أن السلطة الفرنسية لم تستهوها تلك المناطق للاستيطان، فلا هي تملك الأرض اللازمة، ولا مواقع إستراتيجية مهمة.

- يعتبر الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف إجراء من إجراءات تفكيك القبائل، فقد حرصت السلطة الفرنسية على إنشاء المراكز الاستيطانية في قلب القبائل، كما شكلت هذه المراكز، حصونا لمراقبة القبائل، أو مراكز انطلاق للاستحواذ على المزيد من القبائل.
- يعتبر القرن التاسع عشر قرنا مفصليا في تاريخ الجزائر لأنه فيه تم تغير وجه المجتمع الجزائري بالكامل.
- بنهاية القرن التاسع عشر، تفككت القبيلة، ليدخل المجتمع الجزائري مرحلة أخرى، وهذا التفكيك لا يزال يلقي بظلاله إلى اليوم.
- بالنظر إلى تعامل السلطتين التركية والفرنسية مع القبائل، نجد تعاملين: السلطة التركية لم يكن همها سوى إيجاد تناغم بينها وبين مختلف القبائل، بغض النظر عن خلفيتها، تناغم يخدم مصالحها بالدرجة الأولى، فاستمرار هذه القبائل هو استمرار لها، أما السلطة الفرنسية فكان همها تفكيك القبيلة الجزائرية معتبرة استمرارها مرتبط بزوال القبيلة الجزائرية، وعلى هذا الأساس تولدت جميع الاستراتيجيات التي اتبعتها كل سلطة.

الملاحق

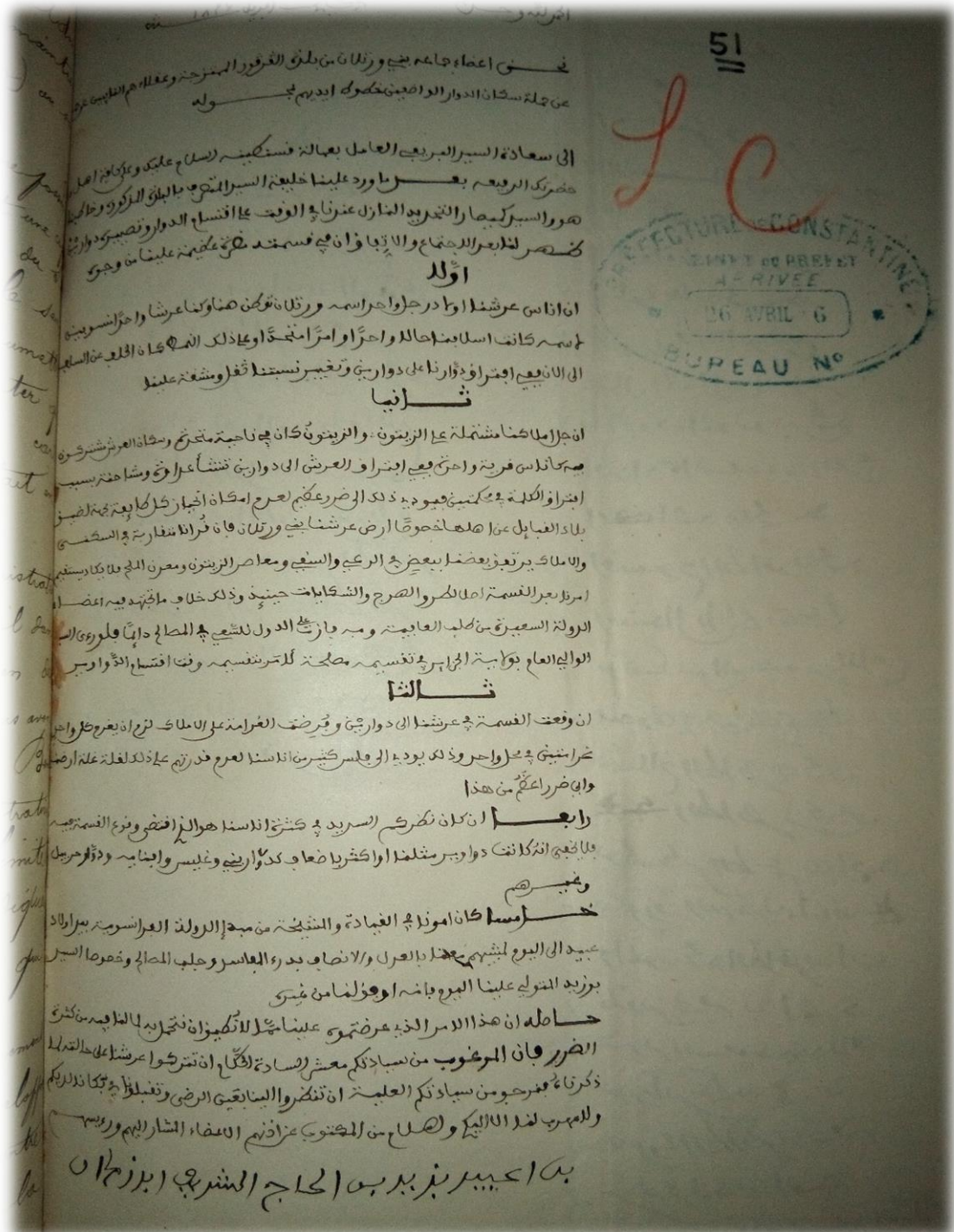
الملحق رقم 01: خريطة لقبائل منطقة سطيف خلال القرن 19م



المصدر: خريطة موجودة في مديرية مسح الأراضي لولاية سطيف.

السلم 1/400000

الملحق رقم 02: رسالة من سكان بني ورثيلان يذكرون فيها بأصلهم وجدهم ورثلان ويشكون فيها من تضررهم من عملية التحديد والتقسيم.



المصدر: 51 p ; cit ; op de la tribu de Beni Ourtilane de s.c Rapport

ترجمة الرسالة:

أفريل 1892

الحمد لله وحده

نحن أعضاء جماعة بني ورثلان من بلدة القرقور الممتزجة وعقلائهم النائيين عن جملة سكان الدوار الواضعين خطوط أيديهم بمجوله.

إلى سعادة السيد البريفي العامل بعمالة قسنطينة، السلام عليك وعلى كافة أهل حضرتك الرفيعة، بعدما ورد علينا خليفة السيد المتصرف بالبلدة المذكورة وخاطبنا هو والسيد كميصار التحديد النازل عندنا في الوقت على اقتسام الدوار وتصويره دواوين، ظهر لنا بعد الاجتماع والاتفاق في أن في قسمته مضرة عظيمة علينا من وجوه.

أولا

إن أناس عرشنا أولاد رجل واحد اسمه ورثلان توطن هنا، وكنا عرشا واحدا منسويين لاسمه كانت اسلافنا حالا واحدا وأمرنا متحدا وعلى ذلك النمط كان الخلف عن السلف إلى الآن، ففي افتراق دوارنا على دواوين تغيير نسبنا ثقل ومشقة علينا.

ثانيا

إن جل أملاكنا مشتملة على الزيتون، والزيتون كان في ناحية متحدة من العرش مشتركون فيه كأناس قرية واحدة ففي افتراق العرش إلى دواوين تنشأ عداوة ومشاحنة بسبب افتراق الكلمة في محكمتين، فيؤدي ذلك على ضرر عظيم، لعدم امكان انحياز كل طائفة بجهة لضيق بلاد القبائل عن أهلها، خصوصا أرض عرشنا بني ورثلان، فإن قرانا متفارقة في السكنى والاملاك يرتفق بعضنا ببعض في الرعي والسقي ومعاصر الزيتون ومعدن الملح، فلا يكاد يستقيم أمرنا بعد القسمة أصل الضرر والهرج والشكايات حينئذ، وذلك خلاف ما يجتهد فيه أعضاء الدولة السعيدة من طلب العافية وبه فازت على الدول للسعي في المصالح دائما فلو رأى السيد الوالي العام بولاية الجزائر في تقسيمه مصلحة لأمر بتقسيمه وقت افتتاح الدواوين.

ثالثا

إن وقعت القسمة في عرشنا إلى دواوين وفرضت الغرامة على الأملاك لزم أن يغرم كل واحد غرامتين في غرامتين في محل واحد وذلك يؤدي إلى فلس كثير من أناس عرشنا لعدم قدرتهم على ذلك لقلة غلة أرضنا، وأي ضرر أعظم من هذا.

رابعا

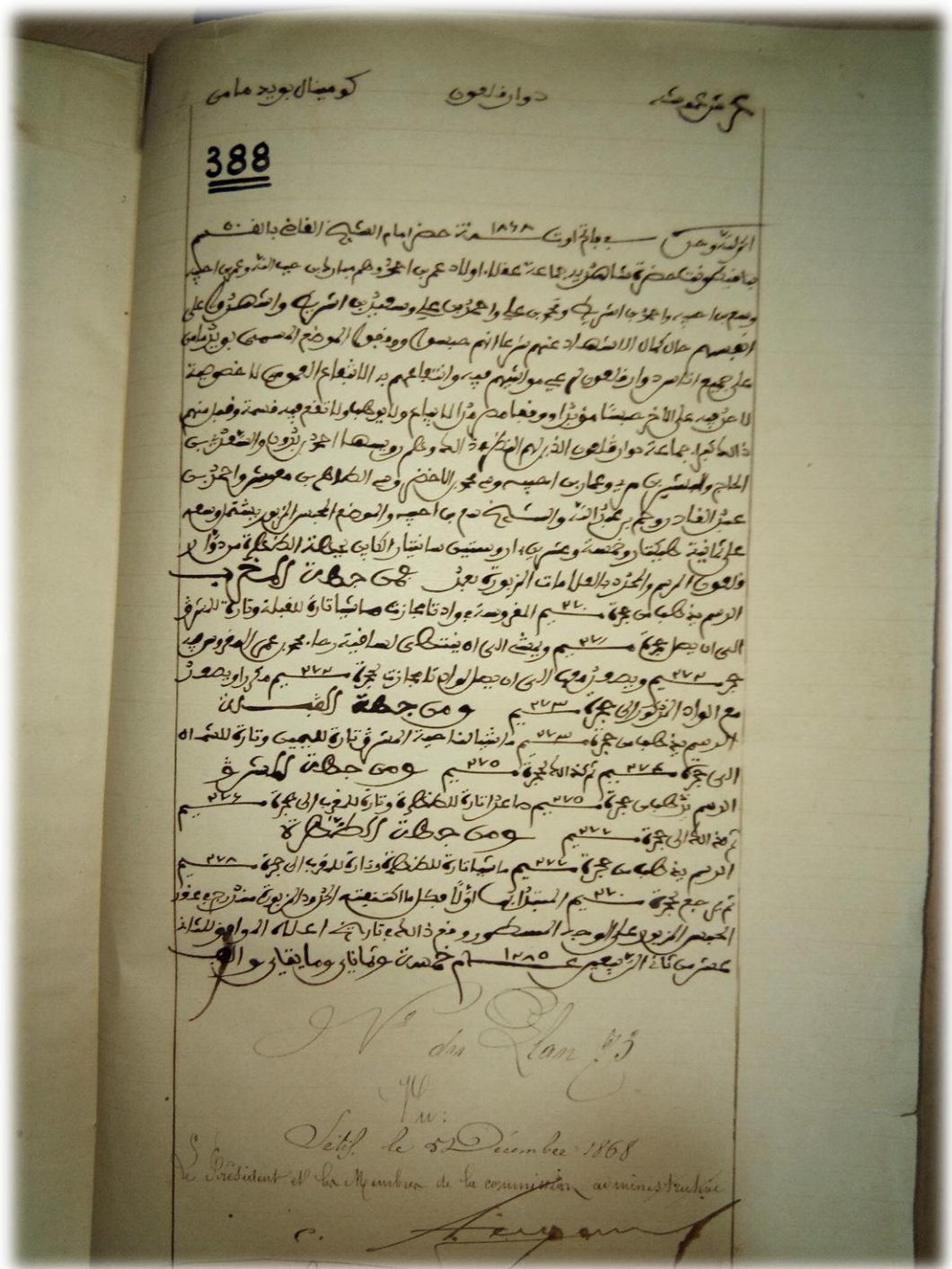
إن كان نظركم السديد في كثرة أناسنا هو الذي اقتضى وقوع القسمة فيه، فلا يخفى أنه كانت دواوين مثلنا أو أكثر بأضعاف كدوار بني وغليس ودوار ... حربيل وغيرهم.

خامسا

كان أمرنا في القيادة والمشیخة من مبدأ الدولة الفرنسية بيد أولاد عبيد إلى اليوم لمشيهم معنا بالعدل والانصاف بدراء المفاسد وجلب المصالح وخصوصا السيد بوزيد المتولي علينا اليوم فإنه أرفق لنا من غيره.

حاصلة هذا الأمر الذي عرضتموه علينا مما لا نطبق أن نتحمل بد لما لنا فيه من كثرة الضرر فإن المرغوب من سيادتكم معشر السادة الحكام إن تتركوا عرشنا على حالته لما ذكرناه فنرجو من سيادتكم العلية أن تنظروا إلينا بعين الرضى وتقبلونا بكانا لديكم ولا مهرب لنا إلا إليكم والسلام من المكتوب عن إذنهم الأعضاء المشار إليهم ورئيسهم بن عبيد بزيد بن الحاج الشريف ابن زيدان

الملحق 03: عقد وقف في قبيلة عموشة، موقوف من جماعة دوار قلعون، على عموم سكان دوار قلعون محرر في 1868م



المصدر: 388: Op ; cit, p 388: Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha,

ترجمة الوثيقة

عرش عموشة دوار قلعون كومينال بويدمان

الحمد لله وحده في فاتح أوت سنة 1868م حضر أمام الشيخ القاضي بالقسم بتاقيطوننت شاهد يد جماعة عقلاء أولاد عمر بن احمد وهم مبارك بن حبيب الله وعمر بن احمد وسبع بن احمد وأحمد بن اشريط ومحمد بن علي وسعيد بن اشريط وأشهدوا على أنفسهم حال كمال الاشهاد عنهم شرعا أنهم حبسوا ووقفوا الموضع المسمى بويدمان على جميع أناس دوار قلعون لرعي مواشيهم فيه والانتفاع فيه وانتفاعهم بد الانتفاع العمومي لا خصوصية لأحد فيه على الآخر حبسا مؤبدا ووفقا لايياع ولا يوهب ولا تنفع فيه قسمة وقبل منهم ذلك كبراء جماعة دوار قلعون الذين لهم النظر في ذلك وهم رئيسها أحمد بن بدون والسعيد بن الحاج والبشير بن مريش وعمار بن احمد وسي محمد بن الأخضر وسي الطاهر بن معوش وأحمد بن عبد القادر وحمو بن عبد الله والشيخ سعد بن احمد، والموضع الحبس المزبور يشتمل وسعه على ثمانية هيكتار وخمسة وعشرين أر وستين سانتيار والكاين بجهة الظهرة من دوار قلعون المرسم والمحدد بالعلامات المزبورة بعد فمن جهة المغرب حجرة ميم 270 المغروسة في واد تاجازت ماشيا تارة للقبلة وتارة للمشرق إلى أن يصل حجرة ميم 272 ويصير معها إلى أن يصل إلى واد تاجازت لحجرة ميم 272 مكررا ويصعد إلى الواد المذكور إلى حجرة ميم 273 ومن جهة القبلة الرسم يذهب من حجرة ميم 273 ماشيا ناحية المشرق تارة لليمين وتارة للشمال إلى حجرة ميم 274 ثم كذلك إلى حجرة 275 ومن جهة المشرق الرسم يذهب من حجرة ميم 275 ماعدا تارة للظهرة وتارة للغرب إلى حجرة ميم 276، ثم كذلك إلى حجرة ميم 277 ومن جهة الظهرة الرسم يذهب من حجرة ميم 277 ماشيا تارة للظهرة وتارة للمغرب إلى حجرة 278 ثم يرجع إلى حجرة ميم 207 المبتدأ بها أولا فكل ما اكتنفته الحدود المزبورة مندرج في عقد الحبس المزبور على الوجه المسطور وقع ذلك في تاريخ أعلاه الموافق للثاني عشر ثاني الربيعن عام 1285 خمسة وثمانين ومايتاين وألف

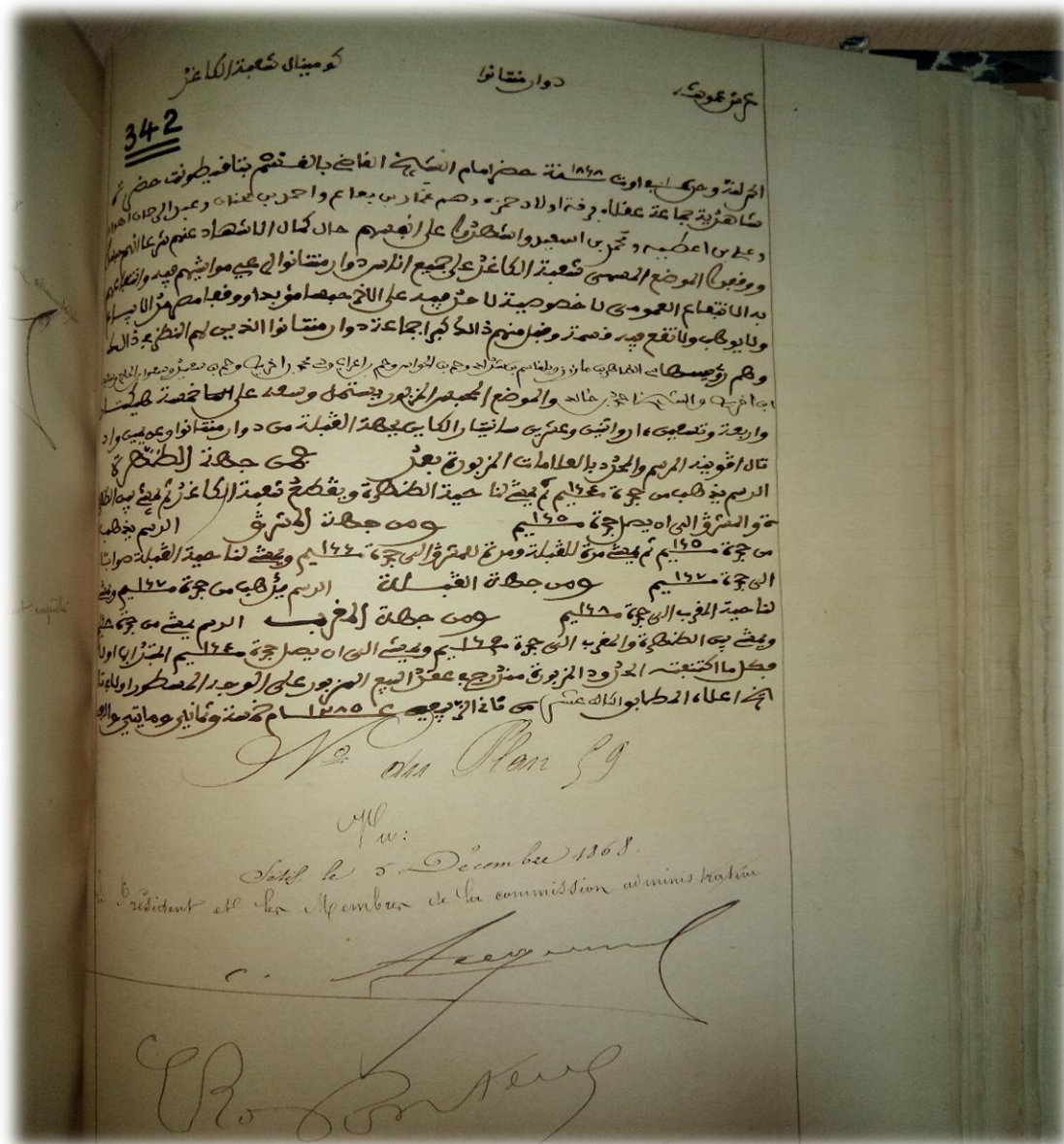
عام 73

مطلع عليه: سطياف 5 ديسمبر 1868

التوقيع

رئيس وأعضاء اللجنة الإدارية

الملحق رقم 04: عقد وقف في قبيلة عموشة موقوف من جماعة دوار منتانو على عموم سكان دوار منتانو محرر في 1868



المصدر: Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 342

ترجمة الوثيقة

عرش عموشة دوار منتانو كومينال شعبة الكاغد

الحمد لله وحده في 01 اوت سنة 1868 حضر أمام الشيخ القاضي بقسم تاقيطونت حضر شاهد يد جماعة عقلاء فرقة أولاد حمزة وهم عمار بن بعاع وأحمد بن محنان وعبد الرحمان اهدار وعلي بن اعطية ومحمد بن اسعيد وأشهدوا على أنفسهم حال كمال الإشهاد عنهم شرعا أنهم حبسوا ووقفوا الموضع المسمى شعبة الكاغد على جميع أناس دوار منتانو لرعي مواشيهم فيه وانتفاعهم به الانتفاع العمومي لا خصوصية لأحد على الآخر حبسا مؤبدا ووفقا لا يباع ولا يوهب ولا تقع فيه قسمة وقبل منهم ذلك كبراء جماعة دوار منتانو الذين لهم النظر في ذلك وهو رئيسها سي الطاهر بن مازون وبلقاسم بن شراد وحم بن الحواس وحم بن اعراب وسي محمد بن اخريس وحم بن سعيد وسعو ابن الحاج وسعيد ابن اخريس والشيخ أحمد بن خالد، والموضع المحبوس يشتمل وسعه على خمسة هيكتارات وأربعة وتسعين آر واثنين وعشرين سانتيار والكاين في جهة القبلة من دوار منتانو وعن يمين تال أقوينة المرسم والمحدد بالعلامات المزبورة بعد **فمن جهة الظهر** الرسم يذهب من حجرة ميم 124 ثم يمشي للاحية الظهره ويقطع شعبة الكاغد ثم ينشي بين الظهره والمشرق إلى أن يصل إلى حجرة ميم 125، **ومن جهة المشرق** الرسم يذهب من حجرة ميم 125 ثم يمشي مرة للقبلة ومرة للمشرق إلى حجرة ميم 126 ويمشي للاحية القبلة صوابا إلى حجرة ميم 127 **ومن جهة القبلة** الرسم يذهب من حجرة ميم 127 ويمشي للاحية الغرب إلى حجرة ميم 128 **ومن جهة الغرب** الرسم يمشي من حجرة ميم 128 ويمشي بين الظهره والمغرب إلى حجرة ميم 129 ويمشي إلى أن يصل حجرة ميم 124 المبتدأ بها أولا فكل ما اكتنفته الحدود المزبورة مندرج في عقد البيع المزبور على الوجه المسطور أولا تاريخ أعلاه المطابق للثاني عشر من ثاني الربيعين عام 1285 خمسة وثمانين ومايتين وألف.

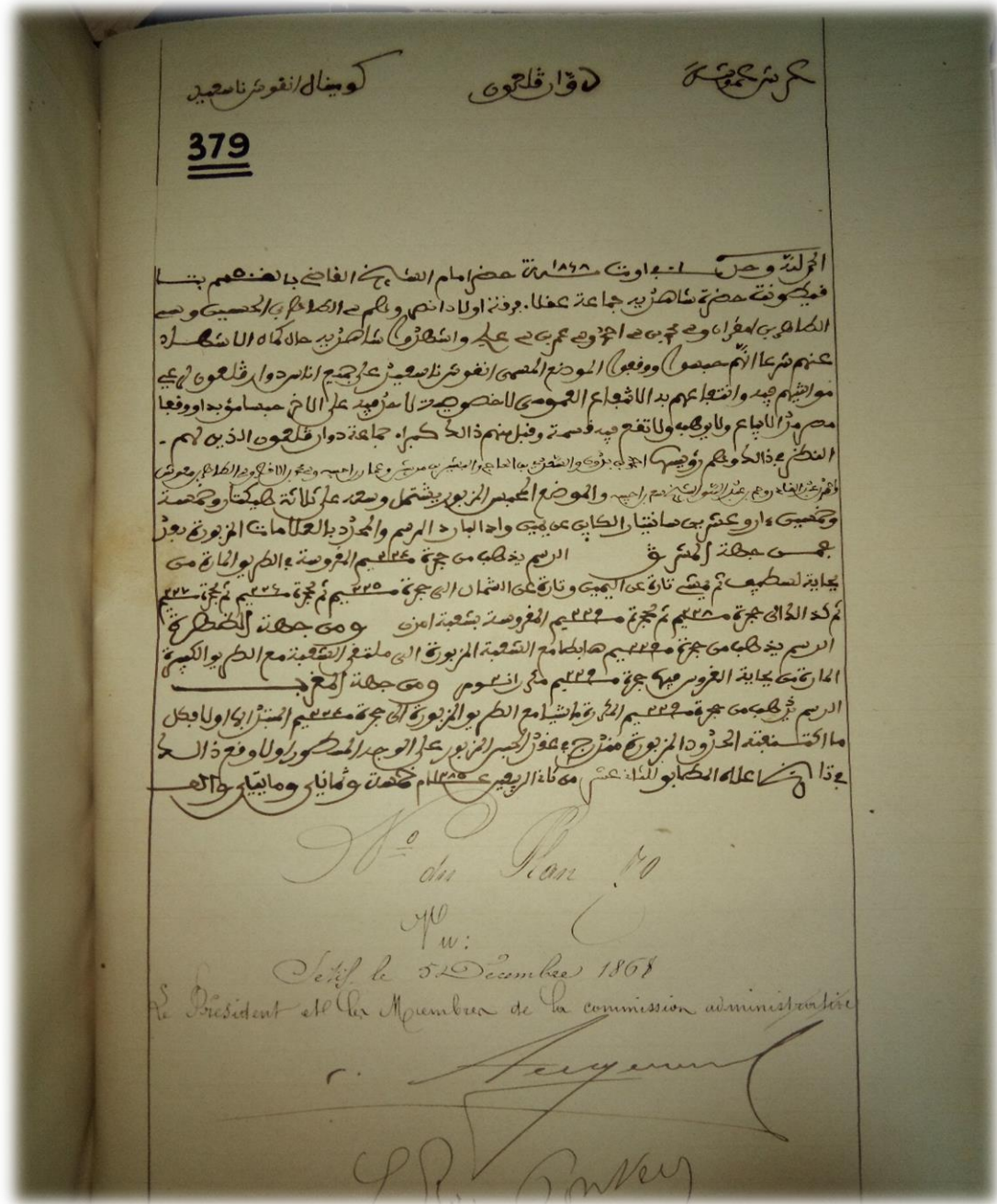
عام 69

مطلع عليه: سطيف في 05 ديسمبر 1868

التوقيع

رئيس وأعضاء اللجنة الإدارية

الملحق رقم 05: عقد وقف في قبيلة عموشة موقوف من جماعة دوار قلعون على عموم سكان دوار قلعون محرر في 1868م



المصدر: Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 379

ترجمة الوثيقة

أنقوش ناسعيد

دوار قلعون

عرش عموشة

الحمد لله وحده في 01 اوت 1868 حضر أمام الشيخ القاضي بقسم تاقيطونت حضرة شاهد يد جماعة عقلاء فرقة أولاد انصر وهم الطاهر بن الحسين وسي الطاهر بن أمقران وسي محمد بن سي أحمد وسي عمر بن سي علي وأشهرها شاهد يد حال كمال الإشهاد عنهم شرعا أنهم حبسوا ووقفوا الموضع المسمى أنقوش ناسعيد على جميع أناس دوار قلعون لرعي مواشيهم فيه وانتفاعهم به الانتفاع العمومي لا خصوصية لأحد فيه على الآخر حبسا مؤبدا ووفقا لا يباع ولا يوهب ولا تقع فيه قسمة وقبل منهم ذلك كبراء جماعة دوار قلعون والذين لهم النظر في ذلك وهم رئيسها والسعيد بن الحاج والبشير بن مريش وعمار بن احمد وسي محمد بن الأخضر وسي الطاهر بن معوش وأحمد بن عبد القادر وحمو بن عبد الله والشيخ سعد بن احمد والموضع الحبس المزبور يشتمل وسعه على ثلاثة هيكتارات وخمسة وخمسن آر، وعشرية سانتيار الكاين عن يمين واد البارد المرسم والمحدد بالعلامات المزبورة بعد **فمن جهة المشرق** الرسم يذهب من حجرة ميم 224 المغروسة في الطريق المارة من بجاية لسطيف ثم يمشي تارة عن اليمين وتارة عن الشمال إلى حجرة ميم 225 ثم حجرة ميم 226 ثم حجرة ميم 227 ثم كذلك إلى حجرة ميم 228 ثم لحجرة ميم 229 المغروسة بشعبة أمزد **ومن جهة الظهر** الرسم يذهب من حجرة ميم 229 مكرر هابطا مع الشعبة المزبورة إلى ملتقى الشعبة مع الطريق الكبيرة المارة من بجاية المغروس فيها حجرة ميم 229 مكررا **ومن جهة المغرب** الرسم يذهب من حجرة ميم 229 مكررة ماشيا مع الطريق المزبورة إلى حجرة ميم 224 المبتدأ بها أولا فكل ما اكتنفتها الحدود المزبورة مندرج في عقد الحبس المزبور على الوجه المسطور أولا وقع ذلك في تاريخ أعلاه المطابق للثاني عشر من ثاني الربيعين عام 1285 خمسة وثمانين ومايتين وألف.

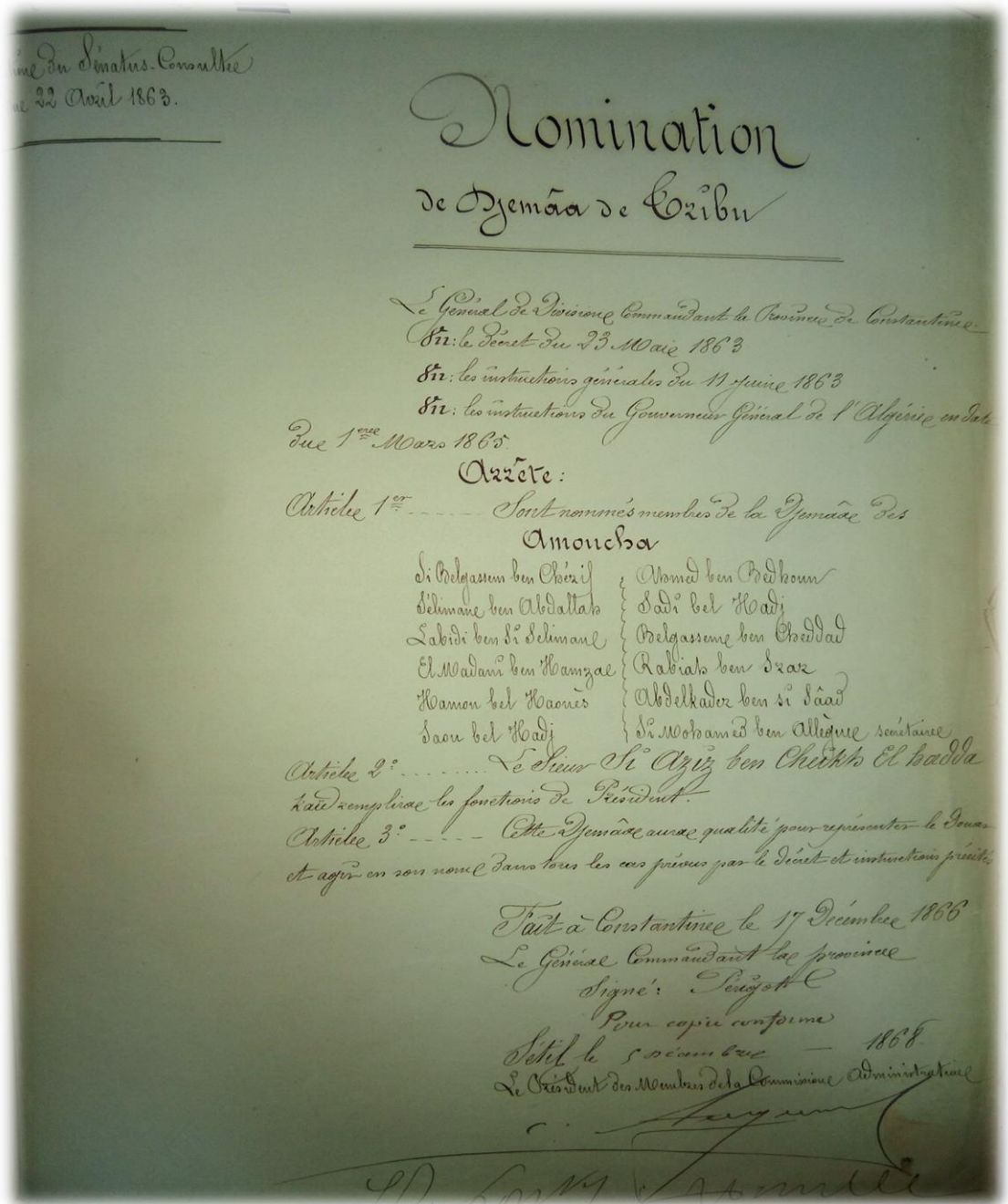
في عام 70

مطلع عليه: سطيف 05 ديسمبر 1868

التوقيع

رئيس وأعضاء اللجنة الإدارية

الملحق رقم 06: قرار تعيين جماعة قبيلة عموشة على رأسها السي عزيز ابن الشيخ الحداد



المصدر : Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha, Op ; cit, p 52

ترجمة الوثيقة

تعيين أعضاء جماعة القبيلة

الجنرال حاكم مقاطعة قسنطينة

بمقتضى مرسوم 23 ماي 1863

بمقتضى التوجيهات العامة لقانون 11 جوان 1863

بمقتضى توجيهات الحاكم العام للجزائر بتاريخ 01 مارس 1865

قرار

المادة الأولى: تعيين أعضاء جماعة قبيلة عموشة، وهم:

أحمد بن بذون

سي بلقاسم بن الشريف

سعدي بلحاج

سليمان بن عبد الله

بلقاسم بن شداد

لعبيدي بن سي سليمان

ربيع بن سرار

المدني بن حمزة

عبد القادر بن سي سعد

حمان بن حناس

سي محمد بن علاق

ساعو بن حاج

المادة الثانية: السيد سي عزيز بن الشيخ الحداد قايد يتولى مهما شيخ القبيلة.

المادة الثالثة: يخول لهذه الجماعة تمثيل كل دواوير القبيلة أمام السلطة الفرنسية في جميع الحالات وفق هذا القرار

حرر في قسنطينة بتاريخ 17 ديسمبر 1866

الجنرال الحاكم العام لمقاطعة قسنطينة

التوقيع:....

الملحق رقم 07: قرار تحديد وتقسيم قبيلة عامر الظهارة تنفيذا لقانون 22 أفريل 1863.

67 MODELE N° 2 bis. 18

PROCÈS-VERBAL de publication du décret impérial
du *12 Aout 1863* et de l'avis
du *23 juin 186 31 mars 1866*

L'an mil huit cent soixante *six* et le *quinze avril*
Nous, *Colonel* commandant la Subdivision de *Schif*
Certifions que :

1° Le décret du *12 aout 1863* qui prescrit l'application, à
bref délai, du Sénatus-Consulte du 22 avril 1863 sur le territoire de la tribu
des *Amer Dahara*

2° L'avis qui fixe la date du *31 mars 1866* pour point
de départ du délai de *deux mois* accordé pour les revendications à faire sur
le territoire de la dite tribu,

Ont été affichés et publiés, par tous les moyens en usage, dans les chefs-
lieux de la subdivision d e *Schif* du cercle d e *Schif*
dans les marchés et dans les tribus intéressées, conformément à l'art. 1^{er} du
décret du 23 mai 1863.

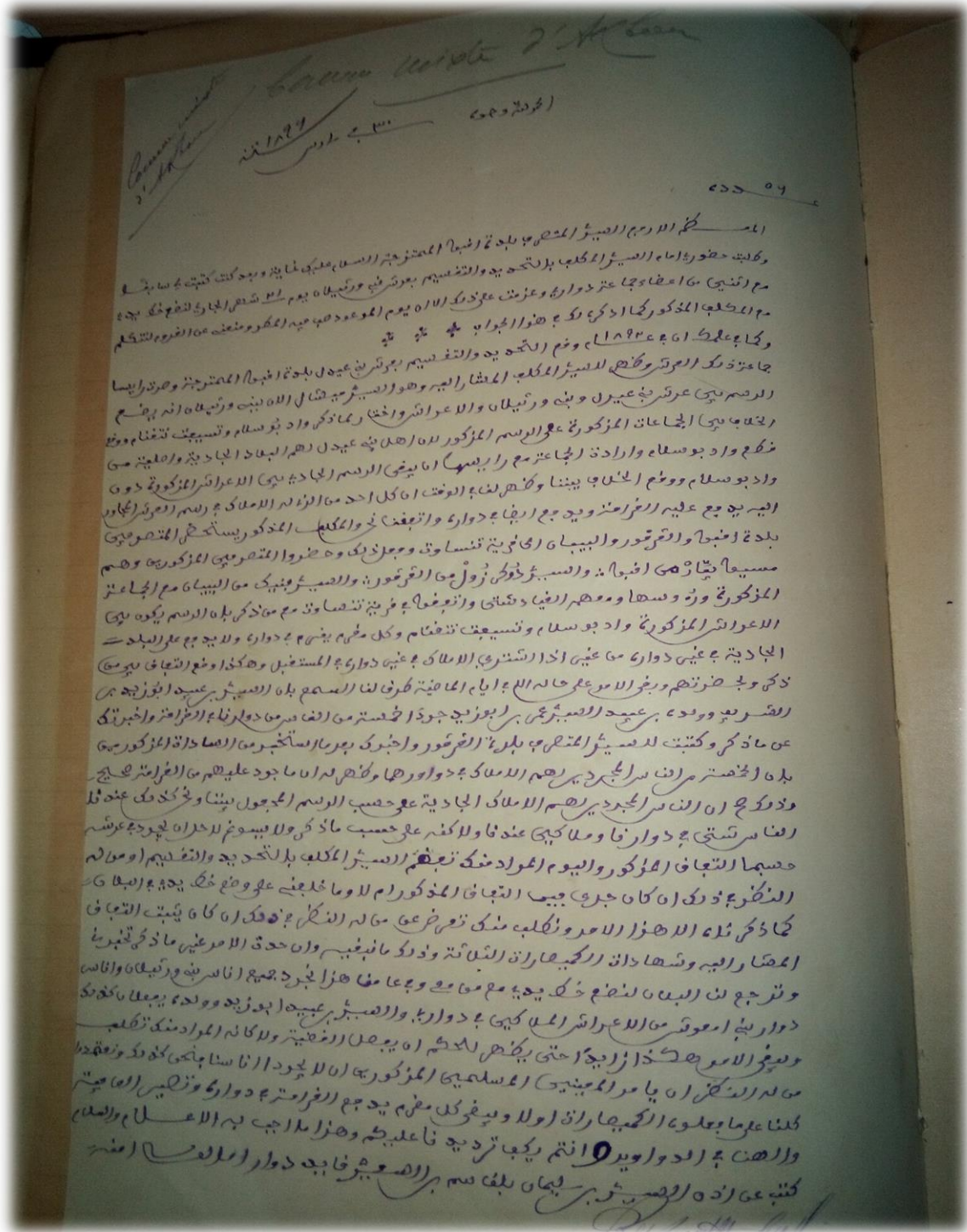
Fait et clos le présent procès-verbal les jour, mois et an que dessus.

Le *Colonel* commandant la Subdivision,
A. A. A.

المصدر: 67, p Op ; cit, Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara,

الملحق رقم 08: نص شكاية ساكن بقبيلة بني ورتيلان من عمليات التحديد والتقسيم التي طالتهم وتضرره منها

مؤرخة في 30 مارس 1892م



المصدر: Rapport de s.c de la tribu de Beni Ourtilane op ; cit ; p 52

[illegible]

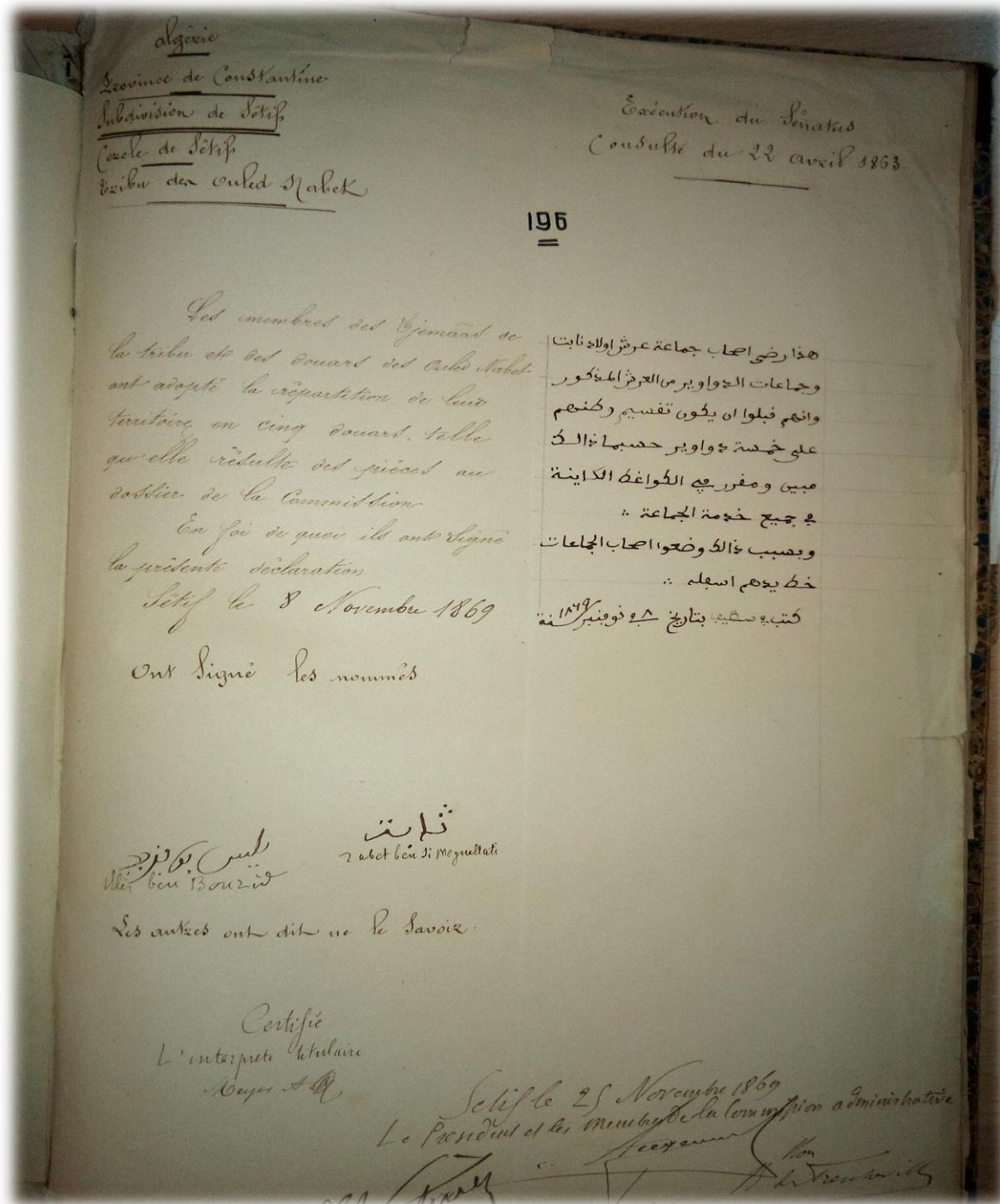
ترجمة الرسالة:

سعادة المعظم الأرفع السيد الـفـيرنـور والي ولاية الجزائر، السلام عليك وعلى كافة من شملته حضرتك الرفيعة أما بعد.

فالمعروض على سمعك أن أوائلنا نزلوا قرب جبل بني يعلى وكان حطبهم ومرعاهم فيه ولا مخرج لهم سواه ولما تولى الـفـارـد فـروستـي حارسا على الغابة منعنا من جميع أنواع الانتفاع به، ورجعت الناس إلى الأجمة وأفسدوها بالرعي والخطب فآل أمر الناس إلى الهلاك والضياع وكنا رفعنا شكايتنا مشافهة بهذا الضرر إلى سعادة السيد السوبريفي الحاكم الكبير ببجاية فوعدنا بالانتظار إلى يوم خروج الجماعة فتعين لناس الدوار كوميـنالا يرتفقون به وبقينا مدة من الزمان منتظرين خروج الجماعة فلم تخرج ثم رفعنا شكايتنا ثانيا مشافهة إلى السيد الكوميسار الحاكم الكبير بالقرقور فأمرنا بالانتظار ووعدنا بالكتابة لمن فوقه من الحكام فاستمر علينا الضرر العظيم فلم يبق لأتاس الدوار إلا الانتقال والافتراق على الدواوير التي لا ضرر عليها وفي هاته السنة جاء إلى دوارنا السيد طودوار الجيوميتري وأعلمناه بما حل بنا فأجابنا في أول خدمته بأنه يحدد الأراضي المملوكة في داخل بلد الدومين وبعد فراغه من خدمته يقيس لنا كوميـنالا ولما فرغ من خدمته جميع الدوار رجعنا إليه قال لنا فات الوقت مع أنه جعل أحجار الرسم فوق قرية قنـزات وقد زاد لنا ضررا على ضرر وها أننا رفعنا إليك الشكاية أيضا طالبين من كريم فضلك وفضل الدولة أن تنظر إلينا بعين الرضى وتقبلوا شكايتنا جلبا للعمارة والدولة تعمر ولا تدمر وكل راع مسؤول عن رعيته ونحن خدام الدولة ومن ضاع منا ضاع منكم والحاصل المعيشة انقطعت علينا ولم يبق لنا إلا الرحيل ونظركم واسع والسلام من كبراء الجماعة والعقلاء بدوار أخليجان كومين القرقور الواضعين خطوط أيديهم فيه 12 ديسانبر 1891.

الموقعون: محمد بن قري رئيس الجماعة، الحاج بن سليمان كبير الجماعة، محمد العربي بن الحاج الطيب كبير الجماعة، محمد السعيد بن بزغوا كبير الجماعة، اعلي بن الطاهر براكمشيد، رزق بن مرفد، أحمد بن ملال، السعيد بن حم، العربي بن سليمان أحمد بن مرفد، محمد أعـراب بن مسعود، السعيد بن ابراهيم، محمد وعلي بن اسعيد، محمد بن انصر، محمد الطاهر بن المزقيد، محمد السعيد بن الـواثق، رمضان بن مدور لم يحسن الكتابة، محمد البشير بن احمـامـد لم يحسن الكتابة، العربي بن بلعيد لم يحسن الكتابة محمد وعلي بن احمد ، محمد البشير بن موسى، الطاهر بن عبد السلام، بلقاسم بن المزقيدي، محمد بن المزقيدي، الطيب بن الـواثق، بلقاسم أكتوف

الملحق رقم 10: نص رسالة من جماعة قبيلة أولاد نابت ترحب بقرار تقسيم مجال القبيلة على خمسة دواوير مؤرخة في 8 نوفمبر 1869م



المصدر: Rapport de s.c de la tribu d'Ouled Nabet, op ; cit, p 196

ترجمة الرسالة:

تطبيق قرار السيناتوس كونسيلت 22 أفريل

الجزائر

1863

مقاطعة قسنطينة

إقليم سطيف

قبيلة أولاد نابت

هذا رضى أصحاب جماعة عرش أولاد نابت وجماعات الدواوير من العرش المذكور وأنهم قبلوا أن يكون تقسيم وطنهم على خمسة دواوير حسبما ذلك مبين ومقرر في الكواغد الكاينة في جميع خدمة الجماعة

وبسبب ذلك وضعوا أصحاب الجماعات خط يدهم أسفله

كتب في سطيف بتاريخ 8 نوفمبر 1869

يلس بن بزيد

ثابت

يلس بن بوزيد

ثابت بن سي مقلاتي

Illès ben Bouzi

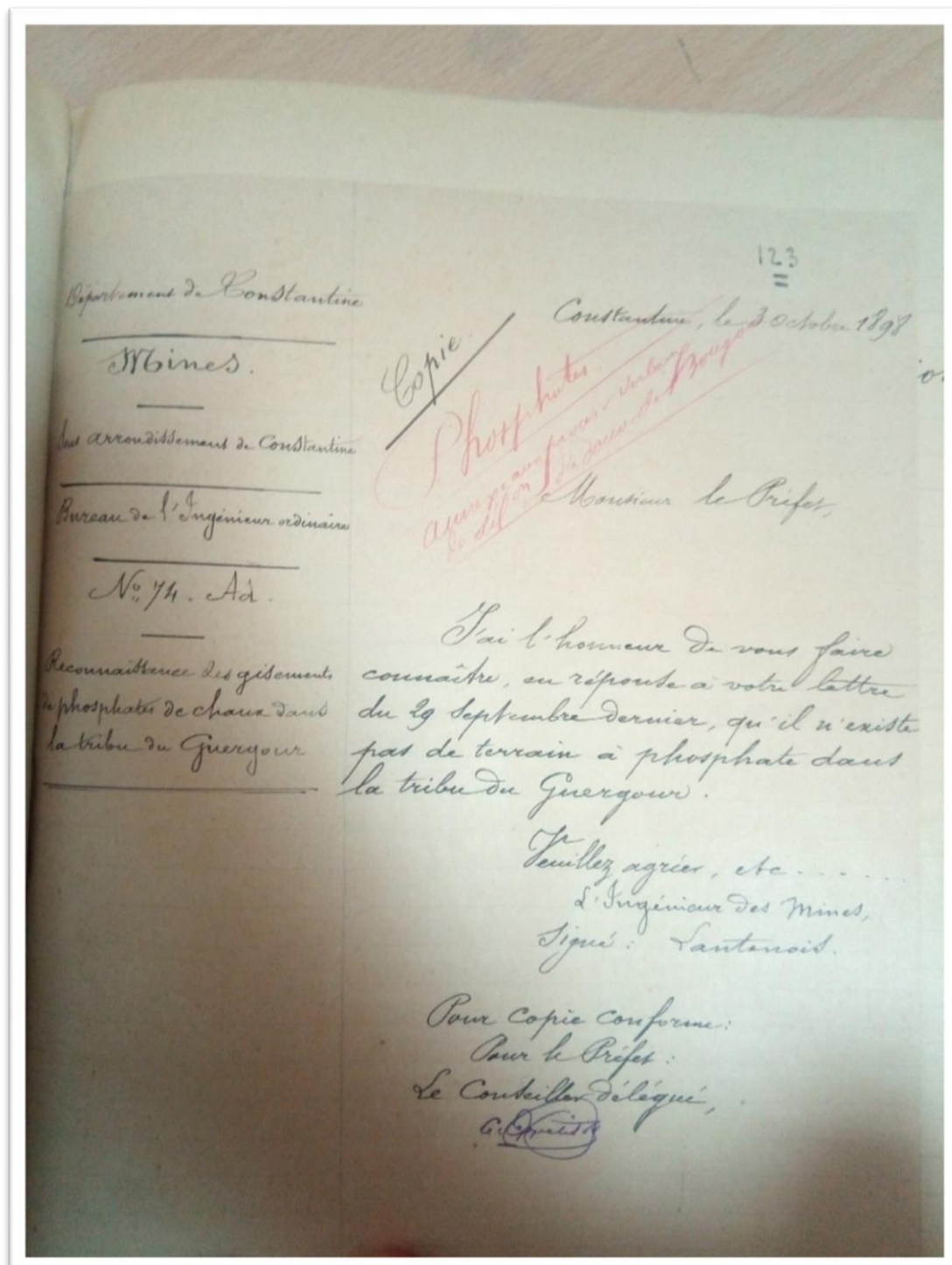
Tabet ben Si Meguellati

سطيف في 25 نوفمبر 1896

رئيس وأعضاء اللجنة الإدارية

التوقيع.....

الملحق رقم 11: مراسلة بتاريخ 3 أكتوبر 1898 من قبل مصالح المناجم إلى الحاكم العام، تفيد بإجراء مسح في أراضي قرقور بحثا عن معدن الفوسفات، إلا أن نتيجة المسح كانت سلبية



المصدر: 123 p, cit ; op, of the report of the Guergour tribe s.c

ترجمة الرسالة:

مقاطعة قسنطينة

قسنطينة في 30 نوفمبر 1898

مصلحة المناجم

السيد المحافظ.

لي عظيم الشرف إن أحيطكم علما وأجيبكم على رسالتكم بتاريخ 29 سبتمبر الماضي، بأنه لا توجد أرض تحتوي على الفوسفات في قبيلة قرقور.

مصادق عليها ...

مهندس المناجم

الملحق رقم 12: نص مراسلة قام بها المهندس المناجم جاكوب إلى الحاكم العام تفيد أنه تم مسح أراضي قبيلة بني شبانة وبني ورثيلان وريغة القبالة وتم العثور على الفوسفات

الرسالة مؤرخة في: 11 أوت 1894م

288
Algérie
Département de
Constantine
Mines
Application de la
circulaire du 11
août 1894
N° 1200 a.

287
Copie
Constantine, le 22 novembre 1894
Rapport de l'Ingénieur des Mines

Parmi les territoires du département de Constantine où les opérations du Sénatus-Consulte n'ont pas encore été terminées, ceux qui d'après la carte géologique de l'Algérie ne renferment pas de terrain suessonien (où ont été découverts les gisements de phosphates de Tébessa), sont :

Communes mixte	Tribu
Edough	Toute la Commune
Soummam	1 ^{re}
Albon	1 ^{re}
Oued Marsa	1 ^{re}
Guergour	Beni Chebana - B ^e Ouzilane
La Calle	Ouled Amor ben ali
Bibana	Ojebaila - O ^u Sidi Brahim Bon Beker
Rhiras	Rhira Guobala
Misila	Souama
Etabort	Etabort
Rhenchela	Bon' Oudiana

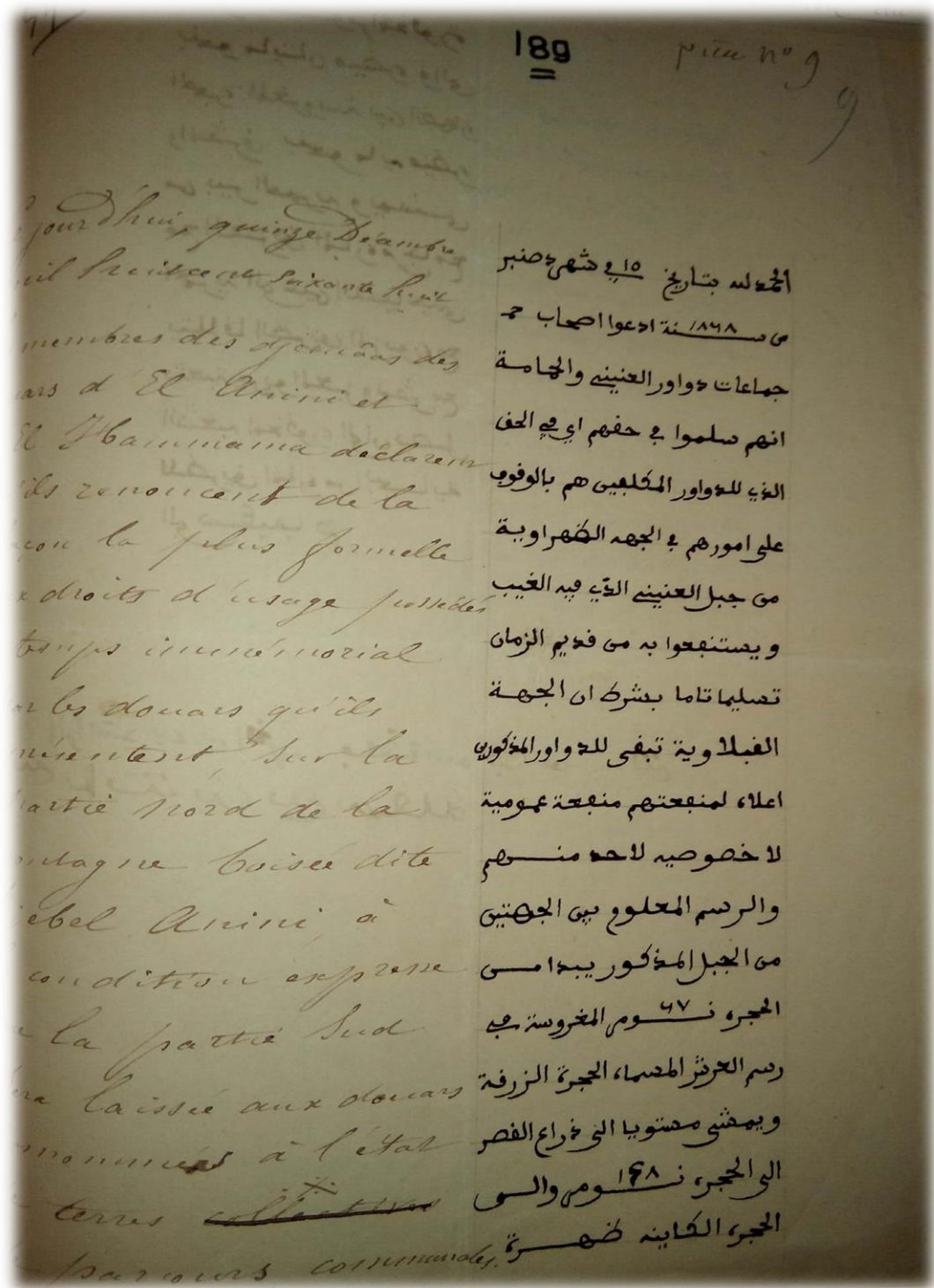
Constantine, le 11 Juin 1895.
Ingénieur des Mines:
Signé: Jacob.

Notifié à Monsieur le Commissaire Délégué de la tribu de Beni Chebana... qui est prié d'annexer une copie de la présente au procès-verbal de chacun des procès-verbaux de délimitation de douars de cette tribu et de m'acquiescer réception de cette notification.

Constantine, le 11 Juin 1895.
Pour le Préfet:
Le Commissaire Délégué

المصدر: Rapport de s.c de la tribu de BENI Chebana, op ; cit, p 287

الملحق رقم 13: عقد تنازل عن أرض من قبل جماعة أولاد نابت مقابل مقابل الحصول على غيرها



المصدر: Rapport de s.c de la tribu d'Ouled Nabet, op ; cit, p 189

تابع للملحق 13: تكملة الرسالة.

la limite entre les deux
parties de la montagne
étant celles-ci: de la borne
de tribu n° 67 dite el
Hadjer jusqu'à la ligne droite
indiquant cette borne au sud
et Hsar la borne de douar
n° 148 une borne plantée
à 200 m au nord de la B. n° 148.
Une autre borne plantée à 100 m
au N. E. du point dit Bir el
Hamria, le sommet de la montagne
el Hamria à 200 m de la ligne
la raconte avec un ravin dit
Chabet Berou el Hraiz. ce
ravin jusqu'à la route des
tribus de Bougie à Lef.

الحجرة ن° ٦٨ المرملة المذكورة
بنحو ما يتلوه ميسر، وإلى
الحجرة المغروسة بين الكهف
والمشرق بنحو ما به ميسر
من بير الحمريه ويمتد
مع الطريق المارة بجامع
الحمريه إلى عين الصباح حتى
يتلافا الطريق المزبور، مع
شعبة بريو المعيز ويمتد مع
الشعبة المذكورة إلى أن يصل
للطريق المارة من البجاية
إلى سطيف م

مع الراشد بن س الشرب بلقا سم بن الحسنة
مع كرايت بن س لصله

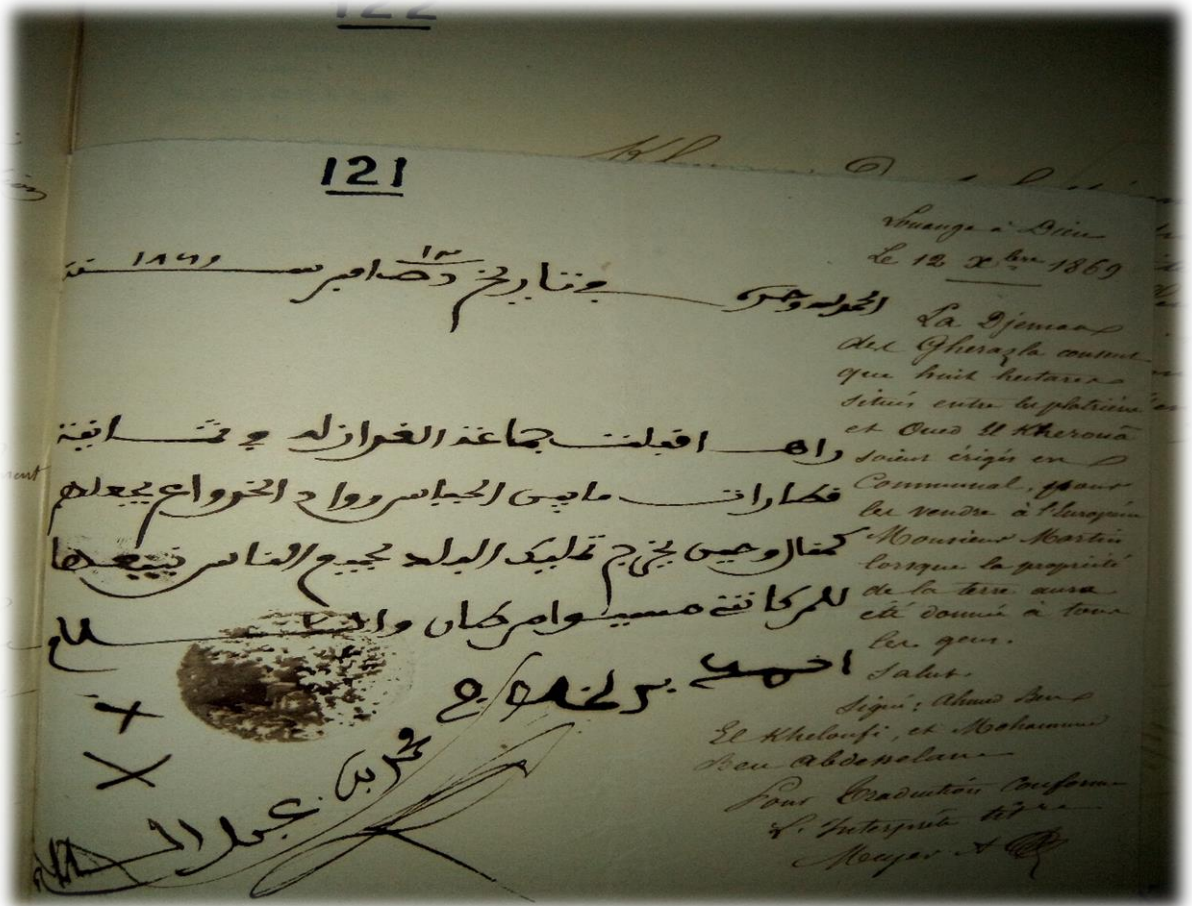
ترجمة الرسالة

الحمد لله بتاريخ 15 في شهر دسمبر من سنة 1868 ادعوا أصحاب جماعات دواوير العيني والحمامة أنهم سلموا في حقهم أي في الحق الذي للدواوير الكلفين هم بالوقوف على أمورهم في الجهة الظهراوية من جبل العيني الذي فيه الغيب ويستنفعوا به من قديم الزمان تسليما تاما بشرط أن الجهة القبلاوية تبقى للدواوير المذكورين أعلاه لمنفعتهم منفعة عمومية لا خصوصية لأحد منهم والرسم المعلوم بين الجهتين من الجبل المذكور يبدأ من الحجرة نومر (رقم) 27 المغروسة في رسم العرش المسمى الحجرة الزرقة ويمشي مستويا إلى ذراع القصر إلى الحجر نومر 148 وإلى الحجرة الكاينة ظهرة الحجرة نومر 148 المذكورة بنحو ميطان ميطرة وإلى الحجرة المغروسة بين الظهارة والمشرق بنحو مائة ميطرة من بير الحمرية ويمشي مع الطريق المارة من جامع الحمرية إلى عين الصفا حتى يتلاقا الطريق المزبورة مع شعبة بربو المعيز ويمشي مع الشعبة المذكورة إلى أن يضل للطريق المارة من البجاية إلى سطيف

أمضاء: الراشد بن سي الغري، بلقاسم بن المسالتي، سي ثابت بن المقلاتي

الملحق رقم 14: تصريح من قبل جماعة قبيلة الغرازلة يفيد بتنازلهم عن جزء من أرض القبيلة لصالح المعمر مارتان

التصريح مؤرخ في 12 ديسمبر 1869



ترجمة الرسالة:

الحمد لله وحده في تاريخ 12 ديسمبر 1869

راهي قبلت جماعة الغرازلة في ثمانية قطارات ما بين الجباس وواد الخرواع يجعلهم كمنال وحيد يخرج تملك البلد لجميع الناس ببيعها للمركاني مسيو مرطان والسلام

إمضاء: محمد بن المخلوفي، محمد بن عبد السلام المقراني

المصدر: Rapport de s.c de la tribu de Gherazla, op ; cit, p 121

ملحق رقم 15: خريطة مركز عين أزال (أمبير) (قبيلة ريغة)



السلم : 1/ 4000

المصدر: الخريطة محفوظة على مستوى مديرية مسح الأراضي لولاية سطيف.

الملحق رقم 16: خريطة لمركز عين أزال (أمير)، تبين الشق الحضري



المصدر : خريطة محفوظة في مديرية مسح الأراضي لولاية سطيف.

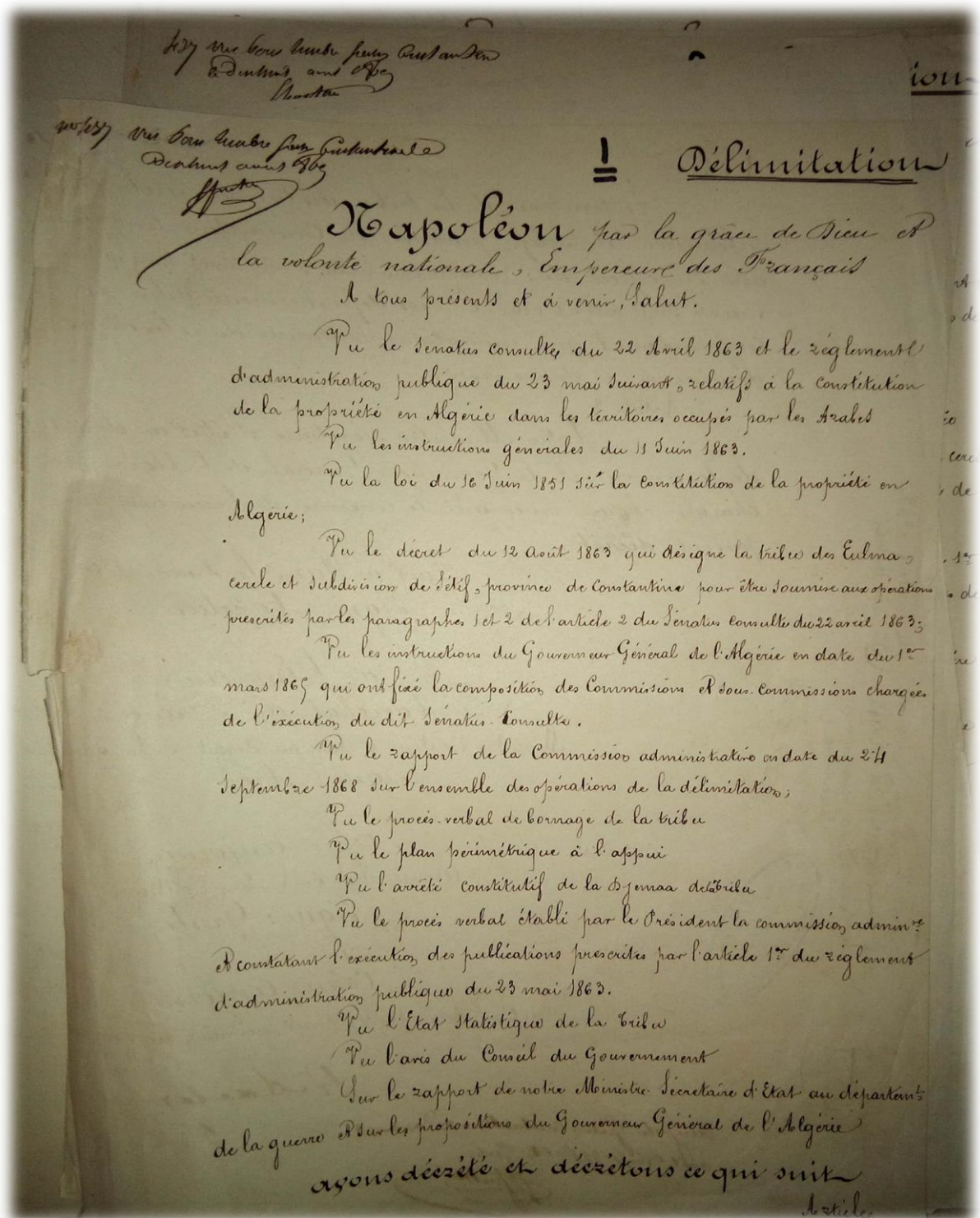
الملحق رقم 17: خريطة توضح لمركز تيزي نبشار في دوار تاقيطونت (قبيلة عموشة).



السلم: 4000/1

المصدر: الخريطة محفوظة في مديرية مسح الأراضي لولاية سطيف

الملحق 18: قرار نابليون الثالث القاضي بتحديد وتقسيم قبيلة العلمة.



المصدر: Rapport de s.c de la tribu d'Eulma, Op ; cit, p1 2.

Le territoire de la tribu des Eulma, cercle et
sous-division de Sétif, province de Constantine comprend
une superficie de: Quarante cinq mille quatre-vingt-neuf hectares
soixante-seize ares (45089.^m 66^a) est définitivement déterminé
conformément aux indications contenues dans les divers
documents ci dessus visés.

Notre Ministre Secrétaire d'Etat au départ
de la guerre & le Gouverneur Général de l'Algérie sont
chargés chacun en ce qui le concerne de l'exécution du
présent décret.

Signé: Napoléon

Signé: Niel

Signé: Gresley

P. Copie conforme

P. Sæveler

Augusta Gerts & Constantine & Deborah
and Abby & Frances Gerts

Spencer

قائمة المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم

2- الأرشيف المحفوظ في مديرية مسح الأراضي:

2-1- سجلات السيناتوس كونسيلت:

Rapport de s. c 22 avril 1863 de la tribu de Righa Dahara 1866, N 25.

Rapport de s.c de la tribu d'Amer Dahara , N 15.

Rapport de s.c de la tribu d'Amer Guebala 1866, N 16.

Rapport de s.c de la tribu d'Amoucha 1866 , N 17.

Rapport de s.c de la tribu d'Eulma 1867, N 124.

Rapport de s.c de la tribu d'Ouled Nabet 1869, N 228.

Rapport de s.c de la tribu de Babor 1895, N 22.

Rapport de s.c de la tribu de Beni Chebana 1895, N 45.

Rapport de s.c de la tribu de Beni Ourtilane 1895, N 73.

Rapport de s.c de la tribu de Beni Yala 1890, N 92.

Rapport de s.c de la tribu de Dehamcha 1889, N 113.

Rapport de s.c de la tribu de Gherazla 1870, N 132.

Rapport de s.c de la tribu de Guergour 1892, N 134.

Rapport de s.c de la tribu de Righa guebala 1867, N 252.

Rapport de s.c de la tribu de Sehel Guebli 1886, N 254.

2-2- محاضر مراكز الاستيطان:

Rapport de centre d'Ampère, N 130.

Rapport de centre d'Ain Arnet, N 4.

Rapport de centre de Mahouan, N 36.

Rapport de centre de Tizi N'becheur.

3-الأرشيف المتاح على موقع إكس أون بروفنس:

Subdivision de Sétif (1834-1907), correspondance (1834-1883), 61561/qz 984 pju31, 2 ml.

Correspondance confidentielle 3 Octobre 1871- 9 Avril 1880.

4-الأرشيف المطبوع:

جريدة المبشر:

ع 15 مارس 1848.

ع 2، 30 سبتمبر 1847م.

ع 35، 28 فيفري 1849.

ع 5، 15 نوفمبر 1847.

ع 52، 30 مارس 1850.

ع 68، 30 جوان 1850.

ع 69، 15 جويلية 1850.

ع 73، 15 سبتمبر 1850.

Rapport de la compagne Genevoise des colonies de Sétif, Dix-neuvième rapport de conseil d'administration, 3 Mars 1870, Sétif, Algérie.

5-المصادر والمراجع باللغة العربية والمترجمة:

المصادر:

1) هانوتو، وأ. لوتورنو: منطقة القبائل والأعراف القبائلية، ج2، تر: مخلوف عبد الحميد، دار الأمل، الجزائر، 2013.

2) ابن حوقل أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

- 3) ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001.
- 4) ابن خلدون عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، ج6، ضبط خليل شحادة، تع: سهيل زكار، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000.
- 5) ابن خلدون عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، ج7، ضبط خليل شحادة، تع: سهيل زكار، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000.
- 6) ابن عبد الحكم(ت871م): فتوح إفريقيا والمغرب، تح: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، (د.ت.).
- 7) أحمد باي: مذكرات أحمد باي، تح: محمد العربي الزيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971.
- 8) الأخضري أحمد بن داود: العقد الجوهري في التعريف بالقطب الشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضري، تقد وتصح وتصح: لحسن بن علحية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2018.
- 9) الإدريسي الشريف: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق واختراق الآفاق، تح وتصح وتصح: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- 10) الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي: المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1937.
- 11) آغا فرندة أحمد ولد القاضي: الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية، 1887.
- 12) البكري أبي عبيد: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، مصر، (د.ت.).
- 13) بن العطار أحمد بن المبارك: تاريخ بلد قسنطينة، تح وتصح: عبد الله حمادي، دار الفائز للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
- 14) بن العنتري صالح: مجامع قسنطينة، تح وتصح: صالح بونار، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974.
- 15) بن سديرة بلقاسم: كتاب الطالب المبتدأ في تخرّيج الخط العربي، مطبعة جوردان، الجزائر، 1893.

- 16) التلمساني محمد بن هطال: رحلة محمد الكبير باي من الغرب الى الجنوب الجزائري 1785 تح وتقّد: عبد الكريم الجزائري، 1968.
- 17) خوجة حمدان: المرأة، تقدّ وتّح: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر، 2005.
- 18) دو طوكفيل أليكسي: نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، تر وتقّد: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.
- 19) رين لويس: تاريخ انتفاضه 1871، تر: مسعود حاج مسعود، دار الرائد للكتاب، ط1، الجزائر، 2013.
- 20) الزبيري محمد العربي: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973.
- 21) الزهار أحمد شريف: مذكرات نقيب أشرف الجزائر (1754-1830) تح: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ت).
- 22) سانت أرنو: مذكرات الماريشال سانت أرنو: 1832-1841، تر: عبد القادر ليفا وبداه المهدي، دار المعرفة، الجزائر، 2013.
- 23) شالر وليم: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر، (1813-1824)، تر وتقّد: إسماعيل العربي، ش. و. ن. ت، الجزائر 1982.
- 24) شلوصر فندلين: قسنطينة أيام احمد باي (1832-1837)، تر وتقّد: أبو العيد دودو، منشورات وزارة الثقافة في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007.
- 25) الشيخ يحيى الشريف بن أحمد سليمان: نص عريضة الشيخ يحيى الشريف بن أحمد سليمان، مؤرخة في 28 جويلية 1891، مطبعة روكّة، سطيف، الجزائر، 1891.
- 26) العقوبي أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر: البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002.

- (27) العنتري محمد صالح: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، تع ونقد: يحي بوعزيز، الجزائر، 1985.
- (28) الغبريني أبو العباس أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح وتع: عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط2، بيروت، 1979.
- (29) فان مالتسان هانريش: ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ج1، تر: أبو العيد دودو، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- (30) الفكون عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح وتع: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1987.
- (31) فيرو شارل: تاريخ جيحلي، تر: عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية، الجزائر 2010.
- (32) القلقشندي أبو العباس أحمد: صبح الأعشى، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915.
- (33) القلقشندي أبو العباس أحمد: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الأبياري، (دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبنانية)، (القاهرة، بيروت)، ط3.
- (34) المازاري آغا بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19، ج1، تح: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ط1، لبنان، 1990.
- (35) مجهول: غزوات عروج وخير الدين: تح وتقد: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1934.
- (36) المازاري آغا بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19م، تح: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1990.
- (37) النويري شهاب الدين، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2004.

- 38) هابنسترايت: مذكرات الرحالة الطبيب الألماني هابنسترايت، تح وتقد: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، (د.ت).
- 39) الورثاني الحسن: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تح: ابن مهنا القسنطيني، ج1، المعرفة الدولية للنشر، الجزائر، 2011.
- 40) الوزان الحسن: وصف إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983.

المراجع:

- 1) أجيرون شارل رويير: المسلمون الجزائريون وفرنسا (1871-1919م)، ج2، تر: م. حاج مسعود وأ. بكلي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007م
- 2) الأشرف مصطفى: الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007.
- 3) بن أشنهو عبد اللطيف: تكون التخلف في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- 4) بن داهة عدة: الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962)، ج2، ط. خ بوزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.
- 5) بويريك رحال: زمن القبيلة السلطة وتديير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي الرقاق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، المغرب، 2012.
- 6) بوعزيز يحي: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
- 7) بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج2، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- 8) بوعزيز يحي: وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
- 9) تابليت علي: خمس رحلات جزائرية إلى باريس، منشورات خمسينية جامعة الجزائر، 1962-2012.

- 10) توران إيفون: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس والمؤسسات الطبية والدين) (1830-1880)، تر: عبد الكريم أوزغلة، مر: مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000.
- 11) الجابري محمد عابد: العقل السياسي العربي محدداته وتحليلاته، ط4، بيروت، لبنان، 2000.
- 12) الجابري محمد عابد: فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط6، بيروت، لبنان، 1994.
- 13) جوليان شارل أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، دار الرائد التونسية، ط4، تونس، 1983.
- 14) جوليان شارل أندري: تاريخ الجزائر المعاصرة (الغزو وبدايات الاستعمار) (1827-1871م)، مج1، تر: جمال فاطمي وآخرون، دار الأمة للطباعة والنشر، ط1، 2013.
- 15) الجيلالي صاري: الكارثة الديمغرافية (1867-1868)، منشورات ANEP، الجزائر، 2008.
- 16) حبيب عالية وآخرون: علم الاجتماع الريفي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2009.
- 17) حجازي مصطفى، الإنسان المهذور، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
- 18) حمودي عبد الله: الشيخ والمريد النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، تر: عبد الحفيظ جحفة، دار توبقال للنشر، ط4، الدار البيضاء، المغرب، 2010.
- 19) دودو أبو العيد: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1977.
- 20) دوفرجيه موريس: علم اجتماع السياسية، تر: سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1991.
- 21) راسل برتراند: السلطة والفرد، تر: شاهر الحمود، دار الطليعة للنشر، ط1، بيروت، 1961.
- 22) رشوان عبد الحميد أحمد: في القوة والسلطة والنفوذ، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2007.

- (23) زروق نادية: سياسة الجمهورية الفرنسية الثالثة في الجزائر (1870-1900)، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2014.
- (24) زمولي يسمينة: الألقاب العائلية في الجزائر، من خلال قانون الحالة المدنية أواخر القرن التاسع عشر (1870-19010) قسنطينة نموذجا، دار البصائر، ط1، الجزائر، 2007.
- (25) زوزو عبد الحميد: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، موفم للنشر، 2009.
- (26) الزباني محمد يوسف: دليل الجيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، نقد وتعليق: المهدي أبو عبدي، منشورات الجزائر 1978.
- (27) سامية محمد جابر وآخرون: دراسات في علم الاجتماع الريفي، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ت.
- (28) سحنوني محمد: ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
- (29) سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1990.
- (30) سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية (1860-1900)، ج1، ق2، عالم المعرفة، ط.خ، الجزائر، 2009.
- (31) سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية: 1380-1900، ج1، ق1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2009.
- (32) سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1981.
- (33) سعيدوني ناصر الدين والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- (34) سعيدوني ناصر الدين: الشرق الجزائري بايلك قسنطينة أثناء العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، من خلال وثائق الأرشيف، البصائر الجديدة للنشر، الجزائر، 2013.

- 35) سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر، 2012.
- 36) سعيدوني ناصر الدين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الفترة المعاصرة، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت).
- 37) سعيدوني ناصر الدين: ورقات جزائرية، دراسة وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، ط2، الجزائر، 2008.
- 38) سعيدي مزبان: السياسة الاستعمارية في منطقة القبائل وموقف السكان منها (1871-1914)، ج1، دار سيدي الخير للكتاب، الجزائر، 2012.
- 39) سلامة موسى، نظرية التطور وأصل الإنسان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012.
- 40) سماتي محفوظ: الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها، تر: (محمد الصغير بناني، عبد العزيز شعيب)، منشورات دحلب، الجزائر، 2002.
- 41) الشاهر شاهر إسماعيل: دراسات في الدولة والسلطة والمواطنة، منشورات المركز الديمقراطي العربي، ط1، برلين، 2017.
- 42) شويتام أرزقي: المجتمع الجزائري وفعالياته خلال العهد العثماني، دار الكتاب العربي، ط1، الجزائر، 2009.
- 43) العبادي أحمد مختار: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د.ت)، فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب التاريخ السياسي والمؤسسات، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1994.
- 44) عبید مصطفى: الفكر السانسيموني في مصر والجزائر، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- 45) عدي الهواري: الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830-1960)، تر: جوزيف عبد الله، دار الحداثة، ط1، بيروت، 1983.

- 46) العطري عبد الرحمن: الرحامنة القبيلة بين المخزن والزواية، دفا تر العلوم الإنسانية، ط4، الرباط، المغرب، 2013.
- 47) العقبي صلاح مؤيد: الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2002.
- 48) عميراوي حميدة: آثار السياسة الاستعمارية الاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954م)، ط.خ، وزارة المجاهدين، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م
- 49) غراميزون أوليفي ليكور: الاستعمار الإبادة، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية، دار الرائد للكتاب، الجزائر، تر: نورة بوزيدة، الجزائر، 2007.
- 50) غطاس عائشة وأخريات: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، ط.خ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، 1954، الجزائر، 2007.
- 51) غودلييه موريس: القبائل في التاريخ وفي مواجهة الدول، تر: خليل احمد خليل وغازي برو، دار الفارابي، ط1، بيروت، لبنان، 2015.
- 52) غولدزيغار أني راي: المملكة العربية السياسية الجزائرية لنابليون الثالث (1861-1870)، تر: محمد المعراجي، موفم للنشر، الجزائر، 2014.
- 53) فركوس صالح: إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد (1844-1871)، منشورات جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006.
- 54) الفوال مصطفى صلاح: البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية، دار الفكر العربي، مصر، 1983.
- 55) فيبر ماكس: الاقتصاد والمجتمع، تر: محمد التركي، مر: فضيل الله العميري، (مركز دراسات الوحدة العربية، مكتبة الفكر الجديد)، ط1، بيروت، لبنان، 2015.
- 56) فيلاي عبد العزيز: جرائم الجيش الفرنسي في الجزائر (1830-1850)، دار الهدى، ط1، الجزائر، 2012.

- 57) القمودي سالم: العدل والحرية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، مصر، 2004.
- 58) القمودي سالم: سيكولوجية السلطة في الخصائص النفسية المشتركة للسلطة، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، مصر، 1999.
- 59) كينيث جون: تشريح السلطة، تر: عباس حكيم، دار المستقبل ط2، دمشق 1992.
- 60) لقبال موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن 5هـ/ 11م، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1980.
- 61) لوصيف سفيان: شيوخ العلم في منطقة عموشة الإسهام الديني والوطني (1830-1962)، دار النجم الساطع للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 2019.
- 62) لوكور غرانمزيون أوليفي: في نظام الأهالي، تشريح مسح القانون الاستعماري في الجزائر وفي الإمبراطورية الفرنسية، تر: العربي بوينون، منشورات السائحي، ط1، الجزائر، 2001.
- 63) لونيسي إبراهيم: بحوث في التاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر إبان الاحتلال، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- 64) لونيسي رابع وآخرون: تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1989م)، ج1، دار المعرفة للنشر، الجزائر، 2010.
- 65) محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2002.
- 66) معاشي جميلة: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري (16-19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014.
- 67) منور العربي: تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، دار المعرفة، الجزائر، 2006.
- 68) مؤنس حسن: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2007.

- 69) مؤنس حسين: التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، مصر، 1984.
- 70) مياسي إبراهيم: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية (1837-1934)، دار هومة للنشر، الجزائر، 2012.
- 71) ميكافيلي: الأمير، تر: أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 2004.
- 72) الهرماسي عبد الباقي: المجتمع والدولة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، لبنان، 1999.
- 73) الهروي الهادي: القبيلة، الإقطاع والمخزن، مقارنة سوسيولوجيا، للمجتمع المغربي الحديث (1844-1934)، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010.
- 74) هلايلي حنفي: أوراق في تاريخ الجزائر العثماني، دار الهدى للنشر، ط1، الجزائر، 2008.
- 75) هلايلي حنفي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، دار الهدى، ط1، الجزائر، 2007.

6-المصادر والمراجع باللغة الفرنسية:

- 1) Bennoune Mahfoud : de la colonisation au développement post-indépendance une histoire économique et sociale (1830-1990), édition I.A. I. G, Alger, 2009.
- 2) Vialatte Paule : des imports directs en Algérie et principalement dans la province dz Constantine, imprimerie de la Marele, Constantine, Algérie, 1879.
- 3) Annane Mohamed -Laid : chronique sur l'Algérie, l'ambre d'un frêne (1827-1837), édition ANEP, Alger, 2008.
- 4) Rocher Gay : Droit, Pouvoir, et Domination, édition Chicoutimi, Canada, 2004.
- 5) Hobbes Tomas : Léviathan, tr : Philippe Folliot, édition l'Homme, paris, 2002.

- 6) Féraud Charles : Histoire des villes de la province de Constantine (Setif, Bourdj Bouariridje, M'sila, Boussaâda), typographie et lithographie, L. Arnolt, Constantine, 1872.
- 7) Camborieux Armand : Setif et sa Région, les imprimeries Gabelles, Paris, 1978.
- 8) Villard Maurice et Bassard Yves : les villes des Hautes Plateaux Sétifiens, T2, Paris, 2002.
- 9) Ben Sedira Belkacem : une mission en Kabylie sur dialectes Berbères l'assimilation des indigènes, Librairie Adolphe Jourdin, Algérie, 1887.
- 10) De la Blanc de Prébois François : l'Algérie da la nécessité de substituer le gouvernement civil au gouvernement militaire pour le succès de la colonisation d'Alger, Delaunay libraire, France, 1840.
- 11) Dumas (E) : les chevaux de Sahara, F. Charmeront, libraire éditeur, Paris, 1851.
- 12) De Grammont (U) : Histoire d'Algérie de la domination Turque (1515-1830), Ernest Laroux, Paris, 1887.
- 13) Varlet (J) : les céréales d'Algérie, Mustapha giralt imprimerie, Alger, 1900.
- 14) De Arthur Calparé : en Algérie, Eggiman libraire éditeur, Genève, 1896.
- 15) Reviere (CH) : manuel pratique de l'Agriculteur Algérien, Challamel éditeur, paris, 1900.
- 16) Dr Shaw : voyage dans la régence d'Alger, tr en Français par McCarthy, Marlin éditeur, paris, 1889.
- 17) Esterhazy Walsin : Notice historique sur le Maghzen d'Oran, imprimerie de Prrier, Oran, 1849.
- 18) Vayssetes Eugène : Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517-1837, éditons Bouchène, 2002.
- 19) Rinn Luis : le Royaume d'Algérie sous le dernier Day, édition Adolphe Jourdan, Alger 1900.
- 20) Voisin George : l'Algérie pour les Algérien, Méchel Lévy frères libraires éditeurs, Paris, 1861.

- 21) Peyssonnel (J. A) : Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger, T1, Librairie de Gide, Paris, 1838.
- 22) Esterhazy Walsun : de la domination Turque dans l'ancienne Régence d'Alger, librairie de Charles Gosselin, Paris 1840.
- 23) Mercier Ernest : la question indigène en Algérie au commencement du XX siècle, 1901.
- 24) De Volex : Tachtifat, Recueil de note historique sur l'administration, imprimerie de gouvernement, Alger, 1852.
- 25) Moll (L) : colonisation et agriculture de l'Algérie, t1, librairie de la Masson Rustique, Paris, 1845.
- 26) Bodichon (E) : études sur l'Algérie et l'Afrique, Alger, 1847.
- 27) E. Bodichon : le vade mecum de la politique Française, Alger, typographie et lithographie, A. Boyer, 1883.
- 28) Fallet Céline : conquête de l'Algérie, Rouen Mégard Cie imprimerie, Paris, 1856.
- 29) Quitard (M) : du désarmement des Arabes, la vigne libraire, Paris, 1841.
- 30) Hugonnet Ferdinand : Français et Arabes en Algérie, édition Sertorius et Challamel, Paris, 1860.
- 31) Bulletin officielle de Gouvernement Général de l'Algérie, imprimerie et papeterie Bouyer, 1863.
- 32) Hugonnet Ferdinand : souvenir d'un chef de bureau Arab, édition Michel Lévy frères, paris, 1858.
- 33) Plée Léon : Abd el Kader nos soldats, nos généraux et la guerre d'Algérie, Ed1 imprimerie de P. Bourdier. Paris, 1865.
- 34) Calvalli Marcel : Céréales en Algérie, Thèse pour le doctorat en droit, Faculté d'Alger, 1935.
- 35) Laynaud: Notice sur la propriété foncière en Algérie, Giralt, Alger, 1900.
- 36) Péliissier de Reynaud : les Annales Algériennes, T3, (librairie militaire, librairie bastide), (Paris, Alger), 1854.
- 37) Rebattu (M) : le régime forestier de l'Algérie, Extrait du Bulletin de la réunion d'études Algériennes, Paris, 1900.

- 38) Viger Albert: etude sur la question Ovine en Algérie, impremerie Typographique ET Lithographique, 1982.
- 39) Villacrose (A) : Vingt ans en Algérie, Challamel, Paris, 1875.
- 40) Bourde Paule : à travers l'Algérie 1879, Ed : G. Charpentier éditeur, Paris, 1880
- 41) Tessier Octave : Algérie, Géographie, Histoire, Statistique, Description, Marseille Camion librairie, Alger Bastide librairie, 1865.

7-المقالات:

7-1-المقالات باللغة العربية:

- 1) بن سالم ليلى: التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب الكبير، حصيلة وتقييم، مقال ضمن كتب جماعي موسوم " الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، تر: عبد الأحمد السبتي وعبد اللطيف الفشلق، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب، 1988.
- 2) بن صحراوي كمال: مجاعة 1868 في الجزائر من خلال نصوص محلية وأخرى فرنسية، مجلة عصور الجديدة، م7، ع 26، 2017.
- 3) بن هونات يزيد: القبيلة كأفق سياسي في الجزائر، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع15، مج4، 2016.
- 4) بيرك جارك: في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا، مقال ضمن كتب جماعي موسوم " الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، تر: عبد الأحمد السبتي وعبد اللطيف الفشلق، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب، 1988.
- 5) بيرم كمال: احتلال منطقة سطيف وتطور حركة الاستيطان الأوروبي بها بين سنتي (1838-1900)، المجلة التاريخية الجزائرية، ع1، 2017.
- 6) تمام نصر الدين: التحصينات العسكرية الرومانية في مقاطعة موريطانيا السطايفية بين القرنين 3 و5م، مجلة الدراسات الإفريقية، ع6، 2018.
- 7) خنير عزيز: السياسة العقارية الفرنسية بالجزائر في القرن 19م، م.ج.ب.د.ت، مج2، ع4، ديسمبر 2016.

- 8) قنون حياة: الاستيطان الفرنسي ومصادرة أراضي الجزائريين، مجلة الحوار المتوسطي، ع 43.
- 9) كعوان فارس: ظاهرة اللصوصية وقطع الطريق بمنطقة سطيف من لصوصية السلب والنهب إلى ظهور اللصوص الشرفاء أواخر القرن 19م، مجلة الحوار المتوسطي، م 10، ع 3، 2020.
- 10) كعوان فارس: قضايا من التاريخ الاجتماعي والثقافي لمنطقة سطيف خلال القرن 19، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، مج 9، ع 2، 2020.
- 11) كعوان فارس: منطقة سطيف في العهد العثماني: التقسيم الإداري والزعامات المحلية، مجلة البحوث التاريخية، مج 3، ع 2، 2019.
- 12) لأحمر المولدي ا: نحو استعادة المشاهدة من دون حجاب القبيلة، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع 15، مج 4، 2016.
- 13) لوصيف سفيان: احتلال منطقة عموشة وتساعد المقاومات الشعبية (1840-1920)، مجلة قضايا تاريخية، ع 9، 2018.
- 14) مريم صليحة: مقاطعة السطايفية حدودها وسر وجودها، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، م 6، ع 13، 2018.
- 15) النوعي عبد الله: سيكيولوجيا البنية القبلية: دراسة نظرية، مجلة العلوم الاجتماعية، م 7، جامعة الأغواط، الجزائر.

7-2- المقالات باللغة الفرنسية:

- 1) Arambourg (C) : sur la présence dans le villafranchien d'Algérie de vestiges éventuels d'industrie Humaine Académie science, T226, paris, 1949.
- 2) Ben Honnet Yazid : des tribus en Algérie, cahier de la méditerranée, 75, France, 2007.
- 3) Berbrugger Adrien : Un Chérif Kabyle en 1804, R.A, 1859.
- 4) Djellali Abderrazak : le caïdat en Algérie au XIX^{émé} siècle, in cahier de la méditerranée, N 45, 1992.
- 5) Emerit Marcel : les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX siècle, annales -3-A. E.S C 21 année 1966, N 1.

- 6) Emerit Marcel : l'état d'esprit des Musulmans d'Algérie de 1847-1870, R.H. M. C, T8, N2, 1961.
- 7) Féraud Charles : les Chérifs kabyles de 1804 et 1809 dans la Province de Constantine, in R.A, 1869.
- 8) Féraud Charles : la corporation de métiers à Constantine avant la conquête Française, in R.A, 1872.
- 9) Guinard Didier : Conservatoire ou révolutionnaire, le S.C de 1863 appliqué au régime soucier de l'Algérie, Revue d'histoire XIX siècle, 2010, N 43, 2010.
- 10) Joly (A) : remarques sur la Poésie moderne chez les Nomades Algériens, in R.A, N 48, 1904.
- 11) Julienne (M) : les Rira de la subdivision de Miliana, R. A : N 1, 1865.
- 12) Patroni (F) : délibération de l'année 1749 dans la grande Kabylie, in R.A, N 39, 1885.
- 13) Troussel Pol : le tarif de Zaria, essai sur les circuits commerciaux dans la Zone Présaharienne in Revue Antiquité Africaines, 2002.

8- الأطروحات الجامعية

8-1- الأطروحات الجامعية باللغة العربية:

- 1) بجاوي محمد: المهندسون الجزائريون في الجيش الفرنسي 1830-1900، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006/2005.
- 2) بليل محمد: تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساتها على الجزائريين بين 1881-1914 القطاع الوهراني نموذجاً، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة وهران السانبا، 2006.

- 3) بودريعة ياسين: أوقاف الزوايا والأضرحة بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال البايك، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2006 / 2007.
- 4) بريم كمال: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحضنة الغربية فترة الاحتلال الفرنسي (1830-1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010/2011.
- 5) حباش فاطمة: المكاتب العربية ودورها في المد الاستعماري بالغرب الجزائري (1844-1870)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة وهران، الجزائر، 2013/2014.
- 6) حرشوش كريمة: جرائم الجنرالات الفرنسيين ضد مقاومة الأمير عبد القادر في الجزائر من خلال أدبياتهم (1832-1847) (نماذج)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، معهد العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ والآثار.
- 7) حمداني مالية: ميراث المرأة القبائلية بين تحدي الأعراف والحاجة المادية، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في تخصص علم الاجتماع الريفي، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2009/2010.
- 8) عبيد مصطفى: الجزائر في كتابات إسماعيل عريان (1812-1884)، دراسة تاريخية تحليلية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2007/2008.
- 9) عمري الطاهر: دور بني المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار (1830-1900)، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر، 1998/1999.
- 10) فراد محمد أرزقي: المجتمع الزواوي في ظل العرف والثقافة الإسلامية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2010/2011.

11) قرياش بلقاسم: الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، رسالة مقدمة لنيل

شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة مصطفى اسطمبولي -معسكر-الجزائر،

2016/2015.

12) محمد الأمين بن يوسف: ملكية الدومين وتطور الاستيطان الفرنسي في الجزائر 1830-1870، مذكرة

مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، الجزائر، 2014/2013.

13) معاشي جميلة: الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، مذكرة مقدمة لنيل شهادة

الدكتوراه علوم في التاريخ الحديث، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2008/2007.

8-2- الأطروحات الجامعية باللغة الفرنسية:

1) Badjadja Abdelkrim : Carthographie agraire de l'Est Algérien a la fin de XIX siecle (in geography). Constantine, Département de Géographie Université de constantine, Algéria, 1974.

2) Gueit (E) : du Régime de la terre Arch en Algérie, Thèse pour le doctorat en Droit, Faculté de droite du Paris, 1900.

3) Van Vollenhoven Joost : Essai sur le Fellah Algérien, Thèse pour le Doctorat, Faculté de Droit, Université de Paris, France, 1903.

9- الملتقيات:

1) بن داهة عدة: " الخلفيات الحقيقية للتشريعات العقارية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962م)",

مداخلة مقدمة ضمن أعمال الملتقى الوطني والثاني حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-

1962م)، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، بالتنسيق مع المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، 2007م.

2) ملاحسو الطاهر: "نظام التوثيق في ظل التشريعات العقارية بالجزائر (1830-1962م)", مداخلة مقدمة ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962م)، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، بالتنسيق مع المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، 2007م.

10- المعاجم والقواميس:

- 1) ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله الركيبي وآخرون، دار المعارف المصرية، مصر، (د.ت).
- 2) صالبا جميل: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب الأبناني، بيروت، لبنان، 1982.
- 3) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مر: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008.

11- المواقع الإلكترونية:

gallica.bnf.fr

www.persee.com

www.larousse.fr/encyclopedia

قائمة الفهارس

فهرس الأعلام

— أ —

ابن الأحرش 45 / 138 / 147 / 157 / 158 / 159

ابن القندوز 69

إبن حمادوش 85 / 88

ابن حوقل 63

ابن خلدون 22 / 28 / 36

أبو زكريا يحيى بن زكريا 87

أبو عبد الله الشيعي 63

أبي راس الناصري 159

أبي زكريا يحيى بن محمد 88

أحمد الشريف بن سعد 67 / 121 / 212 / 262

أحمد المقراني 178 / 212

أحمد باي 116 / 123 / 126 / 135 / 136 / 139 / 152 / 155 / 157 / 158 / 191

أحمد باي القلي 136

أحمد بن الشيخ مسعود 202

أحمد بن الصخري 136

أحمد بن جدو 222

أحمد بن زيدان 181

أحمد بن سليمان 177 / 202 / 262

أحمد بن سي أحمد 182

أحمد بن عبد السلام المقراني 118

أحمد بن مرزوق 215

أحمد بوعكاز 123

أحمد خريفي 263

أحمد خوجة 124

أحمد سي رايح 182

أحمد ولد القاضي 177

الأخضر بن هواري 218

الإدريسي 63

ادموند دوتي 64، 89

أمبارك بن سماتي 85

الإمبراطور نيرفا 58

أحمد بن الحاج إلياس 222

الأمير عبد القادر 69 / 118 / 120 / 208 / 212 / 227

أندري ماري أمبير 270

- ب -

الباي الوزناجي 156 / 157

الباي محمد الكبير 97

- براهيم بن هني 191
- البشير بن بلقاسم 194
- شير بن سعد 182
- البكري 61، 63
- بلقاسم بن حبيلس 178 / 179
- بلقاسم بن سديرة 82 / 182
- بن جاب الله محمد 218
- بن جدو 177 / 178
- بن جلول 136
- بن سماتي 177 / 178
- بن عبيد 132 / 177 / 181 / 218 / 251
- بن علاق 85
- بن علي الشريف 178
- بن يلس 158
- بوان جولس 262
- بوجمعة بن مينة 178
- بورديو 41
- بوزيد المقراني 130
- بوضياف 178
- بوعبد الله 67 / 120 / 137 / 138

بوعزيز بن قانة 177

بوعكاز بن عاشور 121 / 131 / 186 / 215 / 216.

بومعزة 215

بيجو 171 / 185

بيليسي 235

- ت -

تشارلز داروين 170

توماس شو 120

- ج -

جازية الهلالية 66

جاك بيرك 64

جميلة بنت ذباح بوعكاز 136

جوزيف جيري 272

- ح -

الحاج بورحلة 218

حسان بن النعمان 61

الحسين الورثلاني 70 / 74 / 87 / 103 / 134

الحسين بن الزين 197

الحسين بوجمعة 197

حمدان خوجة 78، 79

حمو بن ربيع 85

حمو بن سعيد 182

حمودة باشا 158

الحميدي بن محمد 182

- خ -

خديجة بنت المداني 80

خير الدين بربروس 133

- د -

الداودي بن كسكاس 177 / 178 / 197 / 202 / 218

داوود بن حياسة 61

الداي حسين 135، 235

الدكتور بوديشون 170 / 171 / 172 / 173

الدكتور مول 176

دوبرال 166، 217

دوروفيغو 166 / 167 / 168

دوطوكفيل 166

دولومارال 166 / 217

دي بورمون 165 / 235

- ذ -

ذباح بن الشريف 183 / 182

- ر -

الربيع بن المسيبي 197

رجب باي 136

الزبوجي 159 / 140

- ز -

الزجاج 22

الزواوي بن عمر أوعمار 216

- س -

سالاس 217 / 166

سانسيمون 170

سعادة بن سعد 67، 120

سعيد أوعلي 236

السعيد بن الربيع 197

السعيد بن العناس 194

سعيد بن عبيد 89

سي الحاج بن سعد 194

سي الحامدي بن جدو 198 / 89

- سي بلقاسم بن علي 198
- سي عبد القادر بن سيدي علي 87
- سي عزيز الحداد 178 / 218
- سي علي بن الحامدي 198
- سي علي بن زيان 198
- سي محمد أورابح 89
- سي محمد بن الشريف بن سماري 222
- سي محمد بن صحراوي 194
- سييتيموس سيفيريوس 58
- سيدي أحسن 85
- سيدي السايح القلعي 87
- سيدي الطيب بن الربيع 85
- سيدي الوالي دادة 134
- سيدي محمد الكبير 88
- سيدي محمد بن علي 134
- سيدي مسعود أبركان 85

- ش -

- شارل فيرو 107 / 55
- شارل فيرو 55
- الشاعر طقيش 67، 69

الشاعر عبد الباقي 67، 68

شاكر باي 156

الشريف بن الساسي 215

الشريف بن الطاهر 194

الشريف بوبغلة 217

الشعبي بن أحمد 182 / 183

الشيخ الحداد 218

- ص -

صالح باي 116 / 136 / 156

صالح بن أحمد خوجة 191

صالح بن يلس 191

صغير بن العروسي 273 / 202

صغير بن عروسي 202

- ع -

عامر بن جعفر 68

عامر بن حبيلس 263

عبد الرحمن الأخضرري 88

عبد السلام المقراني 136

عبيد الله الشيعي 61 / 62

عثمان باي 160

العروسي بن الشيخ مسعود 121

عصمان باي 113

عقبة بن نافع 61

علي بن لخضر 273

عمار بن عبید 156

عمر بن الخطاب 61

عمر بوعرعور 218

العنزي 78

عيشوش بنت عبد السلام المقراني 136

- غ -

غاري سالان 274

غالبوا 121

- ف -

فرحات بن السعيد 178

فريدريك اميدي 274

فلافيوس بيكواريوس 59

- ق -

قسوم 120 / 67

القلقشندي 63 / 22

– ك –

كارل ماركس 45 / 173 / 170

كاميل أرمبورغ 58

كعوان 75

كلاوديوس بيرينيوس 59

كلوزيل 175 / 156

– ل –

لاشانال فرانسوا 269

لاغار أرنست 272

لامورسيير 185

لبليا بن سالم 39

لخصر بن واري 132 / 156

لويس رين 181 / 178 / 128

ليون الإفريقي 63

– م –

المازاري 115

مبارك بن مقراط 236

متماسرة بن قانة 136

محمد الصغير 67

- محمد الصغير بن حجاج 181
- محمد الصغير بن سعد 218 / 157
- محمد الصغير بن لخضر 182
- محمد العيد عنان 37
- محمد المقراني 157
- محمد باي ماناماني 156
- محمد بن الشريف 194
- محمد بن القريشي 194
- محمد بن عبد السلام المقراني 208 / 202
- محمد بن عبد السلام المقراني 208
- محمد بن عودة 182
- محمد بن قسوم 67، 120
- محمد خوجة 190، 191
- محمد سحنوني 58
- محمد عابد الجابري 24، 35
- محمد عواد 197
- محمود بن داودي 118
- محمود بن داودي 208
- مسعود بن سعد 67 / 69 120
- مسعود الإدريسي الحسني 88

مسعود بلحمواني 182، 183

مسعود بن محمد بن مبارك 262

المشري بن محمد 182، 183

مصطفى باشا 134

المقراني 177 / 178 / 181

منداسي بن ساسي 216

منصور العولمي 72 / 158

منصور بن عبيد 216

منصور بوعكاز 198

مهناني مسعود 182 / 183

موسى بن نصير 61

مولاي محمد 215 / 216

— ن —

النويري 23

— ه —

هانوتو ولوتورنو 37

— و —

وادفل بن وادفل 67

واري 238

وليم شالر 79

- ي -

ياقوت الحموي 45

يحي آغا 152

يحي الشريف بن أحمد سليمان 220

يحي بن مساهل 66

اليعقوبي 61

يلس بن بوزيد

يلس بن بوزيد 118 / 124 / 126 / 202 / 218

يلس بن بوزيد 218

فهرس البلدان والقبائل والدواوير

— أ —

أث عشاش 135 /80

إسبانيا 112

أقزرنة 62

إلماين 74

ألواتل 188

أمالو 74

أنجفة 65

أنوال 188

الأوراس 114

الاوريسيا 202 /71

أولاد الحاج 69

أولاد المدير 66

أولاد المهاري 188

أولاد براهيم 238 /232/158 /120 /81

أولاد بلقاسم 215

أولاد بوسلامة 188

أولاد بوظهرة 66 / 120 / 232 / 238

أولاد بوعبد الله 188

أولاد بوقصة 76

أولاد بونشادة 124 / 125

أولاد ببي 66

أولاد تبان 55 / 70 / 81 / 120 / 158 / 232 / 238

أولاد تومي 12 / 125

أولاد حزة 223

أولاد حمدي 76

أولاد خلف الله 215

أولاد خلوف اولاد علي بن ناصر 85

أولاد خماجة 188

أولاد خيل 76 / 125 / 269

أولاد داود 76 / 273

أولاد دراج 118 / 124 / 158

أولاد ذهاب 93

أولاد رياح 167

أولاد زايد 124

أولاد زير 188

أولاد سالم 76

أولاد سبع 188

أولاد سفيان 188

أولاد سلامة 70

أولاد سي احمد 283 /232 /120 /81/70

أولاد سي الشيخ أحمد 223

أولاد سي قاسم 259

أولاد سي مسعود 73

أولاد شاكر 66

أولاد شقوار 188

أولاد شيبية 66

أولاد صابر 238 /202 /90/57/

أولاد عالية 273

أولاد عبد الرحمن 273

أولاد عبد النور 191

أولاد عبد الواحد 238 /232 /120

أولاد عبد الواحد 238 /232

أولاد عدوان 238 /205 /194 /125 /90 /71 /57

أولاد عزوز 273

أولاد علي بن مناني 188

أولاد علي بن ناصر 238 /205 /194 /124 /90 /76 /71 /57

أولاد عياض 118

أولاد عيسى بن يحيى 188

أولاد قاسم 238 /205 /203 /200 /196 /124

أولاد قبالة 188

أولاد مالك 259

أولاد مبارك 188

أولاد محلة 238 /232 /120 /67

أولاد مداجر 76

أولاد مرحوم 273

أولاد مسعود 188

أولاد مشقة 66

أولاد مطاع 66

أولاد منان 188

أولاد منصور 238 /205 /194

أولاد منصور بن السعيد 273

أولاد مهاجر 188

أولاد موسى بن يحيى 69

أولاد موصللي 200 /123 /114 /76 /70 /69

أولاد موفق 273

أولاد نابت 70 / 71 / 72 / 85 / 101 / 105 / 107 / 109 / 124 / 141 / 158 / 165 / 192 / 193 /
195 / 202 / 205 / 215 / 218 / 237 / 238

أولاد ناجي 81

لاريجا 81

أولاد نايل 73

أولاد هاجر 188

أولاد يحي 215

أولاد يلس 67

ايكجان 61

- ب -

بابور 55 / 59 / 70 / 71 / 73 / 75 / 90 / 95 / 102 / 105 / 114 / 119 / 129 / 132 / 146 /
166 / 178 / 191 / 216 / 217 / 218 / 222 / 254 / 273

باتنة 75

الباز 270

بازر 70 / 113 / 121

بجاية 54 / 59 / 63 / 64 / 65 / 75 / 79 / 213 / 221 / 246 / 259 / 273

البرتغال 112

برج بوعرييج 54 / 65 / 76 / 114

برج منايل 113

برقة 61

بريكة 70

بسكرة 66 / 73

بلاد راس الما 232 / 238

بلاد شط المالح 232 / 238

بلاد شعبة قصر الطير 120

بلاد عين القصر 120 / 232 / 238

بلاد عين تيتست 120 / 232 / 238

بلاد قبلة زديم 232 / 238

بلاد محجوب 232 / 238

بلاعة 238

البليدة 62 / 166

بن حماي 188

بن ذياب 57 / 69 / 90 / 194

بن زريق 93

بني اتيزي 72

بني براهيم 80 / 126 / 196 / 200 / 203 / 205 / 238

بني سكفال 73

بني سليمان 72 / 75 / 216

بني شبانة 56 / 72 / 74 / 75 / 80 / 96 / 97 / 109 / 132 / 134 / 164 / 166 / 190 / 215 / 218

250 / 254

- بني شيبية 68
- بني عزالدين 73
- بني عزيز 61 / 70 / 261
- بني عفيف 215
- بني غبولة 146
- بني فودة 124 / 125
- بني فوغال 73 / 75
- بني مرعي 216 / 217
- بني معوش 74 / 75
- بني منان 273
- بني ورثيلان 56 / 74 / 75 / 80 / 85 / 87 / 89 / 90 / 95 / 96 / 97 / 103 / 105 / 106 / 109 / 132 / 134 / 146 / 164 / 166 / 190 / 215 / 218 / 220 / 240 / 254
- بني يعلى 55 / 72 / 75 / 76 / 85 / 89 / 95 / 103 / 107 / 108 / 109 / 110 / 132 / 215 / 221 / 222 / 233 / 254
- بوسلام 55 / 96 / 259
- بوسلامة 66
- بوشريط 58
- بوطالب 55 / 59 / 188
- بوعنداس 55 / 75 / 87
- بوقاعة 250

البيان 114 / 118

البيان 130

بير العرش 54 / 55

بيضا برج 70

- ت -

تابابورت 218

تاجنانت 62

تاشودة 94

تاقيطونت 72 / 85 / 94 / 217 / 238 / 273

تالة ايفاسن 71 / 75

التلة 238

تلمسان 246

توقرت 75

تيزي نبشار 273

تيزي وزو 246

تيقوناتين 96

تيهت 63

- ث -

ثنية الطين 238 / 273

- ج -

جرجرة 79

جرمونة 72

الجزائر 54 / 67 / 112 / 130 / 226 / 244

جميلة 58 / 59 / 65 / 132 / 159 / 160 / 164 / 213

- ح -

الحامة 188

حجاز 66

حدادة 188

الحرملية 93 / 270

الحضنة 54 / 59 / 66 / 69 / 114

الحضنة الشرقية 70 / 82 / 83

حمام قرقور 250

الحمامة 195 / 205

الحمامة 71 / 238

الحميات 188

الحوامد 66

الحوامر 71

- خ -

خراطة 217 /72 /55

خلفون 259 /194

- د -

الدعاسة 73

الدهامشة 254 /203 /202 /190 /146 /126 /76 /73 /71

الدواير والزماله 114

- ذ -

ذراع قبيلة 87 /75

- ر -

ريغة 67 /66 /65

ريغة الظهارة 107 /105 /102 /101 /83 /81 /80 /78 /76 /70 /69 /68 /67 /57 /55

259 /231 /212 /203 /202 /193 /192 /190 /158 /141 /120 /119 /113 /108

270 /262

ريغة القبالة 124 /118 /107 /105 /101 /90 /85 /82 /80 /78 /71 /70 /69 /68 /67

259 /202 /194 /193 /192 /190 /188 /187 /177 /164 /157 /141

- ز -

زراية 59

زغابة 66

الزمول 116

زناتة 65 / 70 / 72

الزواوة 114

— س —

ساحل قبلي 55 / 56 / 71 / 72 / 79 / 82 / 87 / 89 / 93 / 95 / 97 / 103 / 108 / 132 / 133
166 / 177 / 181 / 215 / 217 / 218 / 239 / 261

سان دوني 54

سخرة بازر 238

السخرين 83

سرج الغول 75

سطيف 57 / 58 / 59 / 61 / 62 / 63 / 64 / 65 / 69 / 71 / 73 / 78 / 80 / 83 / 87 / 88 / 94 / 97
100 / 101 / 102 / 113 / 114 / 118 / 119 / 122 / 126 / 132 / 133 / 146 / 158 / 164
166 / 177 / 178 / 181 / 186 / 190 / 194 / 212 / 213 / 215 / 216 / 220 / 232 / 237
246 / 249 / 259 / 260 / 269 / 271 / 273

السكرين 188

سكيكدة 246

سور الغزلان 58

سيبوس 246

سيدي بلعباس 246

سيدي عيش 79

- ش -

شرشال 59

الشرفة 72 / 195 / 205 / 238

شط المالح 70

الشعيبة 196 / 200 / 202 / 205 / 238

الشلف 246

- ص -

الصحاري 114

صنهاجة 65

- ط -

طبنة 59

طكوكة 195 / 205 / 238

- ع -

عامر 55 / 57 / 70

عامر الظهارة 70 / 71 / 101 / 105 / 124 / 126 / 141 / 194 / 195 / 197 / 199 / 202 / 205

254

عامر القبالة 70 / 101 / 105 / 124 / 126 / 141 / 194 / 202 / 203 / 205 / 254

عزل اولاد ذهاب 196

عزل قللال 198

عشاش 76

العلمة 55 / 58 / 69 / 70 / 71 / 72 / 85 / 94 / 101 / 105 / 107 / 109 / 114 / 123 / 141

143 / 145 / 194 / 202 / 203 / 212 / 238 / 254

عموشة 55 / 71 / 72 / 78 / 85 / 86 / 94 / 95 / 101 / 102 / 105 / 106 / 114 / 119 / 126

146 / 166 / 178 / 191 / 194 / 194 / 197 / 212 / 215 / 216 / 217 / 218 / 222 / 237

238 / 254 / 259 / 273

عنابة 246

العناصر 194 / 259

العيني 72 / 195 / 205 / 238

العوفية 167

عين أرناط 269

عين أزال 270 / 272

عين التبينت 259

عين الترك 71 / 72 / 82

عين الحنش 58

عين الروى 59 / 71 / 93 / 250 / 259

عين الصفية 194 / 259

عين الكبيرة 59 / 60 / 60 / 73 / 75 / 87 / 273

عين تاغروت 70 / 200 / 202

عين لقراج 74

- غ -

الغرازلة 55 / 57 / 71 / 76 / 82 / 97 / 105 / 107 / 118 / 123 / 142 / 143 / 145 / 208 / 215
238 / 254 / 264 / 269

- ف -

فج مزالة 54

فرجيوة 132 / 142 / 156 / 159 / 215

فرماتو 56 / 194 / 259

فرنسا 227 / 244 / 259

الفريقات 67 / 188

- ق -

قالمة 66 / 246

قجال 57 / 59 / 90 / 103 / 104

قرطاج 60

قرقور 57 / 71 / 72 / 75 / 82 / 85 / 105 / 132 / 156 / 181 / 220 / 238 / 249 / 254 / 273

قسنطينة 63 / 67 / 76 / 78 / 92 / 113 / 114 / 117 / 118 / 121 / 138 / 139 / 155 / 147

164 / 178 / 190 / 208 / 212

قصر الطير 70 / 113

قلال 93

القلعة الزرقا 145

قلعون 72 / 98 / 223 / 238 / 263 / 273

– ك –

كتامة 63 /70 /72 /75

كريمة 87 /97

كويكول 58

– ل –

لاربعا 120 /232 /238

لعراش 74

لمتونة 65

– م –

المالوكلان 71 /132

المترونة 195 /205 /238

متيعة 246

مجانة 55 /58 /59 /157 /177 /178 /208 /213 /221

مجوناس 73 /196 /200 /203 /205 /238

المدية 246

مزيود 238

مستغانم 246

المسيلة 62 /63 /65 /124 /190

معسكر 246

مليانة 246

منتانو 99 / 217 / 223 / 238 / 263 / 273

المواسة 66 / 188

الموان 269

ميلا 94 / 114 / 131 / 164

- ن -

نقاوس 59

- و -

وادي ريغ 65

ولاد رقاب 76

وهران 117 / 246

فهرس الجداول والأشكال

الجدول	الصفحة
الجدول رقم 01: جدول يمثل التقسيمات التي اصطلح عليها العرب في تقسيم المجتمعات البشرية.	22
الجدول رقم 02: جدول يمثل أماكن تواجد المدارس وعدد التلاميذ ببعض قبائل سطيف خلال القرن 19م	83
الجدول رقم 03: جدول يمثل بعض المساجد المنتشرة شمال سطيف وأوقافها عليها خلال القرن 19م.	85
جدول رقم 04: جدول يمثل مساحة أراضي العرش بالنسبة لعدد السكان في قبيلة أولاد عامر القبالة.	89
الجدول رقم 05: جدول يوضح توزيع الأراضي في قبيلة بين ورثيلان خلال القرن 19م.	94
الجدول رقم 06: جدول يوضح توزيع الأراضي في قبيلة بني شبانة خلال القرن 19م.	94
الجدول رقم 07: يمثل الأوقاف المحبوسة على بعض المساجد بقبائل منطقة شمال سطيف خلال القرن 19م	96
الجدول رقم 08: يمثل المعدلات الشهرية للتساقط ودرجات الحرارة في منطقة سطيف خلال القرن 19م	98
الجدول رقم 09: جدول يبين عدد الجابادات التي تزرعها بعض من قبائل سطيف خلال القرن 19م.	99
الجدول رقم 10: جدول يمثل رؤوس الماشية لدى قبائل سطيف خلال القرن 19م.	102
الجدول رقم 11: جدول يمثل عدد الفرسان والمشاة الذين يمكن لرغبة الظهارة توفيرهم عند الحاجة.	117
الجدول رقم 12: جدول تقريبي للعشور التي تدفعها قبائل سطيف استنادا إلى عدد الجابادات التي تملكها	138
الجدول رقم 13: جدول يمثل مجموعة من الصباحية والامتيازات التي منحت لهم في منطقة سطيف.	176
الجدول رقم 14: جدول يمثل فروع السكان في قبيلة ريغة القبالة حسب سجلات السيناتوس كونسيلت	181
الشكل رقم 15: خريطة توضح حالة عامر أواخر العهد العثماني حتى عام 1849م	185
الشكل رقم 16: خريطة تمثل المرحلة الأولى من تقسيم قبيلة عامر عام 1849	186
الجدول رقم 17: جدول يمثل عائلات اكترت أراضي في عزل أولاد ذهاب (عامر الظهارة).	190
الجدول رقم 18: جدول يمثل بعض الأشخاص الذين اكتروا أرضا بعزل أولاد ذهاب (عامر الظهارة).	190
الجدول رقم 19: جدول يمثل بعض العائلات التي اكترت أراضي في عزل قلال.	191
الجدول رقم 20: جدول يبين بعض الأشخاص المتنفيين الذين اكتروا أراضي بعزل حمان.	191
الجدول 21: جدول إحصائي لقبيلة عامر الظهارة بعد عمليات التحديد أعد في 26 أوت 1867.	193
الشكل رقم 22: خريطة قبيلة عامر بعد انتهاء عمليات التحديد.	198
الجدول رقم 23: جدول يُمَثِّل مساحة الغابات التابعة لكل مصلحة حتى عام 1887م.	222
الجدول 24: جدول يمثل مساحة كل نوع من الأشجار في الغابات الجزائرية.	223
الجدول رقم 25: جدول يمثل ما تملكه فروع قبيلة ريغة من رؤوس الغنم والماعز، أعد في 12 جوان 1866.	224
الجدول رقم 26: جدول يمثل القبائل التي تم تحديدها بقانون 22 أبريل 1863م.	230
الجدول رقم 27: جدول يوضح زراعة الكروم في الجزائر ما بين 1850-1900.	237
الجدول رقم 28: جدول يمثل إنتاجية الخمر حتى عام 1934م.	238

245	الجدول رقم 29: جدول يمثل معدل ما دفعته قبائل سطيف ضرائب على مواشيها.
246	الجدول رقم 30: جدول تفصيلي لما تدفعه قبائل سطيف من ضرائب للسلطة الفرنسية في القرن 19م
258	الجدول رقم 31: جدول يمثل تطور السكان الأوروبيين والعرب في مزارع شركة جنيفواز
259	الجدول رقم 32: جدول يمثل الوفيات لدى السكان الأوروبيين والجزائريين ما بين (1860-1868م) في مراكز جنيفواز

الفهرس العام

الفهرس العام

الإهداء.

شكر وعرفان.

قائمة المختصرات.

مقدمة.

الفصل الأول: مدخل مفاهيمي إلى القبيلة والسلطة.....21-50

المبحث الأول: التنظيم القبلي.....21

1-تعريف القبيلة.....21

2-لمحة عن القبيلة الجزائرية.....25

3-التنظيم القبلي.....29

4-أسس القبيلة.....33

المبحث الثاني: السلطة وعلاقتها بالتنظيم القبلي.....40

1-تعريف السلطة.....40

2-أنواع السلطة.....45

3-مقومات السلطة ومميزاتها.....46

4-السلطة والاقتصاد.....49

5-السلطة والأمن.....49

6-علاقة القبيلة والسلطة.....49

الفصل الثاني: قبائل منطقة سطيف: دراسة تاريخية اجتماعية.....52-107

المبحث الأول: أصل القبائل وحدودها.....52

1-لمحة جغرافية وتاريخية عن منطقة سطيف.....	52
2-قبائل منطقة سطيف خلال الفترة الحديثة.....	62
المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية والثقافية لقبائل سطيف خلال القرن التاسع عشر.....	74
1-الحياة الاجتماعية.....	75
2-الحياة الثقافية في قبائل منطقة سطيف.....	82
المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية لقبائل سطيف.....	87
1-أنواع الأراضي لدى قبائل منطقة سطيف.....	87
2-النشاط الاقتصادي.....	97
الفصل الثالث: قبائل منطقة سطيف وعلاقتها بالسلطة العثمانية.....	109-159
المبحث الأول: قبائل منطقة سطيف في ميزان السلطة العثمانية.....	109
1-أنواع القبائل.....	111
2-سياسة العثمانيين للسيطرة على القبائل.....	130
المبحث الثاني: الضرائب العثمانية على منطقة سطيف.....	139
1-الضرائب التي تدفعها قبائل منطقة سطيف.....	137
2-قراءة في النظام الضريبي أواخر العهد العثماني في الجزائر وموقف القبائل منه.....	144
المبحث الثالث: الثورات الشعبية في منطقة سطيف أواخر العهد العثماني.....	152
1-حملة أحمد باي ضد قبيلة قرقور والقبائل المجاورة لها.....	153
2-ثورة ابن الأحرش.....	155
الفصل الرابع: قبائل منطقة سطيف في مواجهة السلطة الفرنسية.....	161-216
المبحث الأول: أساليب السلطة الفرنسية للسيطرة على قبائل سطيف.....	161

المبحث الثاني القبائل السطايفية: التفكيك وإعادة البناء: عامر أنموذجا.....	183
1-لمحة عن تاريخ قبيلة عامر أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي.....	183
2-تفكيك قبيلة عامر: من القبيلة إلى الدوار.....	186
2-1-عامر القبالة.....	187
2-2-أولاد نابت.....	188
2-3-قبيلة عامر الظهارة.....	188
المبحث الثالث: مقاومة قبائل منطقة سطيف للسلطة الفرنسية.....	203
1-المستعاونون.....	200
2-المقاومون.....	201
2-1-المشاركة مع الأمير عبد القادر.....	205
2-2-ثورة مولاي محمد في قبائل شمال سطيف.....	208
2-3-مقاومة قبيلة ساحل قبلي.....	210
2-4-ثورة 1871.....	211
2-4-تقديم العرائض والشكايات.....	212
2-6-رفض تعيين الشيوخ وقتلهم.....	215
2-7-التضامن القبلي.....	216
الفصل الخامس: الاستيطان الفرنسي في منطقة سطيف.....	218-267
المبحث الأول: تنفيذ القوانين العقارية على قبائل سطيف.....	218
المبحث الثاني: السياسة الزراعية والمالية الفرنسية في منطقة سطيف.....	235
1-السياسة الزراعية.....	236

241.....	2-تربية الأغنام.....
241.....	3-البحث عن المعادن.....
242.....	4-الإرهاق الضريبي.....
257.....	5-الأزمة الفلاحية عام 1866-1869: تدهور المجتمع القبلي.....
250.....	المبحث الثالث: تشييد المراكز الاستيطانية كإجهاز نُهائي على القبيلة.....
250.....	1-المحاولات الأولى للاستيطان.....
252.....	2-طرق الاستحواذ على أراضي القبائل لتأسيس المراكز الاستيطانية.....
256.....	3-إنشاء المراكز الاستيطانية.....
256.....	3-1-شركة جينفواز.....
262.....	3-2-استيطان الأفراد والحكومة مباشرة.....
262.....	1-مركز عين أزال.....
265.....	2-مركز تيزي نبشار.....
268.....	خاتمة.....
273.....	الملاحق.....
304.....	قائمة المصادر والمراجع.....
325.....	قائمة الفهارس.....
357.....	الفهرس العام.....

الملخص:

قمنا في هذا العمل بدراسة العلاقة بين القبيلة والسلطة في الجزائر خلال القرن التاسع عشر متخذين من منطقة سطيف عينة للدراسة، حيث وضحنا أنها كانت منطقة قبلية، وقد قامت هذه القبائل على مجموعة من الأسس التي لا يمكن الاستغناء عنها، كالأرض والعصبية القبلية.

وقد تتبعنا القبائل التي سكنت مجال سطيف خلال الفترة الحديثة ووضحنا نوعية العلاقة التي ربطتها بالسلطة العثمانية، هذه العلاقة التي تأسست على البعد والقرب من السلطة دون العوامل الأخرى، مما أوجد أربعة أنواع من القبائل وهي: القبائل المخزنية، والممتنعة، والرعية، والحليفة، وقد لعبت الضرائب دورا كبيرا في رسم حدود هذه العلاقة، ولكن على العموم بقيت العلاقة علاقة تعايش رغم الثورات التي قامت كنزوة ابن الأحرش.

وفي عام 1830 تغيرت السلطة بقدوم الاحتلال الفرنسي الذي كانت له نظرة أخرى للقبيلة والتي بدورها استعدت للمقاومة ومواجهة الأخطار التي أهددت بها وهددت وجودها، وبدورها السلطة الجديدة أدركت أنه لا يكمن القيام بأي عمل لتثبيت الاحتلال ما دامت القبيلة موجودة تدافع عن مصالح الفرد، فقامت بتفكيكها مثلما حدث لقبيلة عامر، فما إن أُخْتُلت المنطقة حتى بدأت هذه العملية، مما جعل قبائل منطقة سطيف تشارك في مختلف المقاومات التي اندلعت كمقاومة الأمير عبد القادر والمقراني، كما انتهجت قبائل منطقة سطيف طرقا أخرى للمقاومة كالشكايات والتمسك بالقبيلة وقتل المتعاونين مع الاحتلال، وهذه علاقة صراع.

ولما تمكن الاحتلال من السيطرة والقضاء على المقاومات، بدأ في تنفيذ المرحلة الثانية من التفكيك ممثلة في الاستحواذ على الأرض وتأسيس المراكز الاستيطانية، في قلب القبائل كي يمنع اتحادها مرة أخرى وإلى الأبد، فبدأ بتشريع القوانين العقارية وأدخل مختلف الزراعات التي تخدمه، ثم بدأ في تأسيس المراكز الاستيطانية كخطوة أخيرة للإجهاز على القبيلة، فما إن حل القرن العشرين حتى اختفت معظم القبائل.

الكلمات المفتاحية: القبيلة، السلطة العثمانية، السلطة الفرنسية، منطقة سطيف، القرن 19

Abstract:

In this work, we studied the relationship between the tribe and power in Algeria during the 19th century, taking the Setif region as a sample to study, because we specified that it was a tribal region, and these tribes were built on a set of indispensable foundations, which are: land and tribal solidarity.

We traced the tribes that inhabited the Setif region in modern times and showed their relationship with Ottoman power, that relationship based on the dimension and proximity of power without other factors, which created four types of tribes, namely: Makhezen, abstinent tribes, parish and privileges, and she played the taxes. A great role in delineating the boundaries of this relationship, but the relationship remained a coexisting relationship despite the revolutions that took place like the Ibn Al-Ahrach revolution.

In 1830, power changed with the advent of the French occupation, which had a different vision of the tribe, which in turn was preparing for confrontation because of the dangers that threatened its existence, and the new power knew that any work it wanted to do in the occupation of Algeria would not take place as long as the tribe existed to defend it. The interests of the individual, then they dismantled them, as happened to the Amer tribe, as soon as the area was occupied, this process began, which has involved the tribes of the Setif region in the various resistances that it has led to resistance such as Emir Abdelkader, Moulay Mohamed and el-Moukrani, and the tribes of Setif have taken other means to resist the new power. Rejection expressed, as not conceding the land, killing collaborators with the French authority, and here is a confrontational relationship.

And when the French occupation was able to control and eliminate the resistance, it began to implement the second phase of dismantling, represented by the acquisition of land and the establishment of settlement centres in the heart of the tribes in order to prevent them from being taken over forever. By establishing centres as the last step in disintegrating the tribe, by the turn of the 20th century most of the tribes had disappeared.

Key Words: tribe, Ottoman power, French power, 19th century, Setif.